

المركز القومي للترجمة

توكوتومي كينجيرو (لوقا)

الجزء الثاني

# الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (1919م)

ترجمة وتقديم

سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشي

1896

هذه ترجمة الجزء الثاني من "الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر 1919م" التى صدرت ضمن الأعمال الكاملة للكاتب اليابانى توكوتومى كينجيرو، وقد اشتملت الرحلة على ذكريات سفره هو وزوجته عام 1919م، ومن الملاحظ أن المؤلف لا ينفك يشير إلى ذكريات رحلته الأولى عام 1906م، وبخاصة الصفحات المتعلقة بفلسطين، فهو يكرر فى مواضع كثيرة عبارة " قبل ثلاث عشرة سنة".. و"لم يكن الوضع هكذا قبل ثلاث عشرة سنة" وغيرها، ذلك لأن الوضع فى فلسطين كان قد تغير كثيراً.

لقد أشرك توكوتومى كينجيرو معه زوجته فى كتابة هذا المجلد مؤكداً على دور المرأة؛ فهى أساس النهضة وأساس التقدم، ولا يجب أن يغفل دورها، وقد تكررت المناسبات التى أوضح فيها عن مشاعره تلك، فعلى سبيل المثال حين ذكر ثورة 1919م ودور المرأة المصرية وموقفها من الاحتلال مؤكداً على أن الإنجليز لا يمكنهم أن ينتصروا ما دامت المرأة المصرية قد نهضت وشاركت فى المظاهرات.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

# الرحلة اليابانية إلى مصر وفلسطين

## الجزء الثانى (١٩١٩)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 1896
- الرحلة اليابانية إلى ومصر فلسطين: الجزء الثانى (١٩١٩)
- توكوتومى كينجيرو(لوقا)
- سمير عبد الحميد إبراهيم، وسارة تاكاهاشى
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

日本から日本へ
東の巻
徳富健次郎
愛

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

# الرحلة اليابانية إلى مصر وفلسطين

## الجزء الثانى (١٩١٩)

تأليف: توكوتومى كينجيرو (لوقا)

ترجمة وتقديم: سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشى



2014

لوقا، توكوتومى كنيجيرو.
الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر (١٩٠٦م)/
تأليف: توكوتومى كينجيرو لوقا؛ ترجمة وتقديم:
سمير عبد الحميد إبراهيم، سارة تاكاهاش. ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
مج ٢: ٢٤ سم. ـ (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٨ ٥٦٠ ٧١٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ فلسطين ـ وصف ورحلات.
٢ ـ مصر ـ وصف ورحلات.
أ ـ إبراهيم، سمير عبد الحميد (مترجم ومقدم)
ب ـ تاكاهاش، سارة (مترجم، مقدم مشارك)
ج ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٧٤١/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 718 - 560 - 8

ديوى ٩١٥,٦٩

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

# المحتويات

# تقديم الترجمة

هذه ترجمة الجزء الثانى من "الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر ١٩١٩م" التى صدرت ضمن الأعمال الكاملة للكاتب اليابانى توكوتومى كينجيرو، وقد صدر هذا المجلد فى الأصل بعنوان " من اليابان إلى اليابان". وإذا كان الجزء الأول قد تضمن ذكريات سفره عام ١٩٠٦م فإن الجزء الثانى قد اشتمل على ذكريات سفره هو وزوجته التى شاركته أحيانا كتابة خواطرها أثناء الرحلة، فضلا عما جادت به قريحتها من أشعار، وقد حرص المؤلف على أن يضع اسمها جنبا إلى جنب اسمه على صدر هذا المجلد وفى المقدمة أيضا، وفى الصفحات الداخلية التى تضمنت إسهاماتها النثرية والشعرية.

ومن الملاحظ أن المؤلف كان لا ينفك يشير إلى ذكريات رحلته الأولى عام ١٩٠٦م وبخاصة الصفحات المتعلقة بفلسطين، فهو يكرر فى مواضع كثيرة عبارة "قبل ثلاث عشرة سنة"، و "حين جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة"، و "شاهدت هذا قبل ثلاث عشرة سنة"، و "لم يكن الوضع هكذا قبل ثلاث عشرة سنة"، وغيرها، ذلك لأن الوضع فى فلسطين كان قد تغير كثيرا، والظروف كانت قد تغيرت؛ ففلسطين تحت سيطرة البريطانيين الذين كانوا يعملون فى الخفاء على دعم الحركة الصهيونية والتخلص من يهود أوروبا بترحيلهم إلى فلسطين، وهذا ما لوحظ بعد وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطانى وإقطاع جزء كبير من صحراء النقب نحو مائتى ميل لليهود فى حين لم يقطن يهودى واحد هذا المكان عبر التاريخ، فضلا عن إعطاء شركة يهودية امتياز استغلال فوسفات البحر الميت

وغيرها من شواهد لم تعد خافية على أحد، هذا كما أن تغيرا طرأ على طريقة تفكير المؤلف، فضلا عن سفره برفقة زوجته.

* * *

هناك بالطبع فرق بين الرحلة الأولى والرحلة الثانية؛ فالأولى كانت تهدف إلى لقاء الأديب الروسى تولستوى بعد زيارة القدس، أما الرحلة الثانية فتهدف إلى زيارة الأماكن التاريخية فى القدس ثم الطواف حول العالم، وكانت مصر فى الحالتين هى باب فلسطين.

بدأ توكوتومى رحلته مع بداية عام ١٩١٩م التى اعتبرها سنة مهمة فى تاريخ البشرية لأنها ـ من وجهة نظره ـ السنة الأولى لحقبة جديدة! ويرى نفسه شخصا مرسلا إلى مكان ما... لكن من أرسله؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ هذا ما لا يعرفه، لكن عليه أن يقدم تقريرا فى النهاية حين يعود فى ربيع العام التالى، وهو مواطن يابانى، وهو محظوظ لأنه ولد فى اليابان وزوجته كذلك محظوظة مثله لأنها ولدت أيضا فى اليابان:

على مدار عام من الآن

نحن الاثنين

رجل يابانى وامرأة يابانية معا

نمضى

نطوف حول العالم المحيط باليابان

لقد أشرك معه زوجته فى كتابة هذا المجلد مؤكدا على دور المرأة، فهى أساس النهضة وأساس التقدم، ولا يجوز أن يغفل دورها، ويجوز أن تعطى الحرية وأن تعطى الفرصة مثلها مثل الرجل، بل لا بد أن تنال الاحترام، وقد تكررت المناسبات التى أوضح فيها عن مشاعره تلك، وعلى سبيل المثال حين ذكر ثورة ١٩١٩م ودور المرأة المصرية وموقفها من الاحتلال مؤكدا على أن الإنجليز لا يمكنهم أن ينتصروا ما دامت المرأة قد نهضت وشاركت فى المظاهرات.

* * *

غلب الطابع الرمزى على كتابات توكوتومى؛ فهو يكتب ومن ورائه خلفية تمثلت فى قصص الكتاب المقدس، العهد القديم والجديد، وهو يكتب مستخدما المصطلحات المسيحية، لكن المعنى الذى يقصده قد يختلف عن فهم القارئ أحيانا، ولنأخذ "الصليب" مثالا، فهو يستخدمه استخداما رمزيا، كما يستخدم الفعل "الصلب" أيضا استخداما رمزيا بمعنى المعاناة والمشقة والمجاهدة، وهو يرفض استخدام الصليب باعتباره رمزًا للمسيحية، وقد أوضح هذا فى مقدمته، وقد صعب هذا الأمر حتى على فهم مواطنيه من اليابانيين، لدرجة أن بعض الباحثين أشار إلى أن "مسيحية توكوتومى تختلف عما عهدنا من مسيحية، فهى أقرب إلى الشنتوية منها إلى المسيحية" وتوكوتومى لا يغضب حين ضاع الصليب، ويقرر أنه لن يشترى صليبا لزوجته كما رغبت هى، بل يرى أن صديقه إيكئيه الذى أضاع الصليب قد حقق بذلك إنجازا عظيما، ويؤكد فى النهاية بعبارة قاطعة "أن عهد الصليب مضى من حياته ومن ذهنه... إلخ مقدمة المؤلف"، ويصل إلى نتيجة مفادها أن المسيحيين يجب ألا يركزوا على الصليب أو المسيح المغطى بالدم، ويتساءل: "لماذا لا يركزون على المسيح بعظمته وجلاله حين يعود؟"

حرص توكوتومى على أن يزور معظم الأماكن التى مشى فيها المسيح والأماكن التاريخية التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس مستخدما أسماء الأعلام والأماكن القديمة التى وردت فى العهد القديم والعهد الجديد، ومستخدما الرمز أحيانا، مشيرا إلى حكايات وردت فى الكتاب المقدس، وكان يكتب الأسماء بحروف الكانجى تارة وبالكتاكانا تارة أخرى، ونادرا ما كان يكتب الأسماء بالحروف الإنجليزية، مما استلزم العودة إلى مواضع كثيرة فى صفحات الكتاب المقدس (الطبعة العربية) أثناء الترجمة، ويبدو من كتاباته أنه كان يشكك كثيرا فيما يقال له من قبل المرشدين السياحيين، وهم فى معظمهم من الصبية أو الفتيان صغار السن.

* * *

تحتاج كتابات توكوتومى عن الإسلام فى رحلته هذه إلى دراسة منفصلة، فقد تكرر ذكره للإسلام وذكره لنبى الإسلام، ويُفهَم من كتاباته أنه لم يقرأ شيئا ذا

قيمة عن الإسلام، وهو نفسه يعترف بأنه لم يقرأ القرآن الكريم، ويود لو فعل ذلك، كما ذكر أنه يرغب فى الذهاب إلى مكة، ورغم درايته باللغة العربية لكنها دراية من يعرف كلمات أو عبارات للمحادثة اليومية، وقد اشترى كتابا إرشاديا توزعه الإرساليات النصرانية فى فلسطين يتضمن معلومات عن الإسلام، مأخوذة من كتابات المستشرقين المغرضة، وهى بعيدة جدا عن الواقع، وبالتالى نقل توكوتومى عنها معلومات مثل "ذهب محمد إلى غار حراء وكتب القرآن". ومثل: "أراد محمد أن يوحد بدو الجزيرة العربية". ومثل: "الإسلام جاء لتلك الفترة البعيدة وهو لا يتناسب مع الوقت الحاضر". وكان يكتب "المحمديون" بدلا من "المسلمون" على طريقة المستشرقين، فى الإشارة منه إلى المسلمين، ومن الجدير بالذكر أن كتابين أو ثلاثة كتب كانت قد ترجمت إلى اليابانية عن الإسلام، وظل اليابانيون ـ ومنهم كثيرون حتى يومنا هذا ـ يستقون معلوماتهم عن الإسلام من هذه الكتب.

وبالتالى اتبع توكوتومى رأى المستشرقين فى زمانه، فذكر أن الإسلام يقف عائقا فى وجه التقدم، وأن التقدم يعنى التخلص من الإسلام الذى جاء من أجل حقبة معينة لتوحيد عرب الجزيرة العربية، وأكثر من هذا ذكر أن ابتعاد العرب عن تركيا ـ وتركيا هنا ترمز إلى الإسلام ـ هو السبيل الوحيد للنهوض، ورمز إلى ذلك بعبارة "اخلع الطربوش الأحمر!"، وهو يرفض حجاب المرأة لأنه يعوق حركتها كما يرى أن صيام رمضان يجب أن يتوقف لأنه يقلل من النشاط أثناء النهار.

ورغم كل هذا فهو يتأثر كثيرا بسماع الأذان "نداء الصلاة"، ويتأثر كثيرا حين يشاهد أحد المصريين يفترش الشارع ويؤدى الصلاة أثناء مظاهرات ثورة ١٩١٩م، مشيرا إلى أنه شعر أن المصريين سوف ينتصرون بالضرورة على الإنجليز حين شاهد مثل هذا الشيخ الهرم يفترش الأرض ويصلى لله!

وعلى هامش الحديث عن آرائه عن الإسلام تتضمن الرحلة فصلا مهما ومعلومات نادرة عن شيخ البهائية عباس أفندى، فقد سمع عنه توكوتومى وهو فى اليابان، كما حدثه عنه تولستوى حين لقيه فى روسيا، وكانت فرصة للقاء شيخ البهائية، فقد كان توكوتومى يسكن فى فندق قريب من قصر شيخ البهائية،

فيزوره ويستمع إليه ثم يخرج بنتيجة، فحواها أن الرجل سرق أفكار غيره وسطا على ما جاء به يسوع المسيح من تعاليم سمحة، وأنه لا يوجد لديه وضوح فى الرؤية، ولم يشر توكوتومى من قريب أو بعيد إلى البهائية على أنها طائفة تمت للإسلام بصلة، فهو يعتبرها حركة جديدة اعتمدت على فكر يراه توكوتومى قائما على تعاليم السيد المسيح.

* * *

كان توكوتومى يحمل بداخله مشاعر متشابكة ومعقدة، وكان الشعور اليابانى يغلب عليه، وبخاصة حين يكتب عن الإنجليز أو يشير إلى الجنس الأبيض ويقصد الأوروبيين، وهو فضلا عن شعوره القومى اليابانى فقد كان يميل إلى بلدان الشرق وبلدان آسيا واصفا أهلها بالجيران، فهو مواطن يابانى ينتمى إلى الشرق، والشرق شرق والغرب غرب، وقد صرح بذلك فى أكثر من موضع، بعد ذلك يذكر بأنه مسيحى، وكان يتعامل بهذه الصفة بوضوح حين يواجه الأوروبيين؛ فيذكر أنه مواطن يابانى الموطن مسيحى العقيدة.

ورغم أنه كان يحمل بداخله مشاعر متشابكة معقدة تجاه نفسه وتجاه أسرته (أخيه الأكبر) فإن مشاعره تجاه الوطن كانت ثابتة وواضحة، فاليابان فوق الجميع، وقد أضاف إلى هذه الفوقية أنه يابانى مسيحى، لكن هذا لا يجعله يميل إلى من يشاركونه العقيدة من الأوروبيين، لأنه يرى أن المسيحية التى يؤمن بها تختلف عن المسيحية الغربية، ولا يرى أن الغربيين مسيحيون بالمعنى الصحيح، مما جعله يتهم آل واجنر حين زارهن بأنهن لسن نساء مسيحيات بل هن مسلمات! ومن هنا ففكرته عن الإسلام تظل ضبابية غير واضحة، وتحتاج إلى البحث فى مؤلفاته الأخرى، أما عن الغرب المسيحى فله رأى أوضحه فى رسالته إلى الجنرال أللنبى مخاطبا إياه بقوله:

"... أعلم أنكم مسيحيون طيبون، نحن أيضا نحب المسيح ونؤمن به إيمانا كاملا... لقد اعترفنا بأننا مسيحيون طوال تسعة عشر قرنا، ومع ذلك لم نفعل شيئا سوى أن نصلب المسيح مرارا وتكرارا، فهل سنصلبه إلى الأبد؟ لا، أيها

الجنرال! إن حكم الصليب يجب أن ينتهى لأنه بالتأكيد يعنى حكم الشر، فى الواقع لقد حكم الشيطان مدة أكثر من اللازم فليذهب الصليب! لا نريد مزيدا من المسيح النازف. علينا ألا نتعلق بعد الآن بالصليب، يجب أن نتطلع إلى المسيح الحى، المسيح الذى رُفع يجب أن نتطلع إليه، حرب دموية لا مثيل لها فى تاريخ البشرية قد انتهت.. يا له من صليب هائل ليسقط الصليب، إن حقبة جديدة يجب أن تبدأ".

* * *

أما عن فلسطين وأهلها فهو أيضا لا يكتب بوضوح عن الفلطسينيين، وهو يذكر بالطبع فلسطين التى يزورها، ويشير إلى أنه ذاهب إلى أرض يسوع، ومتجه إلى وطن المسيح، وعلى أرض فلسطين يتنقل من مكان إلى مكان، يحاول أن يتم حجه وزيارته للأماكن المسيحية المقدسة، وأن يمضى على الخطى التى مضى عليها المسيح، ويشاهد الأماكن التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس، إلا أنه نادرا ما ينسب أهل البلاد المحليين إلى بلدهم فلسطين، فهو يابانى من اليابان، لكن الفلسطينيين من فلسطين يطلق عليهم عبارة "السكان المحليون ويستخدم مصطلحا يابانيا مكروها هو "دوجين" Dojin وهو مصطلح يحمل معنى سلبيا وهو الناس البدائيون، وهذه نقطة تحتاج إلى دراسة مفصلة عن فكر توكوتومى؛ فهو يتحدث عن أهل مصر ويكتب: "المصريون" وعن أهل سوريا ويكتب: "السوريون"، لكنه نادرا ما يذكر أهل فلسطين ويكتب "الفلسطينيون"! وكان أحيانا يكتب: "البدو" مثلما أشار إلى أهل الصحراء فى جزيرة العرب وهو يكتب عن ظهور الإسلام.

وعلى كل حال فرحلته هذه تلقى الضوء على نشأة الاستيطان الألمانى فى فلسطين، وهو الذى بدأ فى حيفا عام ١٨٦٩م وانتشر فى مناطق أخرى مثل مستعمرة كامل هايم فى جبل الكرمل، كما تتضمن الرحلة معلومات ذكرها خلال مناقشته مع الحاكم البريطانى فى القدس مستر ستورس الذى وصف الإسلام بأنه القوة الوحيدة التى تقف فى وجه المشروع الصهيونى، ويعرف توكوتومى من أحد اليهود الذين التقى بهم أن اليابان وافقت على المشروع الصهيونى، وتعجب من ذلك لأنه يعرف هذه المعلومة لأول مرة، كما تنبأ توكوتومى بقضية مدينة

القدس والمشاكل التى ستثار حولها فى المستقبل، مشيرا إلى أن القدس تجلس على فوهة بركان قد ينفجر فى أى وقت.

* * *

تجدر الإشارة هنا إلى وجود صعوبة فى الحكم على آرائه؛ فهو إذا كان يعانى من شىء أو تعكر مزاجه فكل ما حوله كريه وقذر، وهكذا يود لو يحرق القدس بمدفع ألمانى! ثم حين يكون معتدل المزاج هادئ البال يكتب عن جمال مدينة القدس وروعتها وحبه الشديد لها، بل وحزنه على فراقها!

* * *

فى مقدمة الجزء الأول أشرنا إلى صعوبات الترجمة لهذا لا نجد ضرورة لتكرار ما أشير إليه، بالإضافة إلى صعوبة ترجمة قيمة العملة التى كان يستخدمها أو اسمها؛ فمرة يذكر الجنية المصرى ومرة الين اليابانى، وفى معظم الأحيان يشير إلى العملة بحرف p بى، وهذا لا يعنى قرشا، لأن سياق الكلام لا يدل على ذلك، ولهذا أبقيناه كما جاء فى الأصل اليابانى، كما استفدنا أثناء الترجمة من "الكتاب المقدس" النسخة العربية الصادرة عن دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط المطبوعة فى كوريا ط٤، ٢٠٠٩ م، وكذلك كتاب "قراء توضيحية فى الإنجيل" نشر الكنيسة الإنجلية بقصر الدوبارة بالقاهرة ط ٢٠٠٩م، فضلا عن الدراسات التى صدرت عن المؤلف باليابانية والإنجليزية. وقد أضفنا بعض الإشارات التوضيحية فى هوامش للكتاب، ونظرا لأنه لا توجد هوامش للكتاب إلا من ضيع المترجمين فقد اكتفينا بهذه الإشارة هنا عن إعادة ذكر كلمة (المترجم) فى نهاية كل هامش كما هو المتبع فى إصدارات المركز القومى للترجمة.

وقد حرصنا على نقل الصور التى وردت فى الأصل، وهى قليلة وغير واضحة، فقد مضى عليها قرابة مئة عام.

ولا يفوتنا هنا أن نتقدم بجزيل الشكر للمركز القومى للترجمة ممثلا فى مديره وجميع الزملاء العاملين به، لاهتمامهم بنشر هذه الترجمة التى نحسبها مفيدة للقارئين والباحثين المتخصصين على حد سواء.

كيوتو اليابان ٢٣ يوليو ٢٠١٠م — سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشى

# مقدمة

## (١)

فكرت مع زوجتى فى أن نقوم برحلة حول العالم بعد الحرب، على أن نتدبر نفقات السفر، وقد واتتنى هذه الفكرة حين قاربت على الانتهاء من تأليف كتابى "الربيع الجديد" Shinshun وكان ذلك بالتحديد فى الحادى عشر من فبراير العام السابع من عهد تايشو (١٩١٨م)، وهو يوم عطلة رسمية احتفالا بيوم الدستور.

هذا اليوم وهذا العام بالنسبة لنا كانا يحملان الكثير من المعانى، فأنا "كينجيرو توكوتومى" أبلغ من العمر الحادية والخمسين، وزوجتى "آى توكوتومى" تبلغ من العمر الخامسة والأربعين، تزوجنا قبل خمسة وعشرين عاما، لسنا زوجين جديدين، لكننا فجأة وفى هذا اليوم - يوم الاحتفال بذكرى الدستور اليابانى - أصبحنا مثل آدم وحواء، وفى مثل هذا اليوم بعد شهرين، أى فى الحادى عشر من أبريل، يوم عيد ميلاد أمى صدر كتابى "الربيع الجديد"، وفى الخامس والعشرين من مايو احتفلنا بمرور خمسة وعشرين عاما على زواجنا، وفى الحادى عشر من نوفمبر انتهت الحرب العالمية بعد معارك استمرت أربع سنوات وأربعة أشهر... ومنذ الصيف بدأنا نعد لرحلتنا هذه، فقد غطى كتابى "الربيع الجديد" معظم تكاليف السفر.

عام ١٩١٩م عام مهم فى تاريخ البشرية، فهذا هو العام الأول فى حقبة جديدة لعالمنا هذا، مر عام منذ بدأنا نفكر فى السفر حول العالم، وأخيرا جاء اليوم الذى سنسافر فيه، يوم ٢٥ يناير = ٨ شوا (١٩١٩م).

***

بينما كنا نعد العدة للرحيل ومغادرة اليابان كنا نشعر بالقلق إلى حد ما، وكنت أتساءل: هل سنعود هنا مرة أخرى فى أمان؟! لذا أخذنا ندعو الله من أجل عودتنا سالمين.

حين دقت الساعة الموضوعة على الطاولة ثمانى دقات معلنة عن الساعة الثامنة صباحا، نهضنا من على الكراسى، وأغلقنا جميع الغرف، ثم أوصدنا باب البيت. لا يوجد معنا أى شخص، ولا يوجد لدينا أطفال، سوف تقوم امرأة مسيحية برعاية بيتنا أثناء غيابنا، وبأقرب مخلوق لنا، قطة سوداء اسمها " بى " ، طبطبت زوجتى على رأسها وقالت لها:

أمسكى بالفئران! وأنجبى الأطفال! وانتظرى عودتنا!

كانت أمتعتنا بما فى ذلك "الترنك" متوسط الحجم تبلغ ٢٥ قطعة، من بينها حقائب متوسطة الحجم وسلال صغيرة، وحين كنا نغادر البيت بدأت الأمطار تسقط بغزارة، ثم هطل المطر بعد ذلك بشدة، وقد ودعنا بعض أهل القرية بينما كنا نغادر البيت.

تحركنا من "كامى تاكايدو" إلى "شينجيكو" ومنها إلى "محطة طوكيو" ثم "ساكورا غيشو" ومنها إلى "يوكوهاما" التى وصلناها بعد الظهر، وفى يوكوهاما نزلنا فى "ريوكان تاكانويا"، فندق على الطراز اليابانى.

(٢)

## الحلم الأول

كنت أحلم حلما عجيبا، كأننى فى رأس السنة، بداية عام جديد، وبينما كنت أحاول أن أرتدى "الجاكيت" اليابانى الجديد، وجدت إبرة فى أحد أكمام الجاكيت، ثم تحسست فوجدت إبرة أيضا فى الكم الآخر، ثم تحسست فوجدت إبرًا كثيرة لا حصر لها فى أطراف الجاكيت، إلا أن هذه الإبر لا تخزنى ولا أشعر بألم على الإطلاق لكن العجيب كان عددها الذى لا يمكن أن يحصى.

حين استيقظت من نومى لم أكن أشعر بالسرور، بل كنت أشعر بالكآبة!

بعد مرور عدة أيام قدمت توشيكو من طوكيو لمساعدتنا، وهى تقرأ الحظ وتفسر الأحلام، أخبرتها بحلمى، وسألتها هل يعنى هذا الحلم شيئا سعيدا، وهل يدل على أن الحظ سيواتينى؟ فقالت: إن هذه الحلم يعنى أن الحظ سيواتيك، فمثل هذا الحلم يعنى الاحتفال بشىء طيب تناله. قالت هذه العبارة بفرح ومرح، كأنها تزف إلىَّ بشرى.

وتذكرت ما كان يتردد أيام الحرب بين اليابان وروسيا؛ فالضابط الذى يرتدى نوعا من الملابس يقوم بحياكتها ألف رجل، يقوم كل منهم بإضافة غرزة واحدة، فهذا يعنى أنه سينجو من الرصاص فى المعارك، لذا أعتقد أن هذا الحلم دليل خير ودليل حظ.

توشيكو خبيرة فى حياكة الملابس، كانت تحيك الكيمونو من أجلنا، وهى مسيحية وعائلتها أيضا مسيحية وكذا جميع أقاربها وأصدقائها، وقد ساعدونا جميعا فى حياكة الملابس وبخاصة الكيمونو، وقد ساعدنا قراء "الربيع الجديد" أيضا فى سفرنا هذا ، فقد صدرت أول طبعة فى أبريل السنة السابعة من تايشو (١٩١٨م) ومن أبريل حتى ديسمبر بيع نحو ٤٦ ألف نسخة، وهذا يعنى أن ٤٦ ألف قارئ قد ساعدونا فى سفرنا هنا.

***

أنا لست بشخص مميز، لكنى إنسان مُرسل إلى مكان ما، ومثل هذا الشخص لا بد أن يقدم تقريرا بعد ذلك حين يعود فى الربيع القادم، لا بد أن أكتب شيئا. وجاءتنى فكرة، سوف أحجز مساحة فى صحيفة وأرسل بطاقة إليها تحمل ما سأكتب، أنا لست صحفيا أعمل فى صحيفة ما، فأنا أديب أكتب حين أرغب فى الكتابة، وأكتب حين أكون فى أى مكان، وأرسل ما أكتب. نحن شاكرون لله لأننا ولدنا فى اليابان، نحن، رجل يابانى وامرأة يابانية، مسافران لمدة عام حول العالم، نحن الاثنين معا.

"على مدار عام من الآن

نحن الاثنين

رجل يابانى وامرأة يابانية معا

نمضى نطوف حول العالم المحيط باليابان"

سننطلق!

٢٦ يناير (١٩١٩م)

كينجيرو توكوتومى

أى توكوتومى

(٣)

## الصليب

فى مساء يوم السادس والعشرين من يناير وبينما كنا نرقد فى الطابق الثانى من "ريوكان تاكانويا"، أحضر لى أحد العاملين فى الفندق بطاقة زائر، فرحت وصحت: أوه! لقد وصل... اسمه إئيكيه، عضو فى جمعية الشبان المسيحيين، وهو مستشار فى جمعية المسيحيين المتحدين، كنت أفكر فى أنه لا بد سيقرأ كتابى "الربيع الجديد"، وكنت أتطلع شوقا لما قد يظنه بى وما سيقوله لى.

* * *

كنت قد افتقدت الصليب حتى يوم كتابتى لكتاب الربيع الجديد، وفكرت أنه إذا لم يعطنى إئيكيه الصليب فسوف أشترى صليبا آخر، وكانت زوجتى قد شاهدت فى سفرنا فى الصيف الماضى أسرة أوروبية من بينها بنت فى الثامنة من عمرها كانت تعلق صليبا ذهبيا، وطلبت منى زوجتى أن أشترى لها صليبا مثله فيما بعد.

لكن الآن ونحن فى مقتبل حقبة جديدة وعصر جديد أشعر بأننى لا أريد الصليب الذى عانى منه المسيح قبل ألفى عام، انتهى عهد الصليب، الصليب ليس بالشىء السعيد أو المفرح بالنسبة للمسيح، لقد مللت الصليب التعس، لماذا يركز المسيحيون على الصليب؟ لماذا يذكرون المسيح المغطى بالدم؟ لماذا لا يريدون

المسيح فى قيامته بعظمته وجلاله... العصر الجديد للبشرية لا يجوز أن يبدأ بالصليب، أنا لا أفتقد الصليب، ولا أهتم إذا أعاده لى إيئكيه أم لا، وحتى إذا أعاده لى فلن آخذه منه ، سوف أقذف به فى البحر، ولن أشترى صليبا لزوجتى أبدا، وسوف أسافر حول العالم دون صليب!

* * *

جاءنى إيكئيه فى الغرفة، لم أقابله منذ اثنتى عشرة سنة، ظهر الشيب على رأسه بشكل ملحوظ، بدأ يعتذر لى قائلا: جئت اليوم بسبب الصليب. وبينما كنت أحملق فى وجهه أطالع علامات السنين التى مضت دون أن أراه استمر هو فى الحديث قائلا: فى الحقيقة، لقد فقدت الصليب!

كان يتوقع أن أصرخ فيه: ماذا؟! متى؟! هذا شىء عجيب كيف...؟! لكن لم تصدر عنى مثل هذه الكلمات، بل قلت له بهدوء:

حسنا! حسنا! هذا شىء طيب! نعم أمر طيب أن تكون قد فقدت الصليب.

تعجب إيكئيه كثيرا وحملق فى وجهى مرة أخرى فقلت له:

اسمع! إنك فقدت الصليب وهذا يعنى أنك حققت إنجازا! أنا ممنون لك لأنك فقدت الصليب.

فكر إيكئيه واستنتج أن كلماتى هذه تعبر عن مشاعرى الحقيقية، وشعر بالراحة، ومن ثم تحدثنا عن أشياء مختلفة، وقصصت عليه حلمى الأول، وتصافحنا وافترقنا.

* * *

نعم! حقا! عهد الصليب مضى وولى من حياتى، انتهى وتلاشى من ذهنى، فرمز البشرية فى الحقبة الجديدة يجب ألا يكون الصليب، بل يجب أن يكون الرمزهو الشىء الذى يهب الضوء وينير بل يذيب الجليد، ويوقظ الناس من سباتهم وغفوتهم، ويجعلهم أحياء، ويجعلهم نشطاء، ويثير فيهم الحمية والإشراق، بل يحرك فيهم مشاعر الغضب والسعادة، ويهزهم من الداخل، ويرقق مشاعرهم

لدرجة البكاء والنحيب، مثل هذا الشىء هو الذى يجب أن يكون رمز الحقبة الجديدة!

(٤)

## شعاعان معا

فى مطعم السفينة "بورنيو مارو" الصغير التى كانت تستعد للإقلاع من خليج يوكوهاما تجمع كثير من الناس، ربما فاق عددهم الثلاثين، رجالا ونساء وصحافيين ورجال أعمال يابانيين وأجانب ، ازدحم المطعم بشكل ملحوظ، جاء لوداعى شخص واحد من أسرتى، أختى الكبرى، حين غادرنا بيتنا لم يأت لوداعنا أحد تربطنى به رابطة الدم، والآن قاربت الساعة الحادية عشرة صباحا، كنت أرتدى معطفا جديدا وقبعة سوداء، كنت أستخدم هذه القبعة قبل ثلاث عشرة سنة حين سافرت إلى فلسطين، أردت أن أشترى قبعة جديدة لكنى لم أجد قبعة مثلها، لذا قررت أن أستخدم هذه القبعة القديمة، عقلى صار عمره خمسين سنة وأربعة أشهر، فلا مشكلة إذا كان عمر القبعة ثلاث عشرة سنة.

أما عن الحذاء فسوف آخذ أيضا الحذاء الذى تعودت عليه، وحقيقة لا يوجد أفضل من الزوجة القديمة والحذاء القديم! لقد تزوجت "أى" منذ ست وعشرين سنة، هذه أول مرة تصنع فيها مثل هذا العدد من الكيمونو والهاكاما (مثل الروب وعليه حزام) وكذلك الحذاء الطويل "البوت القصير" المصنوع من جلد الكنغارو، أصيبت زوجتى بالبرد فى رأس السنة لذا جرح أنفها قليلا من جراء الزكام، وهى الآن تداوم على الاهتمام بأنفها وتضع عليه الكريمات، لكنى أعتقد أنها لا يجوز أن تفكر كثيرا فى أنفها، فالأنف هو الأنف على كل حال، وأنا لا أهتم كثيرا بكيف يكون الأنف، فهى ككل بالنسبة لى "حواء".

كانت ملابسى سوداء اللون بينما ارتدت زوجتى كيمونو بلون بنفسجى.

قبل ثلاث عشرة سنة حين غادرت هذا الميناء لم يأت أحد لوداعى، هذه المرة معى زوجتى، كما جاء عدد كبير من معارفى لوداعى. نحن نشعر بالسعادة

الغامرة، وقد نشر خبر سفرنا فى الصحف، ومن الآن فصاعداً سوف أحاول استخدام عبارات السيد المسيح لأن كلماته وعبارته هى الأقرب إلى قلبى والأقرب إلى مشاعرى. بالطبع صرحت لكل إنسان بأننى قلق إلى حد ما حين أكون خارج اليابان، لأننى أواجه مشاكل كثيرة مثل اللغة والحصول على تأشيرات الدخول للبلاد التى أزورها وتغيير العملة، إلا أن هذه كلها من ضروريات السفر، لكن بعد الحرب تكون عقول الناس خشنة وكذلك يكون سلوكهم أيضا، لذلك لا أظن أننا سنتمتع كثيرا أثناء سفرنا .

على كل حال نحن متجهون إلى موطن أبينا يسوع ، أخيرا نحن متجهون إلى وطن المسيح، نحن رسل من نوع ما من اليابان، سوف نكون شعاعين ونأمل أن نؤدى واجبنا ونقوم بمسئوليتنا لنجعل قلوب الناس كلها حرارة، ونعيد الثقة للناس، قلنا وداعا لكل شخص جاء لوداعنا ولكل من لم يأت لوداعنا، وعند الساعة الثانية عشرة ظهرا أقلعت السفينة "بورنيومارو" من ميناء يوكوهاما.

(٥)

## لماذ نسافر الآن حول العالم؟

لماذا نحن مسافرون الآن حول العالم؟ فى طلب الفيزا كتبت الهدف من السفر هكذا:

"تعزية الناس بعد مصائب الحرب، ومواساتهم فى مصابهم"، وهو نفس الشىء حين نذهب لمواساة أناس تعرضوا لحريق، حين أردت الحصول على الفيزا ذهبت إلى يوكوهاما، وهناك ذهبت إلى مكتبة تبيع كتبى، أردت مقابلة صاحب المكتبة، ومن ثم ذهبت إلى القنصلية البريطانية فى يوكوهاما، وهنا كان علىَّ أن أقدم طلبا أوضح فيه الهدف من السفر فكتبت ما يلى:

"رسول السلام لنشر النوايا الحسنة بين الأمم"

As a Messenger of Peace to cultivate good will among nations"

وفى الخانة الخاصة بالضامن داخل اليابان كتبت: الحكومة اليابانية

Guarantee person in Japan: Japanese Government

وهناك خانة خاصة بالوظيفة تعنى لدى من تعمل، فكتبت: لديه

Employed by ... "him"

ثم ذهبت إلى القنصلية الفرنسية، كان موظفوها يتكلمون اللغة اليابانية بشكل جيد، وقلت لهم ما قلته فى السفارة البريطانية لكنهم قالوا لى:

لا، هذا ليس جيدا ، من فضلك أوضح هدف رحلته واكتب فقط: "متعة السفر".

شعرت بأن هذا أسهل، إنهم فرنسيون، لقد جلب الفرنسيون الراحة إلى ذهنى، لقد شعرت حقا بالراحة؛ فكم فكرت كثيرا ماذا أكتب عن هدف رحلتى، لكنهم وجدوا لى الحل فى عبارة: Trip for pleasure لكنى تأسفت بعد ذلك لأننى لم أكتب: شهر العسل Honey Moon، ففى العام الماضى حين طُبع كتابى "الربيع الجديد" احتفلت بعيد زواجنا، ومنحنى ٤٦ ألف قارئ اشتروا الكتاب هدية مكنتنى من تغطية تكاليف رحلة السفر حول العالم. نحن سنسافر حول العالم... هذا كثير جدا، دعاية ما بعدها دعاية! سوف نعيش حياتنا على الطريقة اليابانية، "عروسة وعريس" بشعرهما الذى غطاه الشيب مثل آدم وحواء، نمضى فى رحلة حول العالم لنشعر بالراحة والمتعة!

الآن أتكلم اللغة الإنجليزية الركيكة، وليس لدىَّ أى تخصص معرفى، وليس لدىَّ شهادة علمية، وليس لدىَّ هدف خاص معين، فلماذا إذن ننفق النقود ونضيع الوقت؟! لا أدرى. لكن من هيَّأ لنا فرصة السفر هو وحده الذى يعرف، ونحن لا ندرى اسم من جعلنا نسافر، لا نعرف بشكل واضح لكن يمكن أن نسميه "الأب".

نحن مسافران لمدة عام، ندور حول الكرة الأرضية، ننطلق من اليابان، ونعود إلى اليابان. كيف سيكون هذا السفر؟! لا أدرى، سوف نكون مثل طائر السنونو، لا ندرى ماذا سيجرى لنا، فقط هناك من أمرنا بالسفر، فلبينا نداءه وقررنا السفر!

السفينة بورنيومارو

# مصر

## إلى القاهرة

(١)

فى صباح يوم الثالث عشر من مارس سنة ١٩١٩م ( تايشو٨)[1] بعد الساعة العاشرة صباحا وصلت مدينة بورسعيد للمرة الثانية، بينما تعد هذه أول مرة بالنسبة لزوجتى، ذهبنا إلى مكتب الحجر الصحى، ومكتب الجوازات، اصطحبنا جندى بريطانى فى مقتبل العمر بقارب يعمل بالموتور، بعد الانتهاء من الإجراءات المطلوبة قررنا السفر للقاهرة بالقطار الذى يغادر بورسعيد بعد الظهر.

يتولى رعايتنا هنا السيد نان، وهو الذى نصحنا بذلك، فهو مرشدنا ويتولى كل أمورنا، يبلغ من العمر ثلاثين عاما، ولد فى هوكايدو، وقدم إلى مصر منذ نحو ثمان سنوات، حيث عمل مع إيطالى يمتلك محلا باسم "فيورافانتى" لبيع الهدايا، وكان نجل صاحب المحل قد عاش فى يوكوهاما مدة طويلة، بينما كان السيد نان يعمل نائبا للقنصل الأرجنتينى، وحين قدم إلى بورسعيد بدأ يعمل فى هذا المحل، فأعجب به صاحب المحل وزوجه حفيدته.

وبجانب محل بيع الهدايا يدير صاحب المحل الإيطالى شركة أطلق عليها اسم شركة فوجى المحدودة (فوجى كيوداى شوكاى) ويتعامل السيد نان مع شركات

---

(١) فى التقويم اليابانى، أى السنة الثامنة عشرة تايشو تينو، أى الإمبراطور تايشو، وعصر تايشو هو العصر الذي تلا عصر ميجي، وقد تلاه عصر شوا، ثم عصر هيسيه الحالى، وعام ٢٠١٠ يطابق هيسيه ٢٢.

الملاحة اليابانية، وبحسب قوله فإن عدد السفن اليابانية التى تصل إلى بورسعيد شهريا يصل إلى نحو ستين سفينة، ويعمل السيد نان مع أخيه كئيه وعدد من العمال الإيطاليين والعمال المحليين. وإلى وقتنا هذا لا يوجد قنصل يابانى فى بورسعيد، ويتولى السيد نان المساعدة فى إنهاء جميع الإجراءات المتعلقة بالهجرة والجوازات وكل ما يتعلق باليابان واليابانيين كما لو كان يتولى أعمال القنصل، وهكذا تركنا أمر أمتعتنا وجلبها من السفينة "بورنيو مارو" للسيد نان، فهو رجل يُعتمد عليه تماما، وهكذا لم يفتش رجال الجمارك والجوازات أمتعتنا.

ذهب معنا إلى مكتب التصاريح، والذى، وهو قسم جديد تابع لمكتب الهجرة الخاص بالأجانب، وأنهى بنفسه كل شىء، واستخرج لنا تصريحين للسفر إلى القاهرة، كما قام بتوصيلنا إلى محطة السكة الحديد، وقام بشراء التذاكر واهتم بجلب الأمتعة واشترى تذكرة الطعام داخل القطار، إنه بحق يهتم بنا تماما، فلم نشعر قط بأى متاعب أو قلق.

(٢)

فى الساعة الواحدة بعد الظهر، ذهبنا إلى غرفة الطعام فى القطار، وجدنا معظم الطاولات مشغولة بالعساكر البريطانيين الذين علقوا "بادجات" على صدورهم و"علامات رتبهم" على أكتافهم، أشرطة ونجوم من أنواع مختلفة، وعساكر وضباط من أعمار متفاوتة، ولاحظت أن دورة المياه كانت نظيفة جدا، ولفت هذا نظرى من أول وهلة، فكان الأمر بالنسبة لنا رائعا ومريحا جدا.

انطلق بنا القطار من بورسعيد ناحية الجنوب على طول قناة السويس، وبعد نحو ساعة وصلنا إلى محطة "القنطرة"، كنت قد التقيت قبلا فى مكتب السيد نان بضابط بحرى يابانى يدعى "كوما"، فى ذلك الوقت كانت فرقاطته الحربية "أوميه مارو" راسية فى ميناء الإسكندرية، والسيد كوما يتعامل مع معدات البحرية الحربية اليابانية، وهو مقيم فى بورسعيد منذ ثلاث سنوات، والآن غادرت الفرقاطة الحربية اليابانية الإسكندرية متجهة إلى بريطانيا، ولا توجد سفن يابانية فى بورسعيد الآن، وقد عرفت أن السيد كوما قد سافر من قبل إلى

القدس، وكنت أنا قد سافرت إلى يافا فى فلسطين انطلاقا من بورسعيد وذلك قبل ثلاث عشرة سنة، أما السيد كوما فقد أخذ القطار الحربى من القنطرة.

إذا تمكنت بعد وصولى إلى القاهرة من الحصول على تصريح السفر لفلسطين دون مشاكل فسوف نأتى إلى القنطرة، حيث يمكننا أن نأخذ القطار إلى فلسطين. كان القطار يطوى الطريق متجها ناحية الجنوب بمحاذاة القناة، حيث يوجد طريق حربى تسير عليه المركبات العسكرية، كنت أشاهد بين الحين والآخر جنودا مصريين وهنوداً وبريطانيين، ألمحهم من بعيد فى خيام متفرقة وسط الصحراء، أخبرنى السيد كوما أن هؤلاء الجنود يعسكرون فى هذه الصحراء منذ ثلاث سنوات أو أربع، ربما يكون مثل هذا الأمر صعبا جدا على اليابانيين.

ابتداء من مدينة الإسماعيلية بدأت الرقعة الخضراء تتسع، وظهرت نباتات وأشجار مختلفة، شاهدنا حقول القمح وقصب السكر كما شاهدنا قطعان الماشية: الخراف والماعز وغيرها، ولمحت أنواعا متنوعة من الأزهار المنتشرة على جنبات الطريق وفى الحقول التى كنا نمر بها، وعلى شاطئ الترعة، بينما كانت المراكب الشراعية تتهادى على وجه الماء أو تمضى فى حركة انسيابية سريعة. أعتقد أن حياة الزراعة أفضل كثيرا بالنسبة للبشر، شاهدت الفلاحين بثيابهم البيضاء الطويلة، فشعرت أنهم يشبهون الكوريين، لا أدرى لماذا خامرنى مثل هذا الشعور؟! وبينما أنا أفكر فى الأمر لم أنتبه لتلك القوارب التى مضت ناحية الجنوب. الرجل والمرأة[٢] اللذان قدما من بلد الشمس المشرقة يصلان الآن إلى بلد الفراعنة القدماء، البلد الذى هو هبة النيل، فقد منح النيل الحياة لهذه الصحراء، وجعلها تنبت بالخضرة والحركة والنماء. شاهدت صفا من الإبل بدلا من الجياد، تحث خطاها على الرمال، هذه هى صورة مصر.

شاهدت بيوتا من طين بنيت على شكل مربع تحيطه أشجار النخيل، هذه هى قرى مصر، كما شاهت المراكب بأشرعتها المثلثة الشكل، ومن خلفها منظرالخضرة مع الماء القادم من نهر النيل. آه يا مصر! الشمس فى وسط السماء تسطع فتزيد

(٢) يشير إلى نفسه وإلى زوجته.

من حرارة وسط النهار فى وسط شهر مارس، وأسمع صوت أبى قردان! بينما كانت هناك طيور تحلق فى سماء حقول مصر ساعة المغيب.

الزقازيق محطة كبيرة فى طريقنا للقاهرة، هنا نزل كثير من الجنود كما ركب أيضا كثيرون، كان العساكر والضباط من الشباب يحملون بنادقهم بيد بينما اليد الأخرى تقبض على "مخلاة"، وقد صارت بشرتهم سمراء وبدا عليهم التعب والإرهاق. لاحظت وجود جنود تقدم بهم العمر كثيرا وآخرين فى مقتبل العمر، بدوا بالنسبة لى مثل الفتيان الصغار، وشاهدت امرأة بريطانية معها ثلاثة أطفال، يبدو أنها أرملة فقدت زوجها حديثا؛ فقد كانت ترتدى ملابس الحداد، منظر بعث الحزن فى قلبى.

فى الساعة السادسة مساء وصلنا القاهرة، كان السيد نان قد أرسل برقية إلى أحد المرشدين البريطانيين ليستقبلنى، فجاء بالفعل من فندق شبرد واستقبلنا ووضع أمتعتنا على عربة يجرها حمار، وأحضر لنا عربة حنطور فركبناها، ووصلنا إلى الفندق حيث نزلنا فى غرفة رقم ١٠٥ بالطابق الثانى.

# فندق شبرد

## (١)

حين كنا فى بورسعيد فى مكتب الهجرة والجوازات، وحين سألنا الضباط فى أى فندق سنقيم بالقاهرة، كنت أود أن أقول فندق "سبواى هوتل Subway Hotel" إلا أن الضابط الشاب الذى رافقنا همس فى إذنى وطلب منى ألا أقول ذلك، وقال لى: قل شبرد، وهكذا ننزل الآن فى فندق شبرد.

منذ ثلاث عشرة سنة حين جئت هنا نزلت فى فندق "لوكاندة المسافرين" Hotel de Voyageurs، كان فندقا هادئا جدا لدرجة تجلب الكآبة والحزن.

بعد مدة أوقف "السايس" الحنطور فعرفت أننا وصلنا إلى الفندق، والآن أنا فى فندق شبرد. أثار هذا الفندق إعجابى؛ فهو يقع فى وسط القاهرة، وبالقرب من حديقة الأزبكية، وسعته خمسمائة سرير، وبه ١٨٠دورة مياه، وفى كل مساء تأتى فرقة موسيقية فتعزف مقطوعات موسيقية جميلة، وفى كل أسبوع يقام حفل راقص، وفى المطعم توجد أنواع كثيرة جدا من المشروبات الكحولية، كما أن بالفندق مكتب بريد، وفى الجملة هو فندق على أحدث طراز، ومعظم نزلائه من الجنود البريطانيين وأسرهم.

فى الليلة الأولى كنا مرهقين جدا فتناولنا طعامنا فى الغرفة، وفى الصباح ذهبنا إلى المطعم لتناول طعام الإفطار. قاعة فسيحة جدا، كان الخدم يضعون الطرابيش الحمراء على رءوسهم ويرتدون ثيابا طويلة، ويلف كل منهم خصره بحزام أحمر عريض، كانوا فى معظمهم أصحاب بشرة سوداء، فقد جاء معظمهم من جنوب السودان، فالمصريون فى الغالب ليسوا أصحاب بشرة سوداء.

بعد الانتهاء من الطعام رجعنا إلى غرفتنا، لم أجد الحقيبة المهمة التى تحتوى على جوازات سفرنا والنقود، ظننت أننى تركتها فى المطعم، فرجعت للسؤال عنها، فقال الخادم إنه لا يدرى شيئا عنها، لكن بريطانيا من موظفى المطعم قدم ناحيتى مسرعا وقال: لا تقلق لقد سلمتها إلى موظف الاستقبال حتى يسلمها لك.

(٢)

اتصلت هاتفيا بالملازم "رودكليف" Radcliff ليلة البارحة بعد وصولى إلى الفندق، فطلب منى أن أزوره فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى. ومن هنا غادرت الفندق فى الساعة العاشرة، وركبت الحنطور لعشرين دقيقة تقريبا، فالمكان قريب، شاهدت فى مكان عال العلم البريطانى يرفرف وأمام المدخل وقف جنديان بريطانيان. أوه! هذا ليس بفندق عادى، ربما إدارة الجيش تقيم هنا، صعدت إلى غرفة رقم ٥٩٠. كان الملازم رودكليف Radcliff يبدو فى الأربعين من عمره، له شارب رفيع، كان قد عاش فى طوكيو قبل الحرب حين كان يعمل ملحقا عسكريا فى السفارة البريطانية، يتكلم اليابانية "المكسرة"، أخبرته بأننى لست صحفيا، وبأننى أديب، وأعطيته روايتى طائر الوقواق المترجمة إلى الإنجليزية Hototogis وأخبرته أن يومياتى التى أكتبها خلال هذه الرحلة لن ترسل إلى المجلات، إلا أننى قد أنشرها بعد سنة لتمثل مجلدا ضمن مجلدات مؤلفاتى الكاملة، وستنشر باللغة اليابانية، وقلت له:

أنا وزوجتى نعتنق المسيحية، وهذه هى المرة الثانية التى أزور فيها فلسطين...

كلامى هذا جعل هذا الملازم البريطانى يشعر بالاطمئنان والأمان فى الوقت نفسه، فقال لى:

فى الحقيقة رئيسى فى حيفا يريدك أن تزور حيفا إلا أن وجود زوجتك معك سيتعبك كثيرا.

فقلت له:

ربما تبدو زوجتى من شكلها ضعيفة ، لكن إذا كان علينا أن نذهب فيجب أن نذهب.

قال الملازم:

ـ إذا حصلت على تصريح زيارة القدس فسوف نساعدكم بقدر ما نستطيع، من فضلك انتظر فى الفندق حتى ذلك الوقت.

ذكر أن الروس يمكنهم السفر إلى مناطق محددة وكذلك الألمان ، كما أن هناك صحافيا أمريكيا، وتكلمنا عن ثورة المصريين، فقال:

ـ لا شىء يدعو للقلق...

لكنى قلت له:

ـ لكن من الآن فصاعدا ستبدأ المشاكل، كما أن لديكم مشاكل فى الهند أيضا...

عندها تغيرت ملامح وجه الملازم، وفجأة بدا يتظاهر بأنه مشغول ثم سلّم علىّ بسرعة، وغادرنا فندق "سبواى"، على كل حال نحن سعداء لأننا سنزور فلسطين.

بالقرب من فندق "سبواى"، دخلت إلى مكتبة اشتريت خريطة و"كتابا إرشاديا" و"أوتوغراف" أردت أن أشترى كتاب "باديكر" Baedeker إلا أن صاحب المكتبة الإنجليزى قال لى:

لا يوجد هنا كتب الأعداء لأن "باديكر" Baedeker ألمانى، والألمان أعداء الإنجليز.

آه، لقد نسيت هذا الأمر كلية! بعد ذلك ذهبنا إلى دكان ترزى حيث وجدت "فستانا" جاهزا على مقاس زوجتى فاشتريته لها، كان الفستان يناسب فصل الصيف ولونه أبيض يخالط بياضه لون بنى خفيف، كان "الفستان" طويلا جدا فقاموا "بتقييفه" فصار مناسبا تماما لقامة زوجتى. يمتلك هذا الدكان زوجان فرنسيان فى عمر الشباب، لم يكن حوارنا معهما جيدا، لأن إنجليزيتى متعثرة، أما هما فكانا يتكلمان الفرنسية التى لا أعرفها.

فى مصر تعد اللغة الفرنسية بجوار اللغة العربية ـ اللغة الأم ـ هى اللغة الأجنبية الأهم؛ فالفرنسية متداولة بين المصريين، ورغم أن بريطانيا تحكم مصر سياسيا فإن التأثير الفرنسى اجتماعيا أكبر، ولهذا توجد إعلانات موجهة إلى الجنود والممرضات تحثهم على تعلم الفرنسية. نزلنا عند محل "شيكوريل" المشهور وهناك اشتريت لزوجتى قبعة صيفية خفيفة ووشاحا (شالا) من الحرير الطبيعى وقفازًا.

(٣)

بعد أن دخلنا الغرفة فى الفندق وجدنا فيها سريرين، عليهما ناموسيتان وأريكة، وكرسيان مع طاولة مدورة، و"تسريحة" بمرآة كبيرة، وشماعات للملابس، ودولابا وحوضا لغسيل الوجه. كان كل شىء منظما تماما فى غرفة تصل مساحتها نحو ٢٥ تتاميًا[٣]، فضلا عن الشرفة الطويلة جدا التى تمكننا من مشاهدة المنظر الخارجى بوضوح تام.

جو شهر مارس فى القاهرة حار نهارا، إلا أنه فى الصباح والمساء يصبح فجأة باردا. بعد غروب الشمس أخذنا الطاولة الصغيرة إلى الشرفة وبدأنا نشرب الشاى تارة ونشاهد الكتب تارة أخرى، أو نتطلع على المارة فى الشوارع.. العربات تمضى مسرعة، والخيول تجر عربة الحنطور وتصدر حوافرها أصواتًا كالنغمات، فكنت أتابعها، أعد كم عربة حنطور مرت من أمامى، آه تسع وثلاثون عربة حنطور وتسع سيارات، بينما كانت زوجتى مشغولة تفكر كثيرا فى شكل الحذاء الأوروبى وهى تنظر إلى النسوة اللواتى كن يمشين فى الشارع، ربما فكرت فيهن وكأنهن نساء صينيات من العصور القديمة جدا، يضعن فى أقدامهن الحذاء الأوروبى، كان حذاء صغيرا جدا بينما كان الكعب عاليا جدا، كيف يمشين؟! بدا الأمر صعبا للغاية! بعض الأحذية كانت مزخرفة بخيوط ذهبية، لكننا كنا فجأة نلمح بعض النسوة يرتدين الزى العسكرى، يمشين مثل الرجال، ورغم ذلك فقد

(٣) التتامى ١٩٠سم طولا و ٨٠ سم عرضا، وتحسب مساحة الغرفة بعدد ما تحتويه من تتاميات، والغرفة العادية قد تحتوى على ٦ تتاميات أو أقل.

كانت طريقة مشيهن هذه تجذبنى تماما، لقد أحببت طريقتهن الجادة فى المشى، إنها تدل على الشجاعة! كنت أشاهد أحيانا مصريا مهندما يضع طربوشا على رأسه ، وأحيانا كنت أشاهد الجنود البريطانيين يمرون فى الشارع. كانت النساء يغطين أنفسهن بالملايات السوداء ويضعن النقاب الأسود على وجوههن، كانت العينان فقط هى كل ما يمكن أن نشاهد من المرأة، وكنت أشاهد حلقة مثل الخاتم تتدلى من الأنف، بينما كنت أشاهد أطفالا مصريين يرقدون أمام الجنود البريطانيين يتسولون، يطلبون بعض الهبات.

على الجانب الآخر من الشارع توجد إعلانات عن محلات الذهب والمجوهرات، وإعلانات عن محلات الأزياء وعن عيادات الأسنان، وشاهدت على أسطح بعض المنازل دجاجات تتحرك وأحيانا تنقنق...

**آه ها هو فجر القاهرة يتنفس**

**بعد ليل النجوم الساطعة**

**الديك يصيح على سطح الطابق الخامس**

**بينما الدجاجات تمضى من حوله**

**تحرك أجنحتها**

**أى**[٤]

بدت زوجتى "أى" متعبة جدا، لم تكن مستريحة، كانت ترقد فى الفراش، لذا كان يجب علىّ أن أجلس بجوارها على الكرسى دون أن أفعل شيئا، لكنى بدأت أطالع الكتاب الإرشادى الذى اشتريته، وغفوت لدقائق، ولم يكن لدى ما أفعله غير هذا.

**إذا تراجعت أو توقفت ستكون أكثر غضبا**

**السفر يعنى الحزن**

---

(٤) هذه الأشعار لزوجة توكوتومي كينجيرو، واسمها أى، ويعنى الحب.

إذا تراجعت أو توقفت ستكون أكثر تعبا

السفر يعنى الحزن

بالجسد المنهك المريض أشاهد المنظر

من النافذة المفتوحة

بدا المشهد فى الخارج مجرد ضباب أبيض

أى

قررنا ألا نخرج من الفندق، وتناولنا الطعام داخل الغرفة وأخذنا قسطا من الراحة، كان الطباخ الذى أحضر لنا الطعام فرنسيا، بينما كانت خادمة الغرفة امرأة إيطالية من فينيسيا، وكان الخدم الذين ينظفون الغرفة يقومون بإمدادنا بماء الشرب وبالماء الساخن، كان أحدهم يدعى "درويش" بينما الآخر يسمى "حسن"، قال لى حسن ذات مرة إنه لا يحب أبدا أن يشاهد إنسانا يقتل إنسانا آخر، وقال بأنه لا يريد أن يمكث فى القاهرة طويلا، يريد أن يعود إلى مسقط رأسه... يبدو أن الثورة على الإنجليز أثرت عليه كثيرا.

مظاهرة ضخمة [٥]

بعد ظهر يوم السابع عشر من مارس، بينما كنا نستعد لزيارة المتحف الذى يفتح أبوابه فى الثالثة عصرا، سمعنا جلبة وضوضاء فى الشارع، كانت الأصوات غير عادية، فخرجنا إلى الشرفة.. كانت مظاهرة مصرية ضد الإنجليز، شاهدت جموع المصريين يرتدون البذلات ويضعون الطرابيش على رءوسهم، بينما كان بعضهم يضعون عمامة بيضاء فوق رءوسهم ويرتدون الجلابيب، كانوا يسيرون فى صفوف أربعة عبر الشارع، قدموا من ناحية حديقة الأزبكية، يا لها من مظاهرة طويلة لا نهاية للطوابير المتتابعة، كانوا يمثلون جماعات مختلفة، فقد كانت المظاهرة تمضى على شكل كتل بشرية متمايزة عن بعضها بعضًا، وجاء شاب ناحية الفندق وهو يقود مجموعة من المتظاهرين، كان يطلق نوعا من الهتافات

---

(٥) يشير إلى ثورة ١٩١٩م.

أشبه بالنغمات، يرددها بعده المتظاهرون ويصفقون ويصيحون بأصوات عالية جدا من ورائه، وكانوا يتبعونه فى كل شىء، فى الهتاف وفى الصياح، كانوا يحملون رايات حمراء وأخرى بيضاء مكتوبا عليها عبارات باللغة العربية، كانوا يحملون أيضا الأعلام المصرية وبجانبهم رجل يحمل وعاء كبيرا فيه ماء، بينما كانت هناك عربة تبيع الطعام، أشكال كثيرة من الناس، وأنماط عديدة من البشر، تجمعوا معا تحت حرارة شمس الظهيرة، جو مثير للغاية، صارت وجوههم حمراء كأنها تحترق، وكان بعضهم يتجهون إلى السقاء حامل الماء فيشربون ثم يعاودون الهتاف مرة أخرى. من أمام الفندق حتى حديقة الأزبكية لم يكن أمامى غير رءوس البشر المتراصة، والآن لا يمكن للمركبات العسكرية أن تمر فى الشارع، وعلى جانبى الشارع امتلأت النوافذ والشرفات بالناس يشاهدون ماذا يحدث، كما امتلأت أيضا شرفات الفندق بالنزلاء، فى شرفة الغرفة المجاورة لنا كان زوجان بريطانيان يشاهدان ما يدور فى الشارع، ربما ضمت هذه المظاهرة نحو عشرين ألف متظاهر، كانت أصوات الهتافات مثل أمواج البحر الذى يثيره صوت التصفيق، وكان هناك من بين الأجانب من يصفق أيضا ويهتف، كأنهم يشعرون بنشوة الحدث، خادمة غرفتنا ماريا قالت إنها الثورة، ثورة المصريين. كانت خائفة جدا، ومن ناحية المحطة شاهدت رجلا محترما بالطربوش لفت انتباه الناس، فزاد هتافهم مرحبين به ، يبدو أنه هو الزعيم، كان الناس يشعرون بالإثارة والنشوة، لكن لا يوجد أى عمل من أعمال العنف، بعض ضباط الجيش الإنجليزى كانوا يشاهدون فقط ما يجرى، كانوا هادئين، لكننى بعد ذلك شاهدت شيئا غير عادى من الشرفة، أحد المصريين يرتدى ملابس بيضاء فضفاضة، بسط قطعة من القماش مربعة على الأرض، ثم سجد، كانت لحيته البيضاء تتدلى حتى صدره، وكان شعره أشيب، شاهدته وهو يضع رأسه على الأرض فى حالة السجود، بدا لى كأنه يصلى، بعد ذلك نهض ووقف متجها ناحية مكة، ناحية القبلة ثم ركع وسجد، وكرر هذه الحركات، بينما كان الشباب المصريون يمرون بجواره منتشين .. حين شاهدت هذا الحدث اهتز جسمى وارتعد وانسابت الدموع من عينى:

انتم حقا تريدون الاستقلال

آه يا مصر! ها أنت تريدين أن تنهضى

وأن تقفى وحدك... مستقلة

لقد نُفى عرابى باشا إلى جزيرة سيلان منذ أربعين سنة[٦]، ومن مدة طويلة فى ديسمبر ١٩١٤م عقد عباس الثانى حاكم مصر معاهدة مع تركيا للتخلص من بريطانيا، ولهذا قام البريطانيون بالتخلص منه، فصار عمه حسين كامل باشا حاكم مصر، هذا التاريخ يعرفه الجميع، وفى زمن الحرب لم يسمح الإنجليز للمصريين بأن يجتمع من بينهم ثلاثة أفراد معا، كانوا أشداء جدا مع المصريين، لكن الأمر اختلف هذه الأيام، فالحرب انتهت، ولهذا صاروا أكثر تسامحا عن ذى قبل، ومن هنا بدأ المصريون يتحركون يعلنون عن ثورتهم. هذا ما ذكرته جريدة الإيجبشان ميل، وقد ذكرت أيضا أن قبضة بريطانيا صارت سهلة جدا، لكن الآن ليس من السهل على البريطانيين وقف هذه الثورة .

لم أظن أن ما حدث شىء غير عادى، لم أتعجب مما حدث لكن حين رأيت منظر الرجل العجوز بلحيته الطويلة وشعره الأبيض يسجد ويصلى لم أتمالك نفسى وانهمرت الدموع من عينى، زوجتى من ناحيتها شاهدت ما لم أره أنا، فقد رأت امرأة مصرية تبيع شيئا، كانت تغطى نفسها بـ"ملاية" سوداء، ربما كانت فى الثلاثين من عمرها، أرادت هذه المرأة أن تعبر عن مشاعرها تجاه هذه الثورة، فأخذت زجاجة فارغة وصارت تلوح بها، تموجها فى الهواء، لم أفهم ماذا تعنى هذه الحركات وما إذا كانت لها دلالة دينية، لكن إذا كانت هناك امرأة هنا فى هذه المظاهرة فهذا يعنى أنهم سينتصرون لا محالة. سمعت أن النساء المصريات سوف يخرجن فى هذه المظاهرات، لكن الإدارة البريطانية لم تسمح لهن بذلك، لقد استعدى كتشنر النساء، وبعد ذلك ظهرت صفية زغلول وزميلاتها، لقد اعتذر

---

(٦) المؤلف على دراية بالزعيم أحمد عرابى، فقد زار نيجيما جو ـ مؤسس جامعة دوشيشا، حيث درس المؤلف عدة سنوات ـ أحمد عرابى فى منفاه، وسطر نيجيما جو ذلك فى مذكراته باللغة اليابانية، وهى قيد الترجمة الآن للنشر بالمركز القومى للترجمة بالقاهرة.

عن استعدائه لهن، لأنه يعرف أنه لا يمكن أن ينتصر على المرأة.

حين شاهت هذه الحركة الثورية فى مصر شعرت كأننى أشاهد وضع اليابان وكوريا، الآن مصر كوريا واليابان بريطانيا، يجب أن نراقب ماذا سيحدث بعد ذلك لأننا ندرك أن هذا هو الوضع نفسه، وطبقا لما ورد فى الصحف لم تقتصر المظاهرات على القاهرة فقط، بل خرجت مظاهرات فى مناطق كثيرة فى أنحاء مصر، وقام المتظاهرون بقطع خطوط الكهرباء، وحطموا محطات الأتوبيسات والسكة الحديد، كما سالت الدماء أيضا.

إذا ما تصدوا للثورة الآن بالقوة فى مدينة القاهرة فإن المصريين ذات يوم سيقومون، بعمل ما، ولن يستطيع البريطانيون التصدى لهم أو الوقوف فى وجههم.

بعد المظاهرة الضخمة ساد الهدوء مرة أخرى، فذهبنا لإحضار ملابس زوجتى من دكان الترزى، كان الكثير من المحلات لا يزال مغلقا خوفا من المظاهرات، وأمام فندق "سبواى" شاهدت كثيرا من المركبات والعربات العسكرية المكتظة بالجنود، كان الزوجان الفرنسيان لا يزالان يشعران بالخوف، فلم يفتحا باب دكانهما على مصراعيه، كان الباب مواربا.

وجب علىَّ أن أرسل برقية إلى أحد البريطانين يعيش فى القدس، كان قد ساعدنى وتولى كل أمورى حين سافرت إلى القدس منذ ثلاث عشرة سنة، وحين وصلت إلى مكتب التلغراف وجدت جنديين بريطانيين على البوابة، فأخبرانى بأنه لا يمكن إرسال برقيات إلى القدس، ورفضوا أن أرسل برقية إلى القدس، شعرت بأن هذا سيضعنى فى موقف صعب للغاية.

# الأهرامات

فى اليوم التالى - أى فى الثامن عشر من مارس - أخذنا العربة من أمام الفندق فى الساعة الثامنة صباحا، فى طريقنا لمشاهدة الأهرامات.

كانت السماء ملبدة بالغيوم على غير العادة، عبرنا "كوبرى النيل" شاهدت فى مدخل الكوبرى تمثالين لأسد على اليمين وآخر على الشمال، وأمام التمثالين وقف عدد من الجنود البريطانيين، لم تتمكن العربة من المضى بسرعة لذا استغرق عبور الكوبرى دقيقتين، بعدها وصلنا إلى منطقة الجزيرة ثم عبرنا على كوبرى صغير، شاهدت سفنا تجارية تسير فى النيل، وفكرت أن أركب فى يوم ما السفينة وأصل إلى مدينة الأقصر وأمضى حتى الخرطوم.

مضينا بمحاذاة نهر النيل، شاهدت ورودا وأزهارا متنوعة بيضاء وحمراء ووردية اللون، ثم مررنا بجوار حديقة الحيوانات، واتجهنا غربا، حيث كان هناك طريق مستقيم تحفه على جانبيه أشجار الأكاسيا الخضراء، كانت غصونها مورقة، وقد تعجبت لأنه منذ ثلاث عشرة سنة حين زرت المنطقة لم تكن الأشجار بهذه الضخامة.

شاهدت بعض النساء بعباءاتهن السوداء أمام بائع الطماطم، وشاهدت رجلا عجوزا يبيع الخيار والبطاطس والحمص، هؤلاء الباعة جلبوا الخضراوات من الريف على ظهور الحمير أو الجمال إلى هنا، الحمص حباته صغيرة والمصريون يأكلونه حبة حبة، وهم يمشون فى الشوارع، بجانب العربة التى كنا فيها كان

عساكر الهجانة على ظهور الجمال يتحركون فى صفين متتابعين، كان العساكر البريطانيون فى المقدمة، وثم الهجانة السود على ظهور الجمال، ذكرنى هذا المنظر بالمنظر نفسه منذ أربعين سنة حين عبر الجنرال غوردن صحراء السودان مستخدما الجمال ليعبر الصحراء!

الجو اليوم بارد إلى حد ما، بعد مدة وعلى الناحية التى كنا نمضى عليها تراءت لنا من بعيد ثلاثة أشكال مثل الجبال الصغيرة.. أوه إنها الأهرام بدت وسط صحراء يشوب بياضها لون بنى خفيف، تمضى من الجنوب إلى الشمال، وهذه حدود طبيعية صنعها فيضان النيل فى الناحية الجنوبية والشمالية. فى الناحية الشمالية من النيل شاهدت أهرامًا صغيرة كثيرة جدا تترامى هنا وهناك، ربما يصل عددها إلى سبعين هرمًا ما بين صغير وكبير، لكننا اليوم ذاهبون إلى الأهرام الضخمة: الأهرام خوفو وخفرع ومنقرع.

استغرق الوصول من القاهرة إلى أهرام الجيزة نحو ثلاثين دقيقة بالسيارة، حين جئت هنا منذ ثلاث عشرة سنة كان هناك قطار، لكن لم يعد له وجود الآن.

نزلنا أمام فندق "ميناهاوس" كان علينا أن نعد أنفسنا للذهاب مشيا إلى الأهرام، انتظرنا فى الفندق، حيث كان هناك كثير من الجنود البريطانيين وأسرهم، وكان هناك عدد من الممرضات البريطانيات، يبدو أنهن يقمن فى الفندق.

يحكى أن أحد البريطانيين كان يعانى من مرض الرئة، فأراد أن يعالج نفسه فبنى هنا كوخا صغيرا، هو الآن هذا الفندق، لقد مات الرجل لكن هذا الفندق لا يزال باقيا حتى اليوم، ومينا هو اسم أول ملك مصرى وحد القطرين الشمالى والجنوبى.

قدم إلينا مرشدان مع حمارين، كانا عجوزين، يرتدى كل منهما ثوبا أبيض طويلا، كان اسم الحمار الذى أركبه "موسى" بينما كان اسم حمار زوجتى

"ديزى"(٧) كانت عيون الحمارين جميلة جدا وجذابة، وكانا هادئين تماما ومطيعين أيضا، امتطينا الحمارين وسحبهما المرشدان، وبدأنا الرحلة تجاه الهرم، كانت هذه أول مرة أركب فيها حمارا، كنت أشعر بالخوف إذا ما جرى الحمار بسرعة، فمنذ خمس عشرة سنة تسلقت جبل فوجى، وعندها ركبت الحصان أتذكر هذا تماما فقد ركبت حصانا "مناكفا" جدا، لكن حمار اليوم مطيع وهادئ للغاية ولطيف، أعتقد أن الحمار هو فقط الذى يمكنه أن يحمل السلام والأمن!

بعد أن صعدنا المنحدر وصلنا إلى الهرم الأكبر، فنزلت من على الحمار، هذه أول مرة تشاهد فيها زوجتى الهرم الأكبر الذى يبلغ ارتفاعة نحو ٧٤٦ قدما وطول أضلاعه ٤٥٥ قدما، ويبلغ حجم الحجر الواحد قدمين اثنين فى أربعة أقدام، يمكن أن نتخيل حجمه الضخم، إنه أكبر من أن يحمله إنسان، زوجتى تعجبت كثيرا وقالت هذا غير معقول، لا أصدق أن إنسانا تمكن من حمل مثل هذا الحجر.

كتبت زوجتى آى فى يومياتها السطور التالية :

**منذ ثلاث عشرة سنة**

**كتب زوجى شيئا ما فوق الأهرام**

**أتمنى لو رأيت ما كتب من كلمات**

**إلا أن هذا أمر صعب للغاية**

**إن لم يكن من المستحيلات**

**آى**

بينما كنت أفكر فى الأمر إذا برجل مصرى يظهر أمامى ويقول: "يمكننى أن أصعد إلى قمة الهرم وأنزل خلال "ثمان دقائق!"

---

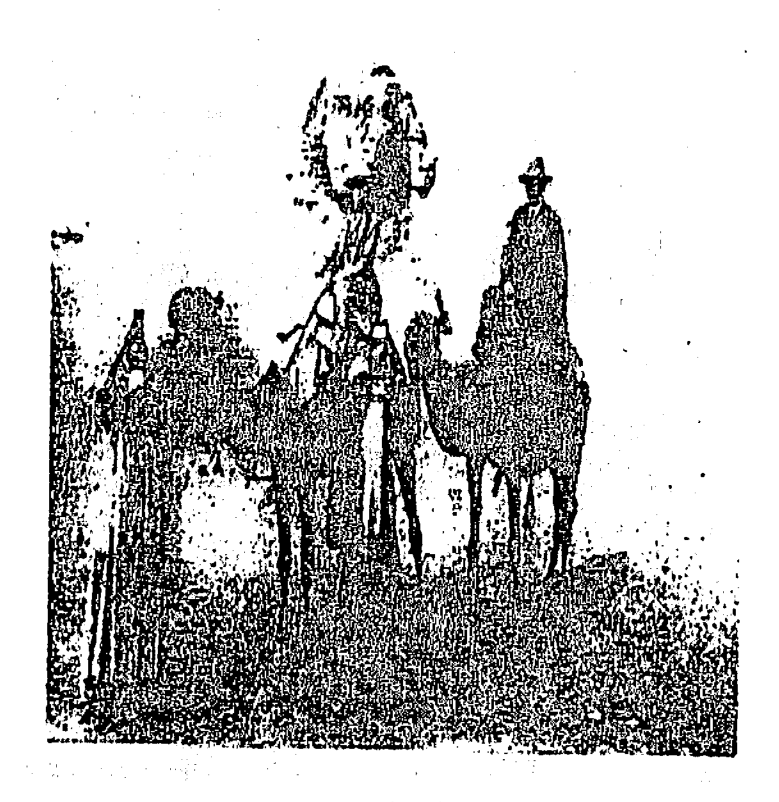
(٧) اسم زهرة daisy.

لم أصدق طبعا ما قاله، وطبقا لما ذكره المرشد العجوز فإن إحدى الأوروبيات حاولت الصعود إلى قمة الهرم، إلا أن ذلك استغرق ساعتين، لقد صعد زوجي يرشده أحد المصريين إلى قمة الهرم فى عشرين دقيقة، وأنا الآن متعبة وزوجي متعب، لذا قررنا ألا نقدم على هذا الأمر، وهكذا عدلنا عن الفكرة، فهناك رجل مصرى سيصعد إلى القمة ويشاهد كتابات زوجي بدلا منا، وقال لنا هذا المصرى: انظرا إلى الساعة..."

ثم بدأ فى الصعود، كان يقفز ويقفز ويمد ذراعية ويحرك رجليه مثل القرد، وفى مدة قصيرة رفع يده ليخبرنا بوصوله إلى القمة، لقد استغرق ذلك خمس دقائق، فقال زوجي: "عاش! عاش! عاش هذا الرجل! برافو!" وبدأ يصفق له تعبيرا عن سروره بهذا الانجاز، وصفق المرشدان العجوزان أيضا ابتهاجا، وحين بدأ فى النزول بدا لنا كأنه يطير فى الهواء، لقد استغرق فى النزول ثلاث دقائق فقط، فالمجموع إذا ثمان دقائق وهذا يعنى أنه كان محقا... كان العرق يتصبب من جبينه، قدم له زوجي ثلاثين قرشا فطار من الفرح (القرش يساوى ١٠ سينات) .

انطلقنا بعد ذلك إلى الهرم التالى، بعد ذلك سار الحماران بنا إلى منحدر وظهر أمامنا أبو الهول، نظرت إليه وجدت أنفه ـ للأسف ـ مجدوعة، شعرت كما لو كان زوجي يحييه يقول له: هالو... بعد طول غياب، كنت أشعر بسعادة غامرة، لم أكن أدرى عن انطباعاته أو ردة فعله... فى ١٩ يونية فى فصل الصيف تكلم زوجي مع أبو الهول وخاطبه قائلا: "أنت إنسان، وفى نفس الوقت أنت حيوان قُدَّ من حجر، مرت عليك ستة آلاف سنة مدة طويلة، وعليك الآن أن تستيقظ، يجب أن تستيقظ، سيأتى عليك يوم يمكنك أن تحرك الأهرام".

هذا ما كتبه زوجي فى مذكراته... الآن شعرت كأن لمع البرق مر على راس أبو الهول، ربما كان يرد على تحيتنا له، تمنينا أن نبقى هنا معا تحت سماء ليلة مقمرة.



أمام أبو الهول

المصور الذى تبعنا من الفندق أراد أن يلتقط لنا صورة، فوافقناه فالتقط لنا صورة مع الأهرام وأبى الهول، وصورة حين كنا نركب الحمار، وأيضا مع الجمل، وكان الجمل الذى ركبته مزخرفا بألوان زاهية ومغطى بهودج جميل ألوانه جذابة، لقد أرخى هذا الجمل ركبتيه حتى يمكننى من أن أركب فوقه، إن حركته هذه عبرت عن حنان ورقة، الجمل صديق حميم للإنسان.

بعد زيارة أبو الهول انتقلنا إلى أحد المعابد القريبة، كان مرشدنا حارس المعبد الذى ارتدى جلبابا أسود، شاهدنا غرفة حجرية فقط لا شىء فيها سوى شمعة ليست بالكبيرة أضاءت المكان، وتمكنت من أن أشاهد كهفا صغيرا فيه مومياء طفل، كانت جدران الحجرة مجلدة بالأحجار الرخامية التى جلبوها من جنوب مصر، وهم يصنعون منها تماثيل صغيرة تباع تذكارًا للقادمين هنا.

شاهدت بعض الأطفال الذين كانوا يبيعون الماء، وشاهدت رجلا يبيع العملات القديمة، وتماثيل صغيرة لأبو الهول وعقودًا من الأحجار مختلفة الألوان، قدموا إلينا وطلبوا منا أن نشترى ما يعجبنا مما يبيعون، كما قدم إلينا أناس كثيرون معظمهم يتكلمون الفرنسية، كانوا يرددون: بقشيش... بقشيش! هذه الكلمة تنتشر بين معظم المصريين والفلسطينيين والسوريين، وهذه الكلمة العربية التى تعنى هبة صارت كلمة مؤذية تصيب السائحين بالزهق... لم يكن معى نقود لكن زوجى كان عليه أن يعطى بعض البقشيش.

بالقرب من هذه المنطقة شاهدت ناحية النيل حقولا مملوءة بالخضرة والأزهار الصفراء الجميلة، بينما كانت هناك قطعان من الماعز والغنم ترعى وتأكل هذا النبات الأخضر الذى لا أعرف له اسما[8] . حين شاهدت عمود الهاتف شعرنا بأن هذا شىء غريب لا يتناسب مع منظر الأهرام، شعرت بالحزن والأسى لوجود هذا العمود هنا. (أى)

### يوميات القاهرة

(١)

اليوم هو السابع عشر من مارس، ذهبنا إلى المتحف بالقرب من قصر النيل، حين أشاهد آثار المصريين القدماء لا أملك ساعتها إلا أن أعشق مصر وأهلها.. تماثيل كثيرة متنوعة، تماثيل كبيرة جدا، وأخرى صغيرة جدا لدرجة أنه يمكننى أن أضعها فى قبضة يدى، لم تكن هناك تماثيل للبشر فقط بل هناك أيضا تماثيل لجميع المخلوقات... كنت أشاهد محتويات هذا المتحف وأنا مشدوه، تغمرنى مشاعر الحب والدهشة والإعجاب، خليط من المشاعر يصعب التعبير عنه بالكلمات... حين أشاهد الآثار والتماثيل المعبرة عن طبيعة البشر أفكر أن هذا النوع من الفن الجميل فن لا يرتبط بعالمنا الأرضى بل هو ينتمى إلى عالم

---

(٨) ربما كانت تقصد البرسيم.

القمر. وسط المتحف وتحت قبة مفتوحة وضعوا تمثال أمنحوتب والملكة تيسى وعلى فخذها طفل وطفلة وقد لفت ذراعها الأيسر على خصر الملك... منظر رائع يتسم بجمال يعبر عن الهدوء والرضا، قالت لى زوجتى: "كم أتمنى لو وضعونا هنا هكذا كتمثالين!"

شاهدت أيضا مومياء فرعون الذى قهر الهكسوس، كان علينا أن نشاهده بعناية ونمعن فيه النظر، كان وجهه أبيض إلى حد ما، وكان حاجباه مثل الهلال فى بداية الشهر القمرى، كان وجهه وجه ملك نبيل محترم، وشاهدت أيضا مومياء بشعر أشيب، لا يزال اللون الأبيض لخصلات الشعر واضحا رغم مرور آلاف السنين، فالرجل العجوز يبقى عجوزا، وشاهدت مومياء كلب ومومياء قرد وحتى السمك أيضا كانوا قد حنطوه وكذلك الخبز، وتمتعنا بمشاهدة أنماط مختلفة ومتنوعة من الزخارف، مثل عقد مكون من الجعارين باللون الأزرق.

وشاهدنا أكفان الملوك القدامى، كان أحد هذه الأكفان مزخرفا وعليه رسم بقرة! أعتقد أن أهل مصر والهند كانوا يقدسون البقر، آه مثل هذه البلاد يحميها[٩] جون بول John bull الذى يأكل البقر[١٠] . وشاهدت أيضا سفينة صغيرة كانت تستخدم فى الاحتفال الجنائزى أثناء إقامة جنازة الملك.

على كل حال مصر القديمة كانت عظيمة، كما لو كان ما حدث هو شروق شمس يوم واحد إلا أنه رفع مصر إلى السماء وسما بها سموا كبيرا، لكن الشمس غرقت فى الرمال منذ مدة طويلة... أتعجب! هل شروق شمس مصر سيحدث مرة أخرى؟! لا أدرى!

**فى متحف مصر الآن**

**هنا حتى رغم مرور نحو ثلاثة آلاف عام**

**هناك رفيقان.. زوجان معا يجلسان**

---

(٩) يسيطر عليها بالانتداب.

(١٠) هنا عبارة رمزية.

يقتربان من بعضهما البعض يتماسان ويلتصقان

هذا هو ملك مصر وهذى ملكة مصر

عظماء بين ملوك الزمان

تجمعهما الألفة يضمهما الحب يلفهما الحنان

شعرت كما لو أن عيون التمثالين تتحرك

تتجه عيونهما ناحيتى تنظران إلىّ بحب

أشعر بعظمة الله

أبناء البشر مساكين

جلسوا دون حراك هكذا مثل المومياء مثل التمثال

.اى

اليوم هو التاسع عشر من مارس، مر أسبوع على وصولنا إلى القاهرة، الملازم (رودكليف) أخبرنى بأنهم لا يزالون فى انتظار التصريح الخاص بسفرنا إلى القدس عبر حيفا، وهنا فى القاهرة تغلق البنوك ومكاتب الحكومة فى الساعة الثالثة عصرا، حين وصلنا إلى الفندق الذى يقيم فيه الملازم "رودكليف"، كان علينا أن ننتظر طويلا فى غرفة الانتظار قبل أن نقابله، وقد أخبرنا بعد أن تحدثنا قليلا أنه يمكننا السفر مباشرة، إلى القدس، كما أنه من القدس يمكننا إرسال رسائلنا وخطاباتنا الخاصة إلى اليابان، إلا أنه يحظر إرسال الخطابات الرسمية مباشرة، ويجب علينا أن نرسلها أولا إلى القاهرة بسبب الرقابة التى يجب أن توافق أولا على إرسالها، وقد أذعنت لأوامره؛ إذ لا مفر من ذلك، ثم أخبرنا الملازم "رودكليف" أن مواعيد القطارات من القاهرة إلى بورسعيد غير منتظمة، وربما يسير قطار واحد كل ثلاثة أيام أو أربعة ... وأضاف قائلا: "أعتقد أن من الصعب عليكما أن تغادرا القاهرة بسرعة... أريد أن أدعوكما إلى العشاء لكنى مشغول فاعذرونى".

فى اليوم العشرين من مارس ذهبت إلى محطة السكة الحديد لأستفسر عن القطار، وفى طريقى إلى هناك شاهدت الفندق الصغير الذى نزلت فيه منذ ثلاث عشرة سنة "لوكاندة المسافرين" Hotel de Voyageur حين جئت إلى هذه المنطقة قبل ثلاث عشرة سنة كنت قد ركبت السفينة من اليابان إلى بورسعيد، وكان رفيقى فى كابينة السفينة الذى ركب من شنغهاى يدعى ريبيل Rippel وقد طلب منى أن أتصل به إذا جئت للقاهرة، ويمكننى أن أنزل فى فندقه، ولهذا جئت إلى هذا الفندق وكانت غرفتى فى ركن الطابق الثانى.

كانت الساعة الواحدة بعد الظهر، وبينما كنت أسير فى الشارع سمعت صوت عجوز مصرى ينادى على بضاعته، كان الصوت بالنسبة لى يعبر عن حزن كامن فى الفؤاد، لا يمكن أن أنسى هذا الصوت، لا يمكن ذلك. قلت لزوجتى: "انظرى هذه غرفتى! ربما يعمل الفندق بشكل طيب حتى الآن أو لا يعمل لا أدرى! "

حين وصلنا إلى المحطة وجدنا كل المداخل مغلقة، على كل حال ذكروا أن هناك قطارًا عسكريا خاصا يقوم فى الساعة الحادية عشرة صباحا، لا أدرى هل يمكننى اللحاق بهذا القطار! توجهت بسرعة إلى فندق "سب وى" وانتظرت مدة، وعلمت أنه بأمر من الجنرال "ورسيلى" يمكن للعساكر فقط السفر بالقطار من اليوم ولمدة أربعة أيام، بعد ذلك يمكن للمدنيين أن يسافروا.

فى اليوم الحادى والعشرين من مارس خرجت مع زوجتى لنتجول فى المدينة، شاهدت الأزهار الحمراء والأزهار الوردية، هى نفسها تلك الأزهار التى شاهدتها فى هونج كونج، ربما تشبه الساكورا فى اليابان، مشينا وشاهدنا سوق الموسكى، مشينا فى الحوارى الخلفية الضيقة الملتوية، كانت قذرة إلى حد ما، ذهبت لحلاق ليحلق ذقنى، فحلق ذقنى وجرحنى جرحا بسيطا تحت الذقن! اشتريت من السوق سلة برتقال، وبعد ذلك شربنا عصير البرتقال.

بعد الظهر شاهدت كتلة من الشعر الأسود تتحرك تحت الطاولة، فأمعنت النظر فاكتشفت أنه كلب بودل [11] لم يكن يبدو من ملامحه سوى شعره الكثيف، كأنه كتلة شعر أسود برزت منها مقدمة الأنف، حين ناديته وقف أمامى وأخذ يلعق يدى فى سرور ونشوة، شاهدت رباطا فى عنقه مكتوبًا عليه Captain bc Sapper قدمت له قطعة من الكعك وتركته يخرج من تحت الطاولة.

فى الثانى والعشرين من مارس ذهبت إلى المتحف بالحنطور مرة أخرى، قدم إلينا أحد الحراس المصريين، كان يضع على كتفه "نجمة" سألنا كيف يضع شارة الرتبة فهو يخشى أن يضعها "بالمقلوب" وقال إنه لا يمكن أن يشاهد الشارة حين يضعها بنفسه. كانت هناك كلمات مكتوبة بالعربية لكن غير واضحة، لقد تعلمت قليلا من كتاب اللغة العربية، لذلك حاولت مشاهدة الحروف العربية وعلمته كيف يضعها[12].

رجعت أدراجى بعد الظهر... بدأنا نستريح ونخلد إلى النوم قليلا لكن طرقا على الباب أيقظنا، كان السيد كوما يدق الباب، لقد جاء من الإسكندرية، ويعود غدا إلى بورسعيد، هو فى البحرية لذا يتحرك هنا وهناك بحرية، وقد اعتاد على ذلك، شربنا الشاى معا، واستمعنا إلى قصة سفره إلى القدس والقاهرة، وشرح لنا المناطق السياحية والأماكن التى تستحق الزيارة...

لم يأت الكلب بودل اليوم، فى الصباح ألقت زوجتى بفتات الخبز من الشرفة، فجاءت خمسة عصافير أو ستة لتلتقطها... هذه الأيام نذهب إلى مطعم الفندق، حين يشاهدنا الجرسون الأسمر يهرع إلينا ويضع أمامنا كمية كبيرة من الخبز، يقدم فندق شبرد خدمة عظيمة، أطيب من فنادق سيلان أو بورنيو، وكنا نشرب الماء المثلج طوال الوقت لأن الجو كان جافا جدا.

ذكر السيد كوما أنه حاول أن يخلل حبار البحر( سكوييد)[13] أثناء وجوده فى بورسعيد، لكنه فشل.

---

(١١) Poodle dog كلب ذكى أجعد الشعر.

(١٢) هذا يدل على أن توكوتومى كان يعرف العربية.

(١٣) مثل تخليل النسيخ.

بعد العشاء وفى صالة مطعم الفندق بدأت حلقة رقص صغيرة فى تمام الساعة التاسعة والنصف، فجلسنا على طاولتنا نشاهد المشاركين فى الرقص، معظم النساء كن يرتدين ملابس الرقص بألوانها المختلفة: الحمراء والزرقاء والبيضاء والخضراء والبنفسجية وغيرها، وكن يلبسن أحذية بكعوب عالية! ويبدو أنهن شابات صغيرات، بينما كان الرجال يرتدون زيهم العسكرى، ومن بينهم يوجد عدد قليل من الرجال الذين ارتدوا "التاكسيدو" ملابس السهرة الخاصة بالرجال... يمكن القول إن ذوق معظم النساء فى اختيارهم للملابس لم يكن جيدا، كما أن سلوكهن أثناء الرقص والتحدث ليس جيدا، ولا يريح هذا المنظر من يشاهدهن، وكانت النسوة يكررن حركات الرقص نفسها بشكل يدعو إلى الملل، إذ يظل الحال على هذه الوتيرة حتى الصباح! وكنت أفكر كثيرا "فى روبرت وجون"(١٤) الذين دفنوا أجسادهم فى الرمال الجافة لا يمكنهم أن يستمروا فى الرقص إلى ما لا نهاية، فهناك نماذج كثيرة لروبرت وجون... أفكر فى هذا الأمر.

**بعد القتال فقد الحياة**

**تشارلى يرقص ليلة كاملة مع كئيد**

**التى ترتدى ملابس السهرة الحمراء**

**ملابس بلون الدم القانى**

**الإنسان الذى ولد من رحم أمه**

**هرب من الصراع الدامى**

**ترك القتال وجنح للسلم**

**الإنسان الذى يملك المعرفة**

**سوف يملك بالضرورة الذكاء والحكمة**

**الإنسان الذى يمكنه أن يتخلص**

---

(١٤) إشارة إلى البريطانيين.

من الألم ومن الصعوبات

يمكنه أيضا أن يتخلص من الحياة

فبدون آلام لا وجود للمسرات

أمى الحبيبة ماتت

طفلها يشعر ببرودة شديدة

مع أن الهواء عليل

. أى

الحزن يحل بنا: يظهر ويختفى، الماضى لا يمكن أن يتركنا أبدا، مثل اللحن يتردد صداه بداخلنا... أخبرت زوجتى أن الإنسان يرزح تحت وطأة الماضى الثقيل، فالماضى لا يتركنا أبدا، وأسوأ ما يمكن أن يصل إليه هو أن يقتلنا فقط، لذا علينا أن نفكر فى الحاضر ونتمتع به. وقصصت عليها حكاية ألف ليلة وليلة، حكاية الرجل العجوز فى قصة سندباد... تعرض سندباد لمتاعب حين تحطمت سفينته فسبح ووصل إلى إحدى الجزر، وفجأة ظهر له رجل عجوز قال له:

"هل يمكن أن تساعدنى ـ فأنا ضعيف ـ وتجعلنى أتوكأ على كتفك؟".

فوافق السندباد وأعطاه كتفه، فلصق به العجوز، ولم يتركه مطلقًا طوال الليل وطوال النهار، وكان أحيانا يهمز جسد السندباد برجليه كفارس يمتطى جواده، ويجعل السندباد يجرى ويجرى، ورغم أنه أصيب بالتعب الشديد فإنه لم يكن بمقدوره أن يفعل شيئا. وذات يوم وجد السندباد فى الحديقة أشجار عنب مثمرة، فقطع بعض قطوفها وصنع خمرا، وبعد أن شرب الخمر انتشى وصار مسرورا، وأخذ يقفز بالعجوز هنا وهناك، وأراد العجوز أن يجرب هذا الخمر، وبعد أن شرب الخمر أصابه السكر ولم يعد يتمالك نفسه، ففكر السندباد فى الحال، وأدرك أن وقت التخلص من العجوز قد حان، فدفعه بشدة دفعة أطاحت به بعيدا، وهكذا أمكنه التخلص منه.

هذا يعنى أن العجوز هو الماضى، فالماضى مهما فعلنا لا يتركنا، لكن شيئا واحدا يمكن أن نقوم به، وهو أن نسعد بحاضرنا، وبعدها قرأت لزوجتى بعض أشعار عمر الخيام التى ترجمها فيتزجيرالد Fitzgerald إلى الإنجليزية .

## هليوبوليس

### (١)

فى يوم الأحد الثالث والعشرين من مارس سمعت أجراس الكنائس تدق، كما سمعت بعض الأطفال يهللون فى الخارج... بعد الظهر سأذهب إلى هوليوبوليس، سمعت عن هذا المكان بالأمس من السيد كوما .

أخذت عربة حنطور، انطلقت بنا فى شارع واسع ومضينا فى اتجاه الشمال الشرقى للمدينة، شاهدت بيوت المصريين من الطبقة الأرستقراطية، وبعد ساعة وصلت إلى مدينة هليوبوليس، وهى مدينة أنشئت حديثا وعمرت مؤخرا، تضم المدينة الجديدة حلبة لسباق الخيل كبيرة، وحدائق واسعة، وغيرها من أماكن الترفيه... هذه هى هليوبوليس الجديدة، لكنى كنت أود الذهاب إلى هوليوبوليس القديمة!

طلب العريجى العجوز من أحد المارة أن يترجم لى بعض العبارات، فذكر الرجل أن آثار هليوبوليس لم تعد تسمى بهذا الاسم، بل بات الناس يطلقون عليها اسم "المطرية"، والذهاب إلى هناك يكلف كثيرا، ونصحنى بالعودة إلى القاهرة، ومنها آخذ القطار إلى المطرية، إلا أن العريجى العجوز أصر على أن يأخذنا بالحنطور حتى هناك، فلم نشأ أن نخذله ووافقناه ومضى بنا.

خرجنا من منطقة هليوبوليس الجديدة ثم اتجه بنا الحنطور نحو الشمال، شاهدت "فيلا" مقامة حديثا محاطة بحديقة مملوءة بالأزهار والورود، وخلال عشرين دقيقة وصلنا قرية المطرية، قرية صغيرة مملوءة بأشجار "السنط". هرع إلينا صبى فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره وقال إنه سيكون مرشدنا فى هذه المنطقة، ولم ينتظر جوابا وقفز إلى عربة الحنطور، وبعد قليل توقفنا، فقد بدأ رجل آخر يرتدى جلبابا أزرق يتولى مسئولية إرشادنا بدلا من الصبى...

الآن فصل الربيع موسم تفتح الأزهار التى امتلأ بها المكان، فكنت أشم عبيرها وطيبها، قالت زوجتى: يا له من عبير طيب! فهم مرشدنا ما قالت، وحمل إلى زوجتى باقة ورد. شاهدنا شجرة قديمة نبتت من حولها أشجار صغيرة، وقيل لنا: هذه شجرة العذراء، ويقال إن المسيح جاء هنا مع أمه وزوجها(*) حين كان طفلا، فقد هربت العائلة "المقدسة" إلى مصر فرارا من هيرودس، وحين وصلوا هذا المكان حملوا هذه الشجرة معهم، لهذا سميت العذراء! لا أدرى حقيقة هذه القصة لكن يبدو أنها أسطورة قديمة، ربما يكون عمر هذ الشجرة نحو مائتى عام أو ثلاثمائة، وربما كانت الشجرة الأصلية بالفعل هى شجرة العذراء مريم، لا أدرى كم جيلا مرَّ على الشجرة الحقيقية!

ويقال أيضا: حين كانت العلاقات طيبة بين فرنسا ومصر أهدى الخديوى إسماعيل هذه الشجرة إلى أوجينى Yozini زوجة نابليون الثالث، إلا أنها رأت أنه من الأفضل أن تظل هذه الشجرة هنا فى مكانها فى مصر، فلم تحملها معها إلى فرنسا، وهكذا لا تزال شجرة مريم العذراء هنا لم تبرح مكانها.

شاهدت بئرا كبيرة بالقرب من الشجرة، يطلقون على بئر مريم العذراء، ويقولون: إن عمقها يصل إلى ثلاثين قدما، شاهدت على فتحة البئر إطارًا حديديا ورافعة ترفع الدلو من البئر بحبل طويل، جاء المرشد وحاول أن يسحب الحبل، ورفع الدلو وقدم لنا الماء، لم يكن باردا إلا أن طعمه كان عاديا، وفى الحقيقة لم يكن طعمه يتميز عن طعم الماء العادى، وكمية الماء وفيرة، لهذا يمكن استخدامها فى الزراعة.

(٢)

ركبنا الحنطور مرة أخرى واتجهنا إلى منطقة واسعة حيث توجد المسلة الفرعونية القديمة... أوه، هذه بقايا آثار هليوبوليس القديمة، وهذه أقدم مسلة

---

(*) عقيدة المسلمين أن السيدة مريم حملت بالسيد المسيح دون زوج أو أب، كما جاء فى القرآن الكريم: (قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا) (مريم/ ٢٠)، وأيضا: (مريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا...) (التحريم/ ١٢)، وغير ذلك والمشار إليه هنا يوسف النجار الذى صحبهما فى هذه الرحلة المقدسة. (التحرير)

فى مصر، المصريون القدماء كانوا يعبدون الشمس، إله الشمس كان اسمه "رع"، ولهذا بنوا القصور وأقاموا هذه المدينة، وقد أطلق على الملوك المصريين القدماء فى هذه المنطقة اسم ملوك الشمس، وكان الشعب المصرى يقدس الملوك الذين يعيشون فى هذه المنطقة ويبجلهم، هنا شعرت كأننى فى معبد "إيسيه" فى اليابان(١٥) . ورد فى العهد القديم أن يوسف بن يعقوب تزوج ابنة أحد رهبان أون (عين) بأمر من ملك مصر، وهنا يمكن أن نشاهد آثار "أون" عين شمس القديمة، ويقال إن فى هذا المكان وجدت جامعة قديمة فى العصر القديم، وطبقا للأساطير يقال إن موسى كان أحد أساتذتها، وهذه الجامعة ذاعت شهرتها كثيرا، فقد كانت تنشر العلم خارج مصر، وقد ورد عليها ذات يوم الفيلسوف أفلاطون، وتباحث مع فلاسفة هذه الجامعة.

ويقال إنه قبل عصر المسيح (عليه السلام) كان القصر هنا محفوظا آمنا، لكنه اندثر بعد مدة، واندثر معه كل شىء! مر ألف وتسعمائة عام على ذلك الزمان، والآن لا يوجد هنا أى أثر للعيان سوى مسلة تطاول السماء، وهى مصنوعة من حجر الكلس، وعلى جوانبها الأربعة كتابات بالهيروغليفية، ويبلغ ارتفاعها نحو ستة وستين قدما، وقد ذكر لنا المرشد أن عمر المسلة سبعة آلاف سنة، لكن طبقا لما هو مكتوب فى الكتاب الإرشادى الذى اشتريته فإن الملك الذى بنى هذه المسلة هو أوزرتسين Usertsen الأول، وهو من ملوك الأسرة الثانية عشرة، وربما عاش سنة ٢٧٥٨ قبل الميلاد لذلك فعمر هذه المسلة خمسة آلاف سنة على الأقل .

حين وقفنا بجانب المسلة نتطلع فيما حولنا، لم نجد من حولنا سوى الحقول والمزارع، وسنابل القمح والشعير، وهناك مراعى البرسيم الواسعة التى ترعى فيها الأبقار... استرحنا قليلا حيث تمتعنا بأشعة الشمس والهواء المنعش، كنا نتنفس بعمق... آه، بقينا نحو عشرة أيام فى القاهرة، كانت أياما صعبة إلى حد ما!

شاهدنا بئر ماء، ومن بعيد جاءت بقرة ومدت رقبتها وأخذت تشرب بصوت مسموع، بينما شاهدت بقرة أخرى باركة فوق البرسيم، تأكل ما أمامها من برسيم

---

(١٥) معبد إيسيه هو معبد شنتوى طبقا للحوليات اليابانية، يعد أساس عبادة الشنتوى التى تقدس الإمبراطور.

وعشب، شعرنا حقا بجو المدينة القديمة. يمكننا أن نتخيل العصر القديم، والملك الذى بنى قصره هنا وأسس هذه المدينة، ويمكننا أن نتخيل الكهنة وتلاميذهم وعامة الناس الذين كانوا يعيشون هنا، ويوسف (عليه السلام) ووالديه وزوجته التى هى ابنة أحد كهنة أون، لم نشاهد بقايا الآثار لكننا شاهدنا بقايا أحجار، أين آثار أحفاد رمسيس الثانى؟! معظمها اختفى، لقد مرت خمسة آلاف سنة، والآن أنا أقف فى الوادى الذى شهد التاريخ القديم قبل خمسة آلاف سنة، لكن اليوم هو الثالث والعشرون من مارس فى العصر الحديث، وبدا الأمر كما لو لم يحدث أى شىء على الإطلاق، فالشمس ما زالت ترسل أشعتها على الناس والبقر وقطعان الماعز والخراف.

الآن أقف فى هذا المكان وأشاهد مصر الحديثة، مصر المعاصرة ومصر الحاضر من مكان مصر القديمة... فكرت هل حدث هذا بالصدفة؛ الرجل والمرأة اللذان قدما من اليابان، حيث يقدس الناس الشمس، وصلا إلى هذا المكان وإلى هذه المدينة التى قدست الشمس فى العصور القديمة؟

**رجل وامرأة**

**قدما من بلد يقدس الشمس**

**شاهدا مدينة أون مدينة الشمس**

**حيث كان الناس فى العصر القديم**

**يعبدون أيضا الشمس**

**هذه هى مدينة الشمس**

**جئنا اليوم إلى هليوبوليس**

**شىء واحد لا غير**

**رمز العصر القديم ظل شامخا يصل إلى الشمس**

**فى مدينة الشمس**

وبقية الأماكن تحولت إلى حقول قمح

والعرب هنا يطلقون على المكان

"عين شمس"

(٣)

من جوار المسلة ركبنا الحنطور متجهين ناحية الجنوب الشرقى، كانت هناك حديقة حيوان صغيرة يديرها أحد الفرنسيين، دفعنا أربعة قروش رسوم تذكرة الدخول، قالوا إنه فى وقت من الأوقات كانت هذه الحديقة تضم نحو٨٠٠ نعامة، لكن الآن يوجد بها أقل من مائة نعامة، موزعة على شكل أسر منفصلة أو عائلات متآلفة، الإناث يرقدن على البيض ليفقس والذكور تقف تحرس الإناث، الناس هنا يقولون إن النعام طائر أليف ووفى، فلكل زوج زوجه، وهو طائر ملتزم بالحفاظ على حق أليفه، والبيض يفقس بعد٤٥ يوما، ويتم الاهتمام بالصغار، ويعيش طائر النعام نحو ثلاثين عاما، وهو يحب مثلنا البرتقال، ويشتاق لتناوله كثيرا.

فى صالة الاستراحة يبيعون ريش النعام، وهو بلون أبيض وشكله جميل جدا، أربعة فى حزمة واحدة بمائة وخمسين قرشا[١٦] لذا لم نشتر شيئا، تسلقنا إحدى التلال لمشاهدة المدينة، فالمنظر من هنا رائع جدا ، فمن ناحية الجنوب أمكننا مشاهدة الأهرام التى بدت صغيرة جدا.

تبلغ مساحة مدينة القاهرة نحو ٦ريات[١٧] من الغرب إلى الجنوب، وهناك تل عالٍ لونه، بنى يسمونه المقطم، ويمكن أن أشاهد من هنا أسوار القلعة هناك ومآذن المدينة، وهليوبوليس الجديدة قريبة من هنا إلى حد ما، وبالقرب من هذا المكان وفى الصحراء توجد نحو ألف خيمة مملوءة بالعساكر... أخذنا الحنطور وعدنا إلى الفندق قبل الساعة الخامسة مساء.

---

(١٦) ربما كان يقصد ١٥٠ مليما.

(١٧) الرى يساوى ٤كم.

## حلوان

فى الرابع والعشرين من مارس سمعت أصوات أناس يصرخون ويبكون بصوت حزين مؤلم، فانتقلت إلى الشرفة فشاهدت عربة حنطور تحمل نعشا... ظننت أنه ربما مات أحد المصريين ممن شاركوا فى المظاهرات السابقة.

بعد الظهر ذهبت إلى فندق "سب وى" وفى طريقى إلى الفندق مررت بالقلعة التاريخية، وهى قلعة بسيطة، بالقرب من البوابة وقف حارس بريطانى، سألنى: هل أنت يابانى؟ ثم أعطانى تصريحا بالمرور، شاهدت مسجد محمد على، كنت قد شاهدته من قبل، ولم يكن معى "فكة"، لهذا قررت ألا أشترى تذكرة دخول، فلن أدخل لمشاهدته ثانية، طفت فقط حول القلعة بالحنطور، هنا سجن القلعة حيث تم اعتقال أنماط كثيرة ومتنوعة من الناس، من بينهم عدد من الطلاب، وصلت إلى فندق "سب وى"، لم يخبرنى الملازم البريطانى رودكليفRadcliff بوضوح هل يمكننى السفر؟ وبدا أنه لا مفر من الانتظار.

قلت له: القاهرة مكان طيب لمن أراد أن يدرس تاريخ مصر ويطلع على آثارها، لكنى وزوجتى أيضا تعبنا وأصبنا بالإرهاق الشديد، كما أننا لسنا بأغنياء مثلكم أيها البريطانيون، ولا يمكننا أن نبقى طويلا فى مثل هذا الفندق الغالى، أقصد فندق شيبرد .

قال الملازم رودكليف Radcliff : فلسطين غالية أيضا.

قلت: نعم، هذا صحيح، لكن لدينا هناك أعمال كثيرة سنقوم بها، هنا فى مصر تكفينا الأيام التى قضيناها.

قال: أفهم... أفهم... لكن الظروف حرجة وعلى كل حال يجب الانتظار هذا ما أريد أن أقوله.

منذ أن قلت له شيئا عن الهند صار الملازم رودكليف Radcliff غاضبا منى قليلا، واليوم ذكر لى أنه ربما يبدو جافا أو غير مهذب، إلا أننى أعرف أننا بالنسبة له متعبون بلا شك، كنت أريد أن أقول له بأنه جلف غير مهذب، ونحن

أيضا أجلاف غير مهذبين، لأن الحرب جعلت منا أناسا أجلافًا غير مهذبين، لكنى لم أستطع أن أقول له ذلك.

فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس أردت زيارة "حلوان" الواقعة جنوب القاهرة ، ركبنا الحنطور إلى محطة باب اللوق، كانت زوجتى ترتدى ثوبًا جديدًا... ما زال هناك وقت طويل على موعد القطار، لهذا أردت أن أصطحبها لتشاهد حديقة حيوانات الجيزة، دخلنا الحديقة بنصف بنس(١٨) يوجد فى داخل الأقفاص طيور الدجاج، دجاج عادى لكن الشىء غير العادى كان الدجاج الأسود، فى أقفاص القرود، شاهدنا قرودا أجسامها وألوانها جميلة فضية وسوداء، وشاهدنا التمساح، وهو تمساح عادى جدا. رجعنا إلى محطة باب اللوق، تحرك القطار فى الساعة الحادية عشرة والربع، مضى بنا جنوبا وأمكننى أن أشاهد نهر النيل عن يمينى، كانت القوارب الشراعية تتهادى فوق صفحة ماء النيل بشكل جميل بينما بدأت أشجار النخيل تهتز، وتراءت لنا الأهرام من بعيد...

**مركب شراعى يطفو على سطح النيل**

**بجواره ترتفع أشجار النخيل**

**ألمح من بعيد الأهرام**

**بدت لناظرى بلون أسود وحجم صغير**

هناك عدد كبير من البريطانيين يعيشون بالقرب من منطقة المعادى، شاهدت من بين أغصان الأشجار الخضراء المورقة بيوتا شيدت حديثا، كما شاهدت "الفيلات" المحاطة بالحدائق المملوءة بالورود والأزاهير، وشاهدت أشجار السنط (الأكاسيا) وغيرها. حيثما وَجِد البريطانيون نراهم يختارون أفضل الأماكن ليعيشوا فيها، أتمنى أن أكون مثلهم.

انتهى منظر الخضرة وطالعنا منظر الصحراء بلونها الأصفر، أمكننى أن أشاهد من هنا أهرام سقارة، يقولون إنها الأقدم، يوجد ما يقرب من سبعين هرما

---

(١٨) هكذا فى الأصل، وربما أراد نصف قرش..!

بالقرب من النيل، إلا أن أهرام الجيزة التى شاهدناها هى الأكبر والأعظم لكنى الآن أشاهد الأقدم.

من "المعصرة" وفى الناحية الجنوبية الشرقية كان هناك منجم لقطع الأحجار، يقولون - هكذا يقولون - ربما قُدَّت أحجار الأهرام من هذا المكان، أنا لست متأكدًا!

وصل القطار إلى حلوان وقت الظهر، حلوان بلدة عظيمة، هناك فندق كبيرة ومبان ضخمة إلا أنه بسبب الحرب أُغلق عظم الفنادق، وبدت البلدة كأنها تموت، لا حس، ولا خبر، لا شىء غير السكون، يقول الناس إنهم أودعوا أسرى الحرب فى أكبر فندق فى حلوان.

ذهبنا إلى الحمَّام الملكى، الماء شفاف، تفوح منه رائحة "السلفا"، فى الفندق أستحم فى "بانيو" غير عميق، لكنى هنا يمكن أن أستحم وأغطس بكل جسمى وأسترخى وأستريح تماما.

بعد أن خرجنا من الحمام ركبنا الحنطور وذهبنا إلى فندق أنطونيو، وهو فندق صغير تناولنا فيه طعام الغداء، طلبنا "الخضراوات المطبوخة دون لحم"، وطلبنا فاصوليا خضراء باللحم، معظم من يفدون على هذا الفندق يأتون من أجل الحمام الملكى، ومعظمهم من النساء اليهوديات. بعد أن تناولنا طعام الغداء بدأنا نستريح قليلا تحت "تكعيبة" عنب لكن فجأة سمعت صوتا ينادينى.. كان العربجى الذى أخذنى بالحنطور إلى الحمام، جاء ليخبرنى بأن القطار على وشك أن يتحرك..

وهكذا غادرنا حلوان فى الساعة الثالثة، ووصلنا القاهرة فى الرابعة والربع، حين وصلنا عند حديقة الأزبكية كان هناك تجمهر وزحام، كان هناك عدد من العربات فيها مصريون وبريطانيون ومن بينهم نساء أيضا، أتعجب من عساه يأتى الآن.. يقول الناس إنه جنرال بريطانى مهم!

فى المساء أجلس فى الشرفة أشاهد غروب شمس كل يوم، وأفكر كم هى جميلة السماء فى مصر، سماء صافية تماما، وبعد الغروب يحل المساء فتتحول

زرقة السماء الى زرقة لامعة تماما، وبعد ذلك تصبح الزرقة باهتة ثم تتحول إلى زرقة قاتمة، ثم تظهر النجوم تلمع وتبرق على صفحة السماء بشكل بديع.. يظهر أمامى نجم الدب القطبى بوضوح تام، وشرفتنا فى الطابق الثانى وهى باردة وأحيانا يشتد علينا البرد، لكنى أظل اتطلع إلى الدب القطبى فهو ليس مرتفعا أشعر أنه منخفض تماما إلى مستوى ناظرى، وهناك أعلى رأسى أشاهد كوكب الشعرى (الشعرى اليمانية) أتذكر الآن حين كنت فى السفينة "بورسيه أومارو" أشاهد النجوم! أين هذه السفينة الآن بعد أن تركناها؟ دلفت إلى الفراش لكننى لم أتمكن من النوم.

فى السادس والعشرين من مارس وطبقا لصحيفة الايجيبشان ميل فإن من كان ضمن المركبات التى مرت من أمام حديقة الأزبكية هو الجنرال الإنجليزى اللنبى Allenby الذى عين مؤخرا قائدا للقوات الإنجليزية فى مصر، وكان من الجنرالات الكبار فى فلسطين فقد حقق انتصارات كبيرة هناك.

بعد الظهر حين كنت أفكر فى زيارة حديقة منطقة الجزيرة وسط النيل، قدم خادم الفندق وقدم لى مظروفا كبيرا، حين فتحته وجدت بداخله التصريح الذى كنا ننتظره! جاء فى التصريح ما يلى:

"فى ٢٨مارس يسمح للسفر إلى بورسعيد، وفى ٢٩مارس يسمح بالمغادرة إلى القدس".

وأخيرا حصلت على التصريح، مشاعرى صارت هادئة وغمرنى السرور، أخذت الحنطور إلى منتزه الجزيرة، حديقة كبيرة مثلثة الشكل مملوءة بالأزهار والورود المتفتحة التى لا حصر لها ، كثير من الأطفال يلهون ويلعبون هنا وهناك، شاهدت رجلا تحت ظل شجرة يبدو أنه يغفو قليلا، جلسنا تحت ظل شجرة واسترخينا لفترة، بينما كنت أتطلع بفرح إلى التصريح الذى حصلت عليه، والتصريح يتضمن بندين: الأول السفر من القاهرة إلى بورسعيد، والثانى من بورسعيد إلى القدس عبر القنطرة، وهناك أيضا خطاب توصية من الملازم رودكليف Radcliff إلى الحاكم العسكرى فى القدس السيد ستورس Storrs الذى

كان قد زار القاهرة من قبل للقاء الجنرال أللنبى Allenby، ومرة أخرى غمرتنا السعادة بينما كنا نشاهد هذا التصريح.

فى اليوم السابع والعشرين ذهبت إلى فندق "سب وى" ، شكرت الملازم رودكليف Radcliff الذى كرر قوله السابق:

إذا أردت أن ترسل خطابات خاصة للأصدقاء فلا مانع من ذلك ، لكن إذا أردت أن ترسل مقالة إلى صحيفة رجاء أن ترسلها هنا أولا، سوف أطلب من السفير البريطانى فى طوكيو أن يفحصها، لهذا لا داعى لإرسال الترجمة.

شكرته كثيرا وتصافحنا وقلت له: وداعا! هذه الإقامة فى القاهرة تحمل بالنسبة لى أكثر من معنى، فالبريطانيون أجبرونى على البقاء هنا كما لو كانوا يريدون أن يطلعونى على الأمور فى مصر وكيف تمضى الأحوال فيها، ربما كان هذا ما أرادوه... مكثنا هنا نصف شهر، شاهدنا الطرفين وسمعناهما، ووضعنا فى ذاكرتنا كل شيء!

فى المساء انتقلنا إلى الشرفة واخترنا الناحية الشرقية، وأخذنا نتطلع إلى ما يدور فى الشارع أمامنا... نصف شهر يُعَد مدة طويلة بالنسبة لنا، لكننا نجد أنفسنا الآن مضطرين للمغادرة وعندها سنشعر بالوحشة، سيصيبنا ألم الفراق، سوف نفتقد هذا المكان! سنفتقد بلد الشمس المشرق، بلد الصحراء وبخاصة وقت المساء، وبعد غروب الشمس؛ فقد كانت السماء جميلة جدا بلونها الأزرق الكوبالتىّ.

## المرأة فى مصر (بقلم أى)

المرأة المصرية تغطى نفسها بـ"ملاية" سوداء، إذا فهمنا أن هذا كان منذ بعثة النبى محمد (ﷺ) فهذا يعنى أنه مر قرابة ١٤٠٠ سنة على ذلك، وتفرض عليهن ضروريات الحياة أن يكشفن فقط عن عيونهن، وهناك شيء على الأنف يبدو أنه من الخشب الملون أو ربما من الخرز الأصفر أو الأحمر، كما يوجد أحيانا شيء يتدلى من الأنف إلى الذقن قريبا من الرقبة. شاهدت بعض النسوة يفترشن الأرض ويبعن الطماطم وبعض الخضراوات الأخرى، شاهدت أيضا بعض النسوة

يهرولن بالملايات السوداء التى تدلت على الأرض، لكنها تكشف عن أقدام "حافية"، هؤلاء ينتمين إلى الطبقة الدنيا فى المجتمع، لكنى من ناحية أخرى وعلى البعد كنت أشاهد بعض النساء يرتدين عباءات سوداء من الحرير الطبيعى، ويضعن على وجوههن نقابا أسود شفافا، بدا رقيقا جدا، وفى أقدامهن أحذية لها كعوب عالية ، أو صنادل من البلاستيك بكعوب عالية، يحسبهم الناظر نساء أوروبيات، سمعت أن المرأة التى تنتمى إلى الطبقة العليا تدرس عادة فى أوروبا، وهى متعلمة تعليما جيدا، ومثقفة ثقافة عالية، وهناك بعض النسوة يسافرن خارج مصر، وهناك من بينهن أديبات يشاركن فى الحياة الثقافية العامة، وبشكل عام المرأة المصرية ممشوقة القوام غير سمينة، عيونها واسعة، وأظن أنهن رغم هذا الحجاب والعباءة الطويلة فهن فى غاية النشاط، يتحركن بسهولة، ورغم مرور آلاف السنين فهذه الحركة وهذا النشاط انتقل إلى عيونهن فصارت واسعة، تحمل نظراتهن مشاعر طيبة جدا، وعيونهن تعبر عن كل المعانى دون أن ينطقن بالكلمات، والملابس النسائية التقليدية هذه تحفظ المرأة من أشعة الشمس والأتربة، إلا أن الزهرة تحت الظل تعيش حياة قصيرة، فالحماية الشديدة جدا تجعل المرأة المصرية ضعيفة، والمرأة الضعيفة بدورها تجعل الرجل المصرى نفسه ضعيفا.

على كل حال شاهدت قلة من النساء يتصفن بالنشاط الملحوظ، ومنهن أولئك اللواتى شاهدتهن فى مظاهرة ثورة المصريين، أعتقد أنه لو وثق الرجل المصرى بالمرأة وأحبها أكثر وأكثر، فإن المرأة المصرية ستتخلص من هذه العباءة السوداء، وتتأقلم حياتها، ويتأقلم جسمها وروحها مع الوضع الجديد، وسوف تتنفس هواء الحرية المنعش، حينئذ ستشرق الشمس فى مصر مرة أخرى..... (أى).

## بورسعيد

### (١)

فى صباح اليوم الثامن والعشرين من مارس غادرنا فندق شبرد، محطة القطار بدت مزدحمة جدا بشكل غير عادى لأن قطارا واحدا فقط فى اليوم يغادر من القاهرة إلى بورسعيد، ويقوم فى الساعة الثامنة صباحا. جلس بجوارنا

جندى يعلق شارة (بادج) أستراليا، أراد أن يقدم لنا سيجارة، لكن لسوء الحظ نحن لا ندخن مطلقًا، فاعتذرنا له وشكرناه، فتعجب، ليس هو فقط الذى يتعجب من هذا فأحيانا حين نقول للآخرين إننا لا ندخن تصيبهم الدهشة، وهذا شىء غريب حقا.

توقف القطار فجأة، ربما هناك خطأ ما، أو حدث طارئ... لكنه بدأ يتحرك من جديد، إلا أنه توقف ثانية، ثم تحرك، وتكرر هذا الأمر عدة مرات.

كان القطار يسير ببطء شديد، قال لى الجندى الأسترالى: القطار هذه الأيام يتأخر جدا.

كانت لهجته الإنجليزية لهجة أسترالية، فهو ينطق بيبر paper بايبر paiper. نظرت من نافذة القطار لأشاهد المنظر الخارجى، فرأيت أزهار اللوتس البيضاء والوردية، وشاهدت أحيانا الجنود البريطانيين الحاملين للبنادق يصيدون السمك بالقرب من هذه الأزهار، وحين اقترينا من بورسعيد شاهدت من نافذة القطار شيئا عجيبا، شيئا أصفر طويلاً معلقًا فى الهواء، ظننته منطادا لكنه لا يتحرك أبدا، حسبته جزيرة من الجزر، لكن الجندى قال لى: لا لا إنه السراب!

شاهدت فى الطريق أشياء عجيبة ، صخرة لها شكل غريب أو قارب دون شراع، لكنى أدركت أحيانا أن هذه الأشياء العجيبة ربما تكون غير حقيقية، والآن فقط عرفت أنها سراب!

وصل القطار إلى بورسعيد فى الساعة الثانية بعد الظهر متأخرا ساعة ونصفًا.

(٢)

كان المكان مزدحما للغاية ، أخذت سيارة وذهبت إلى فندق فيورافانتى، كان السيد نان وأخوه قلقين جدا علينا لأننا مكثنا فى القاهرة مدة طويلة، وكانا على وشك أن يرسلا خطاب استفسار عن حالنا قبل أن نصل، وعلى كل حال هناك وقت حتى الغد، رحبا بنا بتناول الأيس كريم، ثم ذهبنا إلى دكان السيد نان،

فاخترنا ما سنحمله معنا من معلبات تحوى أطعمة محفوظة وأطعمة مجففة وأسماكًا مجففة وغيرها مما يصلح للسفر.

كان الجو حارا جدا فأحضر لنا شقيق السيد نان مروحة كهربائية لتحرك الهواء أمامنا، وتخفف من درجة الحرارة، قدمت السيدة ليئه Leah زوجة السيد نان لتسلم علينا، وهى شابة إيطالية فى التاسعة عشرة من عمرها، وأخيرا وبعد الساعة السابعة تمكنا من حزم أمتعتنا، وتركنا معظمها طالبين من السيد نان أن يحفظها لنا عنده، وفى الساعة الثامنة رافقنا شقيقه إلى فندق  مارينا بالاس، حيث أخذنا غرفة فى الطابق العلوى، ودعانا السيد نان للعشاء لهذا سنذهب إلى مسكنه الواقع فى الطابق الرابع من المبنى المواجه للحديقة، فى غرفة المعيشة علقت صورة والدَىّ السيد نان، والده فى نفس عمرى، اثنان وخمسون عاما، والسيد نان هو الابن الثالث لأبويه، تزوج الإيطالية "ليئه" منذ سنتين، لكنهما لم يرزقا بأطفال حتى الآن.

تتكلم الزوجة اللغة اليابانية قليلا، فالسيد نان وأخوه يتكلمان اليابانية، لهذا تلتقط بعض الكلمات والتعبيرات، أحيانا تلفظ كلمات وقحة، وكان عليه أن يعالج الأمر، لكنه كان يضحك لهذا.

فى غرفة الطعام الصغيرة تناولنا عشاء بسيطا لكنه لذيذ، وبخاصة أنهم قدموا لنا البرتقال المبرد، لم يكن برتقالا مصريا، كان شبيها بالبرتقال الأمريكى، كبير جدا وقشرته سميكة ومملوء بالعصير، قالوا إنه من سوريا.

عدنا إلى غرفة المعيشة واستمعنا إلى "لئيه" وهى تعزف البيانو، بعد ذلك لعبت زوجتى "الدومينو" مع السيد أنان وزوجته، وقدم لى شقيق السيد نان عصير الموز.

كان النسيم العليل يهب من ناحية البحر، عرفت أنه حين كنا فى القاهرة قامت هنا أيضا مظاهرات فى بورسعيد، فقد تجمهر الناس وحطموا المحطة، وأراد البريطانيون التصدى لهم فأطلقوا الرصاص فى الهواء لإخافة الناس، إلا أن بعضهم لقوا حتفهم... مضى أسبوعان، قضيناهما فى القاهرة ثم رجعنا هنا،

شعرت أن الجو العام لا يزال مشحونا، أخبرنا السيد نان أنه منذ أربع سنوات، منذ الحرب لم تشهد بورسعيد إطلاق نار، لذا كانت المدينة هادئة فى معظم الأوقات، لأن البريطانيين أمروا بحظر تجمع أكثر من ثلاثة أشخاص فى وقت واحد، تحدثنا عن اليابانيين الذين يفدون على بورسعيد، قال السيد نان إن بعضهم يقوم بعمليات التهريب ويسببون له مشاكل طول الوقت.

بعد العاشرة ليلا شكرنا السيد نان وزوجته وأخاه وعدنا إلى فندق مارينا بالاس. بعد المظاهرات السابقة كان لا بد للمحلات أن تغلق الساعة الثامنة، لذا باتت مدينة بورسعيد هادئة وأمست مظلمة وموحشة، إلا أنه مثلما كانت سماء القاهرة جميلة رائعة فإن سماء بورسعيد أيضا جميلة رائعة مثل سماء الليل فى بعض المناطق الغربية المواجهة لبحر اليابان... كانت السماء بلون يميل إلى زرقة قاتمة، والنجوم تتلألأ كما لو كانت تتساقط فوق رأسى.

## مدينة القنطرة

(١)

فى يوم التاسع والعشرين من مارس فتحت الباب وخرجت إلى الشرفة وأنا أتوقع شروق الشمس من البحر الأبيض المتوسط، كان صباح الميناء صباحا هادئا جدا، بينما كان النسيم يهب عليلا من ناحية البحر، طلبت من الجرسون أن يحضر طعام الإفطار وتناولته مع زوجتى فى الشرفة.

بعد مدة مر علينا السيد نان ليأخذنا إلى المحطة، كنا نعتمد عليه اعتمادا كليا، كان يقوم بكل شىء من أجلنا شكرناه كثيرا قبل أن يودعنا. وبعد قليل قام القطار، وبعد ساعة وصلنا إلى القنطرة حيث نزلنا، كانت هناك كابينة صغيرة فى الصحراء خلف المحطة، كان فيها عدد من الكراسى والطاولات، وكذلك عدد من العساكر البريطانيين والمصريين يفحصون أوراق المسافرين، انتهينا من هذه الإجراءات وكنا على وشك التحرك إلا أننا أخبرنا بأن العربة التى ستقلنا إلى المحطة الأخرى فى القنطرة لم تأت بعد، وهكذا كان علينا أن ننتظر فى هذه الكابينة لمدة طويلة.

بالقرب من هذه الكابينة شاهدت المركبات العسكرية تعبر أحيانا فى أماكن بعيدة، وكان هناك نحو ثلاثين أو أربعين جنديا من شباب الإنجليز يسبحون، هناك جسر يفتح مركزه ويغلق من الوسط، وكانت هناك سفينة قادمة من اتجاه بورسعيد ترفع العلم البريطانى، مرت عبر الكوبرى المفتوح، وبعد مرورها شاهدت ثلاثة أشخاص مصريين من أهل هذه المنطقة يقومون بتدوير عجلة لإغلاق الكوبرى، لهذا كانت المركبات تنتظر حتى يتم إغلاق الكوبرى، وهكذا وبعد إغلاق الكوبرى بدأت السيارت فى التحرك.

كان هناك دكان خارج الكابينة يبيع روايات وقصصا بريطانية رخيصة، أردت أن أشترى البرتقال لكنى لم أجد محلا لبيع الفاكهة هنا، كان الجو حارا جدا، شاهدت فأرا يجرى هاربا، انتبة البعض وضجوا بالصياح بينما ولى الفأر هاربا، ربما اختفى خلف الصناديق.

بعد ساعة ونصف وصلت العربة التى ستحمل المسافرين، وكان المسافرون هم نحن فقط! عربة عسكرية كبيرة كتب عليها كلمة "مدنيون civilian" وكان متاعنا ثلاث قطع وسلتين وشمسيتين وقفازات وحقائب صغيرة، وكما وضع لنا السيد نان ثلاث زجاجات "سيدر"، وقد طلبت منه أن يحفظ عنده معظم أمتعتنا فقد كان من الصعب علينا حملها كلها.

كانت أشعة الشمس محرقة فاستخدمت زوجتى الشمسية، وبدأت العربة تسير، حركات مفزعة، ترفعنا وتنزلنا، وهى تعتلى وتهبط على الطريق، كأنها جواد هائج يقفز هنا وهناك، وشعرنا كأننا سنسقط من السيارة، وتدحرجت زجاجات السيدر وخشيت أن تنكسر، وبعد رحلة قصيرة لكن شاقة وصلنا إلى خيمة، وكان علينا أن ننزل، وننزل أمتعتنا، فهذه نقطة الفحص الثانية، خيمة صغيرة معلق فيها "لمبة جاز" وهناك عدد من الجنود بدت على وجوههم علامات حب الاستطلاع، فنحن بالنسبة لهم يابانيون يصلون هنا مباشرة بعد الحرب ليدخلوا القدس، وبخاصة وجود امرأة يابانية، ربما كانت أول امرأة يابانية يشاهدونها، عاملونا بشكل طيب وأخبرونا بأنهم أطلعوا حاكم القدس الجنرال "ستورس" على خبر قدومنا، وأنه إذا أردنا أن نذهب إلى أى مكان آخر إضافة إلى

حيفا فيمكننا ذلك. كان الملازم رودكليف Radcliff فى القاهرة قد ذكر أنه من الصعب الذهاب إلى أى مكان غير حيفا، لكنهم هنا ذكروا لى أن بإمكاننا الذهاب إلى أى مكان، وقدموا لنا الماء، وبعد أن غادر المسافرون الذين وصلوا من قبلنا ركبنا العربة ووصلنا إلى محطة القنطرة الشرقية.

هناك قطار يتجه إلى فلسطين ويقوم فى الساعة الخامسة والنصف مساء وقطار آخر يقوم فى الساعة الحادية عشرة، والأول درجة ثالثة ومزدحم جدا، لذا قررنا أن نركب قطار الساعة الحادية عشرة، ونحن الآن فى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، لهذا علينا أن ننتظر اثنتى عشرة ساعة، طلب منا أحد العساكر أن ننتظر فى استراحة الشبان المسيحيين (واى إم سى ايه) وهكذا ركبنا العربة ووصلنا إلى تلك الاستراحة.

(٢)

هذه استراحة الجنرالات العسكريين البريطانيين، وهى على شكل مثلث وبها عدد من النوافذ والأبواب وكانت كلها مشرعة، بينما كانت الأرضية مبلطة ببلاط أبيض، وأمام المدخل كتبت عبارة:

"لله للملك للوطن" For God, For King, For Country

وهناك بيانو وكراسٍ مرصوصة بشكل منظم وبعض الأرائك التى صفت بطريقة جميلة، كانت الخيمة مقسمة إلى عدة أقسام: قسم منها لتناول المرطبات، حيث يوجد عدد من الكراسى والطاولات، وقسم آخر جعلوه مطبخا، وهناك رجل متوسط الطول، عرفت أنه موظف أمريكى، ناقشنا معه أمر تناول وجبة طعام فقال بأنه يمكن أن يقدم لنا بعض الحلوى أو عصير البرتقال أو الليمون، وتناولنا بعض الساندوتشات التى أعطانا إياها السيد نان وطلبنا عصير البرتقال غير المثلج دون إضافة سكر وأكلنا بعض الحلوى ، وأكلنا البرتقال أيضا، وعلى كل حال كان علينا أن نقضى هنا اثنتى عشرة ساعة، لذلك جلسنا بالقرب من النافذة فى الناحية الشمالية، ورغم أننا كنا نجلس بالداخل فإن شمس الصحراء كانت شديدة الحرارة، كان وقت الظهيرة، منتصف النهار، لا ظل ولا نسمة هواء، كنت أشاهد الرمال فى الخارج تسطع تحت أشعة الشمس القوية.

حاولت أن أخرج من الخيمة، بالقرب من الغرفة المخصصة للاستراحة، شاهدت حلاقا يقص شعر أحدهم، الاثنان كانت بشرتهما بيضاء! كانت دورة المياه من الخشب ولم تكن بحالة جيدة، كما أن بابها لم يكن محكما، وفى نفس الناحية علق البعض غسيله ليجف! حرارة فوق العادة، فعدت أدراجى، كنت متعبا جدا ومنهكا من تأثير الحرارة والسفر والحركة المتواصلة منذ الأمس، لم أشعر برغبة فى أداء أى عمل، أجلس على الكرسى الهزاز، أتطلع إلى ساعتى عدة مرات، فالوقت يمضى بطيئا جدا.

عند الساعة الثالثة قدم الجنرالات العسكريون ليتناولوا الشاى، صارت وجوههم جميعا شديدة الحمرة بسبب حرارة الجو، خلعوا الكابات وتخففوا من أحزمتهم التى كانت على صدورهم، وجففوا عرق وجوههم، أحضر بعضهم فوطة وصابونة لكنهم قرأوا إعلانا يفيد بأن الحمام مغلق لثلاثة أيام، فأصيبوا بخيبة أمل! شاهدت ممرضات على رؤوسهن الكاب الأبيض، وجنديا جريحا مع زوجته أو مع إحدى الممرضات، لست متأكدا! كما شاهدت جنديا مع امرأة ترتدى ملابس على الطريقة الأمريكية... امتلأت الطاولات بينما كان الموظف الأمريكى يقدم الشاى بالحليب، وكان الجميع يشربون الشاى كأنهم يتمتعون بنكهته وطعمه اللذيذ.

كنا قد شربنا آخر زجاجة سيدر؛ لذا لم يكن لدينا ما نشربه، وكنا فقط نتطلع إليهم وهم يشربون الشاى، وبعد مدة علقوا إعلانا كتب فيه: اليوم انتهى مخزون الشاى والقهوة، وهكذا اضطر البعض إلى طلب عصير الليمون غير المثلج، وبدأ الجنود يخرجون واحدا تلو الآخر، بعد ذلك شعرت بأن هناك أمرا غريبا يحدث فى الخارج فخرجت من الخيمة وخرجت معى زوجتى ووجدنا أن الخيمة المجاورة لنا تحترق، تعجبت فقد كان الناس يشاهدون فقط دون أن يصدر عنهم رد فعل يذكر، واحترقت الخيمة تماما حتى صارت ترابا، ولم يصب أحد بجروح ، وانتهى الأمر كأن شيئا لم يكن... وعاد الهدوء من جديد.

بعد أن خرجت مجموعة من الجنود من الخيمة جاءت مجموعة أخرى انصرف كل منهم إلى عمل شىء مختلف، منهم من كان يعزف على البيانو ومنهم من كان

يقرأ الصحف، ومنهم من كان يكتب الرسائل، وكان بعضهم يتهامسون، لا أحد يهتم بوجودنا على الإطلاق... لا أدرى كيف ينظرون إلينا: زوجان يابانيان يجلسان بالقرب من الكراسى، يبدو على وجهيهما الإرهاق الشديد، كان كل من دخل الخيمة يلقى علينا نظرة لكن لا يحملق فينا، هم ضباط مهذبون، الرجال والنساء بريطانيون ويبدو أنه لا توجد بينهم ألفة أو مودة، لا يتحدثون معا...

الساعة الرابعة الآن... الساعة الخامسة الآن... الوقت طويل يمر ببطء شديد، أصابنى الإرهاق الشديد، عند السادسة تبدأ الشمس بالمغيب، وفى الداخل بدأ الجو يتسم بالبرودة قليلا، خرجت من الخيمة لأشاهد غروب الشمس، لكن السماء من ناحية الغرب كانت لا تزال مضيئة ببقايا أشعة شمس اليوم الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان لون السماء جميلا ، سماء صافية مثل ماء أزرق، ثم تحولت الزرقة إلى زرقة مشوبة ببياض ثم زرقة قاتمة وانتهى الظل وعمت الظلمة بعد أن حل الليل... النسيم عليل والجو تحسن كثيرا فتمشيت حول الخيمة، دماغى الساخن بدأ يستريح ويهدأ، وشعورى بالضيق بدأ يتحول إلى شعور بالهدوء والسكينة، شاهدت هناك فى السماء كوكب الزهرة ... أضاءوا الخيمة، بعض الجنود يتمشى حول الخيمة، مشيت ناحية خيمة أخرى تستخدم صالة موسيقى، شاهدت جنديا بدا فى الأربعين من عمره يعزف البيانو ويتحرك كالمجنون، بعد ذلك رأيت رجلا فى بدلة سوداء يلقى محاضرة، والحضور الذين اكتظت بهم القاعة كانوا من الجنود، كان هناك إعلان خارج القاعة عن موضوع المحاضرة "الرجل العظيم، كيف و لماذا صار العظماء عظماء؟! Great man ,How and why did they become great?" سمعت بعض عبارات الخطبة لكنى لم أستطع أن أفهم ماذا يقول المحاضر، فلم يكن الموضوع واضحا، ورجعت مرة أخرى إلى مكان الاستقبال.

تناولنا بعض الحلوى ومرة أخرى شربنا الليمون غير المثلج، كان هذا هو عشاءنا، واشترينا علبة "كارميلة" وكبريت، وطلبت من أحد الخدم أن يتولى أمر أمتعتنا، فقال: يجب أن نغادر المكان فى الساعة التاسعة، والآن الساعة السابعة، لذا أمامنا ساعتان.

أخذنا الكراسى وجلسنا خارج الخيمة، بدت النجوم جميلة جدا، الدب القطبى وكوكب الشعرى بدت بحجم كبير جدا لدرجة أثارت تعجبى، وكانت تبرق وتلمع لأن هواء الصحراء جاف ونقى، وتطلعت فى السماء فوجدت طريق درب اللبانة واضحا تماما وجميلا جدا وكنت أتطلع ناحية الشمال فأرى الأفق يتمدد أمامى إلى ما لا نهاية حيث يتحول المشهد إلى غبش لا نهائى.

كان من حولنا أناس كثيرون وخيام كثيرة كلها تحت النجوم، أتعجب هل هذه الخيام من أجل الجنود البريطانيين المنتصرين فى القرن العشرين أم هى خيام الإسرائيليين الذين هربوا من مصر. أتعجب ! كنا متعبين ومصابين بالقرف، نجلس حينا ونقف حيانا ونتحرك حينا ونتوقف حينا، لم يكن يمكننا الثبات على وضع واحد، وفجأة ألقيت بجسمى مرة واحدة فوق الرمال... سقطت... شعرت ببرودة الرمال وطراوتها ونعومتها إلا أن زوجتى نهضت من على الكرسى بعد أن تعجبت من هذا الوضع الذى صرت عليه، فقلت لها: لا تقلقى أنا بخير فهدأت وجلست على الكرسى ثانية.

لاحظت ظل اثنين أو ثلاثة من الجنود يقتربون منا، كانوا جنودا بريطانيين جاءوا حين شاهدونى أسقط على الرمل، قلقوا من أجلى إلا أنهم بعد أن أدركوا أننى بخير تركونا، أشعر بالراحة الشديدة وأنا فوق الرمال وأظن أن الإنسان سوف يموت بهذه الطريقة المريحة..

الشمس هى أبى والأرض هى أمى وأنا الآن سقطت على الرمال وهذا يعنى أننى على فخذى أمى... كانت زوجتى تشاهدنى صامتة، وأنا أيضا بقيت صامتا، النجوم فوق وجهى تطل علىّ، بينما كنت أسمع صرير حشرات صغيرة من مكان بعيد، وأسمع همهمات طفل، أظنها النجوم فى السماء، لكن نجوم الأرض هم الرجال.

(٣)

برودة الليل ورمال الصحراء أنعشتنى، شكرا "واى إن سى إيه"... فى الساعة التاسعة تركنا الخيمة، ذهبنا إلى المحطة مع الشاب الأمريكى، أحد المصريين

الذين يتولون مسئولية خط السكة الحديد قادنا إلى عربة الدرجة الأولى، وسأل عن اليابان، وتعجب حين عرف أننا نبنى معدات السفن الحربية، ونبنى السفن فى اليابان، أخذنا فى الساعة العاشرة إلى مكتب التذاكر، كان هناك ثلاثة جنود يقفون عند شباك التذاكر، ربما قال أحدهم شيئا ثرثر ببعض الكلمات، يبدو أنه كان يشكو، ثم التفت إلى جندى آخر وقال شيئا، ثم قال لى: يجب أن تنتظر فى الصف ... انتظر دورك.

جاء دورى وفحصوا أوراقنا، وأعطونا التذاكر، دفعنا ٥٩٥ قرشا[١٩] ثم ذهبنا إلى العربة، كانت هناك كبائن للنوم ، فى كل كابينة شخصان ، يسمونها عربة نوم لكنها للعسكريين أساسا.

خلال الحرب أقام الألمان خط السكة الحديد هذا، ثم أعاد البريطانيون ترميمه، وضعت أمتعتنا فى القطار وأعطيت الحمالين بعض الهبات، وبعد مدة أحضر لنا أحد الحمالين زجاجة ماء بارد، أدهشنا بهذه الهدية، كنا سعداء جدا فقدمنا له هبة مرة أخرى، ثم جاء رجل آخر حاملا لنا إناء مملوءا بالماء، وكان هذا بالنسبة لنا مكسبا عظيما... الآن صرنا وحدنا... اثنين فقط، كان نسيم الهواء البارد يهب علينا، أطفأوا الأنوار فى القطار، وأخرجت الفانوس الذى أحضرته معى من اليابان، أضأته، كنت قد طلبته قبل رحيلى من اليابان بمدة قصيرة، البطارية مفيدة أكثر لكن حجارتها تنتهى بسرعة وأحيانا لا نجدها، لكن هذا الفانوس رغم أنه موضة قديمة فإنه مفيد وسهل ويحقق الغرض من الإضاءة.

كنت على وشك أن أعلقه بجوار الشباك لكن النار شبت فاحترق أحد جوانبه لكن هذا لا يعنى أننا لا يمكن أن نستخدمه!

بعد أن أطفأت الفانوس تماما شربت الماء الذى أهدانيه الحمال المصرى ثم وضعت بعض الماء على فوطة وخلعت ملابسى ومسحت كل جسمى بالفوطة المبللة بالماء، بدأت أستعد للنوم، نمت تحت ونامت زوجتى فى السرير العلوى وفى

(١٩) هكذا فى الأصل.

الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل تحرك القطار وغادر القنطرة... الآن نحن متجهون إلى هدفنا... السماء مملوءة بالنجوم والصحراء مملوءة بالرمال البيضاء والقطار يمضى متجها إلى فلسطين... نمضى وسنصل بسرعة إلى أرض الأحلام... استقيظت فقد كانت زوجتى تنادينى وتقول: أغلق النافذة من فضلك فأنا اشعر بالبرد، وقد صعب علىّ إغلاقها.

نهضت وأغلقت النافذة، ونظرت إلى الساعة فوجدتها قاربت الثانية صباحا، وفى الخارج بدت النجوم كأنها تتساقط، بينما القطار يمضى فى الصحراء ولا أدرى فى أى مكان نحن، ولا يبدو لى سوى شىء أبيض وآخر أسود... واستغرقت فى النوم ثانية.

# فلسطين

# بلد الذكريات القديمة

## إلى القدس

### (١)

فى صباح يوم الثلاثين من مارس سنة ١٩١٩م (تايشو٨)[٢٠] حين فتحت عينى كانت الشمس قد أشرقت، ففتحت "الكابينة " وخرجت إلى الممر وفتحت النافذة... قطارنا الذى غادر مدينة القنطرة فى مصر يمر الآن وسط حقول خضراء، ولا أدرى أين نحن الآن، لكن ربما كان القطار يمر فى اتجاه الجنوب الغربى بالقرب من البحر، غسلنا وجوهنا بالماء المتبقى، وأصلحنا من هندامنا، وبدأنا نشاهد المنظر الخارجى.

ترامت أمامنا حقول القمح، بينما كنت أشاهد بين الحين والآخر قرى صغيرة متفرقة، وعلى طول خط السكة الحديد توجد خيام الجنود البريطانيين والمصريين والهنود، وهناك أنواع كثيرة من الورود والأزهار، وهناك قطعان الماشية والأغنام ترعى العشب، وقد بدت هادئة مسترخية، كانت زوجتى تشاهدها فى سعادة وسرور، وهناك أيضا حدائق مملوءة بالأشجار المثمرة، بدت من بعيد كأنها أشجار برتقال، وأشجار تين وأشجار خوخ ومشمش كذلك، ربما هذا هو موسم هذه الفواكه، وهو موسم طيب بحق.

---

(٢٠) حسب التقويم اليابانى، وانظر الهامش (١) صفحة ٢٧.

توقف القطار فى الساعة السادسة والنصف فقد وصلنا إلى محطة اللّد، ولما كان هذا القطار متجها إلى حيفا مباشرة فقد كان علينا أن نغير القطار هنا.

(٢)

نزلنا من القطار، وركبنا قطارا آخر كان فى انتظارنا، سيقلنا مع غيرنا من المسافرين إلى القدس، كان القطار مزدحما إلى حد ما، وقد قدم من ميناء يافا وينتظر هنا حتى يصل القطار المتجه إلى حيفا.

منذ ثلاث عشرة سنة حين جئت إلى فلسطين مررت بهذه المنطقة، لكنى ألاحظ أنها تغيرت كثيرا، كان المسافرون معنا من جنسيات ونوعيات مختلفة، كان من بينهم رجل فى منتصف العمر من منطقة القوقاز، وأيضا مسئول حكومى كبير قادم من يافا، وجنود يرتدون الزى العسكرى وعليه شارات الصليب الأحمر، وجندى شاب صغير قدم من سميرنا Smyrna[٢١] يحمل حقيبة بداخلها آلة موسيقية، ومن النافذة كان يمكننى أن أشاهد العساكر يحمل كل منهم البرتقال، بكلتا يديه وهم يتزاحمون لركوب القطار.

لا يوجد هنا محلات أو دكاكين سوى دكان واحد لا يبيع إلا البرتقال، حاولنا النزول من القطار، وذهبنا وسط الزحام لنستظل بظل الأشجار... أنماط من البشر رجال ونساء تزاحموا لشراء البرتقال، وحاولنا أن نزاحم وبعد مدة تمكنا من شراء ثمانى برتقالات من امرأة كانت تغطى نفسها بحجاب أسود، لاحظت أن هذا البرتقال يشبه تماما ذلك البرتقال الأمريكى الذى قدمه لنا السيد نان من قبل. دفعنا قرشين[٢٢] لفّفنا البرتقال بالفوط الرقيقة ووضعناه فى جيوبنا.

حين زرت فلسطين قبل ثلاث عشرة سنة شاهدت فقط أشجار برتقال صغيرة بالقرب من يافا، لكن عبر هذه السنين تقدمت طرق الزراعة وأساليبها وتطورت كثيرا، وهكذا نلاحظ أن كثيرا من المناطق امتلأت بالأشجار، أكلنا البرتقال، كان طعمه لذيذا جدا مثل طعم برتقال كاليفورنيا، لو كنا فى طوكيو لكلفنا شراء

---

(٢١) يشير إلى الاسم القديم لمدينة أزمير.

(٢٢) فى الأصل: اثنان P بى، وربما قصد قرشين أو بنسين.

برتقالة واحدة خمسين سينًا[٢٣]، كان الجميع هنا مشغولين بأكل البرتقال، العساكر والمدنيون على حد سواء.

سألنا أحد المسافرين: هل أنتم يابانيون أم صينيون؟ لم أغضب حين سألنا ما إذا كنا صينيين، فطعامى المفضل عادة هو الأطباق الصينية، وليس فقط الطعام لكنى أحب أيضا الصينيين. فأنا نفسى أظن أن شخصيتى شخصية عالمية أكثر منها يابانية، أو مثل شخصية أهل الجزر، لم أكن غاضبا لكنى أجبته بوضوح: أنا يابانى.

كان هذا الرجل الذى سألنى قد تردد على هذه المنطقة كثيرا، حين سألته عن الفنادق فى القدس أجاب بتفصيل وإطناب.

غادر القطار اللد فى الساعة الثامنة، كان يسير وسط حقول القمح، كان الهواء باردا ومشبعا بعبير الأزهار الذى يهب علينا من نافذة القطار، كانت زوجتى تشاهد هذا المنظر بعينيها الضيقتين اللتين صارتا أكثر ضيقا كما لو كانت تدقق فى المنظر الذى أعجبها كثيرا[٢٤] ذكرنى هذا المنظر وذكرتنى رائحة العبير الطيب بكتاب لكاتب أوربى كنت قد قرأته من مدة عن عبير حقول فلسطين فى الصباح.

بعد "الرملة" بدأ القطار يسير صاعدا تجاه ما يشبه التلال، وكان يسير فى منطقة صخرية، ومن بين الصخور كنت أشاهد الأزهار البرية الجميلة، كنا نصعد ونصعد، وحين وصل القطار إلى منطقة مفتوحة اكتشفت أننا نقترب من مدينة القدس، وهكذا وصلنا إلى المحطة التى تقع خارج أسوار المدينة فى تمام الساعة الحادية عشرة صباحا.

(٣)

حين جئت إلى القدس منذ ثلاث عشرة سنة نزلت فى فندق أوليفت هاوس Olivet House يديره بريطانى يدعى هانسمان Hensman، ونحن ننوى الإقامة فى نفس الفندق هذه المرة، أرسلت رسالة إليه من القاهرة، لكننى لم أتلق إجابة،

---

(٢٣) جزء من الين.

(٢٤) ضاقت بؤرة عينيها لتشاهد المنظر بشكل أوضح.

ولم أتمكن أيضا من إرسال برقية إليه؛ فالبرقيات ممنوعة؛ لهذا حين وصل القطار محطة القدس وفى مكتب الجوازات بالمحطة سألت أحد المسئولين عن الفندق فذكر لى أن الفندق مغلق، فارتبكت كثيرا، فإذا كان فندق أوليفست هاوس لا وجود له فعلىَّ أن أذهب إلى فندق آخر، كان الملازم البريطانى رودكليف قد اقترح على أن أنزل فى فندق فاستس هوتل fast's Hote، والسيد كوما فى بورسعيد ذكر أنه ينزل عادة فى فندق القدس Jerusalem، والأول فندق للعسكريين والثانى موقعه غير مريح بالنسبة لتنقلاتنا، اقترح على أحد رفاقنا فى السفر فندق جراند نيو هوتل Grand New Hotel، ومن هنا ركبنا الحنطور الذى بدأ يصعد بنا تجاه سور المدينة القديمة، حيث كنا نشاهد من ناحية الجانب الغربى للمدينة جبل صهيون، وفى المكان الأكثر ارتفاعا برج داوود، قلت لزوجتى: هذه المنطقة هى كما هى منذ تركتها قبل ثلاث عشرة سنة لم يطرأ عليها أى تغيير ملحوظ، مررنا عبر بوابة الخليل، ثم توقف الحنطور أمام فندق غراند نيو هوتل... حين صعدنا إلى الطابق الثانى وجدنا قاعة مثلثة الشكل، مفروشة بسجادة حمراء، كانت هناك أرائك وكراسٍ وطاولات مرتبة ونظيفة، وكانت الحوائط مزينة بصور مرسومة بألوان الزيت ومن السقف تتدلى ثريا جميلة.

عبرنا هذه القاعة لنصل إلى غرفتنا، وكانت هى الغرفة الثانية على الجانب الشرقى، لم تكن غرفة سيئة، لكن الغرفة الأولى أكبر منها قليلا؛ لذا أردنا أن نبدل، وطلبت ذلك من موظف الاستقبال، فاستجاب لطلبنا.

حين دخلنا الغرفة وجدنا سريرين على جانبى الغرفة فوق كل منهما ناموسية بيضاء وعلى الجانب الجنوبى للغرفة دولاب وحوض لغسيل الوجه بينما توجد على الجانب الشمالى مدفأة داخل الحائط، كانت الغرفة أصغر من تلك الغرفة التى نزلنا بها فى فندق شيبرد بالقاهرة. وهناك نافذة بضلفتين فى الناحية الشرقية كما توجد شرفة صغيرة، تطل على حارة ضيقة ملتوية، وشاهدنا من الفندق أسطح كثير من المبانى كما شاهدنا قبة كنسية القيامة التى تم بناؤها على بقايا قبر المسيح المفترض، تحت هذه الكنيسة يوجد نصب مربع أبيض الشكل، ويمكن أن نشاهد أيضا مسجد عمر، كما كان يمكننى أن أرى جبل

الزيتون وكنيسة الروس الأورثوذكس ، كما أمكننى أن ألمح الجبل المقابل للبحر الميت.

## القدس (أورشليم)

## يوميات السطوح

### (١)

أتذكر ذلك اليوم حين كنا فى القاهرة وشاهدنا الجنرال أللنبى الذى عين حاكما للقدس فى الحادى عشر من ديسمبر ١٩١٧م، وقد مضى على ذلك سنة وأربعة أشهر، القدس الآن تحت حكم البريطانيين، حين اندلعت الحرب بين الطرفين المتحاربين كان كل منهما يبذل الجهد كى يحترم قدسية المدينة، لذا تجنبا القتال داخل القدس، لهذا لا يوجد دمار أو خراب بالمدينة؛ إلا أن الجنود الألمان والأتراك حين اضطروا إلى الانسحاب من القدس قاموا بتدمير محطة الكهرباء لهذا لا يوجد كهرباء فى القدس حتى الآن، وفى الليل يستخدمون لمبات الجاز؛ لذا يعم الظلام المدينة فى الليل.

حين دخلنا الغرفة أول مرة حاولت أن أضغط على زر الكهرباء لكن دون فائدة، وحين طلبت الخادم ورجوته إصلاح الكهرباء أجاب بأنه لا توجد أصلا كهرباء؛ لأن الأتراك دمروا محطة الكهرباء، ومن ثم أضاء لنا الشموع بالقرب من فراشنا.

لا يمكننى أن أرى أى فرق بين قدس عام ١٩٠٦ وقدس عام ١٩١٩م لا شىء يبدو قد تغير منذ ثلاث عشرة سنة لكن ربما حدث تغيير فى أمور كثيرة قد لا تبدو لى الآن.

جئنا إلى فلسطين، جئت إلى القدس، بينما وجهة الناس إلى فرساى فى فرنسا لكننا كنا كمن قفز قفزة فوصل هنا، من قرر لنا؟! من همس فى آذاننا؟ من ألهمنا أن نأتى هنا؟! لماذا جئنا إلى القدس؟ لم يكن ذلك فى مخططنا منذ البداية، كانت لدينا فقط رغبة فى المجىء إلى القدس، ففلسطين هى بالنسبة لنا العالم كله، وزيارتنا لها كأننا تجولنا فى العالم كله!

جئنا... ماذا عسانا أن نفعل؟ لا ندرى، ماذا سيحدث؟ لا ندرى لكن السفينة سفينتنا، دخلت الميناء ثم ألقت بمرساها... لا شىء سوى الانتظار لنرى ماذا عسانا أن نرى، ولنفعل ما يمكننا أن نفعل... فقط سأكتب يومياتى، وأسطر ذكرياتى، وبعد مدة حين أقرأ ما كتبت، وهو كوردة مغلقة لم تتفتح بعد، حين أعيد قراءتها، وأطالع أوراق وردة الذكريات فربما يصير ما كتبت أكثر وضوحا!

* * *

ظهر يوم الأحد الثلاثين من شهر مارس ١٩١٩م (تايشو ٨) بالنسبة لى مرت ثلاث عشرة سنة منذ أن جئت هنا، وهذه هى المرة الثانية، وبالنسبة لزوجتى هذه هى المرة الأولى، وصلنا إلى القدس ونزلنا فى فندق غراند نيوهوتل، فندق كبير جدا، والمقيم فيه يشعر أنه يقيم فى بيته، لا يوجد نزلاء كثيرون هذه الأيام. المطعم فى الطابق العلوى، والطاولات صُفَّت بحيث يجلس على كل طاولة شخصان، تناولنا الغداء فى جو من الترحيب، أكلت الأرز والكارى[٢٥] كان لذيذا جدا بينما الخبز كان مثل الخبز الشامى سميكا مثل "الأوسيمبيه اليابانية السميكة"[٢٦] كان لذيذا جدا.

بعد وصولنا هنا ذهبنا مباشرة لنأخذ حماما، كان الحمام على الطريقة الألمانية؛ إذ يتم تسخين الماء باستخدام تقنية حرق الأخشاب، وقد أخذت حماما باردا كما لو كان المطر قد هطل علىَّ فجأة، بعدها نمنا قليلا وطلبنا من خادم الفندق أن يعيرنا كرسيين، كان الخادم يضع على رأسه الطربوش التركى الأحمرالذى ينتشر بين أهل تركيا ومصر والشام وبين العرب عامة، وفى تركيا يغطى الرجل الهرم والطفل فى سن الخامسة أو السادسة رأسه بالطربوش، وحتى النصارى أيضا يغطون رءوسهم بالطرابيش، والطربوش على شكل "الدلو" الصغير ومن فوقه تتدلى خيوط صغيرة سوداء اللون بينما الطربوش أحمر قانٍ، وأحيانا يكون أحمر يميل حماره إلى اللون البرتقالى، ومن الآن فصاعدا سوف أكتب "الطربوش[٢٧] الأحمر" بدلا من "الطربوش[٢٧] التركى".

(٢٥) يقصد الطبيخ سواء كان خضارا فقط أو به لحم.
(٢٦) الخبز الجاف المقرمش.
(٢٧) وردت كلمة "الكاب" فى الأصل.

ذهبنا إلى المطعم لتناول طعام العشاء فى زى يابانى، فى مصر كنا نرتدى الملابس اليابانية فى غرفة الفندق فقط، ونرتدى الملابس الغربية حين نخرج من الفندق إلا أننا ذات مرة خرجنا بالملابس اليابانية، فقد ارتديت أنا وزوجتى الكيمونو، وذهبنا إلى حديقة الأزبكية فى الليل، فكان الناس يلتفون حولنا يتفرجون علينا بتعجب واستغراب.

سنمكث فى القدس مدة طويلة لذا قررنا أن نرتدى الكيمونو اليابانى، ليس على سبيل الدعاية لليابان لكننا نريد أن نلبس ملابس مريحة بالنسبة لنا.

* * *

اليوم هو الحادى والثلاثون من شهر مارس، شاهدت الشمس تشرق من فوق جبل الزيتون، كما شاهدت طائرا غير عادى يحلق فى السماء، كانت درجة الحرارة ٦٤ فهرنهايت، ونحن على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، الهواء بارد ومنعش، خرجنا بعد تناول الإفطار، واتجهنا شمالا حيث ذهبنا إلى مكتب البريد، وهناك وجدت مديرا بريطانيا وموظفين محليين، لم يصلنا أى بريد حتى الآن، كنت قد طلبت أن تصلنا رسائلى على فندق أوليفيت هاوس، لكنهم قالوا إنه الآن مغلق، لكن المبنى لا يزال قائما، وهو يوجد فى شمال غرب المدينة القديمة، فى حى سكنى هادئ، حيث المنظر يكون بديعا رائعا، وهو ليس ببعيد عن مكتب البريد هذا، لذا فكرنا فى الذهاب إلى اتجاه فندقى القديم! لقد مضت أعوام طويلة، ثلاث عشرة سنة... المنظر المحيط تغير، الأشجار صارت أكثر ارتفاعا، وظهرت مبان جديدة لم تكن موجودة، والناس الذين يمشون أيضا هم من أنماط مختلفة عما قبل.

سألت أحد المارة عن كيفية الوصول إلى أوليفت هاوس، فى فلسطين تعد الفرنسية هى اللغة الأكثر انتشارا تليها الألمانية، وهم لا يتكلمون الإنجليزية كثيرا، كما أن لغتى الإنجليزية ليست جيدة، لكنى حاولت أن أستخدمها وأسأل الناس عن مكان الفندق... وأخيرا وجدناه... لكن مبناه انقسم إلى قسمين، وشاهدت فقط مدخل المبنى، كان هناك نسوة كلهن يهوديات.

فى طريق عودتنا شاهدت شجارا بين شاب عربى يغطى رأسه بالطربوش وآخر يهودى بشرته بيضاء لا يضع على رأسه أى غطاء، بل يرتدى "روبا" أسود مع مريلة" بيضاء ويلبس صندلا، أردت أن أوقفهما وأمنعهما من الشجار معا، فقد كان سبب الشجار كلبًا صغيرًا يتنازع عليه العجوز اليهودى والشاب العربى، والشاب يريد أن يأخذه بالقوة لكن العجوز يريد الاحتفاظ بالكلب، لم يكن باستطاعتى وأنا أستخدم اليابانية أو الإنجليزية أن أفض النزاع، فلغتى لا تؤثر فيهما لأننى لا أتحدث العبرية ولا العربية ، لكن شرطيا مصريا شابا اقترب منا فأخبرته بالموضوع، وجاء فتى فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة فهمس للشرطى بكلمات، فتكلم الشرطى مع الشاب العربى الذى كان يمسك بالكلب ولم يأخذ الشرطى الكلب منه، وأخذ الشاب الكلب ومضى لكن العجوز اليهودى لم يصب باليأس فتبع الشاب العربى والكلب...

***

إذا ولد المسيح من جديد، واستمر فى حياته التى انتهت عند عامه الثالث والثلاثين، فسوف يعيش إلهًا وإنسانًا، وأنا على يقين من أنه سيتزوج، وسيختار بالطبع من ستكون رفيقة حياته، فى الأناجيل الأربعة ذكر عدد من الفتيات وعلى سبيل المثال: مارتها وماريا من بوتانيا، وقد أحبهن المسيح، أحبهن جمعيا، وغمرهن بعطفه، وأنا الآن أفكر بل أتعجب إذا أحبهن حب الرجل لزوجته فأيًا منهن سيختار زوجة له؟!

ماريا المجدلية تبدو مثل الممثلات الشهيرات، وقد استلهمها الفنانون والأدباء، وصارت مادة لفنهم وأدبهم، وأنا أتخيلها كما لو كانت وردة لوتس بيضاء فى بركة تختلط مياهها بالطين، أتخيل بشرتها، وجهها فقط، لكنى أتخيل ملامح جسدها الواضحة تماما، أتخيلها بشكلها الجميل ولون بشرتها الجذاب، كل الناس دون استثناء يحبونها، وربما أحبت المسيح حبا جما، وبينما كان باولو يحمل المسيح حتى وفاته المسيح أحبها كثيرا.

لكن إذا أراد المسيح أن يختار لنفسه زوجة ليعيش معها بقية حياته فربما اختار ماريا من بيتانيا[٢٨] .. ماريا الطاهرة المطيعة يجب أن تكون زوجة المسيح، البيئة الاجتماعية التى عاشت فيها ماريا شهدت عصر احترام الناس للبطل وتبجيله ، شهدت العصر الذى يعبد فيه الناس إلها واحدا، كانت هذه سمة المجتمع الذى عاشت فيه، ومن أجل تكرار هذا العصر، وإعادة نفس التاريخ لا حاجة لإعادة ميلاد المسيح، وإذا كانت هناك أهمية وحاجة لأن يولد المسيح من جديد، فإنه بعد ولادته يجب أن يكون فى مجتمع مختلف تماما وفى بيئة مختلفة تماما، فحياة المسيح بدأت بالسلام وانتهت بالصلب، إلا أنه بعد ميلاده من جديد، يجب أن تبدأ بالصلب ثم تنتهى بالسلام، المسيح أول مرحلة لحياة النجار؟![٢٩] لكن بعد إعادة ميلاده ليكن أى شىء نجارا أو غير ذلك، ليكن إنسانا عاديا جدا، يجب أن يقضى حياته إنسانا عاديا جدا، يجب أن يقضى حياته ديموقراطيا قُحا، والآن إذا أراد أن يختار زوجة لمسيح عادى فإن أنسب امرأة له تكون المرأة العادية جدا وهى ماريا من بيتانيا (بيت عانيا).

لقد أُهينَ السلام كثيرا! وأهين الخير! وأهين كل ما هو طيب! كل الأشياء العادية فى الحياة أهينت! والآن حان الوقت لقلب كل شىء وتغييره تماما ... أم المسيح عيسى يجب أن تكون مع يوسف إلى الأبد[٣٠]، ماريا يمكن أن تجد رفيقا، مارتها من بيتانيا يمكن أن تكون عمة أو خالة، وبجانب المسيح ماريا بيتانيا يجب أن تبقى بجواره إلى الأبد، سوف أقدم مقالتى عن ماريا بيتانيا إلى زوجتى أى.

* * *

(بقلم أى)[٣١]:

الأول من شهر إبريل... العصافير تحلق تطير خارج النافذة تزقزق، والهواء منعش، جو الصباح الجميل حلّ بغرفتنا بينما أشرقت الشمس من فوق جبل

---

(٢٨) يطلق عليه أيضا بيت عانيا.
(٢٩) هكذا فى الأصل.
(٣٠) هكذا فى الأصل.
(٣١) هذه السطور بقلم "أى" زوجة توكوتومى.

الزيتون.. آه يا له من شروق رائع مملوء بالبهجة والحيوية... نحن سعداء لأن الجو بديع ورائع.

سوف نزور "بيتانيا" اليوم، لهذا ركبنا الحنطور إلى المحطة، وصلنا إلى بوابة "ياتسفيا؟" ومنها إلى بوابة دمشق، شاهدت امرأة عربية تحمل طفلها، كانت ترتدى عباءة سوداء تغطى كامل جسمها، بينما كان الطفل يلبس ثوبا جميلا ناصع البياض، أشار زوجى قائلا: هذا نصب مقبرة الجنرال غوردن! مضينا قليلا وشاهدت ما اعتقدناه كلابا تسير فوق التلال، لكننا اكتشفنا بعد قليل أنها قطيع من الخراف، منها الأسود ومنها الأبيض تمشى فى تتابع عجيب.

أخذنا الطريق الجنوبى المتجه إلى وادى كيدرون، على الجانب الأيمن يوجد مسجد عمر، وهناك على قمة الجبل يرتفع برج الكنيسة الروسية بمنظره الرائع، وفى الناحية الشمالية الكنيسة الألمانية، ووسط الجبل كنت أشاهد كنائس كثيرة أو هى قباب شيدت على نظام العمارة الروسية، بدت تلمع بألوانها الذهبية، قال زوجى: هذه حديقة الجثمانية[٣٢]، وهذا الطريق الأبيض الصاعد إلى الجبل هو فى الحقيقة سور الجثمانية، اليهود فى جميع أنحاء العالم يريدون أن يدفنوا هنا بعد موتهم، كان يمكننى أن أشاهد شواهد المقابر البيضاء فوق هضبة الجبل.

شاهدت تلة بيضاء فى الوادى، يقال إنه قبر "أبو ساروم؟"، الذى عارض والده ديفيد، إلا أنه نال حب الناس لذا أقاموا نصبا لقبره هنا... من عربة الحنطور كنت أشاهد القدس، لقد بدت المدينة القديمة وهى مرتفعة فوق التلال جميلة جدا، فقد خيل إلى وأنا أشاهد مبانيها البيضاء تظهر تحت السماء الزرقاء أننى أشاهد أزهار الماغنوريا فى سماء شهر مايو (آزار)... الطريق يمضى إلى الجنوب الشرقى تلال ترتفع وتنخفض فى اتجاه "أريحا" وبين التلال فى الوديان المنخفضة كنا نشاهد البقر والأغنام ترعى العشب فى هدوء وطمأنينة... كان منظرها يوحى بالهدوء والسكينة والأمن والسلام .

---

(٣٢) للمزيد من المعلومات عن حديقة الجثمانية Gethsemane انظر المجلد الأول.

شاهدت أنواعا مختلفة كثيرة من الأزهار البرية بألوانها المختلفة الحمراء والبنفسجى والصفراء المخضرة والبيضاء والصفراء الفاقعة، شعرت كما لو كانت الأزهار تبتسم لى... كان هناك صبى يرعى الغنم، التقط بعض الأزهار وأهداها لى... كان بعض الرعاة من العرب يمرون بنا يمتطون الجياد... كان زوجى مسرورا جدا، يتطلع حواليه ويكرر: انظرى هنا! هذا! وهذا! انظرى... أموت لو لم أشاهد هذا المنظر البديع! أو لم أتنسم هذا الهواء العليل... أتعجب كم مرة جاء المسيح هنا؟! ، كم مرة عاد من هنا؟! كم مرة مر من هنا؟! من بيتانيا إلى القدس، وعلى هذا الطريق الذى نمضى عليه الآن... كنا متجهين معا أنا وزوجى إلى بيتانيا كما لو كنا تزوجنا حديثا ومتجهين لنقضى هناك شهر العسل... غمرنى هذا الشعور، كنت أشعر بأننى خجلة، وأشعر بالحنين إلى الأيام الخوالى! أحاول أن أغطى نفسى وأتخيل كأننى أتغطى برداء قطنى شفاف!

كانت عربة الحنطور تمضى ببطء على الطريق، ثم توقفت ... هذه مشارف قرية بيتانيا (بيت عانيا)... حين نزلنا من الحنطور أسرع ناحيتنا ولد وبنت من أبناء المنطقة، كان الولد يدعى ديفيد، سأله زوجى:

يا ديفيد أين بيت ماريا؟

فرد ديفيد: سأدلكم عليه.

وكان هناك ولد أكبر منه يدعى ديفيد أيضا، وبنت صغيرة تدعى مارتها، وأخرى أصغر تدعى ماريا، جاءوا إلينا طالبين "البقشيش" المعهود... قال لهم زوجى:

تعالوا جميعا! هيا بنا معا...

وذهبنا إلى مكان فيه كهف يطلقون عليه قبر "رازارو" أضأنا شمعة ونزلنا ناحية الكهف... لم أدخل الكهف إلا أن زوجى دخل مع الأطفال ليشاهد ماذا هناك... جدار صخرى، وتوجد مقبرة فيها فتحة صغيرة، قال ديفيد الكبير:

من هنا قال المسيح: تعال يا رازارو.

هكذا نطق ديفيد كأنه يمثل دور رازارو، فقام زوجى بتقليد قائلا: رازارو تعال يا رازارو، وبعده انفجر الجميع ضاحكين، أعطينا البنت التى تحرس القبر خمسة قروش[٣٣]، ثم غادرنا المكان، ووصلنا عند بوابة كبيرة مقوسة مشيدة من الأحجار الحمراء وعليها زخارف جميلة، وهذا المكان مبنى منذ مدة طويلة ليكون ذكرى لبيت مارتها ماريا، ومن وراء البوابة المقوسة يوجد بقايا بيت مربع مقسم قسمين: قسم من أجل رازارو، وآخر من أجل الأختين مارتها وماريا ، هكذا أخبرونا! أظن أنه بيت ضيق جدا، لكنى فكرت فى الأمر فقد كانت هذه المساحة من آلاف السنين مساحة مناسبة.

شاهدت شجرتى رمان كبيرتين تنمو بينهما أزهار مختلفة بألوان متعددة الأحمر والأصفر والبنفسجى وغيرها ، التقطت وردت حمراء ووضعتها فى كراسة مذكراتى"، وحين رأتنى البنات ألتقط هذه الزهرة، قطفت كل منهن وردة وقدمتها لى، وهكذا صرت أمسك بالورود كما لو كنت عروسا تزف إلى عريسها!

تذكرت! منذ ثلاث عشرة سنة حين جاء زوجى إلى هنا كنت أقيم فى مساكن المدرسة الداخلية فى منطقة "عذابو" فى طوكيو، وكنت دائما أتحرق شوقا لاستلام رسائل زوجى، كنت أتعلم اللغة الإنجليزية فى الصف الأول مع بنات المدرسة اللواتى يبلغن من العمر ثلاث عشرة سنة، وذات يوم تسلمت رسالة من زوجى كان معها وردتان جميلتان بلون أحمر مثل دم الغزال، وفى هذه الرسالة وفى الصفحة الأولى قرأت:

"إلى زوجتى الحبيبة التى أحبها أكثر من أى امراة أخرى حتى مارتها وماريا!"

ثم أهدانى زوجى كتابه عن مذكرات رحلته السابقة، وكتب فى عنوان فرعى:

"إلى زوجتى التى تمنيت أن تكون معى... أحسب هذا نوعا من تجاذب الأرواح".

وضعت الوردتين بين صفحات "الإنجيل" الذى أحتفظ به دوما... وبعد مدة رجع زوجى من رحلته، لكن ذات ليلة سرق أحدهم الإنجيل وفيه وردتا ماريا! ولم

---

(٣٣) فى الأصل: بى P.

يرجع إلىَّ لا الإنجيل ولا الوردتان مطلقًا... كنت حزينة جدا، لكنى ها هنا وبعد مرور ثلاث عشرة سنة أجد نفسى قريبة جدا من ماريا ومارتا؛ لذا اقتطفت بنفسى وردتين... وأخذت أحملق فى وجوه البنات، وجوههن ليست نظيفة، لكنهن جميعا يشبهن ماريا ومالتا... طيبات وجميلات، وعلى وجوههن سمات الطيبة والبراءة، خاطبتهن باللغة اليابانية، قلت لهن:

يجب أن تتوقفن عن هذه العادة السيئة، توقفن عن مد أيديكن وطلب البقشيش، توقفن عن التسول، يجب أن تكنَّ بنات طيبات...

ومسحت بيدى على رءوسهن فى حنان، بالطبع لم يفهمن ما قلت لهن، لكن ربما شعرن بشىء ما من لهجتى وطريقة كلامى، ربما شعرن بالراحة!

تذكرت صورة المسيح ومارتها وماريا معا، تلك الصورة التى رسمها فنان روسى، النساء فى اليابان يردن أن يكن مارتها، فهى بالنسبة لهن الأفضل، وهذا هو نفسه التفكير الخاص بين الزوج والزوجة فى اليابان، لكن المسيح لم يختر مارتها، لقد اختار ماريا، إلا أننى أشعر بوجود مارتها، لذلك وجدت ماريا من أجل المستقبل إذا لا يجب على المرأة الا تكون مارتها أو ماريا، يجب أن تكون امرأة تحمل بداخلها ماريا ومارتها معا، يجب أن تكون مارتها وماريا معا فى وقت واحد، وأنا حقا أفكر هكذا...

خرجنا من المبنى وذهبنا إلى الحنطور، أعطى زوجى للمرشد ١٠ قروش[٣٤]، وطلب الأطفال بقشيشا، فقال لهم زوجى هذا من أجل اثنين وأعطى ديفيد الكبير ١٠ قروش، لكن ديفيد الكبير قال: أنا ساعدتك، أنا كنت دليلك وديفيد الصغير لم يفعل شيئا، وأخذ المبلغ كله لنفسه. لم يكن مع زوجى "فكة"، لكنه وجد ٥ قروش فحركها على رأس كل طفل ثم وضع المبلغ فى يد ديفيد الصغير، لكن إحدى البنات أرادت أن تتعارك مع ديفيد الصغير الذى استولى على خمسة القروش!.. أيتها الصغيرات كن مثل ماريا! وتمنيت لو أنى أحضرت معى بعض الحلوى من أجلهن. (أى)

---

(٣٤) فى الأصل P10 بينسات.

(٢)

اليوم هو أول أبريل، قبل أن أخرج فى الصباح سألت: متى يمكننى أن أقابل حاكم القدس ستورس Storrs حاملا إليه خطاب الملازم البريطانى رودكليف؟ كنت قد قدمت طلبا بذلك، وبعد أن رجعت من بتانيا وجدت الرد فى ورقة كتب فيها: (من فضلك تعال بعد الظهر) كان علىّ أن أسرع، فوصلت إلى مقر الحاكم فى الساعة الثانية عشرة والنصف، كان هذا المقر من قبل ملجأ للعجزة ، بناه الألمان وهو مبنى حجرى، صعدت إلى الطابق العلوى وقبل أن أسأل الحارس الذى يقف على باب غرفة الحاكم شيئا سمعت صوتا من الطابق الأول يقول: هل هو السيد توكوتومى... شاهدت ثلاثة أو أربعة رجال يصعدون السلم وكان حاكم القدس السيد ستورس أحدهم.

تبادلنا الأحاديث الخفيفة من مثل أن عدد سكان القدس ثمانون ألف نسمة، من بينهم ثلاثون ألفا من اليهود، فى وقت من الأوقات كان الأتراك يكرهون اليهود كراهية شديدة، وهذه الأيام يكره العرب اليهود كثيرا، وأشار بيده إلى رقبته؛ أى لدرجة التقاتل، ثم قال إن ما يقف فى وجه المشروع الصهيونى، بل هو أصعب شىء هو الإسلام، فرغم أن الأتراك المسلمين خرجوا من هنا، لكن العرب لا يزالون هنا فى مسجد عمر، ليس من السهل أن تصبح فلسطين موطنا لليهود، لا أدرى هل يمكننا أن ننزع سلاح العرب، هذا مستحيل، إنهم يمتلكون أسلحتهم الخاصة، لا يمكن أن نسلبهم إياها، ليس هذا بالأمر الهين.

يريد البريطانيون أن يتخلصوا من جميع أسلحة الأتراك والألمان وعتادهم الموجود فى فلسطين، وهم بحاجة إلى مساعدة العرب أنفسهم.

من خلال حديث حاكم القدس ومن عباراته التى ذكرها لى فهمت أن وظيفته ليست بالسهلة، فمهمته صعبة للغاية؛ لأن هذه المنطقة شهدت الكثير من المشاكل والنزاعات، ويعيش فيها خليط من الأجناس والديانات، فاليهود أقوياء متعصبون ومفترسون أما البدو العرب والسوريون فهم طائشون أحيانا ويتصفون بالرعونة أحيانا أخرى ولا يهتمون بالأمر، فضلا عن وجود أعداد كبيرة من الجنود

البريطانيين والجنود الهنود وغيرهم مما يجعل وظيفة الحاكم شاقة، إلا أنه يبدو نشيطا جدا، وقد لمست من شخصيته أنه رجل واقعى ولديه أمل فى أن تمضى الأمور على ما يرام، وهو لا يقلق كثيرا على ما يدور من أحداث هنا فى القدس، قال لى:

لا تقلق أثناء إقامتك هنا، كل شىء طيب، إذا احتجت لشىء أخبرنى دون تردد أو حرج، ثم أضاف.. بالنسبة للأمور الرسمية أنا هنا مجرد موظف حكومى أتبع أوامر لندن، ولا يمكن أن أعبر لك عن رأيى الشخصى، أو أتصرف من تلقاء نفسى، فأنا دائما أطيع الأوامر التى تصلنى من لندن.

* * *

شربت الشاى اليابانى فى حجرتى بالفندق بعد الظهر، كنت قد أحضرت معى "إبريق الشاى الفخارى" وفنجانى الشاى، والشاى اليابانى الأخضر، وقد اشتريتها فى الصيف الماضى من كنازاوا، فنجان الشاى جميل جدا، مصنوع بيد صانع فخار شهير فى كنازاوا، أما الشاى الأخضر فكان قطفة أولى، لكننا عبرنا المحيط الهندى فربما وصلت الرطوبة إلى أوراق الشاى، ومع هذا وبعد سفر مسافة ثمانية ألف كيلو متر من اليابان حتى هنا فالشعور يجعلنا نشعر بلذة تناول الشاى ونحن هنا فى القدس، نرتشف الشاى اليابانى الأخضر من فناجين صنعت بيد فنان ماهر، مع بعض الحلوى الخاصة التى أحضرتها زوجتى معها ، كم كانت لذيذة تلك الحلوى!

الليلة الماضية شعرت زوجتى بوعكة صحية، لذا صنعت لها نوعا من المهلبية اليابانية ( كوزو kuzu) بالماء الساخن، كنت قد اشتريتها من نيغاتا.

* * *

هناك رجل سمين جدا فى المطعم، شاهدته فى كل مرة نذهب لتناول الطعام هناك، كان برفقته امرأة عجوز، وأخرى متوسطة العمر، لم يكن يفارقهما أبدا، حسبته فى البداية أمريكيا، ولكنى اكتشفت ـ حسبما قال لى حين قدم نفسه ـ بأنه مولود فى روسيا، إلا أنه يعيش فى إنجلترا منذ عشرين سنة، ويدعى

فينجولد Feingold وهو مراسل صحافى لمجلة دينية اسمها "الصدق" The Truth، لكنه ينتمى إلى كنيسة طائفة اليهود الروس، مسيحى صهيونى! بعد العشاء حين جلست فى بهو الفندق حيث يستريح النزلاء عادة قدم السيد فينجولد Feingold إلينا، وعرفنا برجل عجوز إلى حد ما يضع على رأسه الطربوش التركى، ويدعى "أيوب" وهو وإن كان تركيا فقد كان أجداده يتعاملون مع الصليبيين قديما، ولأنه كان يدعم الإنجليز حين نشبت الحرب فقد ألقى به فى السجن، ثم أفرج عنه، وقد خرج من السجن مؤخرا، لذا يبدو عليه الإرهاق والتعب الشديد، وأيوب هذا يعرف جيدا السيد هانسمان صاحب فندق أوليفت هاوس، وقد ذكر أن الأتراك الذين يدعمون بريطانيا قد زُج بهم فى السجن، وحتى البريطانيون أيضا، فهذا السيد هانسمان البريطانى زج به فى السجن، فقد كانت تلك سياسة الحكومة التركية هنا، إلا أن هزيمة الأتراك فى الحرب كانت سببا فى الإفراج عنه، وهو الآن فى مستشفى الصليب الأحمر.

فينجولد أورثوذكسى، بينما أيوب مسيحى لا أدرى من أى طائفة، سألنى فينجولد Feingold عن دينى! بينما كانت زوجتى تجلس مع المرأة العجوز المرافقة للسيد فينجولد Feingold والأخرى متوسطة العمر، المرأة العجوز تعيش فى القدس منذ تسع عشرة سنة، والمرأتان كلتاهما تعملان فى خدمة العساكر، تقدمان خدماتهما للجنود من قبيل التنظيف والشراء وغير ذلك.

تحدثنا كثيرا، قلت لهم إن عهد الصليبيين قد ولى ومرّ، وإذا كنا نبحث عن شعار فلسنا بحاجة إلى الصليب، يمكن أن نتخذ من الشمس شعارا بدلا من الصليب، قال فينجولد: إن ميلاد المسيح قريب، وحين يظهر ثانية سيظهر على جبل الزيتون. قال أيوب: إذن لا يوجد لدينا صليب. المسيح لا يمكن أن نكون آمنين. كرر أيوب هذه العبارة أكثر من مرة، كنا منفعلين ومملوئين بالإثارة أثناء هذا النقاش، وصارت لغتى الإنجليزية "المكسرة" أفضل كثيرا! قلت لهم: منذ ألفى عام مضت أعلن المسيح: أنا انتصرت على العالم، عبادة الشيطان يجب أن تنتهى، وطاعة الشيطان يجب أن تتلاشى بأسرع ما يمكن، لا أريد أن أضحى من أجل الشيطان. لقد أحب المسيح الأطفال، وأنا أومن بالطبيعة، والأطفال هم الطبيعة، لذا فهم يمثلون البراءة، والبساطة، والخير، هم الأفضل...

بدا التأثر واضحا على وجه المرأتين الجالستين مع زوجتى، لقد تأثرتا بكلماتى كثيرا، وقد أخبرتنى زوجتى فيما بعد أنهما قالا لها أثناء نقاشى: إن زوجك رجل حساس جدا.

سأل السيد فينجولد عن دين زوجتى، فأجبته نيابة عنها وقلت له هى تؤمن بالطبيعة أكثر منى، هى طفل رغم أن شعرها قد شاب، هى حقا لا تزال طفلة تحمل براءة الأطفال فى داخلها، وما قصدته بطفلة هو الحقيقة بكل معنى الكلمة.

* * *

حين رجعت إلى غرفتنا أخبرتنى زوجتى بأن لدىّ رسائل كثيرة، فأخذت أبحث هنا وهناك فلم أجد شيئا، بينما وقفت تبتسم لى... آه، فهمت. اليوم هو أول أبريل... كذبة أبريل! يبدو أننى أنا نفسى صرت مثل كذبة أبريل!

(٣)

اليوم هو الثانى من شهر أبريل اصطحبت زوجتى إلى مسجد عمر، كان هناك حارس هندى شاب يقف أمام البوابة، وفى المكتب المجاور يوجد عجوز بلحية بيضاء، ذكر لنا أنه عاش فى تين شين فى الصين مدة سنتين، وقام بنفسه باصطحابنا حتى مدخل المسجد، كما ساعد زوجتى فى ارتداء خف فوق الحذاء، المسجد على شكل مثمن، وقبته مرتفعة للغاية، وفى أعلاها هلال مذهب، قالت زوجتى حين رأته: إنه حقا جميل، وانشغلت زوجتى بمشاهدة المسجد والتفرج على ما حوله من أشجار الصنوبر (السرو) العالية، كما شاهدت بئرا مملوءا بالماء، وهى مياه جوفية، ومن هذا المكان أمكننا أن نشاهد جبل الزيتون، كانت زوجتى فى غاية السعادة والسرور بمشاهدة هذه المناظر من هذا المكان الهادئ الذى يسوده جو من الطمأنينة والراحة، إلا أنها لم ترغب فى مشاهدة (قبة الصخرة) المكان الذى يقولون إن إبراهيم (عليه السلام) كان يريد أن يذبح فيه ابنه "إسحاق" وحيث صلى موسى وداود، ومن حيث صعد محمد (ﷺ) إلى السماء... قدم إلينا كثير من الناس طلبا "للبقشيش" مما أصابنى بالقرف، وعكر مزاجى.

* * *

الثالث من أبريل حين كنا بالمسجد أمس جاء السيد هانسمان Hensman إلى الفندق، ربما أخبره أيوب التركى عنا، ولهذا سأذهب اليوم للقاء السيد هانسمان فى مستشفى الصليب الأحمر الذى يديره الأمريكان، يحتل المستشفى مكان الإرسالية الروسية، كما أنهم يستخدمون المستشفى الروسى كما هو، وعلى حاله السابق، حين وصلنا المستشفى لم يكن السيد هانسمان هناك، فكتبت له عدة سطور، كما تركت له مجلة "طائر الوقواق" باللغة الإنجليزية. أذكر منذ ثلاث عشرة سنة حين أقمت فى فندق أوليفرست هاوس وعدته أن أرسل إليه مجلة "ناميكو" namiko لكننى لم أرسلها، والآن وبعد مرور ١٢سنة لا بد أن أعتذر له عن ذلك.

حين رجعنا من بوابة الخليل وأمام مكتبة الكتاب المقدس الأمريكية سمعت صوتا ينادينا، فالتفت فوجدته الرجل الأمريكى الذى التقيته من قبل فى مطعم الفندق الذى نقيم فيه، وحين توقفنا خرج إلينا من المكتبة رجل عجوز ليصافحنا، انتبهت إليه فإذا به السيد هانسمان.. لقد شاب شعره وظهرت علامات السنين على وجهه، إلا أن وجهه أعاد إلىّ ذكريات خلت، وجعلنى أتذكر أيام لقائى به قبل ثلاث عشرة سنة.

تناولنا طعام الغداء معا، أجرى السيد هانسمان عملية جراحية، وما زال يعانى قليلا بعد إجراء العملية الجراحية، ولم يتماثل تماما للشفاء، قدمت له "عكازى" هدية وهو من خشب خاص فى اليابان، تبادلنا الأحاديث، كان قد تسلم خطابى الذى أرسلته له من القاهرة، ورد فورا ونصحنى بالإقامة فى فندق جراند نيو هوتيل إلا أننى لم أتسلم هذا الخطاب.

حين بدأت الحرب قبضت القوات التركية على السيد هانسمان البريطانى واعتقلته وصادرت كل ممتلكاته، بيته وثروته، واستولوا أيضا على فندق أوليفت هاوس الذى كان يدر عليه ربحا وافرا، فقد أقمت فيه قبل الحرب مباشرة وكان عدد النزلاء آنذاك نحو سبعين نزيلا.

سجن السيد هانسمان فى تركيا لمدة أربع سنوات ثم رجع إلى القدس، ومر بظروف صعبة وقاسية، هذا العام بلغ السادسة والستين، وزوجته التى كانت قد

رجعت إلى بريطانيا قبل الحرب مباشرة من نفس عمره، أخرج هانسمان صورة زوجته ليرينا إياها. أوه! إنها تشبه إلى حد كبير زوجة تولوستوى، وصله منها خلال أربع سنوات سجنا أربعة خطابات فقط، هى كل ما أعطوه له أو سمحوا بإعطائه له! لم ينجبا أطفالا فتبنى ابن أخيه "روبرت" الذى بلغ الآن الثامنة والثلاثين من عمره، ويمكنه أن يتكلم اللغة العربية ولهذا يعمل الآن فى مكتب الجيش البريطانى فى منطقة الرافدين بالعراق، وسوف يرجع قريبا، بينما الزوجة ساتى من بريطانيا.

كان والده السيد هانسمان مزارعا، وقد مات منذ ثلاث سنوات عن عمر يناهز السادسة والتسعين. انقسم مبنى أوليفت هاوس إلى ثلاثة أقسام، تؤجر إلى ثلاث عائلات، وقد ذكر أنه بعد إطلاق سراحه من السجن رجع إلى القدس وأجرى عملية جراحية فى مستشفى الصليب الأحمر، ومر على إجراء العملية الجراحية أسبوعان فقط... كانت سنوات السجن الأربع فى تركيا من أصعب سنوات حياته، لكنه ذكر أنه أحسن حالا من الآخرين، فهناك نحو أربعة عشر معتقلا ماتوا فى السجن، وتساءل الكثيرون: هل كانت الوفاة طبيعية أم نتيجة تعذيب! كان من بين رفاقه فى السجن سجين أرمنى فقد كل عائلته وتفرق أفراد أسرته بحيث لا يعرف عنهم أى شىء حتى الآن.

بينما كنا نتكلم فى القاعة قدم رجل فرنسى إلى هانسمان، وهذا الفرنسى كان قد اعتقل أيضا وأودع نفس السجن الذى أودع فيه هانسمان، والرجل السورى الذى يدير فندق نيو هاوس دخل السجن أيضا وعذب كثيرا ثم تمكن من الهروب بعد أن قدم رشوة للحراس، إلا أن صحته بدأت تتدهور منذ ذلك الوقت، وتنفسه غير طبيعى وهو يعانى كثيرا من مرض الرئة، على كل حال كان مبنى أوليف هاوس قائما لا يزال موجودا، والسيد هانسمان أيضا لا يزال على قيد الحياة وهو موجود هنا فى القدس وتمكنا من لقائه، فكان هذا من دواعى سرورى وغبطتى.

يعيش هانسمان فى القدس منذ سنة ١٨٩٠م يعيش أكثر من عشرين سنة بين البريطانيين، وهو عميد البريطانيين هنا؛ فهو أكبرهم سنا، ذكر لى أنه

منذ أن غادرنا القدس قبل ١٢سنة زارها أربعة يابانيين أو خمسة.. هكذا قال!

* * *

بعد لقائى بالسيد هانسمان ذهبنا إلى كنيسة القيامة التى كان يمكننا أن نشاهد قبابها الصغيرة والكبيرة من غرفتنا فى الفندق.

شوارع القدس ضيقة وملتوية ومعقدة كثيرا، إذا فقدنا الانتباه قليلا يضيع منا الطريق، ونضيع نحن أيضا وسط متاهة لا يمكننا الخروج منها، ولهذا كنا نمشى الهوينى محاولين التركيز إلى أن وصلنا أمام بوابة دمشق، وشاهدنا لوحة مكتوبًا عليها: شارع رقم٤ ( IV St. ) وهذا يعنى أنه يمكننا من هذا المكان الوصول إلى حيث نشاهد الصليب الخاص بالكنيسة، وهكذا وصلنا إلى بوابة الكنيسة التى شاهدنا اسمها مكتوبا على لوحة واضحة هكذا Church of Holy Sepulchre دلفنا فى شارع ضيق، وشعرنا كأننا أمام معبد هونجانجى فى اليابان(٢٤)، امتلأت الحارة الضيقة بالباعة الذين انشغلوا ببيع الصلبان المذهبة والتماثيل والميداليات أو إطارات الصور المذهبة... كان عيد الفصح على الأبواب، ولهذا كانوا يبيعون أنواعا مختلفة من الشموع، بعد أن مررنا من هذه المنطقة دخلنا إلى شارع واسع إلى حد ما مرصوف بالحجارة، وعلى جانبيه ارتفعت المبانى، وفى الجانب الشمالى يوجد مدخل الكنيسة، كان المرشدون ينتظرون الزبائن، دخلنا الكنيسة وأول ما لفت نظرنا هو الأحجار الرخامية البيضاء مثل الطاولة، قالوا لنا: حين مات المسيح وضع جسده هنا ومسحوه بالزيت، ثم شاهدنا شموعا معلقة، أخذنا ناحية اليسار لنصل إلى تحت القبة، كان مرشدنا شابا فى منتصف العمر، أخبرته أن هذه هى المرة الثانية التى أزور فيها القدس، ولم يكن هناك كثير من الزوار، ربما ثلاث نساء أجنبيات، أو أربع تحت القبة صارت الأرضية أكثر ارتفاعا عن بقية أرضية الكنيسة، هذا قبر، كان حوله شمعدان من الذهب والفضة، شد

---

(٢٤) معبد بوذى فى كيوتو تابع لجماعة جيودوشيو البوذية. انظر: الإسلام والأديان فى اليابان، لسمير عبدالحميد، طـ الرياض ٢٠٠٢م.

انتباهنا بمنظره الرائع البديع، يقال: إنها من إهداء طوائف الأرمن والكاثوليك واليونان، شاهدنا غرفا صغيرة فى أطراف الكنيسة، كما شاهدنا أيضا بقايا لآثار مقابر من الرخام، أعلاها صورة السيد المسيح مصلوبا على الصليب، وهناك شموع كثيرة، طلب منا الحارس هبة فوضعنا فى يده p20، فأضاء من أجلنا شمعتين. وفى مقابل هذه الغرف الصغيرة توجد غرفة طعام خاصة بالطائفة اليونانية، وهى مظلمة جدا، وبعد الممر المؤدى إلى غرفة الطعام هذه وضعوا الكثير من الصور المرسومة بالزيت والتماثيل المختلفة الأحجام، ومن هذا المكان نزلنا أسفل إلى "البيدروم" فوصلنا إلى غرفة أكثر إضاءة وأكبر حجما، فشاهدنا تمثال هيلينا أم قسطنطين[٣٥]، ويقال إنها هى التى وجدت الصليب القديم، وربما قالت هذا هو الصليب الأصلى، وتمثال هيلينا يحمل الصليب الذى يقول الناس إنها وجدته.

رجعنا من حيث أتينا من ممر حجرة الطعام المظلمة كانت هناك بقايا رسوم ونقوش رائعة، وفى الناحية الشرقية تمثال كبير جدا للسيد المسيح، وكان التمثال بحجم المسيح تماما... هكذا قيل، كانت أضواء الشموع تنعكس على التمثال، دلّنا المرشد بعد ذلك على فجوة داخل صخرة ، بدت الصخرة طبيعية وربما من الرخام، حين نظرت من هذه الفجوة شعرت كأننى كنت أشاهد ما تخيلته حين كنت طفلا... لأننى حين كنت فى الثالثة عشرة من عمرى لم يكن لدى معلومات عن السيد المسيح، لم أحب منظر المسيح على الصليب، لا أريد أن أرى ثانية هذا المنظر فقد تأثرت كثيرا من القصة التى وردت فى الإنجيل، لم أكن أريد أن أشاهد المسيح أبدا على الصليب، وحتى الآن مشاعرى كما هى لم تتغير إطلاقا، سأرى فقط الصليب، وسأحمل المسيح وأمسح بيدى على جسده وأشعر بالأسى والحزن من أجله، وسوف أصلى من أجله، وأدعو أن يولد من جديد... ماذا يمكننى أن أفعل غير الدعاء حتى يولد المسيح من جديد!

---

(٣٥) بنى قسطنطين الأول كنيسة القيامة فى المكان الذى يعتقد أن المسيح صلب فيه، وقيل إن قبر المسيح والصليب الحقيقى اكتشف من قبل الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين فى ذلك الموقع سنة ٣٢٥م.

(بقلم أى):

قبل أن نغادر اليابان قال زوجى إن عهد الصلب وعهد العذاب قد ولى ومضى. حين سمعت منه هذه العبارة شعرت بالسعادة بوصفى امرأة لأن المسيح لن يتألم، وعهد الألم قد انتهى.

بالقرب من تمثال المسيح كان هناك تمثال مريم أمه موضوع فى صندوق زجاجى شفاف، ألبسوا تمثال مريم كثيرا من المجوهرات المهداة من أباطرة وملوك وحكام العالم وأثريائه، كانت هناك قطع من الألماس الكبيرة والأحجار الكريمة بأنواعها وألوانها المختلفة مثل الأوبال الذى تتغير ألوانه والزمرد والياقوت واللؤلؤ والكريستال البنفسجى، مثل هذه المجوهرات والأحجار الكريمة جعلوا منها عقدا وأساور وخواتم، وزينوا بها تمثال مريم وقد وضعوها كلها على التمثال! لم أشاهد مثل هذا المنظر من قبل، قلت لمريم: "يا أم! لقد مررت بأوقات صعبة عصيبة، لكن ها هم الناس يزينونك بطريقة جميلة جدا يبدو أنك مسرورة وسعيدة، مرت عليك مدة طويلة ...: ألفا عام لكن من فضلك! لا تخافى! يجب أن تشعرى بالسعادة والهناء لأن عهد الصلب قد انتهى وولى والآن نحن نتوقع عودة المسيح يجب أن تشعرى بالسعادة بجانب المسيح ابنك، وأنت يجب أن تقفى بجانب زوجك يوسف، أنت تركت زوجك والآن أنت هنا وحدك تحملين كل هذه الزينة هل أنت سعيدة؟ ألست كذلك؟! الناس قد زينوك بكل هذه الزينات دون رغبة منك فى ذلك هل أنت سعيدة؟! لا أظن ذلك... أنت لست سعيدة، هذه ليست رغبتك الحقيقية رجاء، عودى، ارجعى، لا تقلقى. (أى)

* * *

قلت لزوجتى مازحا: لم أشاهد تمثال مريم من قبل، هذه الأيام لا يزور هذه الكنيسة كثير من الناس، ربما يفكر البعض فى سرقة التمثال، بما عليه من مجوهرات وأحجار كريمة قيمة، يمكن أن أؤجر بدويين عربيين ليسرقا "التمثال" بما حمل.

قالت زوجتى: بعد ذلك سيقوم هذان العربيان، بالتخلص منك، ويستوليان على التمثال.

فقلت لها: صحيح ... حسنا، غيرت رأيى!

على كل حال هذه الكنيسة صارت مظلمة وصار جوها أكثر حزنا مما كانت عليه حين رأيتها قبل ثلاث عشرة سنة، ربما يرجع السبب لاندلاع الحرب. يقال إنه إذا عاد المسيح فإن هذا القبر يصبح بلا قيمة، فهذه الكنيسة بنيت على قبر المسيح، ولهذا فعودة المسيح تعنى انتفاء قيمتها، وهذا أمر طبيعى.

***

بعد تناول طعام الغداء فى الطابق الثانى فى كافتيريا "بافوار" تحدثت مع صحفى أمريكى يهتم بالأمور السياسية ويكتب فى Harpers Magazine، كان قد زار اليابان منذ نحو سنتين، تبادلنا الحديث لمدة ثلاث ساعات عن أمور كثيرة متنوعة، ذكر لى أن زوجته فرنسية، وهى تقوم بإلقاء محاضرات فى الجنود، بينما حدثته عن المسيح وتاريخ المسيح، وكيف سيبدأ العهد الجديد بعد عودة المسيح، وكيف ستعيش البشرية بمختلف أجناسها معا، وكيف يمكن التخلص من أسلحة الدمار وكل ما من شأنه أن يضر البشرية ويمثل لها مخاطر، ومن المؤسف أننى لم أتمكن من التعبير عما يجول بخاطرى نظرا لضعفى فى اللغة الإنجليزية، ومن ثم قصورى فى التعبير عن أمور شتى.

## يوميات السطوح (مرة أخرى)

### (١)

وضعت عنوان "يوميات السطوح" للدلالة على ذكرياتى هنا فى القدس وبحسب ما قاله عيسى المسيح عليه السلام: حين تسمع فى غرفة مغلقة، تسمع بأذنيك، وينتشر ما تسمعه هنا وهناك من على السطوح، هكذا عبر المسيح عن الأمر، جميع البيوت هنا سطوحها مسطحة وليست منحدرة كما هو الحال فى اليابان، وسطح البيت بمثابة مكان عام لجميع سكان البيت، فيمكن لأى منهم أن يصعد إليه ويشاهد ما حوله من فوق هذا السطح، وبخاصة كما هو الحال فى القدس، حيث البيوت الكثيرة تتلاصق، وحيث الشوارع مزدحمة، فتكون البيوت من الداخل مظلمة، وتبدو كأنها محاطة بالحوارى الضيقة جدا كثيرة التعريج والالتواءات،

حيث لا يمكن أن نفكر ماذا يدور وماذا يحدث من حولنا، ولو حدث شيء فلا يمكننا أن نعرف أين حدث ولا يمكننا أن ندرك أصلا ماذا حدث بالضبط، ولهذا لا يوجد أى مكان عام أو بعبارة أخرى مكان واضح سوى السطوح، وكل بيت هنا له سطح مستو نظيف، يستخدم أحيانا لحفظ ماء المطر للاستفادة به وقت الحاجة، فنادرا ما تسقط الأمطار هنا، كما يستخدم السطح أيضا لنشر الغسيل ليجف بسرعة، ويستخدم أيضا بوصفه مكانًا مريحًا جدًا يتنفس فيه الناس الهواء العليل وبخاصة فى المساء.

أذكر الآن قصة داود الذى أحب بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثى بعد أن رآها تستحم فوق سطح بيت الملك[٣٦] كما أذكر أيضا أن الملك داود عاقب والد أبى ساليم Abisalim فوق سطح البيت، على كل حال السطوح تعنى الكثير فى تاريخ اليهود، والسطح له معنى واسع، وحكايات السطوح يتناولها الناس من قديم الزمان جيلا بعد جيل.. وأسطح هذه المنطقة لها أهمية كبيرة بالنسبة للمعماريين، فكل بيت له سطح بُنِى بشكل معمارى متميز، ويحمل أهمية خاصة. وبعد أن وصلت إلى غراند نيو هوتل اكتشف أيضا أن له سطحا مثله مثل بقية المبانى.

(٢)

على بعد خمس خطوات من غرفتنا كان يمكننا أن نصل إلى قاعة الاستقبال فى الفندق وهى أفخم مكان فى الفندق، ثم نهبط على السلالم فنجد المطبخ والمطعم، وهناك أيضا سلالم تأخذنا إلى فوق، وحين نمضى خطوات ناحية اليمين، نجد سلالم تقودنا إلى مكان نجد فيه تمثالا للجنرال نيلسون الذى قاد

---

(٣٦) هذا جزء من النص الذى ورد فى العهد القديم، وقد ذكر المؤلف أنها كانت تعلق الملابس على السطوح! وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا... فأرسل رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها... وحبلت المرأة. صموئيل الثانى ١١ داود وبثشبع ص ٢٥٢، العهد القديم طـ ٤، ٢٠٠٩ القاهرة، طبع فى كوريا.

معركة[٣٧] ثم نصعد على درجات تنتهى بممر صغير وعلى اليسار مخزن، حين فتحنا الباب الزجاجى على اليمين وجدنا أنفسنا نخرج إلى سطح المبنى، وهو سطح مربع الشكل مساحته نحو ١٥٠ تتاميًا[٣٨]، على حوائطه الأربع قنوات لسحب ماء المطر إلى أسفل المبنى، شاهدت أكثر من مدخنة يوجد فوق كل منها شكل معدنى على هيئة حمامة تتحرك وتدور إذا ما هبت الريح، لم أشاهد قط أثر دخان ينبعث من المداخن، لأنهم لا يشعلون النار فى المدافئ أصلا، وكان هناك مكان لتعليق الملابس "منشر" لكنى لم أشاهد قط من يقوم بنشر الملابس، حتى حين يكون الفندق مزدحما بالنزلاء، فقد لاحظت أنه لا يوجد أى نزيل فكر فى أن يأتى هنا إلى سطح الفندق، وهكذا صارت هذه المنطقة وكأنها مكان خاص بنا خلال إقامتنا هنا فى غراند نيو هوتل مدة ١٥يوما، والفندق كان فى موقع جيد بحق.فمدينة القدس الجانب الغربى منها أعلى من الجانب الشرقى، والفندق يقع على الجانب المرتفع، ولهذا كان السطح الذى هو سطح الطابق الرابع مكانا جيدا جدا لمشاهدة منظر القدس وما حولها؛ فمن ناحية الشرق كنت أشاهد جبل الزيتون، وكنت أشاهد الكثير من الأسطح البيضاء، ومن بينها أنماط متنوعة وكثيرة من القباب، ومآذن المساجد بما عليها من أهلة، لم يكن بالقدس سوى أشجار قليلة، فيوجد مثلا أشجار السرو الصنوبرية سيبرس فى مسجد عمر و أشجار الصنوبر الحمراء على جبل صهيون وأيضا أشجار السرو المرتفعة عند كنيسة الأرمن، وهناك نباتات خضراء وأعشاب خضراء تمنحك شعورا بالراحة.

خلال النهار كنت أشاهد كثيرا من الناس ينشرون ملابسهم على أسطح بيوتهم، لكنهم يخرجون بعد المغرب من بيوتهم للنزهة، وعلى كل حال فالسطوح جزء من حياتهم، من الناحية الجنوبية يمكن أن أشاهد برج كنيسة الروس الرائع وفى الشمال برج الكنيسة الألمانية وفى الناحية الشمالية يمكن أن أشاهد جبل

---

(٣٧) الجنرال هوانيو نيلسون الذى انتصر فى معركة طرف الغار التى تعرف خطأ باسم الطرف الأغر Trafalgar وقد وقعت فى قادش جنوب إسبانيا فى ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ وانهزم فيها تحالف فرنسا وإسبانيا.

(٣٨) وحدة قياس يابانية. انظر الحواشى والتعليقات السابقة.

المكبر تلك الناحية التى شهدت هجوم الإمبراطور الرومانى تانيا على مدينة القدس، كانت الكنيسة الألمانية أعلى من الكنيسة الروسية، فى ناحية اليمين على جبل الزيتون توجد الجبال المواجهة للبحر الميت، ومن هناك يطلع القمر، ومن الناحية الغربية توجد مستعمرة للمهاجرين اليهود، وأسطح بيوتهم كلها بيضاء، وحين تكون السماء صافية والشمس قوية فإن أسطح هذه البيوت تلمع، وفى الناحية الجنوبية من الفندق يوجد سور المدينة القديم، حيث يعسكر الجنود البريطانيون والمصريون، فقد كنت أسمع أحيانا صوت البروجى فى الصباح وفى المساء.

كنت أشاهد عصافير السنونو(٣٩) والحمام وطيورا أخرى تحلق فى السماء، كان سرب السنونو أحيانا يطير على هيئة الطائرة، ويدور ويتموج فى حركات سريعة، كنت أشاهد منظرها هذا بوضوح من فوق السطح.

أفضل مكان لمشاهدة الناس هو بالقرب من بوابة الخليل، لقد لاحظت أن هذه البوابة صارت أكبر مما كانت عليه قبل ثلاث عشرة سنة، وبرج الساعة كما هو منذ زار القيصر هذا المكان، كانت الساعة تصدر كل ثلاثين دقيقة دقات تقلقنى وتزعجنى، وداخل برج الساعة يوجد حراس بريطانيون يقفون فى انتباه، من فوق السطح يمكننى أن أشاهد أشياء كثيرة، تقع تحت ناظرى.

فى الصباح يتجمع الناس، ويتزاحمون ناحية السوق، كانت عربات الحنطور والحمير تسير هنا وهناك، وكان الباعة منصرفين إلى بيع الطماطم والبرتقال والخضراوات، بينما على يمين البوابة يوجد طريق ضيق مملوء بباعة الحلويات وبخاصة "الكارميلا" الكاندى والملبس والفاكهة والدجاج الحى غير المذبوح... أنماط لا حصر لها من الرجال والنساء، زحام لا يمكن تصوره، وفى الشارع الواسع الممتد من الفندق حتى الناحية الجنوبية يمكننى أن أرى إعلانات عن بنكى Banco di Roma و Thomas cook and Sons وهناك منحدر من ناحية البنك، وعلى

---

(٣٩) تبنى عصافير السنونو أعشاشها عادة فى السقوف العالية للأبنية القديمة، وهى تهاجر عبر إيران والعراق وسوريا والبحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا على شكل أسراب من ٦٠ طائرا إلى ٨٠ لتفرخ هناك.

الجانبين محلات جزارة تبيع اللحوم، وهناك مخبز ومحلات لبيع الخضروات، وأخرى تبيع البقول ومحلات تبيع الجبن وهى فى قوالب مدورة، ولونها أبيض وأنواعها كثيرة، كما توجد محلات صغيرة تبيع الأدوات الموسيقية الصغيرة التى لا أعرف لها اسما، ومحلات تبيع دمى ـ طرية ـ للأطفال.

لا يمكن تخيل هذا الزحام بما فيه من أصوات وروائح تتمازج مع بعضها لتشكل خليطا عجيبا، والآن أشعر وأنا على السطح أننى لا أريد أن أسير عبر هذه الشوارع والحارات.

شاهدت مجموعة من الطهاة، قدموا فى عربة حنطور لشراء مواد للطهى من السوق، شاهدت أشياء حمراء وأشياء خضراء توضع فى سلال، ثم شاهدت أحدهم وقد حمل على كتفه كتلة حمراء قانية... دققت النظر... كان خروفا مذبوحا ما زالت الدماء تسيل منه! بينما كان هناك عدد من الأطفال حملوا زجاجات فارغة، ربما طلبت منهم أمهاتهم شراء شىء ما، وأشاهد بين الحين والحين رجلا يضع الطربوش التركى على رأسه يمشى متبخترا يحرك عصاه فى يده ويبدو أنه لا يبغى شيئا من هنا، لكنه يمشى دون غاية، بينما كان بعض العرب البدو[٤٠] يمضون يجرون وراءهم الخراف السوداء، بينما أشاهد أيضا الجنود البريطانيين والجنود الهنود بأزيائهم العسكرية وكاباتهم البيضاء تزين رءوسهم. وهناك قسيس يضع على رأسه طاقية صغيرة ويتدلى فوق صدره صليب ضخم ثقيل ، وشرطى عربى يركب جوادا، يمر بالقرب من الناس حاملا سيفا طويلا، ورجل عجوز ممتطيا حماره، تتدلى لحيته البيضاء فوق صدره ، وسيدة مسلمة تغطى كامل جسمها بالملابس السوداء، ورجل يهودى تتدلى ذوائب شعره (زلفه) ناحية أذنيه، وأحيانا هناك بعض الأمريكان، وهناك رجل حافى القدمين يحمل حقيبة جلدية كبيرة يبيع شيئا ما!

فى وقت الظهيرة يعم الهدوء، لكن بعد غروب الشمس يتجمع الناس ويبدأ الزحام من جديد، وأظل أشاهد منظر هؤلاء الناس، والحق لو استمرت مشاهدتى

(٤٠) فى الأصل "العرب الأجلاف" Aratae no Arabu.

لهم طوال اليوم فلن أشعر أبدا بالملل، وعلى كل حال يبدو أن سطح الفندق هذا قد جعل خصيصا من أجلنا نحن فقط، وتمتعنا كثيرا لدرجة أن زوجتى اقترحت علىَّ أن نغير سطح بيتنا فى اليابان فبدلا من أن يكون على شكل مثلث منحدر لا يسمح لنا بالجلوس عليه، يمكن أن نجعله مسطحا! تُرى لو فعلنا هذا حقا فماذا يمكن أن نشاهد من فوق سطح بيتنا؟!

(٣)

يقوم بإدارة فندق جراند نيو هوتل ثلاثة: رجل يضع الطربوش التركى على رأسه، وآخر يضع نظارة على عينيه ويعانى من مشكلة فى التنفس، وثالث سورى، بينما العمال جميعهم سوريون، حين أدق الجرس رقم واحد، يأتينى أنطون بطربوشه الأحمر على رأسه، وهو فى الستين من عمره ويتكلم الإنجليزية قليلا، وحين أدق الجرس رقم اثنين تأتينى ماريا الهادئة التى لا تتكلم إلا نادرا، وهى فى الأربعين من عمرها، ولا تعرف إلا الفرنسية، حين أطلب منها شيئا، تقول Good bye بدلا من أن تقول all right، والجرسونات فى الفندق يتكلمون الفرنسية، حين يعلنون عن وقت طعام العشاء يدقون طبلة كبيرة، والطعام معقول فنحن بعد الحرب، والحرب أثرت على كل شىء، وقهوة الصباح لذيذة، والحليب طازج، وفى الغداء يقدمون صنفين من الأطباق، بينما فى العشاء يقدمون ثلاثة أصناف، والحلو عادة برتقال، وفى يوم الأحد يقدمون الكارى (الطبيخ) والأرز، والسكر هنا سكر مبلور بلوراته كبيرة، ونحن نشكرهم على هذا، قال بعضهم إن طعم السكر هو طعم السلام، وأنا أوافق على ذلك تماما.

نحن أناس عاديون فى اليابان، عائلتى تتكون من أربعة أفراد أو خمسة، فإذا كان هناك عجز فى السكر فهذا يعنى أننا نستخدم تقريبا كيلو واحدًا فى الشهر، وأنا أقر بأنهم فى فندق شيبرد بالقاهرة قدموا لنا طعاما جيدا، لكنهم كانو بخلاء فيما يتعلق بالسكر، كان الجرسون يقدم لنا كمية قليلة جدا من السكر حين نتناول الشاى، لذا لم أتوقع أن أجد هذه الكمية الكبيرة من السكر فى القدس، أما ماء الشرب فقد تحسن كثيرا وصار أطيب بعد أن وصل البريطانيون هنا.

كنت أشم أحيانا رائحة الزيت لأنهم حين يغسلون الأطباق لا يقومون بغسلها وتنظيفها جيدا، وعلى كل حال لم تكن هناك مشاكل بالنسبة للماء، فقد كان من الممكن أن نستحم بالقرب من دورة المياه، وكان هناك مكان لغسيل الأيدى أيضا، والآن لم يعد هناك وجود لفندق أوليفت هاوس، لهذا ففندق غراند نيو هوتل هو أحسن فندق بالنسبة لنا، فضلا عن أنه حين نخرج من الفندق نرتدى الكيمونو اليابانى.

وقد بدا سطح الفندق وقاعة المعيشة كأنهما لنا وحدنا فقط، فلا يوجد من يستفيد منهما غيرنا لكن عيد الفصح بات على الأبواب لذا سيأتى كثير من السياح ليقيموا فى هذا الفندق.

(٤)

بالإضافة إلى أسطح منازل القدس، هناك خصائص أخرى للمدينة، ومن هذه الخصائص شوارعها وحواريها الضيقة جدا والملتوية والمتعَرجة بشكل عجيب يجعل من القدس المحاطة بالأسوار العالية متاهة لا يمكن الخروج منها، إذ يصعب أن يدرك المرء أى طريق يسلكه يقوده إلى المكان الذى يقصده! كما أنه لا يوجد طريق يمكن أن تسير فى السيارات بسهولة، وهذه الحوارى يرصفونها بقطع الرخام التى تصاب بالتعرجات والنحت بفعل الوقت وعوامل التعرية فيصعب المشى عليها، فإذا مشيت عليها ساعة شعرت كأننا مشينا أربع ساعات، أشعر بألم فى أقدامى وأشعر بالتعب والإنهاك الشديد.

مدينة القدس القديمة هذه المحاطة بالأسوار العالية مقسمة إلى أربع مناطق: المنطقة الأوربية تقع فى الشمال الغربى، ومنطقة الأرمن تقع فى الجنوب الغربى، ومنطقة المسلمين تقع فى الشمال الشرقى حول مسجد عمر، بينما تقع منطقة اليهود فى الجنوب الشرقى.

يلاحظ أن مبانى منطقة الأرمن جديدة وتبدو جيدة، والطرق معبدة بشكل طيب، لكنى كنت أشم أحيانا روائح "المجارى" (البراز) المنبعثة بشدة من المراحيض، وأحيانا كنت أشاهد آثار دماء، لا أدرى أى نوع من الدماء هذه، لكنى

كنت أشاهد بقع الدماء! أما منطقة اليهود فهى أكثر المناطق ازدحاما وفوضى وقذارة، ومنطقة المسلمين لا أجد لوصف قذارتها كلمات، وإذا كان هناك اهتمام بالنظافة فقد كان التركيز فقط على مسجد عمر.

معظم العرب الذين يلبسون الطرابيش يعيشون وسط القذارة، فأحيانا ما كانت قدماى تغرسان فى روث البهائم وبخاصة الحمير، كنت أشاهد الحوانيت المظلمة التى جمعوا فيها صوف الخراف الذى بدا كقطن قديم مر عليه الزمن... ذات مرة داهمنى حمار كان قد خرج من أحد الحوانيت المظلمة، اتجه فجأة ناحيتى، وأرعبنى كثيرا، وفى شارع ضيق شاهدت النساء العربيات وقفن يثرثرن ويمنعن الناس من المرور كما لو كان حديثهن بلا نهاية. وأحيانا كان الأولاد الحفاة يسحبون أشياء متنوعة لا أدرى عنها شيئا، يجرجرونها وراءهم.

على كل حال إن الشىء الطيب هو أنه يندر أن نشاهد إنسانا يبصق فى الشارع وهذا شىء طيب يحمد لهؤلاء الناس[٤١] .

إن حوارى القدس الضيقة الملتوية تجعل من هذه المنطقة منطقة غامضة، كنت أحيانا حين أمشى فى هذه الحوارى أتخيل ربما يكون اليهودى يهوذا الإسخريوطى تلميذ المسيح ينتظر قدوم المسيح فى إحدى هذه الحوارى مستعدا لقتله بالسكين[٤٢].

كنت أتخيل هذا المنظر لا أدرى لماذا؟! الحارات ضيقة والطريق المختصر لا يكون سهلا عادة فهو يرتفع بك تارة ويهبط بك تارة أخرى، ناهيك عن الحوارى "السد" التى لا تؤدى بك إلى أى مكان بل تجبرك على العودة من حيث جئت، وتلك الحوارى التى لا تؤدى بك إلى أى مكان بل تدور بك حول البيت، تأخذك أحيانا إلى مكان مظلم، أو إلى مكان ضيق جدا، ثم تقودك إلى مكان آخر متسع وتدور وتلف بك وتجعل من القدس بالنسبة لك متاهة كبيرة ، وتجعل قلب الإنسان غير

---

(٤١) البصق فى الصين وغيرها عادة متفشية!

(٤٢) يهوذا الإسخريوطى واحد من تلاميذ المسيح، وهو الذى خان المسيح وسلمه لليهود ثم ندم وانتحر، وبعد قيامة يسوع اختار الرسول متياس ليكون بديلا عن يهوذا.

آمن، وتصيبه بالقلق بل بالخوف والوجل أحيانا... إنها أجمل مكان للعبة "الاستغماية" من السهل جدا أن تختبئ فى حواريها وشوارعها، ومن الصعب جدا أن تعثر على شخص اختبأ فيها، ربما يكون من الرائع تصوير فيلم غامض فى هذه المنطقة ، حين هاجم الرومان القدس قام اليهود الأقوياء بحماية هذ المنطقة وحين كان الجنود الرومان يبحثون عن اليهود لقتلهم كانت بعض الأمهات يمسكن السكاكين ويظهرن فجأة من الأماكن المظلمة ويقتلن الجنود الرومان... مثل هذا المنظر يمكن للناس أن يتخيلوه بسهولة وبشكل جيد.

هذه المنطقة تعج بنوعيات كثيرة مختلفة من البشر، ومن هؤلاء الأوربيين والأرمن والمسلمين واليهود وغيرهم ترى ماذا سيحدث لو تفجر الغضب بين هؤلاء الناس؟! ماذا سيحدث إذا قام المسلمون بقتل اليهود، أو قتلوا الأرمن؟! لا شك أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يصبرون ويصبرون لأن هذا مكان مقدس بالنسبة لهم جميعا، يمكننى أن أقول بصدق إن هذه المدينة القديمة المحاطة بالأسوار تجلس على بركان يمكن أن ينفجر فى أى لحظة... أتمنى أن توجد قدسٌ على قمة جبل جديد تحوطها خضرة كثيرة من أجل هذا سوف أحرق كل ما هو فى المدينة: كنيسة القيامة ومسجد عمر وكل الأشياء الجملية وكل الأشياء القذرة والأشياء القديمة والأشياء الجديدة.

## يوميات السطوح (مرة ثالثة)

(١)

فى الرابع من أبريل بعد الظهر طلعنا فوق سطح الفندق، كان الجو يميل إلى البرودة قليلا لكنه يوم جميل والمنظر من أمامنا بديع، قالت زوجتى:

هذه مدينة جميلة!

لكن بالنسبة لى لا أشعر بذلك، لا أشعر بالسعادة هنا ولا أهتم أبدا بهذا الأمر، فحين أشاهد الزحام والفوضى فى مدينة القدس، أتمنى لو أجرت مدفعا ألمانيا وتخلصت من كل شىء هنا، التاريخ أصبح معوقا، والماضى يصبح معوقا أيضا أمام إيجاد مكان جديد وحديث، لا أدرى لماذا تنتابنى مثل هذه المشاعر، قالت زوجتى:

أنت تصورت فى ذهنك مدينة جميلة، صنعتها فى داخلك، لذلك لا تهتم الآن بهذه المدينة القديمة.

لكنى صرت أشعر بالقرف وأشعر بالملل من القدس، وعلى كل حال فعيد الفصح على الأبواب، بعده أريد أن أغادر هنا بأسرع ما يمكن!

(٢)

اليوم هو يوم الجمعة، وهو اليوم الذى يذهب فيه اليهود إلى حائط المبكى[٤٣]، خرجنا من الساعة الرابعة عصرا، ومشينا ناحية منطقة الأرمن حيث شاهدت أشجار السرو التى جعلتنى أشعر أننى فى اليابان، كانت بيوت هذه المنطقة محاطة بالأسوار العالية، قيل إن الأرمن كانوا يخافون من هجمات الأتراك، شاهدت امرأة تغطى كامل جسمها بالسواد وتحمل طفلها، ناداها زوجى:

مدام، مدام، أين الحائط؟ تطلعت المرأة إلينا لحظة ثم أشارت بإصبعها فى اتجاه معين كما لو كانت تقول باليابانية: آه![٤٤] بالطبع لم يفهم بعضنا بعضا، لكننا رغم ذلك شعرنا بشىء ما بيننا. مشينا إلى حيث أشارت، كانت هناك كنيسة لليهود، شاهدنا ثلاثة أو أربعة منهم، فسأل زوجى عن الطريق، ودلونا عليه، مضينا بين روث الحمير وجو من الروائح الكريهة... يبدو أننا فقدنا الطريق... ضعنا وسط الحوارى الضيقة الملتوية، فسألنا شابا يلبس الطربوش التركى، فقادنا وسط حوار ملتوية حتى وصلنا إلى نهاية هذه الحوارى، ومن هناك شاهدنا الحائط.

---

(٤٣) يقصد حائط البراق الذى يطلق عليه خطأ حائط المبكى، وهو يشكل قسما من الحائط الغربى للحرم المحيط بالمسجد الأقصى، وتذكر الموسوعة اليهودية أن اليهود لم يصلُّوا أمام هذا الحائط إلا فى عهد العثمانيين، ويذكر عالم الآثار اليهودى فينكشتاين (جامعة تل أبيب) بأنه لا يوجد أى سند لما ورد فى العهد القديم بشأن هذا الحائط، ومن الجدير بالذكر أن رئيس الوزراء اليابانى الأسبق جون إيتشيرو كويزومى زار الحائط مرتديا الطاقية اليهودية، ويحرص رؤساء الولايات المتحدة على زيارة الحائط أيضا لأسباب سياسية.

(٤٤) باليابانية A- So!

عند الحائط كان هناك نحو ثلاثين شخصا، ويقال إن هذا الحائط من بقايا عهد سليمان، هكذا يقولون، ويذكرون أنه بنى منذ نحو ثلاثة آلاف سنة، شعرت كما لو كنت قد هبطت فى قاع بئر عميق!

أعداد كثيرة من الناس؛ الشباب والعجائز الأطفال والفتيان والرجال والنساء، كل منهم يمسك بكتيب صغير مغطى بغلاف من الجلد، وكانوا يئنون كما لو كانوا يغنون أغنية حزينة، أو يصلون أو يدعون بأدعية معينة، ودققت ولاحظت أنهم كانوا يتبعون الرابى(٤٥)، يرددون خلفه بعض العبارات، وكان الرابى إذا ما هز رأسه من فوق إلى تحت تبعه هؤلاء بتقليد تلك الحركات... كان هذا المنظر يدعو إلى الأسى والحزن، تجمعت النساء فى ركن، وهن يؤدين الصلوات همسا، وكان من بين الرجال من يضع على رأسه الطربوش التركى، وكان معظمهم يلبسون الملابس السوداء، لكن عددا منهم كان يرتدى عباءات طويلة مزخرفة بخيوط مذهبة وأخرى زرقاء وثالثة بنفسجية، وعلى رءوسهم قبعة مدورة مسطحة سوداء اللون.

كان بجوارنا أناس يضعون الطرابيش على رءوسهم، وكان هناك بعض الجنود البريطانيين، وآخرون جاءوا مثلنا ليشاهدوا هذا المنظر.

كان يمكننا أن نشاهد كتابات عبرية أسفل الحائط، هذه المنطقة القاحلة تقع فى منطقة جافة لا تنمو فيها الأعشاب أو الحشائش إلا نادرا، وهناك بعض الأزهار نبتت بين الأحجار، أزهار بيضاء وصفراء، أردنا أن نقطف زهرة للذكرى لكنى شعرت بالأسى من أجل اليهود لذلك تراجعنا.

إنهم لم يستيقظوا بالمسيح ظلوا نائمين طوال ألفى عام، إنهم طول الوقت مربوطون بالجسد التاريخى الميت! هذا من أحد جماليات المشاعر الإنسانية لكن حين تحين القيامة، ويأتى العالم الآخر، فسيكون هؤلاء خارج هذا العالم. (أى)

---

(٤٥) مصطلح يطلق على شخصية صهيونية.

## (٣)

ولدت المسيحية من اليهودية، وبعد ستة قرون ولد محمد فى جزيرة العرب، ومنذ البداية احترم محمد اليهود كآبائه، وتعامل مع النصارى كأخوة له، إلا أن رجل الصحراء القوى أراد أن يتخلص من الآباء والأخوة، وهذا أمر طبيعى، فالعلاقة بين اليهودية والمسيحية والإسلام تذكرنا بالعلاقة بين أبناء آدم، بين قابيل وهابيل، وأيضا بين إسماعيل وإسحاق، وأيضا بين عيسو ويعقوب ابنى إسحاق، فى التاريخ اليهودى العرب هم أبناء إسماعيل، وقابيل وإسماعيل وعيسو كانوا أخوة لكن أخوتهم أخذوا مكانهم، ثم جاء محمد أخو عيسى بعد مرور ستة قرون، وكان حاقدا على أخيه الأكبر وأخيه الأصغر، والأمر له علاقة بقابيل وإسماعيل وعيسو، وهكذا فالإسلام ليس دين السلام[٤٦]، فالنزاع مستمر بين الأخوة منذ محمد، ومنذ الصليبيين، وعبر التاريخ وباستمرار حتى يومنا هذا، والحرب التى اندلعت مؤخرا أيضا، فالأتراك والألمان فعلوا ما فعله محمد من قبل، يمكن استقراء التاريخ لنلاحظ أن القتال والنزاعات بين الأخوة حدثت فى كل بلد وفى كل بيت، ولا يمكن أن نشاهد مثالا أوضح على ذلك إلا فى القدس، واليهود لديهم قوة لا تضعف، هى قوة مستمرة عبر التاريخ، ويصعب خداعهم... ذات مرة عاقب المسيح التاجر اليهودى الذى يتعامل بالربا، وأخرجه من قصر سليمان، لكن الآن وبعد ستة قرون يجلس الأخ فى القصر، البريطانيون الآن يحكمون القدس، والصهاينة يأملون فى إحياء اليهود، والمسلمون يتصدون لهذا، كيف يمكن أن نحل هذه المشكلة، ليس من الطيب ما يجرى هنا، فإذا مات الأب والأخ الكبير يموت الأخ الأصغر، يجب أن يعيش كل شخص، يجب أن يترك كل إنسان ليعيش، نحن نعرف الآن من فاز ونعرف الآن من خسر، لكن المهم بعد كل هذا النتيجة النهائية وهى كيف يمكن أن يتطور هذا الأمر؟ وكيف تشاهد البشرية ما سيجرى مستقبلا؟!

عيد الفصح على الأبواب، ونزلاء الفندق يتزايد عددهم، جيراننا فى الفندق زوجان بريطانيان.

---

(٤٦) هذا رأى لا يستند إلى حقائق علمية أو دراسة، ومن المعروف أن معلومات توكوتومى عن الإسلام كانت ضئيلة جدا.

(٤)

الخامس من إبريل، أحضر لنا السيد هانسمان الرسائل التى وصلتنا من اليابان، كانت هذه أول رسائل من اليابان أتسلمها فى القدس، بدت صحة السيد هانسمان أطيب من ذى قبل، فيوما بعد يوم تتحسن صحته، لكنى أدركت أنه ربما يعانى قليلا من ضائقة مالية، فملابسه صارت قديمة بشكل ملحوظ.

بعد الغداء خرجنا للنزهة فى جبل الزيتون، معظم المسيحيين يؤمنون بأن المسيح سوف يظهر فوق جبل الزيتون، ونحن جئنا هنا للنزهة فقط، لا لنشاهد مكان ظهور المسيح.

عبرنا بوابة دمشق لنجد أنفسنا فى منطقة توحى بجو العصور الوسطى، السور الحجرى يبدو عتيقا جدا، ومضينا حيث صار الطريق منحدرا فى اتجاه وادى كيدرون ، شاهدنا النصب التذكارى لقبر الجنرال غوردن، الذى كان محاطا بالأعشاب، بينما كانت الشمس تسطع من فوقه، شاهدت بعض الأطفال المحليين يبيعون البرتقال عند جسر كيدرون، اشتريت برتقالتين ودفعت قرشا(P1) ثم تابعنا سيرنا، وأخذنا نصعد ببطء ناحية الجبل، التقطت زوجتى زهرة بنفسجية اللون، بعد قليل وصلنا قمة جبل زيتون، ذهبنا إلى برج الكنيسة الروسية وهو البرج الذى يمكن أن نشاهده من غرفتنا فى الفندق، كان مرشدنا هنا عجوز روسية، كانت مشغولة بغزل شىء ما، فقمنا بتحيتها، ثم صعدنا البرج، فى الطابق الثانى خاطبنا شاب بالإنجليزية قائلا: من فضلكم هناك من ينزل من فوق، وشاهدنا فتى وفتاة ينزلان، ثم جاء دورنا فى الصعود واحدا بعد الآخر، فى الطابق الثالث شاهدنا ناقوسا ضخما، وفى الطابق الرابع شاهدنا سبعة نواقيس صغيرة، وهنا أكلنا البرتقال واسترحنا قليلا حتى استعدنا عافيتنا، كان الهواء يهب شديدا، بعد أن صعدنا درجات السلم المائتين وأربع عشرة، وصولا إلى قمة البرج.

جبل الزيتون يرتفع عن القدس نحو مائتى قدم، ومن هنا فهذا البرج الذى يقوم على جبل الزيتون يكون عاليا جدا، ولا يوجد هنا أى مبنى أو مكان أعلى

منه، من ناحية فى البرج شاهدنا البحر الميت ووادى الأردن، كان لون البحر الميت "تركوازيا" وكان وادى الأردن بلون أبيض وبنى، وهذه المنطقة منخفضة عن سطح البحر بنحو ٣٩٠٠ قدم، شعرنا بأن الهواء منعش كما لو كنا بالقرب من البحر، ومن جهة البرج الجنوبية شاهدنا جبل بيت لحم ومن الناحية الشمالية الشرقية نشاهد تلالا ومرتفعات ومنخفضات، هذه المنطقة مملوءة بالتلال والمنظر جميل ورائع إلا أن الهواء كان يهب بشدة، ومنذ ثلاث عشرة سنة حين جئت هنا وحدى، كانت الريح تهب بشدة واليوم جئت هنا بزوجتى والجو كما كان حين جئت أول مرة، الهواء يعصف بشدة، لذا قررنا النزول من البرج بسرعة.

بعد أن نزلنا من البرج كان الفتى والفتاة اللذان رأيناهما من قبل لا يزالان يشاهدان المكان فتحدثنا معهما قليلا، عرفنا بأنهما يهوديان، واليوم السبت وهو بالنسبة لهما إجازة، كان يقف بجوارهما صبى فى السابعة أو الثامنة، صافحته وأعطيته "علبة كارميلا" كنت قد اشتريتها من كانتين واى إم سى إيه YMCA فى القنطرة، فسر كثيرا، شاهدت أشجار السرو بالقرب من البرج، أشبه بغابة، جلسنا تحت ظل الأشجار، وأكلنا البرتقالة الثانية، هذه الأشجار جعلتنا نتذكر اليابان، ودعنى اليهوديان والصبى، وكان الصبى مسرورا جدا بعلبة "الكراميل".

نزلنا من الجبل، وقدمت نحونا عربة حنطور فى وقت كان التعب قد بلغ منا مبلغه فقررنا أن تركب هذه العربة، كان الجواد مزينا بقماش من صوف أبيض مزخرف بزخارف جميلة، وكأنهم ألبسوا الجواد رداء خاصا، وفى مقدمته وضعوا قطعة كبيرة من القماش الأحمر تتدلى عليه كرات زرقاء كأنها عقد يزين مقدمة الجواد.

مررنا بالكنيسة الألمانية التى تعد هى الأخرى land mark علامة من علامات جبل الزيتون، وقد تحولت هذه الأيام إلى معسكر للجيش البريطانى، شاهدت حارسا بريطانيا يقف فى نوبة مراقبة فى برج الكنيسة، وبالقرب من جبل "سكوبس" [٤٧] شاهدنا خيام معسكرات الجنود البريطانيين، ثم شاهدنا مقابر

(٤٧) يقع هذا الجبل شمال شرق القدس.

عليها صلبان نصبت مؤخرا، كانت تلك مقابر الجنود البريطانيين الذين لقوا حتفهم بعد الحرب الأخيرة.

نزلنا من الحنطور عند مطعم بريطانى، كانت معظم المحلات مغلقة فهى محلات لليهود، رجعنا إلى الفندق وطلبنا الشاى فى الغرفة، ومن الغرفة رأينا برج الكنيسة الروسية الذى زرناه اليوم وشعرنا بنوع من السرور الممزوج بذكرى الزيارة.

* * *

بعد العشاء ذهبنا إلى صالة الجلوس فى الطابق الثانى بالفندق، كان بجوارنا رجل يجلس برفقة زوجته، وهما أيضا يقيمان فى الغرفة المجاورة لغرفتنا، عرفت أنهما السيد والسيدة "فوا Foa" لاحظت أن الزوجة أصغر سنا من الزوج، وبالفعل كانت هى الزوجة الثانية للسيد فوا بعد وفاة زوجته الأولى، لم ينجبا أطفالا، كان هذا الاسم اسما غير عادى بالنسبة للبريطانيين، وعرفت فيما بعد أن أجداد السيد فوا إيطاليون، وهو يعمل مديرا للبنك البريطانى المصرى، ويتعامل أيضا مع بنك أمريكا الجنوبية، وعرفت منه أنه كان زميل دراسة "المرحوم كيكوتشىKikuchi " فى كمبردج، واستمرت العلاقة بينهما حتى وفاة السيد كيكوتشى.

ذكر السيد فوا أنه رغم أن دراسة السيد كيكوتشى كانت باللغة الإنجليزية فإنه كان أول الفصل دائما فى كمبردج، تحدث السيد فوا كثيرا عن الماضى وكان يشعر بحنين شديد لذكريات الماضى. كان السيد فوا يعانى من ألم من إحدى قدميه، وقد ذهب إلى مدينة الخرطوم أعالى النيل للعلاج والاستجمام، ومن ثم حكى لنا حكايات عن النيل وعن الخرطوم، وكيف تعرض لمشاكل كثيرة ومتعاب بسبب الناموس، قال: إذا حمل أى شخص فوق رأسه الناموس وركب القارب أو السفينة فعليه أن يدفع غرامة؛ إذ يجب على كل شخص أن يتخلص من الناموس الذى يحلق فوق رأسه، وقد قلت له إن هذه طريقة مثالية للقضاء على الناموس، واقتنع بوجهة نظرى وقد ذكر لى أنه من خلال تجربته الذاتية فإن أطيب سفر هو ذلك

الذى لا يخطط له من قبل، وقد تحدثنا عن مثل هذه الموضوعات السطحية المتنوعة.

تعجبت زوجته كثيرا حين شاهدت الكيمونو الحريرى الذى ترتديه زوجتى، وأخذت تتحسس قماش الكيمونو، بعد ذلك حاولت أن ترتدى "جاكيت" الكيمونو، ثم أخذت تجوب الصالة جيئة وذهابا، قال لها أحد النزلاء كما قال لها الصحفى الأمريكى إن جاكيت الكيمونو يناسبها تماما بينما. وقد يضحكان...

عرضت علينا زوجته رداءها المتميز المصنوع من الحرير الطبيعى، وأخذت تفصل الحديث عنه وعن مميزاته، كما أرتنا أيضا عقد "العنبر" وبعد أن غادرت الزوجة ظل السيد فوا يتحدث معى عن موضوعات متنوعة ومن بين ما ذكره أن المشروع الصهيونى مشروع يدعو للتشاؤم وهو على المدى البعيد غير ناجح، وقال هناك كثير من اليهود يعيشون تحت رحمة الآخرين أو بدافع العطف عليهم وهذا ليس جيدا.

(٥)

يوم الأحد السادس من أبريل ذهبنا إلى مستشفى الصليب الأحمر الأمريكى عند الساعة العاشرة، كانت غرفة السيد هانسمان مثل غرفة قسيس، بجانب الغرفة دورة مياه، قال السيد هانسمان إنه ممنون جدا لما يناله من عطف الأطباء والممرضات.

صارت القدس تحت حكم البريطانيين لهذا فهو سعيد جدا، خرجنا من المستشفى مع السيد هانسمان، شاهدت عمودا حجريا كبيرا داخل ساحة المستشفى، كان بقايا أعمدة من العصور القديمة، بينما كنا نمشى معا كان السيد هانسمان يلقى التحية على كثير من الناس، فمعارفه كثر، إذ يعيش فى هذا المكان منذ ثلاثين سنة، لهذا كوّن صداقات ومعارف بين أهل المنطقة، كانت ممرضات المستشفى يُحيّين السيد هانسمان أثناء مرورهن بنا، لاحظت أن امرأة مسلمة كانت تسير دون نقاب لكنها حين رأت رجلا مسلما قامت على الفور بتغطية وجهها... شاهدت مسجدا على تلة شمال المدينة، أصابته قذيفة مدفع، وصلنا

إلى كاتدرائية سانت جورج، فى منطقة الكاتدرائية توجد أشجار الفلفل والمدخل مملوء بالأزهار البرية والورود.

بدأت الصلاة فى وجود عدد قليل من المصللين، ولم يكن هناك من يلقى بالموعظة اليوم، لكنهم أقاموا حفلة عشاء صغيرة، لذا حضر السيد هانسمان، كنا نقرأ فى الإنجيل ونتطلع إلى الناس من حولنا، شاهدنا زوجة السيد فوا التى التقينا بها بالأمس، وقد اصطحبت معها خادمتها، بعد العشاء أخذنا السيد هانسمان فى جولة داخل أرجاء الكنيسة، شاهدنا كرسيا عاليا، وضع فى مكان عال، يقال إنه هدية من رئيس أركان الجيش الأسترالى، ثم شاهدنا الممرضات اللواتى مررن بنا فى الطريق، أرادت إحداهن أن تتحدث معنا إلا أن رئيستها منعتها على ما يبدو، وشاهدنا الشمعدان الموضوع فوق الرخام، قيل لنا إنه هدية من الملكة فيكتوريا، أشار هانسمان إلى مكان وقال هذا هو المكان الذى يوجد فيه كانون canon أى الكتاب المقدس[٤٨]، إلا أن أحد الأطفال المقدسيين قال كانون cannon بمعنى مدفع، فارتبك الألمان والأتراك وتضايقوا، ثم حاولوا أن يحفروا تحت هذا المكان بحثا عن المدفع لكنهم لم يجدوا شيئا. وشاهدت عمودا داخل الكاتدرائية يرجع إلى العصر البيزنطى.

* * *

فى يوم السابع من أبريل حين استيقظت من غفوتى بعد الظهر وفتحت النافذة شاهدت طائر"الكركى" كان يحلق فى فضاء القدس، ناديت زوجتى وأخذنا نتمتع بمشاهدته مسرورين، بعد أن ابتعد واختفى شاهدت طائرة تحلق فقالت زوجتى : تماما مثل طائر الكركى، بعد ذلك شاهدت على سطح المبنى المقابل لنا قطة سوداء تجرى بسرعة، قالت زوجتى: هذه القطة تبدو مثل راهبة، وعلى سطح المبنى المجاور كان هناك قسيس يرتدى رداءه الأسود الطويل يقوم بنشر الملابس.

* * *

---

(٤٨) المكان الذى يوضع فيه الكتاب المقدس، حيث يقف رئيس القساوسة.

أردت أن أصل هنا قبل عيد الفصح، وها هو عيد الفصح قادم بسرعة، ماذا أتوقع فى عيد الفصح؟! ربما أتوقع أن يظهر المسيح من جديد، ربما أتوقع مظاهر تغيير فى عيد الفصح هذا... وأخذ هذا السؤال يراودنى: لماذا جئت إلى القدس؟ قلت للسيد فوا بالأمس إن مؤتمر السلام يجب أن يعقد فى القدس وليس فى فرساى... جئت إلى القدس، وها هو عيد الفصح على الأبواب، وأنا أود أن أقول شيئا: المسيح مات، تولستوى مات ، من يمكن أن يقول ذلك إذا لم أقله أنا، فالقدس التى تقع فوق الجبل مكان مناسب جدا لإيصال صوتى للناس، وعيد الفصح مناسبة طيبة لأقول ما أريد أن أقوله، وما يجب أن أقوله، وقد جئت هنا لهذا السبب، جئت لأعبر عن رأيى... أنا لن أهرب سوف أقول كل ما بداخلى ولن أخفى شيئا.

(٦)

الثامن من أبريل ... أقبل الربيع، من غرفتنا فى الفندق شاهدت جبل الزيتون وقد كسته الخضرة بشكل أوضح مما كان عليه حين وصلنا، والضباب الأزرق غطى الوادى فى الصباح، بينما سحاب الربيع يطفو فوق برج الكنيسة الروسية مثل وبر القطن الأبيض.

بعد الغداء وفى قاعة الجلوس كان السيد فوا وزوجته يشتريان بعض القماش من بائعة قدمت من إحدى بلدان وسط آسيا، ربما من بخارى، لا تتكلم الإنجليزية ولا الفرنسية، تكلمت معها بكلمات كنت حفظتها من الفارسية!!، فسألنى السيد فوا لماذا تعرف هذه اللغة؟ فلم أرد عليه، كان الصحافى الأمريكى يشاهد أيضا الأقمشة التى تبيعها هذه السيدة فقال: الأطفال اليابانيون يرتدون كيمونو بمثل هذه الألوان الجميلة، ثم سألنى: هل لديك أطفال؟ فأجبته بالنفى.

بعد الظهر خرجنا لنشاهد قصر سليمان[٤٩] لكننا لم نكن نعرف موقعه، لهذا رأينا أن نمر بالسيد هانسمان، الذى كان يتحدث مع جنديين أستراليين كانا

(٤٩) ربما يشير المؤلف إلى هيكل سليمان الذى بناه نبى الله سليمان (عليه السلام) إتمامًا لعمل أبيه النبى داود (عليه السلام). انظر: الكتاب المقدس، سفر الملوك، إصحاح ٥ ـ ٦.

يضعان شارة الصليب الأحمر على كتفيهما، قال أحدهم إن القصر فى البلدة القديمة أى القدس، وقل أن تجدوا هنا من يتكلم الإنجليزية. بعد أن غادر الجنديان تحدثنا قليلا مع السيد هانسمان وقدمت له بعض "الحلوى" التى أحضرتها معى، فاقتطف وردة بلدى حمراء قانية من إصيص الورد ووردة مارغريت بيضاء وقدمهما لزوجتى.

هنا فى القدس توجد هيئات ومنظمات تنتمى إلى جنسيات مختلفة، يوجد مستشفى روسى، وممرضات بريطانيات وأطباء أمريكيون وممرضات أستراليات وسواح يابانيون. يا لها من بلدة عالمية، يا لها من منطقة دولية!

بعد أن رجعنا إلى الفندق تناولنا الشاى، وفى المساء طلعنا على السطوح، حيث كان الهواء يميل إلى البرودة، إلا أن منظر الغروب كان رائعا بينما كانت طيور الكركى تحلق هنا وهناك، كما أن طائر السنونو swallow مشهور هنا فى القدس، وفضلا عن هذا الطائر توجد أسراب الحمام والعصافير وأحيانا كنت أشاهد طيور الكركى بشكل غير عادى[٥٠] لكن أعداده كانت أكثر من أعداد طيور السنونو لا أدرى من أين تأتى هذه الطيور؟ وإلى أين تعود أدراجها؟ كانت تشكل مجموعات وأسرابا تحلق معا كأنها ترقص، كان هذا المنظر بمثابة منظر يومى نشاهده دائما ومع هذا فقد كنا نشعر بالسرور والمتعة كلما شاهدنا أسراب الطيور ترقص على صفحة السماء كما لو كانت منتشية... كانت آلاف الطيور تتحرك من جبل إلى جبل ومن تل إلى تل ومن سور إلى سور ومن برج إلى برج، وكانت أحيانا تسقط كالبرق بسرعة خاطفة، ثم تمضى أحيانا فى حركات هادئة حالمة، وأحيانا نشاهدها تنطلق كالسهم على أشعة الشمس، وهكذا كانت الطيور فى كل مرة تعرض علينا مشاهد رقصها المفرح السار، لا يتصادمون معا رغم سرعة الحركات! كم كان هذا عجيبا! إنها يد القدرة الإلهية التى تجعل النجوم تتلألأ فى السماء، وهى نفسها يمكنها أن تجعل طيور السنونو تحلق بهذا الشكل وتطير أسرابها دون أن تتصادم معا.

---

(٥٠) لا أدرى، هل كان المؤلف يقصد "أبو قردان"؟

لا بد أن تتسم الحركة العالمية للبشر بما تتسم به حركات أسراب هذا الطائر، ويجب أن تكون الديمقراطية بهذا الشكل فلا يحدث تصادم ، اليوم أيضا أنا مسرور برقص طيور السنونو... المساء حل سريعا والعتمة تتزايد ويحل الليل وصار الجبل المواجه للبحر الميت غير واضح للعيان كما لو كنا نشاهده فى حلم، وجبل الزيتون المملوء بالخضرة ومن أمامه عدد لا يحصى من القباب وسطوح المبانى المربعة ما بين مرتفع ومنخفض... آه يا قدس كم أنت جميلة!

قلت لزوجتى منذ عدة أيام قلت إننى أكره القدس وإننى أريد أن أعود بسرعة وإننا لن نأتى إلى هذه المنطقة ثانية، لكنى أشعر أن القدس مدينة جميلة، المسيح قال بحب: إيه يا أورشليم!

نزلنا إلى قاعة الجلوس بالفندق، فوجدنا السيد فوا وزوجته، تحدثنا معا، شاهدنا القماش الحريرى الذى كانوا قد اشتروه من قبل، قماش جميل، يمكن أن يخاط منه ثوب بألوان متنوعة زاهية، أو يكون "أوبيًا"[٥١] لكيمونو ترتديه فتاة شابة، كان القماش مزخرفا بزخارف يدوية، فبدت الخيوط الفضية المتداخلة مع النسيج رائعة وجذابة.

رسمت زوجة السيد فاو صورة لمسجد عمر، كما رسمت صورة رائعة لمدينة الأقصر على شاطئ النيل، أخذت "الأوتوجراف"[٥٢] الذى اشتريته من القاهرة، وطلبت منهما أن يكتبا اسميهما، فكتبا اسميهما بالفرشاة اليابانية، أبدى السيد فاو دهشته الشديدة حين شاهد الفرشاة والحجر الذى يوضع فيه الحبر الأسود، وزادت دهشته أكثر وأكثر حين أخبرناه عن ثمن هذا الحجر[٥٣] الذى يستخدمه عامةُ اليابانيين.

رسمت زوجة السيد فاو صورة مسجد عمر بجانب اسمها، وقدمت زوجتى إليها مروحة يد يابانية مصنوعة من الورق، كانت قد أحضرتها معها من اليابان، فكتبت عليها اسمها وقدمتها لها هدية، ففرحت زوجة السيد فوا كثيرا.

---

(٥١) الأوبى حزام عريض تستخدمه المرأة عادة مع الكيمونو.

(٥٢) النوتة أو الكراسة الصغيرة مثل المفكرة.

(٥٣) يسمى فى اليابان "سومى".

أهدانا السيد فوا شيئا أسود صغير، قال: هذا مصنوع من حجر البحر الأسود، وذكر أنه اشتراه من "بيت لحم" وهو "دواة" يمكن أن يوضع فيها الحبر، سألته عن هواياته فقال: حين كنت صغيرا كنت أحب لعبة الكريكيت، كما كنت مغرما بالصيد، لكن الآن وبعد أن تقدم بى العمر، فإن زوجتى هى التى توجهنى وتقودنى، وهى لصيقة بى دائما، وهكذا فأنا أذهب إلى حيث تريد هى أن تذهب... وابتسم ابتسامة عريضة.

***

التاسع من أبريل قدم إلينا السيد هانسمان حاملا الصحف اليابانية، طلبت منه أن يكتب اسمه فى "الأوتغراف" فكتب بالإنجليزية: "أمكن أن نلتقى معا بعد ثلاث عشرة سنة" لكنه أخطأ فى كتابة كلمة meet وكتبها meat تعاطفت معه كثيرا، لا بد أن سنوات السجن الأربع جعلت ألمه يحول كلمة "يقابل" meet إلى كلمة "لحم" meat، ربما كان يعانى من الجوع الشديد آنذاك.

ذكر السيد هانسمان أن والده كان مزارعا بريطانيا، وهو نفسه كان يهتم بزراعة الخضراوات فى القدس، وهنا إذا شوهد أحد يقوم بالفلاحة والزراعة ينظر إليه باحتقار، ذكر أنه غاضب جدا، لأنه حين كان يقوم بالعمل فى الحقل كان كل من يمر به يضحك عليه أو يسخر منه.

ها أنا أشاهد الصحف اليابانية لأول مرة بعد مرور ثلاثة أشهر... (أمى ماتت، مات شخص لم يكن متوقعا موته... الانتخابات تواجه الآن عدة مشاكل) منذ وصلت القدس لم أر الصحف أيضا، ولهذا فهناك أحداث فى أوروبا لا أعرفها إلا بعد مرور شهر أو شهرين على وقوعها: (محاولة اغتيال كورومانسو Kuremanso، الألمان صاروا غير قادرين على تحمل المسئولية، صار الألمان متهورين، الروس يفعلون ما يريدون، ليس هذا فقط بل صار الناس فى جميع أنحاء العالم يشكون ويصرخون ويعانون).

ذهبنا فى المساء إلى مطعم بريطانى لنشاهد فيلما، وهو مطعم صغير اسمه بنكو دى روما Bnco di Roma وصلنا مبكرا قليلا، لذا تمشينا فى حديقة مجاورة

فيها العديد من الأزهار والورود، كانت أزهار السوسن البنفسجية تذكرنى بالصيف المبكر فى بلادى. دخلنا المقهى، وجاء إلينا السيد هانسمون كان معظم المتفرجين من الجنود الشباب وزوجاتهم وأطفالهم، وامتلأ المطعم بالناس، فى البداية بدأ عزف الأورغون، فوقف الجميع وبدأوا فى غناء الترانيم الدينية، واستمر هذا لفترة قصيرة، أعقبتها الصلاة، ثم بدأ الفيلم بمنظر لبحيرية طبرية، ثم ظهر المسيح، كان مقعدى فى نهاية المطعم خلف الجميع لهذا لم أتمكن من مشاهدة الفيلم بشكل جيد، ولم أتمكن أيضا من سماع الشرح بشكل طيب لكن حين ظهرت كلمة "ترنيمة Hymn) على الشاشة كان يمكننى أن أشاهد الشاشة بوضوح، بعدها وقف الجنود والأطفال والنساء وأنشدوا:

يسوع أحبه من كل روحى Jesus lover of my soul

دعونى أطير إلى حضنه Let me to thy bosom fly

كان كل شخص ينشد، أما أنا فلا، أنا لا أترنم فى كل وقت بهذه الترانيم، أنا لا أحب عبارات مثل: يسوع أحبه من كل روحى Jesus lover of my soul هذه العبارة لا أحبها، لا يمكن أن أنشدها، كنت أريد فقط أن أزعق، أن أصرخ: توقفوا أيها الجنود الأغبياء، موسى قال: لا تقتل. لكنكم صرتم جنودا وصرتم تقتلون الألمان والأتراك، المسيح قال: أحبوا بعضكم فلماذا تقتلون الناس الذين يريدون أن يفعلوا ما يريدون داخل أوطانهم، والنساء كن ينشدن بتأثر واضح فى أعينهن، فلم تنشدن وأنتن لستن مسيحيات إلا بالاسم، ولا تدرين أن عصر الصليب قد ولّى وانتهى.

كنت أريد حقا أن أصرخ فى الجميع، وأن أعبر عن مكنون ذاتى لكنى آثرت الصمت والسكوت، وبقيت جالسا على كرسى لم يكن سوى صندوق خشبى صلب.

(٧)

فى العاشر من أبريل أخذت زوجتى فى جولة إلى بيت لحم، أخذنا الحنطور، ومررنا ببوابة الخليل، وبعدها أخذنا الطريق المتجه ناحية الجنوب الغربى، كان الهواء باردا إلى حد ما مما دفعنى إلى أن أغطى نفسى بالمعطف، بينما كانت

زوجتى تتدثر بالمعطف الصيفى الخاص بى، مررنا عبر مقبرة راحيل، ووصلنا إلى بيت لحم بعد ساعة من مغادرتنا مدينة القدس، توقف الجواد أمام بوابة الكنيسة التى ولد فيها السيد المسيح، كانت بوابة منخفضة وضيقة... لماذا؟ يقال إن المسلمين ذات مرة أقاموا سوقا فى الكنيسة، وأحضروا البقر والجياد إلى داخل الكنيسة، لهذا عمد الصليبيون إلى جعل المدخل ضيقا غير مرتفع بشكل لا يسمح بدخول الحيوانات، ولم يدرك أولئك أن الإنسان حين يولد يخرج من منطقة ضيقة جدا، ويمكننى القول إن هذا نمط من مدخل يسمح بالخروج، وهو أفضل مكان للميلاد.

على كل حال دلفنا إلى داخل الكنيسة، وكنا فى حالة أسعد مما كنا عليه حين دخلنا كنيسة القيامة، كنسية جميلة رائعة بأعمدتها الرخامية، وأرضيتها المبطنة بالرخام أيضا، وبسقفها المزخرف بالموزايك المذهب، رغم اختفاء بعض أجزاء الزخارف نتيجة مرور الزمن، كانت الكنيسة لا تزال تحمل الصورة القديمة لألف وخمسمائة عام مضت.

قدم إلينا مرشد شاب، وقادنا داخل الكنيسة، كان هناك عدد كبير من الناس الذين انهمكوا فى العمل فعيد الفصح على الأبواب، منهم من كان ينظف الشمعدان، ومنهم من كان يصب الزيت، ومنهم من كان ينظف ويلمع زجاج المصابيح، فبدوا فى حركة دائبة.

نزلنا إلى الكهف الذى يقال إن المسيح ولد فيه، ويطلقون عليه نجمة بيت لحم، وشاهدت نجوما كثيرا بيضاء فضية، كما شاهدنا قبرا قيل إنه قبر الشخص الذى ضحى ومات بدلا من المسيح، كما شاهدنا الكهف حيث عاش أحد القديسين الذى ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية، وكانت زوجته وابنته قد دفنتا هنا أيضا! هكذا قالوا لنا! ورأينا بئر العذراء، لكنه بئر جاف ليس به ماء، كنيسة الميلاد هذه ليست سيئة، موطن داود، على كل حال منظر بيت لحم جعلنى أشعر بمشاعر الحنين للماضى والحنين للذكريات.

انتهينا من جولتنا داخل الكنيسة وخرجنا لمشاهدة الدكاكين التى تبيع الهدايا والتحف، كان مرشدنا يتبعنا أيضا، وهو رجل يعمل بالتجارة، ويعيش كما قال فى "بناما" أجبر خلال الحرب على أن يكون جنديا ضمن الجيش التركى، لكنه ذكر لى أنه لم يطلق رصاصة واحدة. اشترت زوجتى عقدا مصنوعا من حبات الزجاج أخضر اللون بمبلغ ٣٠٠ قرش كان لونه الأخضر جميلا جدا، لهذا فرحت جدا به، ثم اشترينا بعض الهدايا الصغيرة، انتهت النقود التى كنا نحملها معنا، واضطررنا إلى أن نقترض من "سايس" الحنطور خمسين ٥٠ قرشًا، وبعد أن رجعنا إلى الفندق أعطيت السائق النقود التى اقترضتها، أعطيته ورقة نقدية كبيرة فأخذ الخمسين بى حقه وعليها ١٠ قروش بقشيشا.

بعد العشاء دار بيننا وبين السيد فوا وزوجته حديثا تناولنا فيه موضوعات متنوعة، عرفنا خلاله أنهما متوجهان فى اليوم التالى إلى سوريا لمشاهدة دمشق، كانت زوجتى تعمل فى مدرسة أوتشا نو ميزو Ocha no Mizu الثانوية للبنات(٥٤)، فذكرت ذلك للسيد فوا فكان سعيدا جدا بسماع حديثى عن زوجتى.

عرض علينا السيد فوا صورا التقطتها خادمته، التى لا يعتبرها خادمة، بل يعتبرها صديقة لهما، أهديت زوجته الترجمة الإنجليزية لروايتى طائر الوقواق، فسرت كثيرا، وقدمت لنا نوعا من الحلوى التركية، نوعا من الكاندى وضعوا فيه الفول الأخضر(٥٥) لم يكن طعمها سيئا.

## مطلع الربيع الجديد

(١)

الحادى عشر من أبريل: حين أشاهد التقويم الصغير الذى علقته على "الدولاب" أجدنى كتبت بنفسى عند يوم ١١ أبريل "الربيع الجديد، عيد ميلاد أمى الواحد والتسعون" .

---

(٥٤) منطقة فى وسط طوكيو.

(٥٥) من الوصف يفهم أنه يشير إلى الملبن بالفستق، ومن المعروف أن الفستق لم يكن معروفًا فى ذلك الوقت فى اليابان.

اشتريت هذا التقويم فى نهاية العام الماضى قبل أن أغادر اليابان، وكتبت ملحوظة عند التواريخ التى تحمل ذكريات معينة فى حياتنا، على سبيل المثال يوم زواجنا، وعيد ميلاد كل من أفراد الأسرة، ويوم وفاة أبى، المهم أننى كتبت أهم الأحداث والذكريات على مدار السنة، اليوم يمكن أن أعتبره بداية ربيع هذا العام، لكن أمى ماتت قبل ثلاثة وخمسين يوما، لو كانت عاشت مدة ثلاثة وخمسين يوما منذ بداية الثامن عشر من فبراير فكان يمكن أن تكون فى الواحدة والتسعين ويمكن أن تشاهد الربيع، لم أكن أدرى ماذا سيحدث فى هذا اليوم بالذات، وأمى لم تكن تعرف أيضا ما سيحدث فى هذا اليوم، على كل حال نحن لسنا آلهة، نحن بشر، ونحن أيضا لسنا بمخلوقات صناعية أو مخلوقات آلية، نحن أطفال، نحن لسنا بآباء... عيسى المسيح صعد إلى أعلى مكانة يمكن للإنسان أن يصل إليها، إذا أمكن للإنسان أن يرقى ويرقى إلى أقصى درجة فلا يمكنه الوصول إلى علاقة الأب بالابن... نعم نحن بشر نحن أبناء الرب، والشىء الوحيد أن يضمن لنا أن نكون أبناء الرب هو أن ندعو الرب، وأن نقرأ الكتاب الذى أمرنا بقراءته، ونفهمه وأن نعمل طبقا لأوامر الرب، والشىء الذى يجعل البشر ينالون العفو هو أن يحبوا بعضهم وأن يعترفوا بذنوبهم، وأن يصححوا سلوكهم، لا شىء أكثر من هذا...

أنا إنسان بشر، وأمى أيضا إنسان بشر، لا يمكننا أن نعمل شيئا فيما حدث، لا يمكن أن نغير الأقدار... كنت فقط أحملق فى التقويم الذى أحمله معى.

(٢)

اليوم هو يوم الاحتفال بالربيع الجديد، فى الساعة العاشرة صباحا بينما كنت مشغولا بالكتابة فى غرفتى سمعت ضجة فى الشارع، فخرجت أنا وزوجتى إلى الشرفة لمشاهدة ما يدور، فرأينا جماعات من الناس يمشون حاملين أعلاما بيضاء وأخرى حمراء عليها كتابات باللغة العربية، وشاهدت بعضهم يحملون أربعة طبول كبيرة، بينما كان هناك سبعة رجال ينفخون فى الناى، ورجل يحمل طبلة صغيرة مسطحة (دف)، وكان هناك رجال يضعون على رءوسهم العقال العربى، كانوا ينشدون ويدقون الطبول ويعزفون الناى وشاهدت عددا من العواجيز يتوكأ

كل منهم على عصاه، كانوا يتوقفون أحيانا، ويمشون أحيانا أخرى ويتجمع من حولهم الناس الرجال والنساء وبالتدريج زاد العدد كثيرا فتذكرت الحشود التى شاهدتها فى مظاهرات المصريين بالقاهرة!

كنت أتعجب وأتساءل: هل هذه مظاهرة أم هو مهرجان؟! فقد كانوا ينشدون ويغنون ويصيحون، ومروا فقط من أمام الفندق، شاهدت واحدا من بينهم يحمل سيفا طويلا ويرقص بهذا السيف، وبعد دقائق اتجهت هذه " الزفة" إلى مسجد عمر.

جاء إلىَّ السيد هانسمان حاملا رسائل جديدة، وذكر لى أن اليوم هو يوم احتفال المسلمين، وذكر أن هذه الجماعة سوف تذهب إلى ساحة المسجد، ثم تتحرك إلى أريحا ومنها إلى قبر النبى موسى (عليه السلام)(٥٦)، ونصحنى بألا أخرج اليوم لأنه ربما يحدث شىء ما فعيد الفصح على الأبواب، واليهود يحتفلون أيضا، وعلى كل حال بدأ احتفال المسلمين.

(٣)

مرت اليوم الجماهير المحتفلة بموسم النبى موسى من هنا، فى يوم من أيام الربيع الهادئ الجميل ... أشعر اليوم حقا بأن الربيع قد حل بنا ، كان السحاب يطفو فوق جبل الزيتون كقطع من القطن الأبيض، وغطت الخضرة الجبل كله، بينما كان طائر السنونو يحلق بالآلاف كما لو كان يحتفل بحلول الربيع.

حين تطلعت إلى سطح الجيران شاهدت فتيات تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والسابعة عشرة، كن يرتدين ملابس حمراء وبيضاء وزرقاء، انشغلن بالرقص، شاهدت أيضا بنات فى الثامنة أو التاسعة فى ملابس بيضاء يضعن على رءوسهن تيجانا ملونة بأشكال مختلفة، كن يرقصن الفالس معا كما لو

(٥٦) يشير المؤلف إلى احتفال المسلمين بمهرجان النبى موسى (عليه السلام) أو عيده أو موسمه، ويعود تاريخ نشأته إلى أيام صلاح الدين، وهو من ١١ إلى ١٨ أبريل قبل عيد الفصح المسيحى. لتفاصيل أكثر انظر ص ٣٢ ـ ٣٣، الحرب والعنف فى الأرض المقدسة، رؤية رجل يابانى للقدس للبروفسير أكيرا أوسكوكى، ضمن الحرب والعنف فى الأديان، ردود من عالم التوحيد، مركز دراسات الأديان التوحيدية، سيسمور جامعة دوشيشا، فبراير ٢٠٠٤م ويمكن الاطلاع على النص على موقع سيسمور Cismor.

كن طيور السنونو، كانت حركاتهن حركات رشيقة جدا، أدخلت السرور والفرح على قلوبنا ... ها هو الربيع قد حل بنا دون أدنى شك.

(٤)

سمعت صوت خطوات من تحت الشرفة، كان صوتا عاليا، فنظرت إلى الشارع فوجدت مجموعة من الأولاد والشباب الصغار يمرون فى صفوف مثل الكشافة، يبدو أنهم ينتمون إلى جماعة تنتمى إلى الإسلام مما يدل على أهمية احتفال اليوم، كان هناك فتيان يحملان الأغصان الخضراء والأزهار، وشاهدت من بين هؤلاء شابا يحمل راية حمراء عليها كتابات بحروف عربية، كما كان هناك شابان يدقان على الطبل، وثلاثة ينفخون فى الناى، بينما كان الآخرون ينشدون بعض الأناشيد أو الأهازيج، تراوحت أعمارهم ما بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، ووصل عددهم إلى حوالى خمسين شابا، كانوا يرتدون زيا موحدا، يقودهم ويوجههم رجل على وجهه علامات الجد، كانوا بما يصدرون من صوت خطوات منتظمة وحركات منضبطة يشعرونك برجولتهم، وحسن هندامهم، لقد جذبوا انتباهى وأعجبت بهم كثيرا، وقد أعادوا إلى ذاكرتى جماعة النمر الأبيض "بياكو تاى" Biyako Tai[٥٧] . هؤلاء الشباب الكشافة هم جنود صغار، لكنى حين رأيتهم لم أتمكن من أن أتصور أن ينضم مثل هؤلاء إلى غزاة جيش جنكيزخان أو القيصر... وعلى كل حال فهذه المجموعة من الكشافة مناسبة تماما لهذا اليوم ، أى اليوم الذى حل فيه علينا الربيع الجديد!

(٥)

غمرنا السرور ودخلت الفرحة إلى قلوبنا، فانتقلنا إلى مطعم الفندق لتناول طعام الغداء، تناولنا كأسا من النبيذ فى ذكرى وفاة أمى، واحتفلنا ببداية الربيع.

---

(٥٧) يشير إلى معركة حدثت بين شباب تتراوح أعمارهم بين ١٢ سنة و ١٦، تقاتلوا من أجل الحفاظ على سيدهم الإقطاعى، وقد فنوا جميعا عن بكرة أبيهم حفاظا على حياة سيدهم، وكان ذلك فى حرب اندلعت فى نهاية عصر إيدو وقبل عصر ميجى، وحتى الآن ينظر الناس إليهم بتقدير ويعتبرونهم أبطالا.

حين كنا نستريح فى غرفتنا وبينما نحن فى غفوة إذا بنا نسمع صوت انفجار شديد مثل طلقة مدفع، فانتبهنا وطار النوم من أعيننا، لكنى تذكرت أن السيد هانسمون قال لنا إن المسلمين سيطلقون المدافع فلا تقلقوا ولا تخشوا شيئا، ورغم أنه نبهنا إلى ذلك فإننا تعجبنا كثيرا وأصابنا الذعر حين سمعنا أصوات المدافع، خرجنا إلى السطح وكان معى المنظار المكبر، إلا أننى لم أتمكن من مشاهدة أى شىء على البعد وفى أى اتجاه... تعجبت ماهذا الصوت؟ هل هو حقا صوت مدفع، وتساءلت ماذا حدث؟

شاهدت طائرة بريطانية تحلق فوق القدس ناحية مسجد عمر، العرب يتعاونون مع البريطانيين ويعملون من أجل التخلص من الأتراك، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث؟!

(٦)

نزلنا إلى قاعة الفندق وتناولنا الشاى الأخضر، وبينما نحن هكذا سمعنا صوت صراخ وعويل، فنظرنا من الشرفة فوجدنا جماعة تمشى فى جنازة، كان بعض الناس يحملون تابوتا موشحا بالسواد، وشاهدت رجلا يرتدى قفطانا أسود عليه من الخلف علامة على شكل صليب فضى اللون، لم يكن التابوت مغلقا لذلك كان يمكن أن نشاهد جثة الميت، كانت امرأة، وطبقا لوصف زوجتى لها تبدو امرأة فى الخمسين من عمرها بيضاء البشرة ، تعبر ملامح وجهها عن الهدوء والسكينة، كان جسمها مغطى بالورود الحمراء والصفراء ربما كانت راهبة من راهبات المدينة، تعجبت قليلا من هذا المنظر لكنى أعتقد أن هذه عادة محمودة أن يكشفوا عن وجه الميت؛ فقبل أن يُدفن الجسد سيتعرض لأشعة الشمس وسوف يشعر بالسماء من فوقه وبالجو من حوله قبل أن يُقبر فى التراب!

يا له من شعور غريب! حتى مثل هذه الجنازة مضت بشكل يجعل الناس سعداء فى هذا اليوم الربيعى! فالجنازة أصلا يجب أن تعنى السرور والفرح؛ لأن الحياة التى قضاها الإنسان بشكل طيب والحياة التى انتهت بشكل طيب يجب أن تكون نهايتها السعادة، وحتى لو انسكبت الدموع لكنها يجب ألا تكون دموع الحزن، لم

أشاهد جسد أمى بعد موتها لكنى اليوم فقط شاهدت جسد امرأة ماتت بوجهها الهادئ المطمئن وذلك فى يوم عيد ميلاد أمى... يا له من حدث عجيب!

(٧)

الساعة السادسة مساء طلعنا إلى السطح، لم يكن هناك سوانا، السطح عادة نظيف لذا كنا نتمدد ونرقد أحيانا ونسترخى على ظهورنا نشاهد السماء من فوقنا، تلك السماء التى ستظهر على صفحتها بعد قليل النجوم اللامعة، مدينة القدس مدينة جميلة فى يوم الربيع، كان يمكننا رؤية الجبال القريبة من البحر الميت بوضح ، تلونت القدس بعدة ألوان، أشاهد من حولنا مآذن المساجد، وأبراج الكنائس، والقباب المتنوعة هنا وهناك والمبانى بأسطحها المربعة، والأشجار الخضراء المحيطة بالمدينة القديمة وطيور السنونو التى تحلق فى السماء، بينما الأجراس تدق هنا وهناك لتعلن عن حلول هذا المساء الجميل.

هذا المسيحى الريفى لا بد أنه فكر أيضا فى هذه البلدة، لقد أحب المسيح القدس، وكره القدس فى نفس الوقت، لقد كتبت قبلا إننى أريد أن أحرق هذا المكان، أريد أن أزيل هذا المكان، لكنى أحب القدس، أحب هذا المكان، بالتوقيت القمرى نحن فى ليلة قمر الحادى عشر، ظهر القمر بينما بدأت النجوم تبرق متلألئة بشكل رائع فى السماء معلنة عن بداية الليل.

هذا الجمال ليس مثل جمال سماء مصر، لكنه على كل حال نمط من أنماط الجمال، هناك ضوء يبرق بالقرب من "كنيسة القيامة" وعلى قمة جبل الزيتون هناك أضواء واضحة تتحرك إلى برج الكنيسة الروسية ربما هى أضواء شموع يحملها الناس ويتحركون بها ناحية الكنيسة، حين حل الليل نزلنا من فوق السطح.

(٨)

بدأنا العشاء بكأس من النبيذ مرة أخرى، وحين رجعنا إلى غرفتنا شاهدت القمر الجميل فى السماء، وكان يمكننا أن نرى جبل الزيتون فى ضوء القمر، قمر منير لامع يشع ضوءا فضيا، سمعنا تغريد طائر غمرنا بالسعادة فكنا ننشد ترنيمة دينية احتفالا بالربيع الجديد.

## الصليب المضىء

(١)

يوم الثانى عشر من أبريل حين ذهبت إلى دورة المياه وجدت الماء وقد تناثر على الجدران والأرضية، تعجبت وتساءلت من فعل هذا؟ وحين نظرت حوالىَّ رأيت طائرا يقف على حافة النافذة... دققت النظر... كانت حمامة أصابها البلل، يبدو أنها دخلت من النافذة المفتوحة، ورفرفت فى الحوض المملوء بالماء فكانت النتيجة التى أراها الآن، أضحكنى كثيرا منظر الحمامة المبللة بالماء.

(٢)

طلعت على السطح بعد تناول الغداء، فى الناحية المواجهة للفندق يوجد "محل" علق صاحبه على الجدار الحجرى التريب من محله أنواعا كثيرة متنوعة من السجاجيد، كان صاحب المحل الذى يضع الطربوش التركى على رأسه يجلس فى انتظار زبون يأتى للشراء، وأحيانا كان يفد عليه بعض الأطفال الذين تغطى وجوههم وأيديهم قذارة لا يمكن وصفها فيلمسون بأيديهم السجاد ويذهبون لحال سبيلهم، لم يكن الرجل يهتم كثيرا بمن يلمس السجاد أو يعبث به أو حتى من يشاهده، ونادرا ما كان يأتيه أحد الزبائن ليناقشه فى السعر، لكنه لا يمكنه أن يبيع ولو حتى سجادة واحدة من بين هذه السجاجيد، كانت هناك سجادة حمراء جميلة جدا، قالت زوجتى بأنها تريد شراءها أو على الأقل تسأل عن ثمنها، إلا أنه لا يزال أمامنا وقت طويل قبل أن نسافر لهذا يجب أن نتروى وأن ننتظر، وأقلعت زوجتى عن الفكرة.

سمعت رجلا ينادى على بضاعته، كان يبيع شيئا ما، صوت البائع جعلنى أتذكر اليابان حين كنت أعيش فى ضواحى طوكيو، وكان كثير من الباعة يأتون ينادون على بضاعتهم وبخاصة على الورود والأزهار أو الخضراوات مثل الخيار وغيره، كنت حين أستمع إلى صوت الباعة أشعر كأنه صوت القوس حين نشده لنقذف به الرمح وبخاصة فى نهاية الربيع وبداية الصيف، فمثل هذا الصوت يثيرنى ويجعلنى أنتشى، والآن فقط سمعت الصوت نفسه الذى صدر عن رجل يبيع

"العسلية " الحمراء والبيضاء، وهى شبيهة بالعسلية التى اشتريتها فى اليابان، الشىء نفسه، والصوت نفسه. يبدو أن الشرق الأوسط قريب جدا من الشرق الأقصى، حين يكون لك أقارب، وعلاقتك بهم ليست جيدة، فلا يمكنك أن تصيبهم بأى ضرر أو أذى؛ فهناك رابطة قوية تربطك بهم، إنها القرابة ورابطة الدم.

كان هناك نحو عشرة رجال على رءوسهم الطرابيش التركية الحمراء، ويرتدون رداء طويلا، ويعلقون سيوفا على أكتافهم، يمشون فى "طابور" ومن بعدهم جماعة من القساوسة... ها هو عيد الفصح قادم على الأبواب.

(٣)

فى المساء وبشكل مفاجئ سمعت دقات أجراس الكنائس هنا وهناك، انطلقت الأجراس كلها فى الوقت نفسه كأنها تنادى: تعالوا! تعالوا! شعرت أنه لا يوجد فرق بين المسيحية والبوذية، فهذا مهرجان! أو هو مولد!

فى المساء صعدت إلى السطح، سكنت الريح، وكان الجو دافئا، هذه أجمل الليالى المقمرة، حملنا بطانية خفيفة وفرشناها، ورقدنا فوقها، إنه أمر مضحك أن ننام فوق السطح هنا فى مدينة القدس! ربما سيضحك القمر علينا، هكذا قالت زوجتى. ليلة جميلة رائعة، كانت هناك بالقرب منا بعض الحشرات التى لم نكن نراها لكننا كنا نسمع صريرها وحشرجتها، كانت الأنوار تظهر من أمامنا بوضوح ومن مختلف الجهات أيضا، صاحت زوجتى: انظر! انظر! هذا الصليب فوق الكنسية... نهضت ونظرت إلى قمة قبة صغيرة، شاهدت صليبا يشتعل ويصدر ضوءا ساطعا، يا له من صليب جميل! ورغم أننى قلت: إن عهد الصليب ولًى وانتهى فإننى لا يمكن الآن أن أمنع نفسى من مشاهدة هذا الصليب الجميل. لم يكن هذا كأى صليب صنعه إنسان، كان شكله رائعا، فالضوء المنبعث من اشتعال الصليب يظل يضعف ويخفت ويخفت حتى يختفى تماما ثم يظهر من جديد[٥٨] كنت أخشى أن يتلاشى الضوء بسرعة فقد كنت أريد أن أشاهد منظره

(٥٨) يحتفل اليابانيون فى السادس عشر من أغسطس بوداع أرواح الأجداد بعد زيارتها لهم يوم ١٣ أغسطس، وعندها يشعلون النار حتى تعرف الأرواح طريق عودتها كما يعتقدون، وفى الجبال المحيطة بكيوتو يشعلون نيرانا على شكل حرف يعنى "كبير" أو عظيم، ويقال دايمونجى، أما هذا الرسم فيطلق عليه باليابانية أوكوريبى Okuribi اى وداع الأرواح، وربما أثار منظر الصليب المشتعل هذه المشاعر فى المؤلف وزوجته.

الجميل لمدة أطول. على كل حال كان الصليب لا يزال يشتعل فيضىء، أخذنا نشاهد هذا المنظر الجميل وبعدها نزلنا لتناول العشاء.

(٤)

هذه ليلة ربيع بحق، كان ضوء القمر الهادئ يعكس السماء والجبال والوادى والبيوت ومدينة القدس بأكملها، إنه يحيل كل الأشياء إلى شىء واحد، يوحدها معا ويمزجها داخل ضوئه الهادئ، والناس من ثم رغبوا فى الغناء والرقص، وعزف الموسيقى، نحن أيضا جلسنا على الكراسى فى غرفتنا وبدأنا الغناء دون توقف... وسمعت أحدهم يطرق الباب، ففتحت الباب فطالعنى وجه رجل فى الستين من عمره، نظرت إليه فقال: آسف، لقد طرقت الباب على سبيل الخطأ. وابتسم ثم ذهب إلى الغرفة المقصورة.

كنت قد ساعدت هذا الرجل العجوز فى قاعة الفندق، كان يعزف على البيانو ويعلم أحد الشباب، ربما جذبه صوت غنائنا، أو ربما نادته ألحاننا!

"على سطح السفينة... تحت النجوم... فى ليلة مقمرة، بدا برج العقرب واضحا... عنى أُغَنِّ، دعنى أقرأ، أُغمرنى بمشاعر الحب فأنا لا أمضى طبقا لمشاعر والدى!"

## يوميات الأسبوع المقدس[٥٩]

يوم أحد السعف[٦٠]

اليوم الثالث عشر من أبريل يوم أحد السعف، فى مثل هذا اليوم جاء المسيح من " أريحا" عبر جبل الزيتون ودخل مدينة القدس، واستقبله الناس الذين قدموا من هنا وهناك فارشين ثيابهم وأغصان الأشجار والنخيل، ومضوا على الطريق ينشدون الترانيم "هوزانا هوزانا"[٦١]

(٥٩) أسبوع الآلام

(٦٠) أحد الشعانين.

(٦١) ربما يشير المؤلف إلى ترنيمة الهيلوايا وإنشاد ترنيمة: "المسيح قام من بين الأموات وداس الموت بالموت ووهب الحياة للذين فى القبور".

اليوم الأحد، أحد الشعانين، ومن اليوم ولمدة أسبوع يستمر ما يطلقون عليه أسبوع الآلام. طلعنا على السطح، كانت السماء اليوم ملبدة بالغيوم، شاهدت بعض الفتيات على رءوسهن قبعات مختلفة الألوان حمراء وبيضاء ويرتدين ملابس جميلة نظيفة وكانت أحذيتهن بأشكالها الجذابة تلفت الأنظار، بينما الأطفال يمسكون بسعف النخيل، شاهدت أحدهم يمسك بسعف مجدول على شكل صليب، كما شاهدت إحدى البنات تمسك بسعف النخيل والورد البلدى الأحمر مع أزهار الفل الأحمر أيضا، بينما كان البعض يمسك بأغصان الزيتون، وكانوا جميعا فى غاية السعادة والفرح، كانوا يمشون فى طابور طويل يبدو بلا نهاية، وأحسبهم قد أتوا على جميع ورود المنطقة كلها وأزهارها، وحملوها فى أيديهم أو وضعوها مع السعف أو قامت البنات بتثبيتها فى شعورهن!

غمرتنا السعادة أيضا، فتوجهنا إلى الكنيسة البريطانية القريبة منا، تطلعت داخل الكنيسة فوجدتهم يصلون كالعادة، فقررنا أن نذهب إلى كنيسة القيامة، فوجدناها مزدحمة جدا، كان القساوسة والكهنة يرتدون ملابس مرتبة مهندمة، وكان هناك من يمسك بالسعف، كانوا ينشدون الترانيم بصوت جميل، ويدورون حول القبر، وأحيانا كان صدى إنشاد الأطفال يتردد فى الجنبات، منظر جميل جدا وصوت جميل، كانت هناك نساء يهوديات يغطين رؤوسهن بإيشاربات حريرية شفافة مختلفة الألوان ما بين الأزرق والوردى والأبيض والأخضر والبنى وغيرها، وكن يرتدين "فساتين" من القطيفة البنفسجية، بينما كانت الممرضات البريطانيات والأمريكيات يضعن صليبا صغيرا صنعنه من سعف النخيل، وعلى رءوسهن أغطية بيضاء بينما كان "الفستان" أسود اللون، وشاهدت فتيات سوريات ربما قدمن من مدرسة الإرسالية النصرانية؛ إذ كن يرتدين زيا موحدا أزرق اللون، وكانت تشرف عليهن إحدى الراهبات، وكان الجميع يشعر بالسعادة والسرور فاليوم يوم الاحتفال بعيد أحد السعف.

صعدنا على سلم من داخل الكنيسة ومن الجانب الجنوبى للمذبح إلى مكان يسمونه "الجلجلة" لم أشاهد أحدا كما أن المكان كان مظلما، افترشنا الأرض بجوار تمثال مريم العذراء، كانت الأرضية من الرخام، وبجوار التمثال هناك طاقة

صغيرة مصنوعة من الزجاج الملون، شعرت بنوع من الراحة بسبب هذه الظلمة وبرودة الرخام الذى نجلس فوقه، وكنا نسمع الغناء وصوت إنشاد الترانيم ووقع خطوات العديد من الناس يأتينا من تحت، تذكرت والد زوجتى، حماى الذى يشكو دائما وفى كل وقت من حرارة الجو، تمنيت لو جاء هنا واستلقى فوق هذا الرخام، لا بد أنه سيشعر بالسعادة.

بينما كنا نجلس إذا بامرأة غطت نفسها بنقاب أسود قدمت وسجدت على الأرض وأخذت تدعو أمام صورة المسيح على الصليب، ثم نهضت وخطت ناحية الصليب فقبلته، ثم جاءت أمام تمثال مريم وقبلت القماش المفروش تحت التمثال، ثم ألقت بنظرة على التمثال، ورفعت يدها اليمنى ثم رسمت على وجهها علامة الصليب. لاحظت أنهم وضعوا مفرشا على المنضدة عند الصليب القريب من تمثال مريم ، هذه المرأة وضعت جبهتها على المنضدة ودعت ببعض الكلمات، وبعدها بقليل بدت كأنها راضية، وكأن الشعور بالراحة والسكينة ملأ فؤادها، فتركت المكان ونزلت على السلم، بعدها شاهدت صبيا فى الثانية عشرة من عمره قدم حاملا شمعة، واتجه ناحية تمثال مريم وقبل المفرش، بعدها دخل رجل بزى عسكرى، ثم جاءت مجموعة من الفتيات تتراوح أعمارهن ما بين الثامنة والسادسة عشرة، أخذن يتطلعن إلى تمثال مريم كما لو كن معجبات بها للغاية، وشاهدت بنتا صغيرة فى السابعة من عمرها قدمت برفقة أمها، قبلت المفرش عند تمثال مريم، وبينما كانت تعود مع أمها ظلت تتلفت عدة مرات إلى تمثال مريم.

أما زوجتى فقد كانت غارقة تماما فيما يدور حولنا، وكانت متأثرة جدا مما تراه. حقا يتشرب الأطفال الدين هنا ويمتصونه كما يشربون اللبن من صدور أمهاتهم، لم ينتبه أحد منهم إلى وجودنا، أعتقد أن الناس أحبوا مريم العذراء كثيرا بعد موتها. قلت لزوجتى: إن مريم كانت إلى حد ما ساذجة. قالت زوجتى: نعم، كانت امرأة بسيطة وبريئة للغاية. إلا أن زوجتى انفجرت فجأة فى نوبة بكاء...

نهضنا، وذهبنا إلى المكان الذى توجد فيه آثار الصليب، وبعد ذلك جئنا إلى تمثال مريم مرة أخرى، فنظرنا إليها، وحملقنا كثيرا فيها، وقلت إنها إلى حد ما

ساذجة، لكنها كانت أما، والأم أم... وسمعنا جلبة فنظرنا إلى أسفل فوجدنا مجموعة من الناس كانوا يمرون بمنطقة الكنيسة، كانوا يطوفون ويدورون حول مكان مربع هو المكان الذى وضعوا فيه الزيت على جسد المسيح بعد أن أنزلوه من فوق الصليب.

شاهدت بعض القساوسة يحملون مبخرة يحركونها بشكل خاص، بينما يوجد جندى حارس يحمل سيفا طويلا، ثم شاهدت البطريرك يحمل صليبا صغيرا فى يده اليمنى وفى اليد اليسرى عصا ثقيلة تلمع، وكان غطاء الرأس منسوجا بخيوط ذهبية وفضية تتداخل فيها أحجار ثمينة لامعة، كان كل ما عليه يلمع ويبرق.

الجماعة التى كانت قد دخلت وهى تنشد خرجت الآن، وخرجنا نحن أيضا ورجعنا إلى الفندق، شاهدنا كثيرا من الأطفال بوجود مستبشرة، وسمعنا أصواتهم الجميلة، لا أملك إلا أن أقول: ما أجمل وجوه الأطفال وما أحسن إنشادهم وما أعذبه!

(٢)

فى المساء خرجنا إلى السطح مرة أخرى، الليلة لم نشاهد نور الصليب المشتعل الذى شاهدناه بالأمس، هذه ليلة مملوءة بالبهجة، كان الهواء باردا إلى حدٍّ ما، لكننا كنا على السطح نرقص وننشد الهيلوايا، ها هو الرب قادم...

## يوم الاثنين

### اخلع الطربوش الأحمر

(١)

الرابع من أبريل يوم الاثنين، بدأت السماء تمطر منذ الصباح الباكر . آه، مطر فى مدينة القدس، منذ ثلاث عشرة سنة جئت هنا وقضيت ثلاثة أسابيع من مايو إلى يونية فى المكان نفسه، لكن نقطة واحدة من المطر لم تنزل من السماء واليوم فجأة أبرقت السماء وسمعت صوت الرعد، كان كصوت مدفع انطلق فجأة بالقرب

منى، ثم هطل المطر، وشعرت كأن معركة نشبت بين المسيح (عليه السلام) من ناحية والنبى محمد ( ﷺ ) من ناحية أخرى!

(٢)

السماء تمطر، لهذا مكثت داخل الفندق أقرأ "سيرة النبى محمد". كنت قد اشتريت الكتاب بعد أن قرأت عن إعلان عنه فى الكتاب الإرشادى الذى يشرح معالم القدس، كنت أقرأ كتاب السيرة هذا وتخطر على بالى أمور كثيرة، لم أقرأ القرآن، أريد أن أعرف الكثير عن الإسلام، وإن وجدت وقتا أريد أن أذهب إلى مكة أيضا، فهناك سكة حديد وقطار يصل قريبا من هناك، لكن ليست هناك ضرورة لأن أذهب إلى هناك، فالدين الذى جاء به محمد دين عدوانى takitai no shukyo وهو دين الغضب funci no shukyo[٦٢] ، وهو دين إسماعيل الذى طرد من الأسرة من أجل سارة، وإسماعيل هو ابن إبراهيم، فأساس هذا الدين ينقصه الشعور بالاحترام تجاه المرأة، وهو يشيع جو النزاع والغضب والغيرة، هذا هو موقف المسلمين تجاه اليهود والمسيحيين. أنا متعاطف مع أهل الصحراء، أشعر بالأسف، لكن هذا ليس عدلا، يجب أن يكون لديهم شعور بالهدوء والجنوح إلى السلم، إذا كانت مشاعرهم مشاعر عدوانية دائما فلا يمكنهم أن يقودوا العالم، ولا يمكنهم أن يحكموا العالم... فى مكان ما، سيولد بالطبع شخص ما، ومحمد كان هذا الشخص، كان الرسول الضرورى لتوحيد أهل الصحراء، كان وجوده ضروريا، لكن العالم يتطور، والأزمنة المختلفة تحتاج إلى قوى مختلفة، الدين الذى لا يهتم بالمرأة لا يمكن أن يكون دين العالم الجديد، حتى أولئك الذين يدعون أنهم ينتمون إلى دين المسيح، إذا لم يحبوا المرأة، وإذا استمروا فى قتل البشر، فهم ليسوا بمسيحيين حقيقيين ، لقد انتهى عصر النبى محمد، وانتهى عصر العالم الإسلامى، وإذا أراد العالم الإسلامى أن يمضى إلى مرحلة ما بعد عصر النبى محمد بطريقتهم هذه نفسها فإنهم يتحطمون وينتهون، وأنا اليوم أفكر كيف

---

(٦٢) استخدم المؤلف التعبير اليابانى فى الجملتين، وقد التزمنا بالترجمة الحرفية.

يمكن إحياء بلدان الشرق الأوسط؟ كيف تتحقق لهم النهضة؟ هذا قد يحدث إذا تخلصوا من هذا الطربوش الأحمر!

## الثلاثاء

### معرض النماذج المصغرة لدور العبادة

(١)

الخامس عشر من أبريل، الجو اليوم رائع، سوف أكتب مقالة عن "السلام العالمى" بعدها سنذهب لنشاهد معرض النماذج الخشبية المصغرة لدور العبادة. قام أحد الهنود بإرشادنا، شرح لنا هذه النماذج، بدأ بالعصور التاريخية القديمة فى مصر ثم شاهدنا الخيام فى الصحراء لنصل إلى قصر سليمان، وشاهدنا قصر هيروديت، كما شاهدنا مسجد عمر، ورأينا خيام الصحراء مصنوعة من جلد كلب الراكّون Raccoon dog، وقد جعلوا مكانا أمام قصر هيروديت لصلاة النساء، وكانت المنطقة تعبر عن العصر الرومانى، وقد وضعوا تمثالا صغيراً لامرأة تسمى جوبيتر Jupiter كما صنعوا كنيسة أكوسا Akusa على شكل صليب. هذه النماذج المصغرة جذبتنا وأدخلت السرور إلى قلوبنا، كانت هذه النماذج مصنوعة من الخشب الذى يمكن إعادة تشكيله لينقلنا من عصر إلى عصر، وقد صنعها أحد الفنانين الألمان، ويدعى الدكتور شيك Dr. Scheck، وقد قضى خمس عشرة سنة فى استكمال هذه النماذج، ومات منذ تسع عشرة سنة، إلا أن فكرته هذه لا يزال لها تأثيرها العلمى. حين جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة لم أر هذا المرشد الهندى الذى ذكر لى أن أخاه سيعود إلى الهند، وسوف يسافر إلى بورسعيد ليودعه، واستأذن وذهب وحل محله شاب أمريكى قام بإرشادنا.

(٢)

حين رجعنا شاهدنا تجمهرا عند بوابة الخليل، وحين وصلنا هناك وجدنا بعض العرب يرقصون، ومن بين هذا الحشد كان هناك بعض العرب يتمايلون ويرقصون بين الزحام، وكان هناك شخص يعزف الناى، بينما شاهدت مجموعة من سبعة رجال أو ثمانية يحملون السيوف ويتمايلون ويحركونها فى الهواء.

تبدأ احتفالات المسلمين من الحادى عشر إلى الثامن عشر من أبريل، وهذا احتفال أو مهرجان يقيمه المسلمون عادة فى هذا الوقت من السنة، وفى نفس الوقت يوجد احتفال لليهود أيضا، كما أن المسيحيين يحتفلون أيضا بعيد الفصح، وهذه كلها تحل فى وقت واحد، وهكذا صارت القدس مملوءة بالاحتفالات والمهرجانات.

حين شاهدت المعرض السابق لاحظت وجود دمى صغيرة على شكل خراف وبقر، ربما هذه أضحية من أجل الرب، رب المسيحيين يعلم البشرية الأخلاق والتسامح، إلا أن اليهودية تهتم بالماديات، وتهتم بالحساب وبالجمع والطرح والمكسب، وتهتم بالحرب وبالنزاعات، ودائما تبدأ أعمالها بمثل هذه الحسابات والتقديرات والتركيز على الماديات، يمكننى القول إن اليابان الآن مثل اليهودية قديما. لقد جاء المسيح فحطم أساس اليهودية، فالمسيح يفضل الا نحسب وألا نعد، ولا يريد أن نقدم شيئا مقابل شىء، فالمسيح يفضل أن تهب دون انتظار مقابل، والمسيح لا يريد المهرجانات والاحتفالات، والمسيح علم الناس الحرية على أساس العدل، والحياة المملوءة بالحب، إلا أنه من المؤسف أنه قُتل وصُلب، وتأسف تلميذه بطرس على ما ارتكبه، واستمر يضع جسد المسيح على الصليب مدة ألفى سنة! فبطرس هو اليهودى الذى تظاهر بغير ذلك، إن جريمة بطرس جريمة أعظم من جريمة يهوذا الإسخريوطى(٦٣)

(٣)

بعد الغروب مباشرة طلعنا فوق السطوح، كان هناك ضباب من ناحية البحر الميت، القمر بدر فى هذه الليلة، قمر أحمر كبير مثل المصباح اليابانى الأحمر، لم يكن منظر القمر بين أشجار النخيل جميلا جدا فقط، بل كان رائعا وساحرا يخلب الألباب.

(٦٣) فى الأصل Juda Isukarite الذى خان المسيح وسلمه مقابل ثلاثين قطعة من الفضة، ثم ندم وانتحر بعد ذلك، أما بطرس فقد انكر انسيح واقسم أنه لا يعرفه. انظر: إنجيل متى، قراءة توضيحية فى الإنجيل ص ٤٦ ـ ٤٧. الكنيسة الإنجيلية القاهرة ٢٠٠٩م.

بعد تناول طعام العشاء رغبت زوجتى فى الطلوع إلى السطح مرة أخرى، لهذا طلعنا لنشاهد جمال القمر الذى ارتفع كثيرا فوق صفحة السماء، وأخذ يرسل بأشعته الفضية على جبل الزيتون، فشعرنا أن الجبل صار قريبا جدا منا، شاهدنا بالقرب من حديقة الجثمانية ضوءا خافتا، بينما كنا نسمع صرير الحشرات، وكانت هناك فرقة موسيقية على المبنى المقابل تعزف الموسيقى.

## يوم الأربعاء

### قبر الأم المقدسة

فى السادس عشر من أبريل وبعد تناول طعام الإفطار طلعنا على السطح، كان الجو يميل إلى البرودة، لكنه كان فى العموم جوا ممتعا، فالسماء كانت صافية، وقد أشعرنا لونها الأزرق القانى بالراحة. حين نزلنا وجدنا زائرا فى انتظارنا، كان الزائر رجلا بريطانيا فى الخمسين من عمره يدعى السيد شيلى Shelly، يعمل فى الصليب الأحمر، وهو السكرتير التنفيذى أو الأمين الفخرى للغرفة التجارية البريطانية، كان قد شاهدنا حين كنا نشاهد معرض النماذج الخشبية بالأمس، لهذا فكر فى زيارتنا ليطلب منى أن أكتب له خطابا إلى الغرفة التجارية اليابانية فى طوكيو، فهو يريد "عينات" من المنتجات اليابانية فى طوكيو، ليعرضها هنا فى القدس، لم أر فى ذلك مشكلة ما، تبادلنا الحديث مدة، السيد شيلى يؤمن بعودة المسيح، ويرى أن الناس فى الغرب متسامحون، لكن الناس فى الشرق متعصبون، وأضاف أنه ربما تنشب حرب أخرى فى القدس فى يوم ما..

أخذت الكتاب المقدس وقرأت الإصحاح ١٤ زكريا(٦٤)، كنت أقرأ مثل طفل صغير. الفصلان كلاهما يتعلقان بعودة المسيح، قال السيد شيلى إن المسيح الجديد لن يظهر بين اليهود، وأضاف أنه لا يحب المشروع الصهيونى، وأعطانى كتيبا صغيرا عن المسيح الموعود قبل أن يعود أدراجه.

---

(٦٤) انظر الكتاب المقدس ص ٦٧٨، دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، ط ٤، ٢٠٠٩م.

(٢)

ذهبنا بعد الظهر إلى حديقة الجثمانية، فضلنا الذهاب مشيا، فالحديقة تقع عند أقدام جبل الزيتون، دخلنا من البوابة الشرقية، شاهدت ثمانية أشجار زيتون عتيقة جدا، كانت هناك بين الأشجار أزهار متنوعة، دققت كثيرا فى أشجار الزيتون ربما يرجع عمر بعضها إلى أكثر من ألف سنة، التقط أحد القساوسة بعض أغصان الزيتون وقدمها لنا، والتقط أزهار البنفسج قدمها إلى زوجتى، أعطيناه عشرة قروش، وكان هناك عاملان قدمنا لكل منهما قرشين فشعروا جميعهم بالسرور.

القسيس العجوز رافقنا إلى البوابة ليودعنا، وأشار إلى أحد الأعمدة الحجرية القريب من البوابة قائلا: فى هذا المكان قبل يهوذا المسيح[٦٥]. ثم أشار إلى صخرة حجرية وقال: هذا هو المكان الذى نام فيه بطرس ويوحنا ويعقوب. بعدها خرجنا من الحديقة ومضينا عند برج الكنيسة الروسية، ثم صعدنا حتى منتصف جبل الزيتون، وجلسنا فوق الصخور، وأكلنا البرتقال الذى اشتريناه.

اقترب منا أحد الأطفال، ثم قدم وردة إلى زوجتى فأعطيته برتقالة، فانفرجت أساريره، وقام بالتهامها على الفور. أخذت أتطلع إلى القدس، القبر الموجود بالقرب من البوابة المغلقة لم يكن جميلا، فكان علينا أن نذهب لنجلس فى مكان آخر.

(٣)

نزلنا من الجبل وذهبنا لنشاهد قبر ماريا، الذى يقع فى الناحية الشرقية من جسر كيدرون، لم أشاهده حين جئت هنا من قبل، وصلنا إلى المحل ونزلنا على السلالم ، سبع وأربعون سلمة من الرخام، وصلنا إلى أرضية حجرة مساحتها 20 تتاميًا تقريبا عبارة عن بدروم مظلم، فجأة لمحنا ضوءا، حملقنا ناحيته فوجدنا امرأة بريطانية مع جندى بريطانى، كانت إحدى رجليه صناعية، كانا يحملان

---

(٦٥) كما ورد فى إنجيل متى "ذهب يسوع وتلاميذه إلى بستان يدعى جشيمانى وقال لهم اجلسوا هنا حتى أذهب هناك وأصلى... المصدر السابق ص ٤٦.

شمعتين، بعد مرورهم عادت الظلمة إلى الغرفة مرة أخرى، أحضر لنا القسيس الذى تولى إرشادنا شمعتين، أمسكت بشمعة وأمسكت زوجتى بأخرى، وتبعناه إلى مكان عميق، يبدو أنه مغارة فى طرف الغرفة، شاهدنا صخرة كبيرة مثل "التابوت"، قيل لنا: هذا قبر ماريا، وطبقا للأسطورة أو الحكاية فإن تلاميذ المسيح دفنوا ماريا، وقد صعدت بعد ذلك إلى السماء.

لقد تم بناء هذه الكنيسة فى القرن الخامس، وقد تعرضت للهدم أكثر من مرة، فأعيد بناؤها، واليوم توجد هذه الكنيسة بجوار قبر ماريا، كما يوجد قبر يوسف النجار ووالدَىْ ماريا، وهناك كهف يحكى الناس عنه حكايات، فيقولون إن عرق المسيح كان يتساقط من جسده كما لو كان دما، لم يكن هذا المكان مريحا بالنسبة لى، كنت أهتم فقط بما يجذبنى ويريحنى، صورة مرسومة معلقة بالقرب من قبر ماريا مساحتها شاكوان اثنان[٦٦] فى شاكو واحد، موضوعة فى إطار زجاجى، صورة لماريا نائمة كما لو كانت على فراش الموت، وبجانبها المسيح يتطلع إلى وجه أمه التى فارقت الحياة، بينما كان المسيح يمسك بطفلة وليدة بديلة عن الأم التى فارقت الحياة. ماريا ماتت لكنها ولدت من جديد فى شكل طفلة رضيعة، المسيح يحملها، هذا يعنى أن الموت يعنى الميلاد، الآباء يمكن أن يكونوا أطفالا، والأطفال يمكن أن يكونوا آباء، لقد فقدت أمى منذ شهرين، هذه الصورة تعلمنى شيئا، تمكنت من أن أعرف لماذا جئت هنا الآن، ولماذا لم آت من قبل.

شاهدنا بئرا، شربت زوجتى من ماء البئر وقالت: ماء طيب. غمرتنا السعادة وخرجنا من الكنيسة، أعطيت القسيس المرشد ١٠ p ثم أعطيت عملة نحاسية لامرأة متسولة ، كنت أشعر بسعادة غامرة ، فزرت فى طريق عودتى السيد هانسمان فى مستشفى الصليب الأحمر، لكنى لم أجده هناك، فتركت له بطاقتى وبعض الحلوى اليابانية المعروفة باسم يوكان[٦٧] .

---

(٦٦) الشاكو ٣٠ سم.

(٦٧) مثل المهلبية "المصرية". وفيها فاصوليا حمراء معجونة بالسكر.

(٤)

حل بنا عيد الفصح، صار الفندق مكتظا بالنزلاء خلال هذه الأيام الثلاثة، ربما سيشاركنا النزلاء الجدد العشاء اليوم، حين كنا نجلس على الطاولة كانت تجلس على الطاولة المجاورة لنا امرأة سورية تحدثت معنا، عرفت أنها طبيبة تدربت فى أمريكا، وتعيش فى بيروت، زوجها أستاذ فى الجامعة، أخبرتنا أنها تحب اليابان كثيرا.

حين كنا داخل الفندق كنا نرتدى دائما الكيمونو اليابانى، النزلاء الجدد ظلوا يحملقون فينا من فوق إلى تحت، ارتدينا اليوم الشبشب اليابانى، لكنى ذكرت لزوجتى أنه من الغد سوف ألبس الزورى "القبقاب" اليابانى بدلا من هذا الشبشب[٦٨]، وكان يجلس بجوار الطبيبة السورية كثير من مواطنيها من الرجال والنساء. السوريون رجالا ونساءً شعرهم أسود فاحم ووجوههم ليست بيضاء، بل قمحية، وقامتهم متوسطة قريبة من قامة اليابانيين، لكن حواجبهم كثيفة، ونظراتهم حادة.

حين دخلنا صالة الطعام شاهدت الجندى ذا الرجل الاصطناعية، شعرت بالحزن من أجله، اليوم أيضا زوجتى قالت إنها رأت جنديا فقد بصره، لماذا لا يوقف البشر الحروب التى تفقد الإنسان أعضاء جسمه؟

## يوم الخميس

### مراسم غسل الأقدام[٦٩]

(١)

السابع عشر من أبريل، الجو اليوم جميل جدا ، تناولنا طعام الإفطار، نظرت إلى مدينة القدس التى صارت بيوتها وأشجارها نظيفة لامعة، أشعر بجو مريح

(٦٨) شبشب من الحصير (التنامى)، وليس من الخشب.

(٦٩) إشارة إلى غسل يسوع أقدام تلاميذه قبيل عيد الفصح. انظر إنجيل يوحنا، إصحاح ١٣ ص ١٤٠ قراءة توضيحية فى الإنجيل مصدر سابق.

جدا، جاء إلينا السيد هانسمان فى الساعة العاشرة، وأعطانا لفافة من الصحف اليابانية، وذكر أنه تجرى اليوم فى إحدى الكنائس مراسم غسل الأقدام "تطهير الأقدام"، وأخبرنا بأن صلاة مسائية ستقام فى المطعم البريطانى القريب من الكنيسة، بعدها يتحرك الناس إلى حديقة الجثمانية وهناك تقام الصلوات، لقد زرنا حديقة الجثمانية بالأمس.

تبادلنا الحديث مع السيد هانسمان الذى ذكر لنا أن الحكومة التركية أخذت كل ممتلكاته ، لكنه وجد شيئا واحدا من ممتلكاته فى المستشفى وهو دفتر من دفاتر فندق أوليفر هاوس وعلى أوراق الدفتر صورة الفندق، أعطانى بعض هذه الأوراق، أخبرنا أن زوجته سوف تأتى هنا بعد أيام قليلة، وقد كان من المتوقع أن تصل إلا أنها تأخرت بسبب تأخر وصول البواخر.

بعد أن تركنا السيد هانسمان، ذهبنا إلى الكنيسة لكننا عرفنا أن المراسم ستبدأ فى الساعة الواحدة بعد الظهر، لهذا رجعنا إلى الفندق، وبعد الغداء خرجنا مرة أخرى وذهبنا إلى الكنيسة حيث وجدنا جمهورا كبيرا يقف أمامها، فوقفنا بين الناس بجوار الباب، وأثناء وقوفنا تحدث معنا بالفرنسية أحد القساوسة الذى كان يلبس زى القساوسة الطويل، لم يفهم أحدنا الآخر لكن يبدو أنه فهم أننا يابانيون.

بعد ذلك ظهر البطريارك وهو يرتدى عباءة بنفسجية اللون وعلى رأسه غطاء طويل ضخم أبيض عليه زخارف مثل الكرات الذهبية البراقة، يمسك بعصا ذهبية اللون، بعد أن دخل البطريارك إلى الكنيسة تبعه الناس جميعا، وبدأوا ينشدون الترانيم الدينية، كان أحد القساوسة يقودهم، بينما كانوا يرددون خلفه الترانيم فى صوت يعلو وينخفض ويتردد صداه بين جنبات الكنيسة بشكل رائع وجذاب... لهذا جئنا هنا... لسماع هذه النغمات العذبة، مشينا داخل الكنيسة ثم جلسنا على الكراسى المرصوصة، حيث يوجد كثير من الناس من مختلف الجنسيات، ومن مختلف الأعمار، رجال ونساء عجائز وشباب، أطفال وفتيان وفتيات من جميع الأعمار، كان الجميع فى انتظار شىء ما، بدأ الملل يظهر على الوجوه، فقد كان معظمهم يتطلعون إلى ساعاتهم كأن الوقت طال عليهم، قدم إلينا أحد الجنود

البريطانيين يبدو أنه برتبة عالية، وقام بتحيتنا، أتذكر أننا كنا قد التقينا به فى فندق شيبرد فى القاهرة، أخبرنا بأنه جاء هنا ليقضى إجازة عيد الفصح، وشاهدت جنديا أمريكيا شابا صغيرا يبدو كتلميذ فى مدرسة إعدادية، كنت أريد أن أقول له: ماذا أتى بك هنا؟ ارجع! ارجع بسرعة! فوالداك فى انتظارك، كما شاهدت بعض الجنود الهنود أيضا، فكّ بعضهم طيات عمامته محاولا تثبيتها من جديد، يبدو أن طولها يبلغ نحو مترين! أراد هذا الجندى الهندى ذو العمامة أن يتحدث معنا لكننا لم نتمكن من التفاهم معا،إلا أننا على كل حال شعرنا بأننا معا ننتمى إلى منطقة واحدة، فالهند واليابان تربطهما مشاعر من نوع خاص ربما مشاعر الجيرة أو الانتماء إلى قارة واحدة.

المرشد العجوز الذى اهتم بنا من قبل حين جئنا هنا، عرفنا وجاء إلينا وأهدانا البرتقال فسررنا بذلك، كان هناك بعض الناس يشاهدون ما يجرى من خلال فتحات فى الباب، كانوا يريدون أن يعرفوا متى تبدأ المراسم، كان الأطفال ينشدون أو يصيحون بأصوات عالية، فقدم راهب عجوز وجمع الأطفال من ناحية الباب، وتوقف الإنشاد، ثم جاء أحد الحراس يحمل راية ويمشى أمام البطريارك يقود الركب ثم انفتح الباب ومن ثم شعرنا بالحرية!

(٢)

تحول النهار إلى مساء جميل، أشعة الشمس أحالت لون الصليب الأبيض فوق الكنيسة الألمانية إلى لون ذهبى، طيور السنونو بالآلاف تحلق فى الفضاء، صعدت على سطح الفندق وفيما كنت أشاهد هذا المنظر الهادئ البديع كنت أسلى نفسى بقراءة قصيدة الشاعر وردزورث Wordsworth:

**يا له من مساء جميل هادئ ومريح**

**الوقت المقدس هادئ مثل راهبة**

**يلهث بالعشق[٧٠]**

---

(٧٠) قصيدة وردزورث Wordsworth مقطع يبدأ بـ it is beauteous evening.

جاءنا خادم من أسفل، يخبرنا أن زائرا فى انتظارنا، وكان السيد شيلى الذى قدم ليخبرنا أنه سيذهب إلى الكنيسة القريبة، ويمكن أن نذهب معا لنصلى هناك، لكنى لم أوافق لأننى كنت متعبا، شعرت بأن السيد شيلى لا يفضل الأمور التى تشير إلى قوة الكنيسة فى الحياة العامة أو المراسم التى يقيمها القساوسة، ويبدو أنه لم يكن مسرورا حين سمع أننا ذهبنا لحضور هذه المراسم اليوم. وقد عاد بعد أن تحدث معنا قليلا.

رجعنا إلى السطح مرة أخرى... مساء جميل على سطح منزل الجيران، امرأة تغطى جسمها بملابس سوداء، كانت تمسك بالإنجيل تقرأ فيه وهى جالسة على حافة السلالم، ولم تتحرك لفترة طويلة، تعجبنا، هل يا ترى تحفظ ما تقرأ؟ يبدو هذا المبنى ديرًا للراهبات، فقد شاهدت كثيرا من الراهبات ينشرن الغسيل، وكان بعضهن يُنشين الملابس بمكواة، ثم شاهدت المرأة التى كانت تقرأ فى الإنجيل، تقوم بكى الملابس، وجاء فى ذهنى قصيدة It is beauteous evening، يا له من مساء جميل! تناولت طعام الغداء وعاودت الصعود إلى السطح مرة أخرى، حيث واجهنى فجأة شىء يلمع عند نهاية السطح... فكرت ما هذا؟ لكنى اكتشفت فورا أنه القمر، نعم القمر، كان قريبا جدا منا كما لو كان من الممكن أن نمسك به، لم يحدث أن شاهدت مثل هذا القمر من قبل فى حياتى! قمر فى غاية الجمال، جماله لا يوصف!

## الجمعة

### يوم الجمعة الطيبة!

الثامن عشر من أبريل، الجو اليوم دافئ، درجة الحرارة فى النهار ٧٠ درجة فهرنهايت، هذا هو يوم الجمعة الطيب، اليوم الذى قبض فيه على المسيح، وحوكم وأهين ثم وضع على الصليب، ومات ودفن فى القبر، هذا هو اليوم! كان اليهود فى عجلة يريدون التخلص من جسد المسيح بسرعة قبل يوم سبتهم، هذا هو يوم الجمعة يوم الصليب لماذا هو يوم الجمعة الطيب إنه يوم الجمعة السيئ، يوم الجمعة المخجل. كانت أجراس الكنائس تدق هنا وهناك منذ الصباح باستمرار

دون توقف، والمسلمون أيضا يحتفلون هذه الأيام بعيدهم، ويوم الجمعة مهم لهم، ولهذا فقد تجمعوا يتصافحون ويشكلون دوائر ويرقصون فى الطريق، والنساء كن ذاهبات إلى مسجد عمر، يرتدين ملابس جديدة جميلة بألوان مختلفة، من الحرير الأبيض والأخضر والأحمر وأحيانا الأسود، يغطين وجوههن، لكن مظهرهن رائع وجميل وفى غاية الهندام، هناك من بينهن من كانت تمسك بشمسية ملونة حمراء أو بيضاء أو زرقاء، ومن تحمل طفلها، شاهدت طفلا محمولا فى الخامسة من عمره تقريبا مغطى بالورود وقد وضعوا على رأسه عقالا، وأركبوه جوادا، وكان الجواد أيضا مزينا بالورود البيضاء، كانت المرأة تحمله بمساعدة رجل إلى المسجد ربما كانا والديه، تمنيت أن أرسم هذا المنظر على ورقة!

طلعت فوق السطح، سمعت مأمأة خروف من ناحية البيت المواجه لنا، هذا مبنى للخفر، كثيرا ما كنت أشاهدهم يقبضون على فتيان مشاغبين أو ارتكبوا بعض الجرائم، كما كنت أشاهد الخفراء يجلسون على الكراسى فوق السطح يحتسون القهوة، كان صوت مأماة الخروف الأبيض يختلط مع صوت هؤلاء الخفراء.

قام أحد الخفراء بمحاولة الامساك بالخروف إلا أن الخروف ملص منه، فقام خفير آخر وتمكن الاثنان من الإمساك بالخروف، ربما سيحول هذا الخروف إلى وليمة دسمة! منذ ١٩٠٠ سنة سُحب المسيح هكذا مثلما سحبوا هذا الخروف الآن. آه! لا أحب لحم الخراف... ثم حل الليل، وشاهدت نور الصليب على كنيسة القيامة، لم أخرج اليوم فقد جلست أكتب بعض الرسائل.

## يوم السبت

نور الروح ضوء الروح(٧١)

(١)

التاسع عشر من أبريل بعد تناول طعام الإفطار، حين كنت أكتب خطابا باللغة الإنجليزية جاء هانسمان، ومعه بريدى الذى وصلنى من اليابان، وأخبرنى أنه

(٧١) حين يموت شخص تحلق روحه ويظهر نور من القبر.

سيكون هناك احتفال أو مهرجان اليوم أمام كنيسة القيامة، ويسمى هذا الاحتفال ضوء الروْح أو نور الروح.

توقفت عن الكتابة وبدأت الاستعداد للخروج، ووصلت إلى كنيسة قريبة من الفندق، مضيت فى شارع ضيق يؤدى إلى الكنيسة، كان الشارع مملوءا بالدكاكين التى تبيع أنواعا وأنماطا لا حصر لها من الشموع، شاهدت شموعا كبيرة وأخرى صغيرة، وشموعا طويلة وأخرى قصيرة، شموعا بيضاء وحمراء، كانت جموع الناس تملأ الشارع ، وكانت جموع الناس أمام الكنيسة وداخل الكنيسة أكثر من أى يوم مضى، بل أكثر من يوم التطهر، غسيل الأرجل.

دخلت الكنيسة فشاهدت الجميع الكبار والصغار، الشيوخ والشباب والأطفال، الكل يمسك بالشموع، وامتلأت كل الجوانب بالناس، رأيت ماريا خادمة غرفتى فى الفندق، كانت فى كامل هندامها، وفى مكان بعيد قليلاً كانت هناك السيدة الأرستقراطية، وشاهدت أسرة حاكم القدس، كان السيد شيلى يحييهم ويصافحهم .

ازدحمت الكنيسة من الداخل ازدحاما شديدا، وامتلأت بالضوضاء العالية والضجيج، من شرفة عالية فى الكنيسة صاح رجل بصوت عجيب، ربما كان أحد المسلمين، أراد إرباك الاحتفال لأن احتفالات المسلمين انتهت بالأمس.

شاهدت خمسة من الشباب العرب أو ستة يقفون على الكراسى يحملقون إلى مركز الكنيسة، يبدو أنهم يخططون لعمل شىء، قدم إليهما شرطيان مصريان، وطلبا منهم التوقف، وجاء أحد الرهبان وشدهم من فوق الكراسى، وأخذها منهم ودفعهم بعيدا .

بين حين وآخر كان بعض الناس يأتون من ورائى ويذهبون إلى منطقة القبر، كان هناك عدد كبير من الرهبان الذين يرتدون زيا أبيض اللون تزينه الورود، التفوا حول القبر، وكان هناك نور فيما يشبه الوعاء داخل القبر، اتجهت أنظار الجميع ناحية القبر، فجأة اندفع بعض الناس ناحية القبر، بعد ذلك لم أدر ما حدث، أحدهم كان يمسك بشمعدان عليه شموع مضيئة مضى من ورائنا، انجذب

الناس إلى شموع هذا الرجل الذى بدأ يشعل بقية الشموع، ومن هذه الشموع أضيئت آلاف الشموع، والآن أضيئت كنيسة القيامة كلها، ومن الشرفات العلوية أيضا شاهدت الشموع تضاء أيضا، أخذت أنظر إلى ضوء الشموع التى ظهرت صفراء أو برتقالية، كانت الأنوار تسطع من الشموع كما لو كان هذا الضوء هو حياة الإنسان، كانت الأنوار تنعكس على كرة زجاجية كبيرة معلقة فى صالة الكنيسة، فصارت الكنيسة مملوءة بالنور، نور الشموع والأنوار المنعكسة على الكرة البلورية أيضا، كما امتلأت الكنيسة أيضا بالدخان وأصوات الترانيم، كان كل إنسان يدارى على شمعته بكف يده ثم يمسح بيده على حاجبيه وعينيه! شاهدت مجموعة من النساء اللواتى تقدم بهن العمر، جئن من روسيا، كانت السعادة تغمرهن ، بينما بدت ملامح السرور واضحة على سماتهن، وكن يبكين فرحا، أخبرناهن أننا من اليابان، فرحن كثيرا بنا وصافحننا وشددن على أيدينا بقوة.

لم يكن معنا شمعدان نضع عليه الشمع، وكان الشمع ساخنا جدا، يسيل على أيدينا كأنه يحرقها، لكننا كنا رغم ذلك كنا سعداء، فالضوء أى النور هو رمز الحياة، كانت النار منذ العهود القديمة دائمة الاشتعال فى جزيرة العرب، وموسى كان يفكر أنها نار غامضة لا يعرف كنهها، وفى يوم كانت تشتعل على رءوس الرسل، إنها نار الروح القدس، تلك النار أيضا أضاءت بيتى فى الليلة التى مات فيها أبى، النار بحق هى رمز الحياة. أنا لا ألوم أو أشكك فيمن يعبدون الشمس، فليس عجيبا أن يعبد أحدهم النار.

شاهدت خلال هذه الأسبوع احتفالات دينية كثيرة، إلا أن هذا الاحتفال بالشموع المضيئة أقربها إلى قلبى وأفضلها بالنسبة لى، وددت لو أصل إلى مرحلة التنوير! من خلال كل ما يؤمن به البشر من معتقدات فى هذا الكون.

أحب النار... أحب الضوء، أحب النور. قلت هذا لزوجتى، ببساطة كنا سعداء جدا... ورجعنا إلى الفندق.

(٢)

بعد الظهر أخذت أتفحص بريدى الذى أحضره السيد هانسمان اليوم، وجدت من بين هذه الرسائل مقالة فى الصحيفة عن وفاة أمى، كان لديها ولدان

لكن أحدا منهما لم يكن بجوارها حين ماتت، ولا حتى فى الجنازة أيضا، لذا لم تكن الأم محظوظة، أذكر أن أبى قبل موته قال وهو على فراش الموت: إذا فهم المرء متى يستقيل أو يتنحى فهذه النهاية تكون مرضية تماما له. وسواء فهم القسيس أو الداعية الشعور الحقيقى للمرء أو لم يفهم، ومهما قالوا عن وفاة أمى، فإن موتها لم يكن بالنهاية السعيدة... آه، يا أماه!

فى ذاكرتى أشياء سوداء كثيرة، تأتينى من أعماق الجحيم، وأنا أضغط على نفسى وأكبح جماح مشاعرى...

كان ضوء الصليب على كنيسة القيامة واضحا، ليس فى القدس كهرباء، لهذا فهو يشع ويلمع، وفى السماء نجوم كانت تتلألأ وتبرق، وكوكب "الزهرة" كان يلمع كما لو كان القمر، هذه ليلة عيد الفصح فى القدس، ليلة ملؤها الحياة، القدس تحمل آمال السعادة والفرح للبشرية، لكن مشاعرى حزينة وأشعر بالكآبة!

# العودة الكبرى للمسيح

## قيامة المسيح

### (١)

اليوم العشرون من أبريل اليوم هو ذكرى يوم قيامة المسيح ، ظل مسيحيو القدس ساهرين طوال ليلة أمس حتى الصباح، حين ذهبت إلى قاعة الاستقبال بالفندق وجدت كثيرا من الناس ينامون على الكراسى والأرائك، وحين ذهبت إلى قاعة الطعام كان كل من يحيينا تحية الصباح يقول Christ to You بدلا من تحية الصباح المعتادة Good Morning,

على كل حال كتبت كثيرا من الخطابات باليابانية وبالإنجليزية، وبعد الانتهاء من كتابتها لم أشعر بالسعادة على الإطلاق، ما زال الشعور بالحزن والكآبة الذى حل بى بالأمس يسيطر علىَّ، لاكننى التخلص منه بسهولة، ينتابنى شعور أحيانا بأننى أريد التخلص من هذا العالم، فلا سلام ولا أمن. مثل هذا الشعور الكئيب الحزين تمكن منى تماما، فمزقت الرسائل التى كتبتها إلى السيد نيلسون وإلى ليود جورج إلى قطع صغيرة، مزقتها تماما، جعلتها كالفتات، بينما كان ذهنى مملوءا بالغضب، كيف يمكن أن أكتب رسائل سلام؟

قالت لى زوجتى: أنت على حق، لكن من يمكنه أن يكتب مثل هذه الرسائل غيرك؟!

كنت غاضبا جدا... نزلت لتناول طعام الغداء، ثم رجعت إلى الغرفة، ونلت قسطا من النوم، وحين استيقظت لم أشعر بالسرور، القدس اليوم تشهد يوم ريفايتال، القدس اليوم مدينة الفرح والسرور، النساء يمشين فى كامل زينتهن فى سعادة، وكنت أسمع أصوات الغناء تأتينى من كل صوب، لكنى قبعت فى غرفتى بالفندق، وأغلقت الباب، وأسدلت الستائر على نافذة الغرفة، وصرت كما لو كنت فى قبر مظلم... وسط هذه الظلمة كنت أشعر بألم الصليب، لم يكن هذا الشعور بالألم ينتابنى أنا وحدى لكن زوجتى كانت أيضا تعانى من نفس الألم ، فالحياة بيننا مشتركة، والمسئولية مشتركة، والمشاعر بدورها مشتركة، إذا كان علىّ أن

أوضع على الصليب، وأعانى من أجل أبى، فإن زوجتى بدورها يجب أن توضع على الصليب وتعانى من أجل أمى... الآن أُعيد ميلادنا من جديد بعد ١٩٠٠سنة، وسوف نصلب لآخر مرة فى القدس... يوم مرعب هذا يوم إعادة الميلاد! عيد القيامة!

(٢)

اليوم الحادى والعشرون من أبريل، كنت أحلم بأبى وأمى فاستقيظت فى منتصف الليل، وبجوارى كانت زوجتى تعانى من كابوس، أيقظتها، كانت تلهث... أخبرتنى زوجتى أنها كانت تحلم بيد هيكل عظمى تمسك بها وتدفعها، بينما كانت تحاول التخلص من هذه اليد دون جدوى، لهذا كانت أنفاسها تتقطع من جراء هذا الكابوس الثقيل، تعجبت كثيرا، وسيطر علىَّ شعور بالخوف، فزوجتى كانت تحلم بحلم حقيقى، كانت تحلم بالحقيقة، ما الذى جعلنى أُصاب بالإحباط وأمزق خطاب السلام ورسائل الدعوة إلى السلام ، وأجعل زوجتى تعانى فى الليل من هذا الكابوس المفزع، ما هذا يا ترى؟ هذا هو الماضى، لعنة الماضى تلاحقنا، لعنة الهياكل العظمية.

بدت زوجتى هادئة، فعاودت النوم، واستغرقت فى النوم، أما أنا فمر أمامى شريط ذكريات حياتى كلها منذ أن ولدت حتى هذه اللحظة!

* * *

منذ سنوات طويلة حين كنت أعيش فى هاراجيكو فى طوكيو، كان لدينا خادمة جاءت من مناطق الريف فى ضواحى طوكيو، كانت إنسانة صدوقا، لم تكن أمها هى أمها الحقيقية، كانت زوجة لأبيها، ذكرت أنها لم تدرك هذه الحقيقة قبل أن تبلغ العشرين، أحيانا كانت تنتابها مشاعر خاصة حين كانت تناديها بالأم، وذكرت لها أنها لا تدرى مشاعر الأم الحقيقية، وقالت لها إنها مجرد زوجة أب، أضافت الخادم قائلة إنها لم تكن تدرك أن زوجة أبيها تقول الحقيقة، لكنها عرفت بعد ذلك أنها كانت تقول الحقيقية. فى ذلك الوقت شعرت بالإحباط والارتباك، لكنها فى الوقت نفسه شعرت بالراحة والهدوء.

حكت لى الخادم هذه الحكاية، أما أنا فأمى هى أمى الحقيقية وأنا ابن أبى لكنى لسوء الحظ كنت الطفل الذى ترغب فيه الأم، حين كنت طفلا صغيرا شعرت بهذا وكتبت عن هذا الموضوع فى كتابى الذى تضمن سيرتى الذاتية وصدر بعنوان "الربيع الجديد Shinshun" وبعد صدوره جاءتنى إحدى أخواتى وحدثتنى عن مولدى. وطبقا لكلامها معى فإننى جئت إلى رحم أمى حين بدأت تتشاءم بحدوث شىء سىء فى نفس ليلة وضع نطفتى فى رحمها.

حين أخبرتنى أختى بهذا الأمر كنت فى الحادية والخمسين من عمرى، وكانت هذه أول مرة أعرف سر مولدى ومفتاح سر اللعنة التى تلازمنى، كانت أختى تعيش بجوار أمى فى أيامها الأخيرة، وسمعت منها هذا الاعتراف، والحقيقة أنه لا شك أننى ابن أبى وابن أمى، لكنى الابن الذى جاء فى لحظة سكر والدى، لهذا فأنا ابن أمى المتشائمة فى ليلة دخولى رحمها، فقد شعرت أمى ليلتها بالإهانة وبالكراهية لأبى فى نفس الوقت الذى حملت بى، جئت إلى هذا العالم باللعنة وهذا يعنى أن اللعنة حلت بأمى حين حملت بى. وهكذا صلبت، بالنسبة لطفل مهما كان والداه، لا يوجد أكثر من هذا صلبا، مولدى بدأ من الصلب، حياة المسيح انتهت على الصليب إلا أن حياتى بدأت على الصليب، حياتى كلها عكس حياة المسيح، حياتى خمسون عاما حياة الصليب، كنت مضطرا أن أكون على الصليب لهذا أريد أن أصرخ وأصيح: عصر الصليب قد انتهى... الشخص المضطر أن يكون على الصليب هو فقط الذى يمكنه أن يصيح: انتهى عهد الصليب.

كانت أمى بالطبع آسفة بينما كنت أنا فى رحمها، ذهبت إلى مزار الشنتو مع أختى الكبرى لأنها كانت خائفة من أن تحل لعنتها بى، أنا الذى كنت لا أزال مضغة فى رحمها، أمى ذكية جدا وكانت دائما فخورة بنفسها كما أنها أيضا أمينة جدا مع نفسها، وتنال دائما محبة الجميع، لقد أرادت أن تتخلص من لعنتها حتى لا تنتقل إلىّ فيما بعد، هذا ما جعلها تؤمن بالمسيح، وجعلتنى أنا أيضا أومن مثلها بالمسيح، حاولت ـ مع أمى ـ التخلص من هذه اللعنة قدر استطاعتى، لكننى حين كبرت وترعرعت استمرت هذه اللعنة تلازمنى كأنها قشرة بلح سميكة جافة تغطى

نواة حياتى، فعشت معركة مؤلمة من أجل التخلص من هذه القشرة السميكة الجافة... فى يوم ما سأكتب بالتفصيل عن هذا.

اللعنة التى أصابت أمى بدأت منذ صغرى، كنت أعيش بشخصيتين فى آن واحد، أحيانا أعيش بشخصية تشعر بأنها تتحطم بسهولة مع يأس من الحياة ورغبة فى الموت، وأسلوب تربيتى كان نتاجا لهذه اللعنة، لا شك أن أمى كانت تبذل كل جهدها من أجلى فهى تؤمن بالمسيح، لم تشك أبدا أن ابنها سيتقدم ذات يوم، ربما كانت من الداخل مسرورة بنشأتى، ولما كانت شخصيتها من النوع المعتد بالذات الفخور بالذات؛ لذا كانت تتمسك بذاتها ولم تتخلص تماما من لعنتها، كما أننى بدورى لم أستطع أن أكون كما كانت تريدنى، أو كما كانت ترغب فى أن أكون، ومع هذا فقد كانت سعيدة من داخلها رغم أنها كانت تبدو أمام الناس أنها على العكس من ذلك. وكانت إذا ما جاءت درجاتى فى الامتحان متواضعة ، كانت أمى تردد عبارة: كما هو متوقع!

على كل حال لم أنل حبا كاملا وثقة كاملة من جانب أمى، لكنى رأيت من الطبيعى أن من الأفضل أن أحطم نفسى من أن أرضى مشاعر أمى تجاه النفس. لكن رغم أننى أحطم نفسى فقد كنت فى الوقت نفسه بحاجة إلى حب أمى وحنانها، فعاطفة الأمومة بالنسبة للأبناء مهمة جدا، حاولت أن أحطم نفسى وأن ألفت اهتمام أمى، وأجذب انتباهها تجاهى فطالما لم تصدقنى أمى لم أستطع أن يكون لدى ثقة بنفسى.

عيسى المسيح الذى تخلص من الأم أحسبه عظيما، لكنى أتساءل هل فعلت مريم حين كان المسيح فى رحمها ما فعلته أمى بى، مريم لم تلعن المسيح، لقد لُعنت من أمى، وما زالت اللعنة تحل بى ، وما لم تتخلص أمى من لعنتها لى تماما لا يمكننى أنا أن أتخلص من هذه اللعنة... الآباء هم الآباء والأبناء هم الأبناء ، وأنا أنا نفسى أنا، لا يجب أن أكون ابن أبى بل أكون أنا نفسى، ورغم أن أحدا لن يصدقنى إلا أننى يجب أن أصدق نفسى، لقد قسوت على أمى كثيرا وكان هذا غباء، الطفل الذى لا ينال محبة الوالدين لن تكون حياته مكتملة.

كان لدى خياران: أحدهما أن أتخلص نهائيا من لعنتها، أو أوافق وأرضى بالأمر الواقع، لكن لا يمكننى أن أتأقلم مع هذه اللعنة، ومن ثم لا يكون سوى الموت بسبب هذه اللعنة، لكن يجب التخلص من لعنة الأم عن طريق الأم ذاتها، وهذا يعنى أنه إذا لم تحبنى أمى فإن صدفتى ستظل مغلقة علىّ، سأظل حبيس صدفتى ولن أتمكن من التخلص منها، حين قالت أمى لأختى الكبرى ما قالت كان هذا نوعا من الاعتراف، وكان هذا بمثابة التخلص من اللعنة، إلا أن هذا لم يكن كافيا، كان يجب على أمى أن تكون سعيدة بى، وكنت بحاجة لأشعر أنها سعيدة بى، لقد ذهبت إلى مكان لا يمكننى الوصول إليه، إنه لأمر محزن لكن لا يمكننى أن أغير الحقائق. أمى تخاطبنى من قبرها:

**مولدك لم يلق ترحيبا، لم يجلب السعادة**

**نصف عمرك لم يكن مرحبا به أيضا**

**أنت لست الشخص الذى يتحدث عن السلام**

**أنت طفل مجرم**

**أنت حيوان طماع**

**أنت غبى**

**أنت من لن ينال سعادتى**

**أنت لست طفلى**

**أنت إلى الأبد طفلٌ تلاحقه لعنتى**

أمى تقول هذا فى قبرها... أتذكر شيئا، كنت قد تزوجت فى شهر مايو، وجاءت زوجتى التى لم تكن جيدة فى الحياكة، لكنها تمكنت من خياطة "بيجامة"[٧٢] يابانية، كانت سعيدة بذلك وكنت أنا أيضا سعيدا جدا بذلك لكن أمى قالت فجأة: أنت ترتدى لباسا رائعا! لقد قصدت بذلك أننى لست الشخص

(٧٢) فى الأصل يوكاتا، وهى لباس خفيف يشبه البيجامة يستخدم فى داخل البيت.

الذى يمكنه أن يرتدى بيجامة جميلة، بعد ثلاثة أيام، وبينما كنت فى حالة غضب شديد، قمت بتمزيق البيجامة إلى قطع صغيرة، بينما ظلت زوجتى تبكى وهى تجمع قطع قماش البيجامة، شعرت كأننى ارتكبت جرما كبيرا فى حق زوجتى لم أشعر بمثله من قبل، وتأسفت كثيرا من أجلها.

هذا ما دفعتنى أمى إلى ارتكابه؛ فلعنتُها كانت السبب ... وحين كانت تحلم ويأتيها كابوس يد هيكل عظمى تريد أن تطبق عليها تخنقها، لا بد أن تكون هذه اليد هى لعنة أمى!

حين مات أبى لم تطلبنى أمى لم تستدعنى أو تتصل بى لأكون معه فى اللحظة الأخيرة قبل وفاته، وحين غادرنا اليابان أثناء قيامنا بهذه الرحلة لم تقل لى ولو كلمة واحدة، أمى لا تعرف كم هو تأثير كلمة واحدة مفرحة تنطق بها لطفلها، أحيانا تكون مسألة حياة أو موت، إن عدم ثقة أمى بى جعل حياتى حياة لا قيمة لها، جعلها حياة بائسة تافهة.

يا للكآبة! ويا للكرب! حين أفكر فى المستقبل أجد لدى الكثير، أنا الآن فى عيد الفصح، لكن لا يمكن أن أنسى الأمر الذى أغفلت عمله بشكل جيد، ولا يمكن أن أكون رجل سلام، كنت مصلوبا فوق الصليب مدة خمسين سنة، العمر الذى كنت أخضع فيه للعنة أمى قد ولى وانتهى، بالنسبة لأمى لم أكن طفلا مرغوبا فيه، لكن أمام الناس، ومن أجلهم فقط كنت طفل أمى وأبى، لكن أنا لست أبا ولست أما، أنا كائن حى، أنا بشر، أنا إنسان ، وأيضا زوجتى التى ترقد بجوارى هى أيضا كائن حى، هى بشر وهى إنسان، حياتنا معا مثل حياة آدم وحواء. مات من تقدم بهم العمر، آدم وحواء لا بد أن يبدآ حياتهما الجديدة فى العالم الجديد، نعم يمكن أن أقول إن حياة الصليب قد ولَّت وانتهت، وعاد المسيح من جديد، ومريم عادت إلى الأب يوسف، والمسيح، زوجته بجواره الآن(*)، شرنقة اللعنة تمزقت، شجرة الحياة امتلأت بخضرة الربيع الجديد، وأغصانها تتمايل بنسمات العام الجديد.

---

(*) هكذا فى الأصل.

ذات مرة كنت أحلم بأبى وقد أحضر أمى أمامى طالبا منى أن أسامحها، والأحلام عادة تكون تعبيرا عما يجيش بداخل الإنسان، هذا يعنى أننى فعلا سامحت أمى... لدى ذكريات مؤلمة، أريد أن أحترم أمى لكنى كنت محبطا، وكنت قلقا، حين ماتت أمى فى ذلك اليوم تحولت إلى كونها ابنتى فأنا لا أعاقب أى إنسان، لقد انتهت الجريمة، والآن لدى يوم مملوء بالسعادة والسرور، خلال نصف عمرى تشكلت لدى خبرة واسعة بأمور بعضها كان مؤلما وقبيحا ومخجلا، إلا أن هذا لا يعد جريمة ارتكبها أبى أو ارتكبتها أمى، أو ارتكبتها أنا فى حق نفسى، هذا ما علمنا إياه "أبانا الذى فى السماء"، نحن الآن فى عالم جديد، آدم وحواء ألقيا بالماضى وراء ظهورهما، فهذا هو الوقت الذى تزدهر فيه الحياة.

* * *

مد وجزر... الحب يتموج فى كل جسمى، وفى كل عقلى.

(٣)

حين بدأت أشعة الشمس تظهر استيقظت وفتحت الشرفة، فشعرت بهواء الصباح البارد، بدأت أعيد كتابة الرسائل التى مزقتها بالأمس، استيقظت زوجتى وبدأت تعيد كتابة رسالى بالإنجليزية، وعند الساعة الثانية بعد الظهر انتهيت من كتابة جميع الرسائل، فذهبنا إلى مكتب البريد، لإرسال هذه الخطابات، كنت حريصا على أن أرسلها بأسرع ما يمكن، إلا أننا فوجئنا بمكتب البريد مغلق، بسبب إجازة عيد الفصح، لم يكن مكتب البريد فقط هو المغلق بل كانت جميع المكاتب الرسمية والمحلات مغلقة أيضا، أصبت بخيبة أمل، لا يمكن أن تظل هذه الرسائل فى يدى هكذا، وضعت بعضها فى جيبى ورجعت مع زوجتى.

حين وصلنا أمام بنك "كريدى ليونيه" Credit Lyonnais شاهدنا تجمهرا وزحاما، شاهدت ضابطا بريطانيا يبدو غاضبا جدا، وعرفت من خلال ملاحظتى لما يدور أن رجلا على رأسه طربوش رجمه بحجر من الخلف، فالتفت إليه الجندى الشاب وعالجه بالسوط فأصابه، لاحظت أن وجه الرجل ذى الطربوش تورم وبدأت الدماء تسيل منه، ذهبت إليهما أحاول أن أفصل بينهما، وحاول آخرون ذلك إلا أن الجندى أمسك بيدى، ومنعنى من التدخل بينهما، وأراد أن يقفز على الرجل ذى الطربوش لكن الناس المتجمعين حوله منعوه من ذلك وأوقفوه، كما تدخل أيضا

ثلاثة جنود بريطانيين ومنعوه من الاستمرار فى العراك، ثم انفض الجميع وذهب الجنود، بينما حمل الناس الرجل الذى كانت الدماء تسيل منه، واتجهوا به ناحية بوابة الخليل، وكانت هناك فتاة صغيرة انخرطت فى البكاء حين شاهدت الدماء تنزف من وجه الرجل، ربتتْ زوجتى على رأسها فتوقفت عن البكاء ثم ذهبت بعيدا.

مثل هذه الواقعة أدمت قلوبنا، إنها نتاج ما بعد الحرب، لكنها تحدث بعد عيد الفصح، فكل إنسان يشعر بالقلق، والموقف بشكل عام متوتر، ومثل هذا العراك ليس بالأمر العادى، فالطريقة الغربية لا يمكن أن تجارى الطريقة الأسيوية، على كل حال لقد أغضب الرجل ذو الطربوش الجندى البريطانى وهذا أمر لا شك فيه.

رجع السيد فوا وزوجته من دمشق، كانا يتحدثان مع الجنود البريطانيين فى قاعة الاستقبال بالفندق، تصافحنا، وحاول السيد فوا أن يرينا القماش الحريرى الذى اشتراه من دمشق، لكننا لم نكن نهتم بهذا الأمر، ولهذا رجعنا إلى غرفتنا، ونمنا بعض الوقت ثم استيقظنا، وقمنا بغلى الماء على "وابور السبرتو"، وأعدت زوجتى الشاى، وأكلنا قطعة من الحلوى ونحن نتناقش فيما شاهدناه اليوم، لقد شعرنا بالأذى كثيرا، وشعرنا بالأسف الشديد، أدركت زوجتى أننى تعبت كثيرا، كما أننى لاحظت أنها صارت نحيفة جدا أكثر من السابق كأنها تمثل مريم المجدلية التى شاهدناها من قبل فى كنيسة القيامة؛ لذا شعرت بالأسف الشديد من أجلها.

فى المساء شاهدت امرأة كانت تتكلم فى يوم سابق مع السيد هانسمان، كانت تعيش فى القاهرة منذ مدة طويلة، وكانت تعمل فى خدمة الجنود البريطانيين، وهى الآن فى إجازة. لهذا، وحسب قولها، تشهد القاهرة هذه الأيام ثورة، فالمصريون ثائرون فى كل مكان، وقد نصبوا حواجز فى الطرقات، كما حدث سفك دماء، ووضعت جميع القطارات تحت سيطرة الجنود البريطانيين، ويتزايد الموقف سوءا يوما بعد يوم، وحكت لنا عن الأوضاع فى القاهرة، وكان السيد هانسمان قد أخبرنا من قبل أن مصر تشهد حركة خطيرة رغم وجود الجنرال

"اللنبى" هناك، فليس باستطاعته أن يهدئ من ثورة الناس أو يقلل من غضبهم... أنا يابانى دمى يميل إلى أهل آسيا، مشاعرى تميل إليهم، فأنا أيضا إنسان، ولا يمكن أن يكون ذهنى موافقا للذهن الغربى أو ميالا له. هل يجب أن يكون ابن الشمس المشرقة وابنة الشمس المشرقة أبا وأما لكل الناس؟!

اليوم يوم الاثنين عيد الفصح، والقدس ما زالت فى حالة احتفال بالفصح، ما زال صليب كنيسة القيامة يبرق ويلمع، وما زال صوت الترانيم يتردد هنا وهناك، مشاعرى كلها سعادة وبهجة، وفؤادى مملوء بالحب والعاطفة، وأشعر أننى أستعيد طاقتى وراحتى، إنه الاحتفال بعيد الميلاد المجيد!

## رسائلنا

### (١)

اليوم الثانى والعشرون من أبريل، الجو جميل، بعد أن استيقظت من النوم بدأت أعيد كتابة رسالتى إلى رئيس الوزراء البريطانى، منذ وصلت إلى القدس لم أقرأ الصحف، لا أدرى ماذا يدور عن مؤتمر السلام، إن استطعت أود أن أتناقش مع المسئولين من فرنسا و المسئولين من إيطاليا وغيرهم من المسئولين من ألمانيا وروسيا والنمسا وتركيا ودول البلقان والصين والهند ومصر واليهود، وأى دولة أخرى، وأى جنس آخر، سواء من ينتمون إلى الجنس الأبيض أو الجنس الأسود، أو أى جماعة من الناس أو أى قبيلة من قبائل العالم، أريد أن أقتنع بما يمكننى أن أفعله الآن، هذا الجو يجعلنى أتذكر ربيع طوكيو حيث تتفح أزهار الساكورا، ويهب النسيم دافئا عليلا.

فى الساعة العشرة صباحا خرجنا بملابس الصيف، وضعت على رأسى قبعة باللون الكاكى كنت قد اشتريتها فى القدس، بينما تزينت زوجتى بعقد من الخرز الأخضر كانت قد اشترته من بيت لحم، وذهبنا إلى مكتب البريد، حيث أرسلنا كل ما كان معنا من رسائل. وضع الرجل ذو الطربوش الأحمر على وجه الرسائل الخمس وعلى ظهرها علامة الصليب ودفعت٢١ قرشًا. توجد أمام مكتب البريد أزهار جميلة، التقطت واحدة منها ثم رجعنا.

هذه بداية، ليست النهاية، عملنا من أجل خلق الله!!

جئنا هنا إلى القدس، أراد بعضهم أن يختبرنا، الآن يمكننى أن أواجه المسيح قبل عودته، كان يمكن أن أوجه سؤالا إلى تولستوى، فلم يستطع أن يفهمنى ومات قبل ذلك، حتى أمى لم تفهمنى ولم تثق بى، كما يمكننى أيضا أن أحتقر مدرس أبى السيد يوكوئى الذى كان دائما يؤيد فكرة إرسال الجنود المقاتلين الى البلدان المجاورة لليابان أثناء حركة ميجى الإصلاحية، كان أبى يطيعه بحب وإخلاص، إلا أن هذا المدرس كان يظن أن أبى رجل سيظل ملتزما، لم يحلم هذا المدرس بأن تلميذه هذا سيقوم بنشر هذه الأفكار حول العالم، فالله قادر على أن يرد مكر الماكرين... أنا أفهم جيدا والدىّ ووالدى زوجتى وأقاربى، ويمكننى أن أتحدث إليهم وجها لوجه الآن، وبدلا من أمى يمكن أن أتخلص من لعنتها التى أصابتنى، ويمكن أن أرسم على وجهى علامات السعادة الشديدة تجاه زوجتى الحبيبة كما لو كانت ماريا باتنيا سنة ١٩٠٠م تبدو فى سعادة ميلاد جديد.

## (٢)

## أمنيتى

فى هذا الصباح أرسلت خطابا إلى اليابان وفى الوقت نفسه أرسلت الخطاب نفسه إلى البارون "سايونجى" فى باريس[٧٣]، والسيد نيلسون[٧٤] والسيد لويد جورج[٧٥]، وصحيفة لندن التايمز اللندنية. لا أدرى مصير هذه الخطابات، فقد كتبت ما كان يجب على أن أكتب فقط، وأرسلت الخطاب. حين كنت فى الثالثة عشرة من عمرى كان لدينا واجب مدرسى فى درس الجغرافيا فى "مدرسة دوشيشا"، كان الواجب هو رسم خريطة لقارات العالم الست، كان من نصيبى رسم الجزء الخاص بأوروبا، عملت وزملائى فى الفصل بجد، فى البداية ركزت كثيرا فى عمل الواجب، لكنى بعد ذلك لم أرسم تعاريج الحدود على الخريطة

---

(٧٣) يشير إلى اليابانى كينموشى سايونجى الذى كان يشارك فى مؤتمر السلام المنعقد فى باريس بفرنسا.

(٧٤) يقصد السيد وودرو ويلسون رئيس الولايات المتحدة آنذاك، ومن الجدير بالذكر أنه كان الوحيد الذى رد على رسالة المؤلف بينما أهمل الآخرون رسالته.

(٧٥) يقصد الجنرال إدموند أللنبى القائد العام للقوات البريطانية التى تحتل فلسطين.

بشكل جيد، لم أستخدم أيضا المسطرة والبرجل، استخدمت الفرشاة فقط ودون أى مبالاة أو تدقيق فى الرسم، وانصرفت إلى اللهو ولم أدقق فى إكمال الواجب بشكل جيد، وفى اليوم التالى كان زملائى قد أجادوا أداء واجبهم المدرسى، وعلق المدرس على كل واجب ، لقد أجاد كل زملائى لدرجة أننى كنت أتعجب كيف رسم أحدهم مثل هذه الخريطة بيده، وحين جاء دورى أخذ المدرس خريطتى التى رسمتها عن أوروبا.. وانخرط الجميع فى الضحك، وأنا أيضا ضحكت كثيرا على نفسى، كانت شيئا رائعا فى سوء الرسم! حدود البلاد لم تكن صحيحة أو دقيقة على الإطلاق، ووديان روسيا لم تكن هى الوديان، ورسمت نهر الفولجا بخط أسود، ورسمت خطوطا كثيرا متداخلة معا، قصدت بها جبال الألب، أما بريطانيا فقد جعلتها كأنها جالسة على فرنسا، وإيطاليا التى عادة ما تكون على شكل بوت طويل جعلتها مثل حوش أزهار مستطيل، ورسمت أمريكا تحت كل قارات الكرة الأرضية.

قال زملائى: هذا أكثر من سىء! لكنى جعلت الفصل كله سعيدا مسرورا لمدة عشر دقائق وهم يشاهدون ما أطلقت عليه بنفسى "تحفة فنية"!

هذا الصباح بينما كنت أكتب عن أمنيتى تذكرت فجأة هذه الحادثة، ربما سيضحك كل هؤلاء علىّ، وسوف يسخرون منى لأن الرجل الذى رسم الخريطة العبثية يكتب الآن ما يريده على أنه أمنية يأمل فى أن تتحقق.

النبى إشعياء قال[٧٦] الذئب والحمل يرعيان معا، الأسد يأكل التبن كالبقر، أما الحية فالتراب طعامها، لا يؤذون ولا يهلكون فى كل جبل قدسى... إن الذئب يعيش مع الحمل، والنمر يرقد مع الماعز بينما يقوده طفل صغير، إلى الحظيرة، منذ مدة طويلة كنت طفلا، أما الآن فأنا فى الثانية والخمسين من عمرى، أنا عجوز، لكن عقلى لا يزال عقل طفل صغير، وربما يستمر هذا إلى الأبد، هناك كثير من الباحثين العظام والدارسين العظام والجنود العظام والفنانين العظام والصحفيين العظام ورجال الأعمال العظام وغير هؤلاء أسندت، لكل واحد من

---

(٧٦) انظر إصحاح ٦٥ ص ٥٢٨ مصدر سابق.

هؤلاء مهمة عليه أن يقوم بها، وبالنسبة للطفل الصغير أسندت إليه أيضا مسئولية ليقوم بها، فهو يلعب مع الدب والذئب وغيرهما، وهو لا يخاف حين يكون مع الأسد، لا يعنى هذا أنه شجاع بل هو يفعل هذا لأنه طفل!

## أمنيات

١ - أتمنى أن أقيم مؤتمر الأسرة الدولية بدلا من مؤتمر السلام الذى يعقد الآن، نجمع رجلا وامرأة من كل بلد ومن كل قبيلة من جميع أنحاء العالم لتحقيق التفاهم بين الناس، من أجل خير البشرية وسعادتها، وتوحيد مشاعر الجميع، (وإذا أمكن فإن هذا المؤتمر الإنسانى يمكن أن يعقد كلما دعت الحاجة إلى ذلك).

٢ - بدء عهد جديد، عصر جديد، سنة جديدة تكون السنة الأولى للعهد الجديد أو العصر الجديد لجميع البشر، وذلك من أجل تجديد مشاعر البشرية فى جميع أنحاء العالم، ومن شأن هذه الفكرة لو تحققت أن تجدد تاريخ البشرية، سوف يتخلى أهل الشرق (بلاد الشمس المشرقة) عن تقويم "التايشو" والصينيون يتخلون عن تقويمهم الصينى والمسلمون يتخلون عن التقويم الهجرى والغرب يتخلى عن تقويمه الميلادى المسيحى، ويبدأ الجميع فى استخدام التقويم الموحد للعصر الجديد الذى يبدأ بالسنة الأولى.

٣ - إلغاء جميع القوات العسكرية بكل أنواعها، قوات المشاة والقوات البحرية وغيرها، ويجب أن نأخذ قرارا بألا يُقتل أحد من البشر، يجب أن يتم كل هذا دون أى شرط.

٤ - إلغاء جميع الحدود والقواعد والتأشيرات وقوانين الجمارك وغيرها على أن يتحرك الناس وتتحرك البضائع من مكان إلى آخر بحرية، تامة مثلما تلقى الشمس بأشعتها على جميع الكون ومثلما يتحرك الهواء بحرية طبقا للحاجات الطبيعية، أى طبقا لما يحتاجه البعض ولما يفيض عن حاجة البعض، ولا تكون هناك قيود على الاستيراد والتصدير، ولا يجوز ربطها بالنزاعات الدولية.

٥ ـ توحيد العملة فى العالم، وإيجاد عملة دولية يتم تصميم شكلها وتدقيق وزنها وقيمتها، أما مسألة التفاصيل الدقيقة مثل اللون أو الصور أو الرموز فيمكن لكل دولة أن تضع ما تراه مناسبا لها.

٦ ـ ضرورة إحياء الفكر الإنسانى وتجديده فيما يتعلق بالحفاظ على البيئة، فلا شىء فى الطبيعة يمكن أن يؤخذ بالقوة، وامتلاك الأرض حق طبيعى للناس الذين ولدوا ونشأوا عليها، فهم لهم الحق فى أن يحكموا هذه الأرض، ويجب التخلى عن الأراضى المحتلة، والاعتراف بحق أهلها فيها، هذا يعنى أن آسيا يجب أن تخرج من أوروبا وأمريكا وإفريقيا، وأوروبا وأمريكا يجب أن تخرجا من آسيا وإفريقيا، ويجب على إفريقيا أن تخرج من أوروبا وآسيا، (ويجب أن يتم تطبيق هذه القاعدة على الدول الكبيرة والصغيرة على حد سواء).

٧ ـ ثم نجعل من هذه السنة سنة الخلاص، كما ورد فى الكتاب المقدس، ويتم العفو عن جميع الديون، ويتم إلغاء جميع أنواع الرشوة، ويتم إلغاء الحسابات الربوية، وما يوهب يجب أن يوهب مجانا.

القدس فى الثانى والعشرين من شهر إبريل من السنة الأولى للعصر الجديد.

**توكوتومى كينجيرو ـ توكوتومى أى**

* * *

إلى البارون سايونجى Saionji

إلى سعادة البارون

سعادتكم قبل خمسين سنة كنتم الشخص الذى ساعد اليابان خلال نهضة ميجى، لقد قمت بعمل عظيم أميرًا ورائدًا للشباب، وحتى الآن، وبعد مرور خمسين سنة ما زلتم تحاولون تحقيق نهضة العالم نيابة عن اليابان، رغم تقدم العمر بكم، ورغم الشيب الذى غطى شعركم، أتمنى أن تكونوا بصحة جيدة.

إننى أتمنى ألا ينتهى مؤتمر السلام بمعاهدة نتاج ما بعد الحرب، لا يجوز أن ينتهى هكذا، يجب أن نفكر فى عهد جديد لتاريخ البشرية جمعاء، طبقا للمصالح الطبيعية، فنحن اليابانيين لا مشكلة كبيرة لدينا، أنت ممثل اليابان، البلد الذى لا

يحتل أى منطقة أو يتحكم فى أى منطقة يجب أن يهتم بمؤتمر السلام هذا بل أتمنى أن تحاول بذل الجهد من أجل خير البشرية وذلك بما لكم من خيرية ودراية، أنا حقا أتمنى أن يحدث هذا، وأنا أضع كل أملى فيكم، وأتمنى أن تفهم ما أعنيه.

فى صباح اليوم الثانى والعشرين من أبريل للسنة الأولى من العهد الجديد فى القدس البلد القديم لليهود

**توكوتومى كينجيرو**

**مرفق خطاب يتضمن امنياتى**

***

فصح يوم الاثنين

السنة الأولى للعهد الجديد

السيد جورج لويد George Lioyd

أنا رجل يابانى يدعى توكوتومى كينجيرو، أتمتع بالإقامة هنا فى القدس منذ ثلاثة أسابيع مضت، تحت الحماية البريطانية، أكتب إليك هذا الخطاب هدية عيد الفصح، ستجد فيه بعض المقترحات من أجل سلام البشرية ورخائها، ولا شك أن لديك فى ذهنك أشياء مماثلة، ومن ناحية أخرى قد تعتبر ما ورد فيها مجرد خرافات أو أوهام أو مجرد أفكار غير عملية، لكنى أقول لكم يا سيد جورج إن هذه الأفكار ليست مستحيلة التطبيق، والسؤال ليس هل يمكن تطبيقها؟ بل السؤال هو هل يجب تطبيقها، ويجب علينا أن نطبقها، ولا بد أن نطبقها؟ لقد قضيت النصف الأخير من شهر مارس الماضى فى القاهرة، منتظرا التصريح لى بالقدوم إلى هنا، لقد شاهدت طوابير مظاهرات المصريين تمر من أمام الفندق، لقد سمعت من قبل عن كل ما يدعو إلى الأسى ويبعث على الحزن من أجلهم، لقد كان ذلك تعجيلاً منهم بأن يقوموا بقطع وسائل الاتصالات التى أخرتنا وحجزتنا لفترة طويلة فى القاهرة، والآن هنا فى القدس سمعت عن الموقف الخطير

والمتردى فى مصر، والشائعات تقول بأن سفكا للدماء قد حدث، وهناك الكثير من الدماء سيسفك أيضا، إنه يؤلمنى كثيرا أن يضيع المصريون قوتهم وجهدهم دون جدوى، لأن استخدام القوة بهذا الشكل لن يؤمن لهم الحصول على الاستقلال، كما أننى حزين أيضا من أجل شعبكم الإنجليزى، فبعد مضى خمس سنوات طوال على المحاكمة الكبرى لم يتوفر لكم وقت للراحة، لقد شاهدت كثيرا من أبنائكم الصغار فى ملابسهم العسكرية ووجوهم الصبيانية البريئة التى حرقتها حرارة الشمس، يقفون وفى أيديهم الحراب يحرسون مداخل المبانى العامة أو الكبارى، وقلبى يدق خوفا، فقد يتلقون الأوامر فجأة بإطلاق النار أو طعن المصريين الحمقى! كم كان طيبا لمثل هؤلاء أن يعودوا إلى بيوتهم! لماذا لا يتركون مصر للمصريين؟ حقا إن البريطانيين الغيورين جدا والذين يفخرون بحريتهم يجب أن يتعاطفوا مع المصريين. لا يا سيد جورج إن السلام لن يتحقق إذا كانت القوة هى الطريق إليه، هناك مركز واحد، نقطة واحدة فى هذا الكون، على الجميع أن يلتفوا حولها، ألا وهى "الله" أو "الرب السماوى" كما اعتاد المسيح أن يسميه. لا يوجد سوى طريقة واحدة لاستكمال السلام وتحقيق الأمن، وهى الحب الذى أشار إليه بقوة السيد المسيح، إلى الله - أبينا الذى فى السماء - يجب أن نرفع أبصارنا، وإلى تعاليم عيسى المسيح يجب أن نعود، لقد هزمتم الألمان، والآن جاء دوركم لتهزموا أنفسكم.

إليك أنت الذى تخدم الإنسانية فى هذه اللحظات الحرجة، إليك أوجه رجائى أن تأخذ اقتراحاتى التى أوردتها فى هذا الخطاب بجدية، أنتم الذين حققتم النهضة واليقظة يجب ألا تخجلوا إذا ما نسيتم أنفسكم فى لحظة نشوة اللامبالاة وعدم النزاهة. إنه أمر ضرورى بكل تأكيد، ويجب أن يقف الإنسان مع نفسه ويفكر، وهذا هو الوقت المناسب، ألا تعتقد ذلك؟!

توكوتومى كينجيرو

القدس

فصح يوم الاثنين

السنة الأولى للعهد الجديد

السيد ويلسون

شكرا لك على ما قمت به وما تقوم به من أجل الإنسانية، بكل تأكيد سوف يكون من المؤسف والمحزن أن ينتهى مؤتمر السلام هذا إلى مجرد اجتماع عمل بعد التمزيق الأخير لخريطة القوى، إن البداية الجديدة يجب أن تُعطى أولا من أجل تاريخ البشرية كلها.

أنا توكوتومى كينجيرو يابانى المولد، أعمل بالأدب، وأدين بالنصرانية، وأقيم هنا فى القدس، من أجل مستقبل البشرية أود أن أفكر فى بعض الأمور التى أرى من الضرورى أن أكتبها لكم، وهى أمور قد عبرت أنت بنفسك عنها، وبعضها ربما يتردد ذهنك فى قبولها، أدعو الله أن تلقى كلماتى هذه ـ التى هى ليست بكلماتى ـ استجابة من قلبك، وأن تثمر أكلها.

توكوتومى كينجيرو

المقترح ١

القدس

فصح يوم الاثنين

السنة الأولى للعهد الجديد

إلى رئيس تحرير صحيفة التايمز

السيد المحترم

فيما يتعلق بمؤتمر السلام الحالى أود أن أفكر فى بعض الأمور التى أود أن أغامر بإرسالها إليك، إنه لمن المؤسف جدا أن نترك هذه الفرصة الذهبية من أجل إيجاد بداية حاسمة فى مسار الجنس البشرى تضيع من بين أيدينا، أنا يابانى أقيم الآن هنا فى القدس ، أتعجب كيف أمكنكم أنتم أهل المسيحية أن

تجعلوا من فرساى مقرا لمؤتمر السلام، إنه هنا فى القدس كان يجب عليكم أن تفتتحوا هذا المؤتمر.

**توكوتومى كينجيرو**

**مرفق المقترحات ١**

القدس

فصح يوم الاثنين

السنة الأولى للعهد الجديد

الميجور رادوكليف

على كل حال لقد قمت بكتابة أمر من أجل الصحافة، وطبقا لوصيتكم تجدون خطابا مرفقًا به إلى صحيفة التايمز وآخر للصحيفة اليابانية جيجى شينبون، وهى كما ترى ليست أشياء رأيتها بنفسى أو سمعتها من أحد، بل هى برنامج عام من أجل سعادة البشرية جمعاء، أتمنى أن تتفضلوا بالسماح بإجازة إرسال هذه الخطابات بأسرع ما يمكن.

وصلت إشاعات هنا عن الموقف الخطير غير العادى فى مصر، أدعو من أجل المصريين والبريطانيين أن يصلوا معا إلى تفاهم دون إراقة قطرة واحدة من دمائهم الزكية.

**توكوتومى كينجيرو**

## الأردن

### ١

كتبت هذه المقترحات فى رسائلى، وقمت بإرسالها، ومن ثم صار شعورى أفضل مما كان عليه، وشعرت بالراحة.

فى الرابع والعشرين من أبريل وفى تمام الساعة السادسة صباحا خرجت من الفندق لأزور كنيسة القيامة. لم أكن أريد أن أشق على نفسى فى ترتيب رحلتى، لذا طلبت من فرع شركة توماس كوك ترتيب سفرى إلى أريحا ووادى الأردن، كما أنوى مشاهدة البحر الميت، وقيل لى إن النفقات - عدا أجرة الفندق فى أريحا - تبلغ نحو تسعين ينا يابانيا: الحنطور وثلاثة جياد، ثم جوادان لحمل الأمتعة، كانت الجياد مزينة ومزخرفة بأقمشة رمادية اللون، وقد وضعوا أجراسا صغيرة عند رقبتها، كان هناك جواد لونه بنى وضعوا فى رقبته عقدا من الخرز الأزرق، كانت القافلة تضم "السايس" والمرشد، كان المرشد من أهل المنطقة ويدعى "حدّاد"، ذكر لى أنه قابلنى حين قمت برحلتى إلى بيت لحم قبل ثلاث عشرة سنة، وهو يتذكر وجهى، حكى لنا أنه خلال الحرب هرب من واجب الجندية، الذى فرضه الأتراك، واضطر لدفع رشوة نحو ألفى ين، إلا أنه واجه متاعب كثيرة.

انطلقنا فى هواء الصباح البارد، مررنا من سور القدس، متجهين إلى وادى كيدرون، ثم مضينا عبر بيتانيا، وفى حوالى الساعة السابعة وصلنا إلى بئر الرسول التى يقولون عنها بالعربية نبع الشمس أو النهار، لكن ليس هذا ماء للشرب، وطبقا لقول المرشد فهذا المكان يرجع تاريخة إلى أيام الملك داؤود، الذى هاجمه ابنه أبو سالوم، وحين حاول الهروب ضربه بحجر فهذا هو مكان الواقعة. على جانبى الطريق أزهار زرقاء صغيرة، كانت السحالى الصغيرة أيضا تظهر بين الأزهار أحيانا تجرى هنا وهناك، كنت أشاهد طلقات الرصاص الفارغة وأحيانا خرطوشات المدافع الفارغة من مخلفات الحرب، وكثيرا من الزجاجات والعلب الفارغة التى استخدمها الجنود وقت الحرب، فمنذ سنتين فى ديسمبر احتل الجنود البريطانيون القدس، وفى السنة الماضية فى فبراير تتبعوا الأتراك

والألمان، هذه من مخلفات المعارك التى دارت، وهناك خط كهرباء يمتد من القدس حتى دمشق عبر أريحا، وقد قام بمد هذا الخط الجنود البريطانيون.

شاهدت بومة تقف فى جو يدعو للحزن، وبينما كنا نمضى شاهدت على الجانب الأيسر للطريق مقابر البريطانيين، فقد وضعوا الصلبان الصغيرة عليها.. شاهدت ما يقرب من تسعين مقبرة... تعجبت هل جاء هؤلاء إلى هنا ليلقوا حتفهم هنا فى هذا المكان الموحش؟!

فيما يتعلق بالجنود الأتراك لم يهتموا بدفنهم، لهذا نهشت الكلاب الجثث، فجمعها البريطانيون ودفنوها كلها فى مقبرة جماعية.

فى الساعة الثامنة والربع وصلنا إلى فندق Good Samaritan inn السامرى الطيب أو فندق، هذا هو منتصف الطريق بين القدس وأريحا، حطم الجنود الأتراك هذا الفندق إلى حد كبير لكن السكان المحليين أهل المنطقة لا يزالون هنا، يطلقون على الجبال باللون الأصفر اسم الجبل الذهبى، والجبل باللون الأحمر جبل الدم، صارت أشعة الشمس قوية محرقة فارتفعت درجة الحرارة ولهذا غطيت رأسى بمنديل عربى حريرى اشتريته من الفندق، وكان غطاء زوجتى من الوشاح الأبيض الخفيف عليه عقال، كان خفيفا وسهلا ومريحا، بعد أن استرحنا مدة نصف ساعة تابع الحنطور الرحلة ومن بين جبل وجبل كان يمكن أن نشاهد أجزاءً من البحر الميت، وعلى الجانب الأيسر كانت هناك منحدرات عميقة، ذكر المرافق أن هذه منطقة بنيامين، والجانب الجنوبى منطقة يهودا، وفى مواجهة الوادى شاهدت مياها تنهمر من فوق جبل، فبدا الجبل كما لو كانوا فرشوه بقماش أبيض، هذه الخدمات الخاصة بالماء قدمها البريطانيون، وقد جعلنى هذا أحفظ لهم قدرهم، فهم بطبيعة الحال لا يمكنهم أن يتأقلموا مع الواقع الجديد، إنهم يريدون أن يعيشوا حياتهم الطبيعية فى أى مكان وجدوا فيه، فالمكان صار أطيب بفضل بجهود البريطانيين، الذين أصلحوا الطرق، وقد قاموا بهذا بالطبع من أجل تسهيل نقل القوات العسكرية ومن أجل الحرب، إلا أن الناس يستفيدون اليوم من هذه الخدمات، يمكننى القول إن البريطانيين هم رومان هذا العصر، فهم ممتازون فى تعبيد الطرق حتى فى الأماكن الوعرة.

قال إيزايا: عبد الطريق من أجل الرب ، ويوحنا قاد المسيحيين، لكن أظن أن الرومان الذين صنعوا هذا الطريق هم قادة المسيحيين، لأن من صنع الطريق يمكنه أن يوحد الناس فى سلام.. أعتقد ذلك، وصانع الطريق يمكنه أن يكون صانع السلام، وصلنا إلى منحدر يمكننا أن نشاهد منه وادى أريحا، شعرت بأنه أعمق مما كان عليه قبل ثلاث عشرة سنة، تغطيه الخضرة بمنظرها الجميل الخلاب، لا يمكن أن أشاهد نهرالأردن لكن النباتات المخضرة خضرة زاهية تعطينا انطباعا بوجود النهر، نزلنا من المنحدر وشاهدت مرة أخرى مقابر البريطانيين، ثم عبرنا الكوبرى وفى الساعة العاشرة وصلنا إلى أريحا.

(٢)

تفتحت أزهار الدفلى[٧٦] واخضرت أشجار النخيل، وملأ عبير أزهار الليمون والبرتقال الجو بطيبه، كان يمكننى أن أشاهد شجيرات الورد البلدى الفارعة المخضرة وأزهار التين، وحبات التفاح التى أخذت تكبر، كان المشهد الكلى هنا يذكرنى بجو المناطق الاستوائية، والآن أتذكر سنغافورة وكولومبو التى زرتها من قبل، بينما ذكر المرشد أن هذا الجو شبيه بجو القاهرة.

وصل الحنطور إلى بركة إليسا (إليشا)، لم أر هذا المكان من قبل، يصل عمق البركة إلى ستة أقدام، كانت هناك أزهار فى ماء البحيرة وأسماك صغيرة تتحرك هنا وهناك، نزلنا من الحنطور وذهبنا إلى آثار قلعة أريحا القديمة.

بعد أن زرت المكان منذ ثلاث عشرة سنة، جاء الألمان هنا، وبدأوا عملية حفر بحثا عن الآثار، وجدوا بقايا جدران وأحجار وبلاط، وبقايا صوامع غلال، شاهدت قطعا زجاجية لزجاجات زيت، أشار المرشد إلى جبل عال قريب وقال: هذا جبل الإغواء (الشيطان) كان المسيح قد صام ٤٤ يوما ثم شاهد على الجبل خداع البصر. على قمة الجبل يمكننى أن أرى معبدا مع كثير من المغارات والكهوف، بعض الرهبان يصومون ٤٤ يوما مثلما صام المسيح ، جبل الإغواء قريب جدا من أريحا، بحيث يمكن لمن يدقق النظر أن يشاهد كل القدس، أتمنى أن أفعل

(٧٦) نبتة سامة أزهارها عطرة.

ذلك، كما أن هناك أيضا الكثير من المغارات والكهوف عند أقدام الجبل، فى العهد الرومانى كانوا يزرعون البطاطا هنا فى حقول أريحا، لاحظت أن بعض الكهوف كانت عبارة عن معامل لتكرير السكر، هكذا أخبرنا المرشد.

عند بركة أليسا (اليشا) شاهدت جنديا بريطانيا شابا يحمل حقيبة جلدية، شاهدت سحلية ميتة، كنت أظنها حرباء ، لم يعرف الجندى ـ وكذلك المرشد ـ عنها شيئا، إلا أن هذه السحلية تأكل الثعابين.

رجعنا للحنطور، واتجهنا ناحية القرية التى مكثت فيها قبل ١٣ سنة، كنت قد أقمت فى فندق الأردن، الذى كان يديره الألمان وهو الآن مغلق، نظرت إلى نافذة الطابق الثانى، هذه نافذة الغرفة التى لم أستطع أن أنام فيها ليلة كاملة، فى حوالى الساعة الحادية عشرة نزلنا من الحنطور أمام فندق "بلفو" Bellevue، لا يهتمون بهذا الفندق كثيرا، وصار مهملا للأسف، طلبنا غرفة بالطابق الثانى الناحية الغربية، حين دخلنا الغرفة كان هناك ثلاثة عصافير طارت وهربت من النافذة، وكان هناك عدد من الحشرات الطافية على سطح ماء الحوض، أما الناموسية التى ستحمينا من الناموس فقد كانت مملوءة بالفتحات، إلا أن النافذة كانت تطل على أشجار الدفلى المزهرة وأزهار الكركدية والورد البلدى وأزهار أخرى مختلفة الألوان: الأحمر والأصفر والبنفسجى ، بدت كأنها تتنافس مع بعضها فى جمال ألوانها:

**"ازهار الدلفى ذات العطر الرائع**

**وازهار "مارى جولد" تغطى نافذة فندق أريحا!**

يشير مؤشر قياس الحرارة إلى ٨٠ درجة فهرنهايت، الجو حار جدا، كان الهواء يهب أحيانا من ناحية البحر الميت ، ومع هذا فيمكننى القول بأن الجو أفضل بكثير مما كان عليه حين جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة. نزلنا لتناول طعام الغداء فى المطعم، وكان علينا أن نمر فى حديقة صغيرة مملوءة بالورود والأزهار، كان الغداء يتكون من الخبز السورى والسلطة والخيار والطماطم، جلس بجاورنا جندى بريطانى، وشاب فى مقتبل العمل وشيخ عجوز، كان الشاب والشيخ

يضعان الطربوش التركى على رأسيهما، بدأنا نتبادل الحديث معا فقال الجندى البريطانى إنه يعرف يابانيا اسمه "ى" لكنه لا يعرف الآن شيئا عن أخباره، وكان الجندى البريطانى قد ذهب لمشاهدة البحر الميت، أما الشاب ذو الطربوش التركى فذكر أنه كان يسبح فى البحر الميت قبل أن يأتى هنا.

(٣)

فى الساعة الواحدة بعد الظهر ركبنا الحنطور من أمام الفندق، مررنا عبر شارع صُفَّت على جانبيه دكاكين صغيرة ، وهناك دير بنى على بقايا مبنى قديم، بعد أن عبرنا من هذا الشارع أخذنا طريقا يتجه شمالا ويمر عبر منطقة واسعة لا يوجد فيها كثير من الخضرة، وصل الحنطور إلى شاطئ البحر الميت بعد ساعة ونصف من مغادرتنا أريحا، شاهدت بعض القوارب التى كانت تطفو على سطح البحر الميت، كما شاهدت قاربا بخاريا "لانشا"، كانت مياه البحر الميت تميل قليلا إلى اللون الأبيض، بينما الجبال المحيطة به تبدو أقرب إلى السكون منها إلى الهدوء، كان لون الماء ولون السماء متجانسين تماما، قال المرشد: الجبال فى الناحية الشمالية الشرقية شكلها مثل سنمى الجمل، أحدها هو جبل نيبو الذى يبلغ ارتفاعه ٢٦٤٢ قدما عن سطح البحر، ومن فوقه يمكن أن نشاهد وادى نهر الأردن كله، وفى الجنوب يمكن أن نشاهد الخليل حتى طبرية وجبل كارميل عند البحر الأبيض المتوسط، وجبل هيرمون بالقرب من دمشق، ويقال إن موسى قبل أن يموت طلع فوق هذا الجَبَل ونظر إلى كل كنعان. أنا الآن أشاهد هذا الجبل الذى شاهد موسى منه منذ سنوات كلَّ كنعان، حين أستشعر ما كان يشعر به، أحس بالدموع تتساقط من عينى، لأن مثل هؤلاء الناس قاموا بعمل عظيم من أجلنا نحن البشر الذين نعيش حتى القرن العشرين.

جلسنا على كراسٍ من خشب الشجر وضعت على شاطئ البحر الميت، قامت زوجتى بارتداء "المايوه" أما أنا فخلعت ما يمكننى خلعه من الملابس، ثم نزلت فى الماء، لم يكن الماء باردا، لكن بعد ثلاث خطوات أو أربع صار الماء عميقا، مما جعلنى أسبح قليلا، ماء البحر الميت مالح جدا، كان جسمى يطفو فوقه بسهولة، شعرت بأن الماء ثقيل ولزج، لكنه كان مريحا، لذا بقيت أسبح لمدة، بعدها التقطت

بعض الأحجار الصغيرة، المرشد قال لنا: الشمس ستغيب بسرعة وسيحل الظلام، ولذا توقفت زوجتى عن الغوص فى الماء وارتديت ملابسى، وعند الساعة الثالثة والنصف، ركبنا الحنطور، واتجهنا إلى نهر الأردن، وبينما نحن ماضون إذا بالمرشد يصيح مشيرا إلى جهة الغرب: جبل الزيتون! من بين التلال شاهدت برج الكنيسة الروسية وبرج الكنيسة الألمانية، القدس تقع خلف جبل الزيتون لهذا لم أتمكن من رؤيتها قبل أن أرى وادى الأردن من برج الكنيسة الروسية، لكنى اليوم أشاهد جبل الزيتون من وادى الأردن، كنت قد شاهدت من القدس برج الكنيسة الروسية أعلى من الكنيسة المانية لكن من هنا يبدو برج الكنيسة الألمانية أعلى من برج الكنيسة الروسية.

تابعنا رحلتنا عبر منطقة خضراء، كنت أشاهد النباتات والحشائش والأشجار القصيرة، شاهدت طيورالكركى تحلق فى الفضاء، أخذت زوجتى تحصى عددها بصوت عال: واحد اثنين... تسعة عشر، وبين هذه المساحة الخضراء ظهر نهر الأردن كأنه يبرق، بينما مضت عربة الحنطور بين الأحراش، كانت الأغصان تحف بجسم الجواد وتصل إلينا أيضا. شاهدت كوخ صياد وكلبا ينبح، نزلنا من الحنطور، ووقفنا على شاطئ النهر، جئت هنا قبل ذلك، لم يكن ماء النهر صافيا، ذكر المرشد أن عمق النهر يصل إلى ١٦ قدما، كان هناك قارب صغير يطفو على سطح الماء، شعرت فجأة برغبة فى أن أركب هذا القارب، حين ذكر المرشد ذلك للصياد، وافق على الفور وركبت القارب أنا وزوجتى، بينما كان المرشد يردد: انتبها! انتبها! يجب أن تحافظا على توازنكما، كان الصياد بطربوشه الأحمر يمسك بالمجدافين ويحرك القارب، لاحظت وجود تسرب ماء فى قاع القارب، فشعرت بالخوف قليلا، كان الماء فى النهر يندفع بشدة لأن منسوب الماء زاد بعد هطول الأمطار، ارتفعت الأشجار العالية على جانبى النهر كان هناك أزهار وورود مختلفة وأنواع كثيرة من النباتات والحشائش الخضراء، قالوا وسط هذه الأحراش يوجد ضباع وثعالب الجبال، كنا نتحرك بالقارب مع اتجاه الماء، كانت هناك طيور تغرد وتصدح، فجأة تذكرت صيف مسقط رأسى، افتقدت اليابان كثيرا.

كان الوقت متأخرا لذلك قررنا التوقف ثم عدنا من حيث جئنا... ابتل حذاء زوجتى، نزلنا من القارب.

حين يصيدون السمك فى نهر الأردن يستخدمون الشباك، شاهدت صيادا عجوزا يحاول أن ينصب الشباك، كنت قد تحدثت معه، فأرانا بعض الأسماك التى صادها منذ قليل، تخيلت منظر السمك وشكله، يبدو مثل شكل مالتا وليس مثل شكل ماريا ، قيل لنا إن هذا السمك يرسل إلى القدس فورا، لكنى تذكرت أنهم فى الفندق الذى أقمنا فيه لم يقدموا لنا أبدا السمك فى وجبات الطعام، كانوا يقدمون لنا لحم الخراف والبقر والدجاج والخيار والجزر والبطاس وغيرها. أعدت زوجة الصياد لنا القهوة، كان هناك أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة والخامسة، قدمت لهم زوجتى الفول السودانى و "الكرملة" التى حملتها معها، ففرحوا كثيرا، والتهموها على الفور، قدم ناحيتنا كلب يحرك ذيله كأنه يحيينا، فاضطررت إلى أن أربت بيدى على رأسه تحية له، شاهدت قاربا صغيرا لم يكتمل بناؤه بعد، بجاور خيمة صغيرة، حين تطلعت إلى داخل الخيمة شاهدت سريرا، ربما هذه الخيمة هى استراحة الصياد العجوز، بدا هذا المنظر لى كأننى أقرأ رواية Fennimore Cooper وهو يصف حياة الرواد الأمريكيين Pioneers of America، كان المشهد مشهدا شاعريا تماما، لاحظت أن زوجتى بدأت ترسم هذا المنظر فى الوقت الذى أحضرت فيه زوجة الصياد القهوة والماء، شربنا الماء والقهوة، كانت القهوة لذيذة جدا أما الماء الذى جلبته من ماء النهر فلم يكن باردا:

على شاطئ نهر الأردن

تتمايل أغصان أشجار الصفصاف

وبالقرب من الشاطئ نصبوا خيمة

أود أن أكون هنا بجوارك قبل المغيب

فى أيام فصل الصيف

آى

شكرنا أسرة الصياد، وفى الساعة الخامسة مساء ركبنا الحنطور، ورجعنا من نفس الطريق المملوء بالأشجار والخضرة... دأت شمس المغيب تتوارى عن الأنظار، بينما كانت أشعة الغروب تغطى نهر الأردن، وبدأ غلش المساء يلفنا، تذكرت المنظر نفسه الذى شاهدته من ثلاث عشرة سنة فى نهاية مايو، فى مثل هذه الظروف، حين رجعت من أريحا ومررت من نفس المكان.

**ظلال عربة الحنطور امتدت كثيرا وقت المغيب**

**فرشت الشمس وادى الأردن بأشعة الغروب**

**أعود أدراجى على طول نهر الأردن**

**بينما ظلال شمس المغيب تعكس صورة أريحا**

**وتلونها بزرقة باهتة**

حين تطلعت إلى الجانب الشمالى بين الجبال تراءى لى وادى الأردن، وإذا مضينا على طول هذا النهر نصل إلى بحيرة طبرية، كنت أريد أن أصل إلى هناك، لكن ربما فى المرة القادمة، حين ذكرت ذلك ابتسمت زوجتى! منذ ثلاث عشرة سنة جئت هنا، لكن لو جئت مرة أخرى بعد ثلاث عشرة سنة للمرة الثالثة فسأكون فى الخامسة والستين من عمرى، على كل هذا ليس بالعمر المتقدم، وستكون زوجتى فى التاسعة والخمسين، وعموما ستون عاما ليست بالعمر المتقدم جدا، يعنى أنها أصغر من السيد هانسمان الذى كان يعانى حين زج به فى السجن أسيرا، لا أقلق بالنسبة لعمرى.

كانت هناك فراشات بيضاء ترفرف أمامنا ، اقتطفت زوجتى بعض الأزهار البرية، كانت أغصان بعض الأشجار لها رائحة ذكية وطيبة، منذ ثلاث عشرة سنة وفى طريقى إلى البحر الميت التقطت بعض الأغصان وقطفت بعض الأزهار، كان لها عبير طيب يشبه ما لهذه الأغصان والورود من عبير. أتعجب ماذا حدث لرفيقى البريطانى عضو الإرسالية التبشيرية البريطانى ماكيه Mackay والإفريقى الزنجبارى الذى سبح عبر النهر كان أسود فاحما وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة واسمه عبد الله.

على اليمين كان يمكننى أن أرى دير الراهبات، كان الحنطور يمضى ويمضى متجها إلى أريحا، وبينما امتد ظل الحنطور طويلا، صاح المرشد فجأة: ثعبان! ثعبان! نظرت فشاهدت الثعبان، كان بطول شاكوين[٧٧] ، أبيض اللون، مرق من أمامنا بسرعة، ذكر المرشد أن هذا النوع من الثعابين سام، كانت هذه أول مرة فى رحلتى أشاهد فيها ثعبانا.

مررنا ببستان مملوء بأشجار الفاكهة، كانت هناك فاكهة مدورة صغيرة، بنية الشكل حلوة المذاق، لا أعرف اسمها، شاهدت قافلة من البعير متجهة إلى أريحا، تتكون من خمسة أو ستة جمال محملة بالبضائع، وهى قادمة من عمان متجهة إلى القدس، تعتبر مدينة عمان محطة للمسلمين المسافرين من دمشق إلى مكة لأداء مناسك الحج، قال المرشد إنها تبعد قليلا عن أريحا، شعرت برغبة فى الذهاب إلى عمان.

فى الساعة السادسة مساء رجعنا إلى الفندق، ورغم غروب الشمس فإننى قد شاهدت حديقة الفندق وقد امتلأت بأزهار الأولاند olland الحمراء كأنها نار مشتعلة بحريق...

فندق أريحا بعد الغروب

عصفور يغرد بصوت كالهمسات

وأزهار الأولاند الحمراء

بدت مثل نار مشتعلة.

قدمت إلينا خادمة سورية حافية القدمين، قدمت لنا الماء، مسح كل منا وجهه وجسمه، ثم جلسنا على الكراسى فى الشرفة، شاهدت رجلا على رأسه الطربوش الأحمر يسقى الأزهار فى الشرفة ظننت أنه المرشد أو سائس الحنطور، لكنى اكتشفت أنه مالك الفندق، تحدث معى وذكر أنه قدم من القدس على ظهر حمار، وهو يخطط لجلب الماء من بركة إليسيا (إليشيا) إلا أن الأمر

---

(٧٧) الشاكو وحدة قياس يابانية قديمة سبقت الإشارة إليها، تساوى ٣٠سم، فهذا طوله ٦٠ سم.

يحتاج إلى وقت طويل، فالحصول على رخصة يحتاج إلى وقت كما أن مواسير نقل المياه غالية جدا؛ لهذا كان مشغولا بالتفكير فيما يجب عليه أن يقوم به حتى يتمكن من تنفيذ هذا المشروع.

جلسنا على الكراسى فى حالة استرخاء تام، مساء أريحا مريح جدا، فحرارة الشمس تلاشت والهواء العليل يهب علينا قادما من ناحية البحر الميت محملا بعبير الأزهار وطيب الورود، بينما الطيور تشقشق كأنها تعزف سيمفونية بديعة... بينما كنا نتطلع إلى شجرة ضخمة قريبة من الشرفة، ومن تحتها أشجار الفلفل، ومن حولها أزهار مختلفة الألوان، بنفسجية وحمراء، وفى السماء كانت النجوم تلمع كقطرات زئبق رجراج، بينما كان نقيق الضفادع يذكرنى بفصل الخريف فى اليابان حين كنت أتمتع بنقيق الضفادع الجميل... كنا منشرحين ومسرورين تماما:

حين أجلس فى الشرفة

أسمع نقيق الضفادع وصرير الحشرات

أتذكر موطنى وأشعر بالحنين الشديد إلى مسقط راسى

(أى)

فى الشرفة يهب علينا النسيم عليلا

أسمع صرير بعض الحشرات

أشعر بالصوت لكن فجأة

يختفى كل شيء

(آى)

(٤)

فى اليوم الخامس والعشرين من أبريل استيقظت على سبيل الخطأ فى الساعة الثانية والنصف ليلا، خرجت إلى الشرفة ، شعرت بأن الجو مثل جو بحر هادئ ودافئ فى المناطق الإستوائية ، فهذا المكان ينخفض عن القدس بنحو ٣٧٠٠ قدم ونحو ١٢٠٠ قدم عن سطح البحر الأبيض المتوسط.

عند الساعة الرابعة والنصف فجرا بدأت الطيور تغرد، وعند الخامسة ذهبنا إلى صالة الطعام لتناول طعام الإفطار، بينما كنت فى انتظار الحنطور شاهدت عصفورا يحتضر، كانت العصافير الأخرى تتجمع من حوله كما لو كانت تحاول إيقاظه كانت تنقره ... زوجتى قالت إن العصافير تأكل نفسها! شعرت بالفزع ، وحين رجعت إلى الغرفة وجدت عصفورة ماتت بالقرب من النافذة ربما ضربت نفسها فى زجاج النافذة دون أن تلاحظ أنه مغلق.

قدم إلينا المرشد وهو يحمل باقة من أزهار الأولاند الحمراء. فى تمام الساعة الخامسة والنصف ركبنا الحنطور، قبل أن نصعد تلا مرتفعا نزل ثلاثة رجال من الحنطور حتى نخفف من حمولته، نمر الآن بمنطقة مملوءة بالبدو، وهى منطقة خطيرة، حين جئت هنا منذ ثلاث عشرة سنة كان مرافقى حارسا قويا، كان يتمنطق بسيف طويل من أجل حراستى من أى اعتداء طارئ، وكان يحرس الحنطور أيضا من غارة البدو، لكن الوضع قد تغير الآن فيوجد الكثير من العساكر البريطانيين هنا، ولهذا لا نشعر بأى قلق، إلا أن المرشد كان يحمل على سبيل الاحتياط مسدسا صغيرا، أنا شخصيا لا أحب هذا...

صعدنا إلى التل وعبر المنحدر شاهدت وادى أريحا، كان هناك طريق ضيق يمتد إلى الجبل، وهو الطريق المؤدى إلى دير الراهبات، بدأ سائس الحنطور يلقى بعض الأحجار أسفل الوادى، فكانت تسقط ولا نسمع صوت ارتطامها بالأرض، وهذا يدل على أن الحجر سقط فى مكان بعيد جدا وأن المسافة بيننا وبين المكان المنخفض طويلة جدا، كان سائس الحنطور الشاب يجلس على حافة صخرة، شعرت بالدوخة حين رأيت هذا المنظر، لكن على البعد من هنا فى أسفل الوادى كان هناك خمسة رجال يتحركون، كانوا أشبه بطابور نمل يتحرك على حد تعبير زوجتى، لكنى لم أستطع أن أشاهدهم بشكل جيد.

فى الناحية المواجهة للجدار الصخرى هناك عدة مغارات، بعض الناس يقومون بالتعبد والترهب هناك، وهم يحصلون على الطعام عن طريق الحبال التى تتدلى من فوق حاملة لهم ما يحتاجونه من مؤن وشراب.

ركبنا الحنطور ثم مضينا فى طريقنا حتى وصلنا إلى نهاية الجدار الصخرى، يقولون إنه منذ زمن بعيد هرب الرسول إيليا إلى هنا فرارا مما حاق به من خطر، وقدم إلى هذه المغارات وكانت الطيور تجلب إليه الطعام، هكذا يقولون! وشاهدت بستان الراهبات المملوء بأشجار البرتقال والليمون والموالح والموز وغيرها، وهذه المعلومات أخبرنا بها المرشد.

فى حوالى الساعة السابعة والنصف وصل الحنطور إلى استراحة أهل ساماريا" حيث تستريح الجياد وتأكل وتشرب، كما نستريح نحن أيضا، وبينما كانت الجياد تأكل علفها، كنا نحن أيضا نأكل الخبز والبيض المسلوق والبرتقال، وشربنا الماء الذى حملناه معنا من فندق أريحا. وبعد ساعة من الراحة بدأنا التحرك ثانية.

شاهدت أزهارا برية جميلة جدا، كانت وردية اللون، فطلبت من المرشد أن يقطف لى بعضها وكان من بينها الفل برائحته العطرة. يمكن القول إن أزهار وورود أريحا هى بشكل عام قوية جدا، وإذا توفر لها الماء فسوف تعيش طويلا، وهى لا تذبل ولا تجف، إلا أننى لم أشاهد مثل هذه الأزهار بالقرب من دكان الفندق، حين اشتريت بعض الحاجيات وأهدانى صاحب الدكان بعض الورود قال: هذا ورد أريحا ، لكنى شعرت بأنه ليس ورد أريحا؛ فقد ذبل بسرعة، وحتى لو وضعته فى الماء فإنه لا يستعيد نضارته مرة أخرى، على كل حال إن قوة الورود والأزهار الفلسطينية تثير إعجابى كثيرا، فهى قوية، وهى قوية مثل اليهود، أتذكر حين اشتريت بعض الأزهار من بيت لحم كانت ذابلة، لكن حين وضعتها فى الماء استعادت نضارتها فى اليوم التالى، وقد تعجبت زوجتى كثيرا، فالشخصية اليهودية تدل على أنهم أقوياء جدا ونشطاء للغاية وهم صبورون، وهذه الشخصية أساسا تأتى كنبتة فى تربة اليهود، إذا ظهرت كنبات تصبح زهرة ، وإذا جاءت كإنسان تكون إنسانا يهوديا.

أما الفاكهة التى تأتى من وسط وغرب آسيا من المناطق الجافة فهى مملوءة بالعصير الحلو، ويتناولها عادة البعير الذى يمشى فى الصحراء، ومن الأفضل أن تكون مشبعة بالعصير مملوءة بالماء، وفى فلسطين أيضا هناك كثير من الورود

مختلفة ألوانها صفراء وحمراء وبيضاء ووردية وبنفسجية، وهى جميلة جدا لكن بها أشواكا مدببة جدا وقوية تماما مثل اليهود؛ فلهم شخصية قوية ويحبون أنفسهم، وهم عدوانيون(٧٨) ولا يريدون أن يختلطوا بالناس، وهم يجلبون على أنفسهم كراهية العالم لهم.. اقتربت السحالى من الحنطور، كانت تتحرك بسرعة وتقفز كأنها تطير من الطريق إلى الصخور، والسحالى شكلها عجيب فهى ترفع يديها ورأسها لأعلى ولونها بنى قاتم، وجلدها رغم خشونته يبدو أملس جدا، وعلى كل حال فسحالى اليابان ليست مختلفة كثيرا عن هذه السحالى، وقد تعودت الآن على مشاهدة هذه السحالى رغم أننى حين شاهدتها لأول مرة شعرت بالغثيان!

اتجهنا صاعدين عبر التلال.. عند أقدام جبل الزيتون حين تطلعت من ورائى شاهدت استراحة "ساموريا" وقد بدت صغيرة جدا وفوق الجبال المحيطة ظهرت بقع بيضاء كالحة منتشرة هنا وهناك ففى أثناء الحرب أصابت المدافع مواقع كثيرة على الجبال.

فى الساعة الحادية عشرة صباحا رجعنا إلى الفندق، أعطيت السائس والمرشد بعض الهبات، ورجعت إلى الغرفة فغسلت وجهى وغيرت ملابسى ونزلت مع زوجتى لتناول الغداء، ورغم أننا غبنا عن المكان ليلة واحدة إلا أننا شعرنا كأننا رجعنا إلى بيتنا من جديد.

## القدس (مرة أخرى)

### (١)

الخامس والعشرون من أبريل: بعد عودتنا من رحلتنا من نهر الأردن إلى الفندق أخذنا قسطا من النوم، فى أريحا كنا ننام فوق سرير خشن غير ناعم، لكن الآن ننام على سرير ناعم طرى ومريح، استيقظنا من النوم وشربنا الشاى الأخضر، خرجت زوجتى إلى الشرفة لتجمع الملابس المعلقة (الغسيل) على المنشر، سمعتها تتكلم مع خادم "فوا" الذى يقيم فى حجرة مجاورة لنا، السيد فوا سيسافر الليلة مع زوجته إلى مصر بالقطار، وسيمكثان بالقاهرة مدة، ثم يذهبون الشهر القادم إلى إنجلترا، زوجتى وخادمتها كانتا تعبران عن أسفهما للفراق، تفتقد كل منهما الأخرى.

---

(٧٨) ترجمة حرفية للكلمة اليابانية التى وردت فى الأصل Sentoteki.

حين كنا نتناول طعام العشاء أحضرت زوجة السيد فوا باقة من الورد البلدى إلى طاولتنا، بعد أن تناولنا الطعام قال السيد فوا وزوجته: سوف نلتقى ثانية وتصافحنا ثم غادرا صالة الطعام. لقد تعرفنا على السيد فوا عن طريق المرحوم كيكو Kiku بعد ذلك جمعتنا اللقاءات وصرنا أصدقاء، بعد عودتهما من دمشق تحدثا عن دمشق، وشاهدنا الهدايا التى اشترياها من هناك. وبينما كنا نتحدث معا ذكرت له فكرتى عن العملة العالمية الموحدة إلا أن السيد فوا عارض الفكرة كثيرا، لم نأخذ الأمور بجدية، بل كنا نتجاذب أطراف الحديث دون دخول فى تفاصيل أو التركيز على أمر ما، ويمكننى أن أقول إن السيد فوا وزوجته يتصفان بالذكاء والحصافة، وهما مثقفان نالا قسطا كبيرا من المدنية والتحضر، لقد شعرنا بالحزن إلى حد ما بعد أن غادرا. لم تكن أسرة السيد فو هى التى غادرت الفندق فقط؛ معظم من قابلناهم حين وصلنا هنا غادروا الفندق واختفوا عن الأنظار.

فى صالة الطعام بالفندق لم نكن نتحدث عادة مع الآخرين، كنا نتبادل الابتسامات فقط، وذلك بسبب اختلاف اللغة، ومع ذلك فمعظم من تبادلنا معهم الابتسامات رحلوا...

الوجوه المبتسمة التى اعتدنا رؤيتها فى صالة الطعام بالفندق

اختفت واحدا تلو الآخر

هذا نمط من الحزن

نعانيه عادة بسبب فراق السفر

آى

حينما نرى بعضنا

نبتسم لبعضنا... تنشرح صدورنا

لكن اليوم لا أستطيع أن أرى وجوها

من بلدان أخرى غير بلدى

اليوم أشعر بالحزن

آى "

(٢)

رحلت أسرة السيد فوا فى السادس والعشرين من أبريل، أما نحن فمهمتنا فى القدس انتهت، علينا أن نتحرك من هنا، جئنا هنا منذ شهر وقررنا أن نزور الناصرة، وبحيرة طبرية ودمشق، واليوم علينا أن نذهب لمقر الحاكم طلبا للتأشيرة.

حين كنا ننتظر أمام مقر الحاكم شاهدت امرأة عجوزًا بدت مثل زوجة هانسمان، لم أسمع أن زوجته ستصل، فقط دققت النظر على سبيل الاحتياط، أوه لم تكن زوجته، إنها راهبة، وصل السيد ستورس حاكم القدس، قدمونا إلى نائب الجنرال وهو ضابط، تحدثنا عن مهمة سفرنا والغرض من السفر، كان نائب الجنرال طويل القامة بشكل ملحوظ اصطحبنا فى الحال إلى الطابق الثانى وقدمنا إلى رئيسه الذى يتعامل مع التأشيرات، فطلب منى أن أحضر إلى المكتب ثانية صباح يوم السفر.

الوظائف العليا هنا كلها فى يد البريطانيين، وبالنسبة للعمالة الأخرى فهم يفيدون من السوريين، وهناك بعض السوريات يقمن بأعمال الطباعة على الآلة الكاتبة، كان خادم غرفتنا الذى يتولى أمر الاهتمام بنا يدعى أنطوان، لقيناه هنا أيضا كان مريضا قليلا، لم نره من مدة طويلة، ذكر أنه سيكون فى الفندق بعد الظهر وتصافحنا.

بعد الظهر غفونا قليلا، وعند الساعة الرابعة بينما كنت مشغولا بالكتابة إذا بالسماء تظلم وتهب ريح شديدة، حملت الرمال التى غطت كراستى فجأة، وارتفعت درجة الحرارة، وشاهدت مؤشر الترمومتر يشير إلى ٨٣ فهرنهايت، كانت هناك عاصفة رملية قادمة من الصحراء، يبدو أن الصحراء تتنفس أو تتثاءب، حين نظرت وجدت السماء والأرض اتصلتا معا بعد أن عمت الظلمة الشديدة...

أتخيل المسيح اليوم حين رفع على الصليب، هذا الوقت ما بين الثانية عشرة ظهرا والثالثة عصرا، أظلمت الدنيا كلها، صارت سوداء وبدت الأرض كأنها ستنفجر.

ربما كانت الساعة السادسة حين ذهبت إلى السطح، هدأت العاصف وتوقف هبوب الرياح، إلا أن السماء كانت مملوءة بالغيوم، شاهدت القدس فى صباح مظلم، كانت أجراس الكنائس تدق وتصلصل هنا وهناك، على قمة كنسية القيامة شاهدت ضوءا يبرق، ساءلت نفسى ما هذا الضوء؟ أخيرا عرفت أن اليوم هو ذكرى صعود المسيح إلى السماء... بعد انتهاء عيد الفصح قلّ عدد نزلاء الفندق، ربما كنا نحن من بقى فيه أطول مدة ، كان جارنا هو الصحفى الأمريكى، والرجل السورى برجله المصابة.

(٣)

اليوم السابع والعشرون من شهر أبريل وهو يوم الأحد الخامس لنا هنا فى القدس، تناولنا فى طعام الغداء المكون من الأرز المصرى، كان طعمه مقبولا، بعد الظهر وجدت نفسى مرهقا جدا، بينما كانت زوجتى تعانى من ألم فى أسنانها، ورغم هذا غيرنا ملابسنا وذهبنا إلى المحطة لنستعلم عن مواعيد القطار، وجدنا المحطة مغلقة، إلا أن جنديا بريطانيا أعطانا المواعيد، وعرفنا أن هناك قطارين يقومان من القدس إلى "ياتسوفيا؟": القطار الأول يقوم فى الساعة الواحدة بعد الظهر، والقطار الثانى يقوم فى الثامنة والنصف ليلا، ومن اللد إلى حيفا يغادر القطار فى الساعة السابعة والثلث صباحا، وهذا قطار سريع يصل إلى حيفا فى الساعة العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة، أما قطار المساء الذى يقوم فى الثامنة والنصف فهو قطار "قشاش" يقف فى كل المحطات، لذلك قررنا أن نأخذ قطار النوم من القدس، ومن اللد نأخذ القطار العادى.

شاهدت بعض الجنود البريطانيين يداعبون طفلا فلسطينيا إلا أن الطفل أخذ الأمر على محمل الجد وغضب ثم بكى، لكن أحد الجنود استمر فى معاكسته، يبدو أن الجندى كان يريد أن يتسلى. مشينا إلى المنطقة السكنية وأمام بوابة مبنى حكومى وجدت أخبارا جديدة معلنا عنها أمام البوابة منها:

البريطانيون يرسلون المزيد من الجنود إلى مصر.

أمريكا توافق على مشروع فرض الحماية البريطانية على مصر وغيرها.

أتذكر حين قرأت الصحف اليابانية منذ عدة أيام وجدت مقالا عن العلاقات مع كوريا.

عدنا إلى الفندق.

(٤)

اليوم الثامن والعشرون من أبريل، وصلت درجة الحرارة بالأمس إلى ثمانين فهرنهايت، أما اليوم فهى ستون فقط، نصحنا السيد هانسمان أن نرتدى قميصا من الصوف حتى لا نصاب بالبرد، فدرجة الحرارة ترتفع وتنخفض، لكن الجو هنا جاف لذا لم نصب بالبرد حتى الآن.

ذهبنا إلى بنك Credit Lyonnais بالخطاب الذى حملناه من Hong Kong Shanghai Bank تعاملوا معنا بأدب جم، وأعطونا عملة مصرية قيمتها ١٩٢٩٦ونصف جنيه مصرى[٧٩]

منذ ثلاث عشرة سنة حين جئت هنا كانوا يتعاملون بالعملة التركية، ثم العملة الفرنسية، لكن الآن تغير الوضع، فالبريطانيون هم الذين يحكمون، وهم لا يحكمون مصر فقط بل مصر وفلسطين وسوريا، قرأت الصحف اليابانية وعرفت أن الوضع فى كوريا صار أكثر اضطرابا، المنغول أرسلوا برقية إلى الرئيس كيم إيل سونغ مطالبين بحضور مؤتمر السلام، وقرأت أيضا مقالا عن التمييز العنصرى ومقال عن موت نابليون، وعن عقد مؤتمر طالبت فيه بريطانيا بوقف تجارة الرقيق.

فى التاسع والعشرين من أبريل قررنا المغادرة فى أول مايو ولهذا بدأنا حزم أمتعتنا، وفى اليوم الثلاثين من أبريل سنزور السيد هانسمان فى مستشفى الصليب الأحمر، منذ ثلاثة أيام غادر المستشفى ولا ندرى أين ذهب، لذا رأينا أن نذهب إلى مكتب البريد لنسأل هل جاء أحد لأخذ بريدنا أم لا، وهناك تركنا له

(٧٩) هكذا فى الأصل!؟

رسالة، وبعد أن رجعنا ساعة تقريبا سمعنا طرقا على الباب، حين فتحت الباب وجدت السيد. هانسمان يقف أمامى، لقد قرأ رسالتنا، كان يقيم فى بيت أحد أصدقائه، زوجة هانسمان ستأتى بعد شهر، هكذا أخبرنا.

لا شك أنه كان يقيم فى مستشفى الصليب الأحمر بالمجان، وهو بالطبع فى حاجة ماسة إلى نقود، لذا فكرنا ووضعنا خمس ورقات نقدية مصرية فى مظروف يابانى مزخرف بالورود على الطريقة اليابانية، وقدمناه هدية له قائلا: هذا بمناسبة احتفالنا، وبمناسبة سعادتنا بعودتك سالما. بدت على وجهه علامات السعادة الغامرة، كما لو كان طفلا صغيرا وقال لنا بكل امتنان: شكرا... شكرا وتناولنا الشاى معا ثم عاد من حيث أتى.

(٥)

فى صباح الأول من مايو ذهبنا إلى مقر الحاكم، وحصلنا على تأشيرة السفر، وحين رجعنا وجدنا السيد هانسمون قد جاء حاملا لنا الصحف اليابانية والرسائل التى وصلتنا وشكرنا ثانية على هدية الأمس، وقدم لنا أحد أصدقائه وهو رجل يهودى التقى به حين كان فى السجن ، وقد تحول هذا اليهودى إلى النصرانية، ويعيش فى حيفا، وقد أعطانا بطاقته التعريفية.

حين كان السيد هانسمان فى المستشفى لم تكن برفقته زوجته أو أى امرأة فكان كلما جاءنا فى الفندق ألاحظ أن ملابسه غير مهندمة، ولم يكن يهتم بنفسه كثيرا لكنه الآن يسكن مع صديقه لهذا يأتى عادة بملابس مهندمة، أتمنى أن تأتيه زوجته بسرعة.

دفعنا تكاليف الفندق مدة شهر تقريبا، دفعنا بالين اليابانى ٤٠٠ ين ثم وضعنا ثلاثة أوراق نقدية مصرية هبة للعاملين فى الفندق، بعد ذلك ذهبنا إلى فرع توماس كوك لنسأل عن رحلتنا فقالوا لنا إن كنا نرغب فى السفر إلى بورسعيد فعلينا الذهاب بالقطار عبر القنطرة، لذا قررنا بعد الانتهاء من زيارة الناصرة ودمشق أن نعود إلى القدس أولا، لهذا تركنا بعض أمتعتنا فى الفندق.

فى المساء استرحنا قليلا ثم طلعنا إلى السطح، كان الطقس جميلا، وبدت القدس جميلة جدا، جهزنا كل شىء، تناولنا العشاء بسرعة ثم غادرنا الفندق وركبنا الحنطور.

## حيفا

### ليلة فى خيمة

(١)

اليوم هو الأول من مايو، وها نحن بعد غروب الشمس فى محطة القدس المزدحمة جدا وبخاصة قبل قيام القطار، اشتريت التذكرة إلى حيفا ثم دخلنا إلى القطار، فوجئت بعربة القطار مظلمة، فأضأت الفانوس اليابانى "تشوتشين" وبعد مدة قصيرة جاء بعض العساكر فأضاءوا "لمبة" ورغم ذلك ظلت العربة مظلمة، دخل كثير من أطفال هذه المنطقة حاملين الأمتعة والأحمال التى كان من المفروض أن توضع أصلا فى عربة التشهيلات (البضائع)، تعجبت لماذا حملوها إلى عربة المسافرين، حين نظرت من نافذة القطار شاهدت كوكب الزهرة يلمع، وأصغيت قليلا فسمعت كثيرا من صرير الحشرات.

**كوكب الزهرة ينافس الهلال**

**من يلمع أكثر**

**الليل امتلأ بأصوات صرير الحشرات**

موعد قيام القطار فى تمام الثامنة والنصف، كان من بين المسافرين رجل يضع على رأسه الطربوش التركى الأحمر، ذكر أنه صاحب الفندق الذى سنقيم فيه الليلة فى بلدة اللد، أخبرته بأن هذه هى المرة الثانية التى أزور فيها القدس، استمر القطار يسير فى الظلام، على صوت طقطقة العجلات على القضبان، وسط الظلام كان النعاس سيغلبنى بلا شك لكن القطار توقف... ها قد وصلنا بلدة اللد قبل الساعة الحادية عشرة، إذ كان القطار يمضى من القدس بسرعة نظرا لانحدار الطريق.

(٢)

نزلنا من القطار، أخبرنا مسئول القطار أنه يمكن أن نترك أمتعتنا داخل القطار؛ لذا حملنا حقيبة صغيرة لنذهب إلى الفندق الذى سنقضى فيه هذه الليلة، فالقطار المتوجه إلى حيفا سينطلق فى الصباح، لهذا سننام الليلة هنا.

وصلنا إلى خيمة كبيرة، وجدنا الكثير من الناس والرجال نائمين بداخلها، كان البعض ينام فوق السرير و البعض الآخر تحت السرير، ولا توجد خصوصية على الإطلاق؛ فكل شيء "مفتوح على البحرى" لكن أحد المسئولين أخذنا إلى خيمة صغيرة إلى حد ما، هذه خيمة النساء، حين نظرنا إليها فى ضوء نور اللمبة الضعيف وجدنا أن معظم الأسرة مشغولة، تركت زوجتى فى هذه الخيمة المخصصة للنساء وقادنى المسئول إلى خيمة الرجال، كان هناك نحو عشرين سريرا، بعضها عال جدا، وبعضها على العكس من ذلك منخفض جدا، وقد رتبوها فى صفين، أرشدنى المسئول إلى سرير عال جدا، وصلت حقائبنا إلى الخيمة، فأردت الإطمئنان عليها فوجدت إحداها مفقودة، اصطحبت رجلا إلى القطار، أتعجب لماذا حملوها إلى الخيمة! الضابط المسئول فى القطار ذكر لى أن جميع الحقائب أنزلت من القطار ولا توجد بالداخل أى حقيبة، على كل حال قررت أن أفحص العربة جيدا، وفى النهاية وجدت الحقيبة المفقودة تحت المقعد، فشكرت الجندى ورجعت إلى الخيمة حاملا الحقيبة.

وقف أمامى رجل من أهل المنطقة وقال لى: أعطنى هبة فأنا حملت أمتعتك، فأعطيته ورقتين بعشرة p بى فتهللت أساريره.

نمت على السرير بملابسى، لم يكن الأمر مريحا، جاء رجل يضع على رأسه الطربوش التركى الأحمر ليسجل الأسماء، كتبت اسمى وجنسيتى ودينى ومهنتى، ستقوم زوجتى بتسجيل بياناتها بنفسها، طلبت من هذا الرجل استبدال السرير العالى هذا لأنى أفضل السرير المنخفض، فلبى طلبى، آه السرير المنخفض أفضل بكثير من السرير العالى... حين نظرت إلى ساعتى وجدتها تشير إلى الثانية عشرة، وضعت معطفى على ركبتى، وخلعت نظارتى، ووضعت منديلا على وجهى، وسمعت نباح كلب... لم أدر شيئا، نمت بعد مدة.

***

حين استيقظت من النوم وجدت الساعة تشير إلى الثالثة صباحا، نهضت من على السرير وخرجت من الخيمة.

كان الليل مع منظر النجوم مخيفا، حين تطلعت إلى السماء فوقنا لم أشعر بوجود مساحة بينى وبينها كأن السماء انطبقت على الأرض! نجوم ثم نجوم ولا شىء غير النجوم، لم تكن كتلك النجوم التى تعودت أن أشاهدها فى سماء اليابان، لقد بدت كبيرة الحجم للغاية، وقريبة جدا، وكان بريقها شديدا، تلمع وتبرق بشكل يجعلنى أتساءل كيف أصفها، ولا أدرى هل يمكن أن أقول إنها جميلة! عكفت على مشاهدتها بتعجب شديد، كنت أقف تحت النجوم شديدة اللمعان، بينما صوت حشرجة الحشرات وصريرها يوحى بأن مطرا يتساقط نجوما لا ماء، وكان صوت صرير الحشرات مجتمعا يشكل وحدة موسيقية، فبدا المشهد كأن النجوم تتساقط فوقى وكأن صوت الحشرات بديل لصوت هطول المطر، فوقفت خارج الخيمة أفكر فيما أشاهد وفيما أسمع.

حين خرجت من باب الخيمة

فوجئت بسماء ليل مغطاة بالنجوم

أنا طفل ابن الإنسان

اقف وسط هذا المشهد حيران

حين بدأ الصباح يتنفس خرجت من الخيمة، وشاهدت زوجتى تخرج أيضا من الخيمة، أتعجب كيف قضت ليلتها؟!

* * *

كتبت زوجتى تصف ليلتها:

داخل الخيمة كانت هناك لمبة تتدلى من فوق، وكانت هناك سبعة أسرة، هذه الخيمة للنساء فقط، لهذا كنت فى الخيمة وحدى دون زوجى، كانت البطانية التى أعطونى إياها خشنة جدا، ويبدو أن الحشرات كانت تتحرك بداخل نسيجها الخشن؛ لذا فضلت ملاءة خفيفة بدلا من البطانية. أتعجب ماذا يفعل زوجى الآن؟ ربما يضطره هذا الزحام فى الخيمة إلى أن ينام على الأرض، أتمنى أن يجد مكانا طيبا ينام فيه.

كانت هناك امرأة سورية ربما فى الأربعينات ترتدى ملابس سوداء تجلس على السرير بالقرب منى، كانت تدردش مع امرأة أخرى ترقد قريبا من ركن الخيمة، ثم سألتنى إذا ما كنت أتكلم الفرنسية أم لا، فقلت لها: لا، فقامت المرأة فجأة وتوجهت ناحيتى وأمسكت بيدى وكشفت عن ذراعى، وتفحصت رسغى! تعجبت كثيرا إلا أننى أدركت أنها كانت تريد أن تعرف الوقت ولهذا أرادت أن ترى الساعة فى يدى، فقد اعتقدت أننى أمتلك ساعة يد؛ لذا أخرجتُ ساعتى الصغيرة من الحقيبة وقلت لها: الساعة الآن الحادية عشرة والثلث، بدت المرأة قلقة وكأنها تشعر بالملل، كانت تدخن "الشيشة" التى رأيتها من قبل فى مصر، وكانت أحيانا تنهض واقفة، وأحيانا تذهب ناحية الماء الموجود على الطاولة فتشرب وتعود، وقد حذرتنى من ترك حذائى بالقرب من مدخل الخيمة لئلا يضيع أو يُسرق، وطلبت منى أن أضع حذائى داخل الخيمة، وقد كنت بدورى متعبة جدا فرقدت فى السرير، وبعد مدة جاء صاحب الخيمة وكتب اسمى فى السجل ودفعت p10 بى ، وبعد قليل جاءوا بثلاثة أسِرّة إلى الخيمة، شاهدت امرأة ترتدى ملابس حريرية بيضاء وعقد ذهبى يتدلى من رقبتها تدخل مع طفلها وخادمتين، ربما كانت المرأة سورية، كشفت الوشاح الرقيق، وفكت العقد الذهبى من رقبتها ثم خلعت "البلوزة" وأعطتها للخادم، وبدأت ترضع الطفل ثم تمددت على السرير.

نمت قليلا ثم استيقظت لأننى بدأت أشعر بتقريص فى جسمى! كان الجو باردا قليلا، وكنت قلقة على زوجى؛ لذا لبست الحذاء وخرجت من الخيمة.

كانت النجوم قريبة جدا كأنها ستتساقط فوق رأسى، بينما شعرت ببرودة الهواء تلفحنى، وكان صوت الحشرات أشبه بسقوط المطر.

فى خارج الخيمة شاهدت بعض الصبية الذين حملوا الأمتعة من قبل وهم ينامون على الأرض، حين شاهدتهم على هذا الحال شعرت بأنهم حقا مساكين، وشعرت أيضا بالاشمئزاز من هذا الوضع، حاولت أن أتمشى قليلا حول الخيمة، كان الظلام شديدا، فلم يمكننى أن أتحرك بعيدا، شعرت بالخوف فرجعت إلى الخيمة، شاهدت نور الصباح وقد ظهر خارج الخيمة، وسمعت صوت زوجى يقول: هل نمت جيدا؟ ما زلنا مبكرين، فنحن قبل الساعة الرابعة، غسلت وجهى

ورجّلت شعرى، خاطبتنى فتاتان عربيتان ربما فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرهما باللغة العربية، وهما يريانى يديهما، لم أفهم شيئا ثم أشارتا إلى رأسى، ربما أرادتا أن تعرفا كيف أسرح شعرى، فحين كنت أمشط شعرى جاءت إحداهما وأخذت "البنسة" وحاولت أن تضبط زر حذائها، تعجبت من هذا السلوك الوقح، ورميت بالبنسة بعيدا، فتطلعت الفتاتان بوجه برىء ناحيتى، شعرت بالأسف من أجلهما. "آى"

* * *

كانت هناك أسرة تنام خارج الخيمة، شاهدت فتاتين صغيرتين مستغرقتين فى النوم، كانتا تناما فوق الأمتعة، التقطت زهرة برية، من بين تلك الأزهار التى تظهر وتتفتح فى بداية شهر مايو، إحدى الفتاتين استيقظت ونظرت إلى الوردة التى قطفتها، فنهضت إلى حيث توجد الأزهار والتقطت بعضها. غسلت وجهى بالماء الذى أحضروه لنا، وطلبت طعام الإفطار، فأحضروا طاولة وكرسيا بالقرب من الخيمة، وتناولنا الخبز والشاى، وطلبت البيض المسلوق بينما طلبت زوجتى البيض المقلى ، لكن كان هناك ذباب فى البيض المقلى fried egg فقلت لها هذا بيض بالذباب Fly egg، فضحكت كثيرا.

اشتريت البرتقال هنا قبل أن أذهب للقدس، ما زلت أتذكر البرتقال الذى اشتريته هنا من قبل، شاهدت الفتاتين اللتين أخذتا "البنسة" أى دبوس الشعر من زوجتى تحملان الخيار، ذهبت للبحث عن الخيار فقد كنت أريد شراء بعض الخيار، رغم أن موسم البرتقال قد انتهى فإنهم لا يزالون يبيعون البرتقال، لاحظت أن شكله أصغر من المعتاد، اشتريت ثمانى برتقالات بمبلغ قرشين واشتريت بعض اللوز بقشره بسبعة قروش واشتريت القثاء، الاثنتان بقرش واحد.

الخيمة هى مكان الإقامة للمواطنين هنا، فجميع الناس الذين نزلوا فى الخيمة كلهم من المواطنين المحليين لم أر أى أوروبى، هذا يعنى أننى أقمت فى خيمة الأقارب.

## حيفا (مرة أخرى)

### (١)

فى الثانى من مايو وفى تمام الساعة السابعة وأربعين دقيقة وصل القطار من الشمال، كان قادما من القنطرة، نقل الحمَّال الشاب أمتعتنا إلى عربة القطار، الذى انطلق بنا عبر حقول شالون ناحية الشمال، كان الهواء البارد يدخل إلينا من نافذة القطار، بينما كنت أشاهد الأزهار البرية المنتشرية على جانبى طريق السكة الحديد، أكلنا الخيار الذى اشتريناه من اللد، وأكلنا أيضا الجوز، كان لذيذا جدا، جلس بجوارنا رجل ذو يد اصطناعية مغطاة بقفاز جلدى، يبدو أنه فى الأربعينيات، ذكر أنه من روسيا وأن أباه من أوديسا، لاحظت أن الساعة التى يحملها كانت أرقامها باللغة العبرية، اكتشفت أنه يهودى روسى، وقد فقد يده اليمنى منذ عشرين سنة، حين كان يعمل مهندسا معماريا، وهو الآن يعمل فى "ياتسفا؟" ذكر أن زوجته وابنته تقيمان فى حيفا لهذا هو ذاهب الآن لزيارتهما، أحيانا كانت لغته الإنجليزية غير مفهومة بالنسبة لى، لم أكن أفهم ما يقول حين ذكر لى أن ابنته طبيبة doctor قال dapitir وسألنى كيف نقول أب وأم باللغة اليابانية، وكيف نعد من واحد إلى عشرة باليابانية، وسجل ذلك فى مفكرته مستخدما يده اليسرى، وعرض علينا ما اشتراه من هدايا لابنته: دمية كبيرة جدا لفتاة، كانت الدمية مزخرفة، حين دققت فى الورق الملفوف به الدمية وهو ورق لونه أحمر رأيت بعض حروف الكانجى، وجذبنى حب الاستطلاع للتعرف على المزيد، قدمت له زوجتى بعض الحلوى التى أحضرناها معنا من اليابان من أجل ابنته.

كنت أظن أن القطار قادم من السامرة عبر "سهل مرج عامر" ليصل إلى حيفا، كنت أفكر هكذا إلا أننى عرفت أن هذا القطار قادم من اللد وسوف يتجه بعد ذلك إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى يصل إلى حيفا... كان القطار يسير بين حقول القمح، ثم اتجه ناحية البحر الأبيض المتوسط، كانت هناك مركبات عسكرية كثيرة تحمل أعدادا كبيرة من العساكر، وصل بنا القطار إلى حيفا فى الساعة العاشرة والنصف.

كان القطار المتجه إلى دمشق سيقوم فى الساعة الحادية عشرة، وكان مملوءا بالعساكر والجنود لأن حيفا الآن قاعدة عسكرية بريطانية رئيسية؛ لذا كان الجنود البريطانيون ينتشرون هنا وهناك.

(٢)

فى شهر يونيو منذ ثلاث عشرة سنة انتهيت من زيارة فلسطين، ذهبت إلى حيفا بالقطار، وكنت أنتظر السفينة، وخلال ذلك الوقت، ستة أيام تقريبا، نزلت فى فندق "نصّار" لصاحبه السيد نصار وهو مسيحى سورى، لم تكن زوجته تتكلم الإنجليزية بطريقة جيدة لذا لم يمكن سعيدا بذلك، وها هو فندق نصار لا يزال موجودا لكن جو المدينة تغير، وكنت أظن أنه كبير لكننى الآن أشعر أنه ليس بالفندق الكبير، وقد أعادوا طلاءه وزخرفته!

دخلنا الفندق، رافقنا الخادم إلى الطابق الثانى حيث أمكننا أن نشاهد البحر من غرفتنا، كانت معظم الغرف التى ترى البحر مشغولة بالجنود البريطانيين، كان الهواء العليل يصل إلينا من البحر، فى موعد الغداء ذهبنا إلى قاعة الطعام، قدموا لنا السمك، يا لها من وجبة يندر أن نتناولها هنا، ففى خلال إقامتنا فى القدس، مدة شهر تقريبا، تناولنا السمك مرة واحدة فقط.

على الطاولة نفسها جلس بجوارنا شابان كنت أظن أنهما يونانيان، لكنى عرفت أنهما أرمنيان، أحدهما مدير بنك Otomanne فى القدس، أثناء الحرب تم إقصاؤه من العمل فى البنك، لكنه الآن عاد للعمل فى البنك مرة أخرى، وهذا البنك بنك فرنسى. كنا نرتدى الكيمونو اليابانى، فكانت النساء مسرورات بمشاهدتنا، طلبت إحدى الشابات من زوجتى أن ترسم لها شكل الكيمونو، وقد أخبرناهم أننا سنرجع للقدس ثانية، فقال الأرمينى إنه من الممكن أن نلتقى ثانية، لا أتذكر جيدا سمات هذا الفندق، لكنى تذكرت قاعة الجلوس فى الطابق الثانى، نعم تذكرت كان هناك بيانو صغير، كنت أشعر بالملل من الانتظار، فقد انتظرت ستة أيام، لذا كنت أعزف البيانو بشكل غير جيد، وكانت غرفتى مواجهة للبحر، وكنت طوال الوقت أتطلع من النافذة، وأتذكر أننى اشتريت "مطواة" صغيرة فى حيفا، وما زلت أحملها حتى الآن فقد أحضرتها معى.

بعد تناول الغداء غفونا قليلا، وحين نزلت إلى الطابق الأرضى بعد الظهر شاهدت رجلين على رأس كل منهما طربوش أحمر، أحدهما كان السيد نصار صاحب الفندق، لا يزال السيد نصار يتذكرنى، وهو فى مثل عمرى، لكنه يبدو أصغر منى، ونظرا لأنه تركى فقد أوذى كثيرا، فى وقت العشاء قدمنا السيد نصار إلى زوجته، قدمنا له " مروحة يد يابانية" هدية، وكتابى طائر الوقواق Hototogisu مترجما إلى الإنجليزية، كنت قد وعدته منذ ثلاث عشرة سنة أن أرسل له طوابع بريد يابانية قديمة، لكنى نسيت أن أحملها معى، فاعتذرت له، فقال: لا مشكلة.

فى القدس تمكنت أن أقابل السيد هانسمان، وفى حيفا تمكنت من أقيم فى فندق نصّار، كان هذا من حسن حظى. فى حيفا لا توجد كهرباء، وفيها كثير من الذباب، لاحظت أن الذباب غير منتشر فى القدس، لكنى أعتقد أنه قبل ثلاث عشرة سنة لم أر مثل هذا العدد من الذباب، ربما كان هذا نتيجة للحرب، كنا كلما ذهبنا إلى طاولة داخل المطعم وجدنا الذباب يفترشها؛ لذلك كنا ننتهى من العشاء بسرعة، ونهرب إلى غرفتنا، سمعنا طرقا على باب الغرفة بعد العشاء، فتحت الباب فوجدت ابن نصار ربما عمره خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة، قال لنا: الحمام جاهز، كنا قد طلبنا من السيد نصار أن يجهز لنا الحمام.

حين ذهبت بالقرب من دورة المياه، وجدت غرفة صغيرة، كانت مظلمة وقذرة، وجدنا هناك فقط ماء ساخنا فى صفيحتى جاز، تعجبت كثيرا، لكنى تذكرت سريعا أننى فى حيفا، وتذكرت الملازم ركليف فى القاهرة حين قال لى: الذهاب إلى حيفا مع زوجتك أمر صعب، آسف أتذكر الآن كلماته، وعلى كل حال وضعت الماء الساخن على جسمى ومسحت جسمى ، ثم حاولت أن أنام، وبينما أنا كذلك كنت أسمع صوت أمواج البحر.

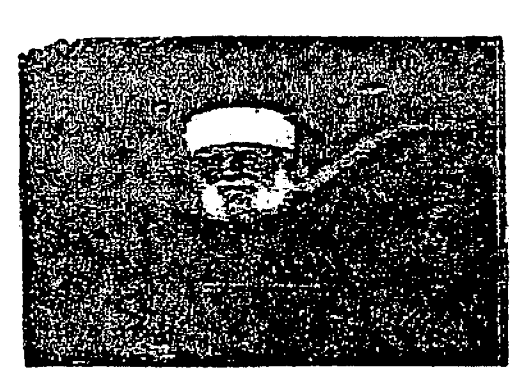
## شيخ البهائية

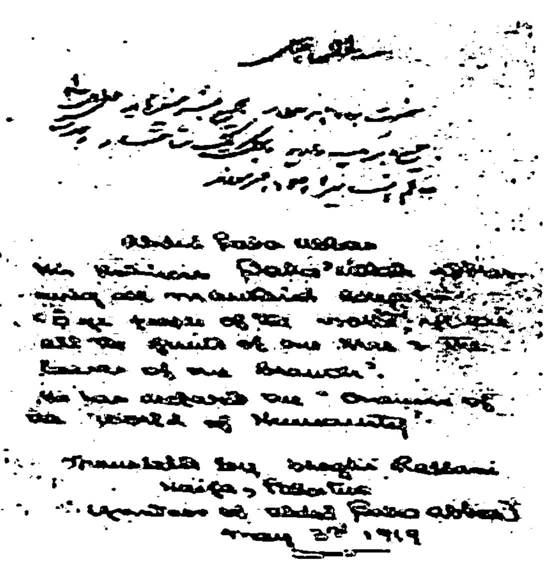
(١)

خلال صيف عام ١٩٠٦م نزلت فى ناسونايا بوليانا (فى روسيا) وقتها أرانى تولستوى Tolstoy العجوز خطابا مكتوبا بالإنجليزية، موقعا باسم عباس أفندى

Abbas Effendi، كان عباس أفندى قد كتب خطابا إلى تولستوى: يشرح فيه كيف يمكن توحيد العالم، وقال تولستوى إن هذا الخطاب مفرح ويدعو للسرور، كان الرجل الذى أرسل هذا الخطاب يعيش فى عكا بمنطقة الشام، وعكا تقع بالقرب من حيفا، ومن المعروف أن المسافة من حيفا إلى عكا تستغرق ساعة ونصفًا بالسفينة، ويمكن الوصول إليها على ظهر الجواد أو الحنطور.

من نافذة غرفتى بالفندق يمكن أن أرى ميناء عكا، فكرت إذا كان عباس أفندى يعيش هناك، فيمكن أن اقابله. ذكر لى تولستوى إن والد عباس كان رجلا نبيلا، وقد طرد من موطنه فارس بسبب معتقداته الدينية، يبدو إن تولستوى كان يريد أن يقدمنى إلى عباس أفندى شيخ البهائية، إلا أن تولستوى مات بعد أربع سنوات، كنت أفكر عن حياتى ومسيرة حياتى، كان لدى فكرة عن البهائية، يقال إن شابا فارسيا يدعى الباب بدأ تكوين جماعة دينية تهدف إلى تحقيق السلام فى العالم، بعد مقتل الباب قام أحد النبلاء ويدعى بهاء الله باتباع هذا المذهب،





شيخ البهائية عباس أفندى

ولهذا طرد من فارس، فقدم إلى عكا فى الشام وذلك قبل نحو أربعين سنة، وحاول الاستمرار فى الدعوة إلى السلام والمحبة بين الناس، ثم بعد ذلك صار عبد البهاء الخليفة الثالث، وعبد البهاء هذا هو نفسه عباس أفندى، أحيانا تظهر صوره فى الصحف، وقد عرفت وأنا فى اليابان أن هناك من يهتمون بالبهائية، إلا أن معلوماتى تقف عند هذا الحد فقط.

هذه المرة رحلتنا ومهمتنا تتركز على القدس فقط ولا هدف آخر لدينا غير القدس، ولا يوجد معى رسائل أو خطابات تعريفية أو رسائل تقدمنى لأناس هنا، لكنى فكرت وبعد مرور ثلاث عشرة سنة وأنا هنا فى حيفا بل شعرت بأننى أريد أن أرى عباس أفندى، نعم يمكن أن أراه.

(٢)

فى صباح الثالث من مايو حين قلت لصاحب الفندق إننى ذاهب لزيارة عباس أفندى قال لى إن عباس أفندى فى حيفا، وليس فى عكا، كما قال لى أيضا إنه يقيم بالقرب منا، وإنه سيرسل معى مرافقا لمصاحبتنا إلى بيته.

فى الساعة التاسعة صباحا كنت أرتدى "البدلة" وأضع قبعة على رأسى، وارتدت زوجتى "فستانا" بنى اللون، كانت قد فصلته عند خياط بالقاهرة، ووضعت حول رقبتها عقدا من الخرز الأزرق.

قام ابن نصار الأصغر بمرافقتنا، ذكر لنا أن عباس أفندى انتقل من عكا إلى حيفا منذ عدة سنوات، وأن بيته قريب جدا من هنا، كان على مكان مرتفع بحيث يمكن مشاهدة ميناء عكا من على البعد، وكان بالبيت حديقة جميلة مملوء بالأزهار، أما البناء فكان على الطراز الغربى.

قابلنا حارس، فذكرنا له أننا نريد مقابلة عباس أفندى، فأرشدنا الحارس إلى الطريق، مضينا بين الأزهار والورود، دلفنا من الباب، كان البيت من الداخل مزخرفا على الطريقة الغربية، كان السقف مرتفعا جدا، وكانت غرفة الجلوس واسعة نحو ٣٠ تتامى، مفروشة بسجادة خضراء، صفت فوقها الطاولات والكراسى والأرائك، جلسنا على الأرائك.

دخل علينا رجل بطربوش تركى فسلم علينا، فسألته:

هل أنت عباس أفندى؟

فقال:

لا أنا أحد مريدى جنابه.

هذا الرجل إيرانى واسمه عزيز الله بن بهادر، تخرج من جامعة بيروت، وهو من أتباع البهائية، قال لنا:

أنتم محظوطون، لأنكم تستطيعون مقابلة جنابه، سوف يقابلكما مثل ابنه وابنته تماما.

نعم هذا شرف كبير لنا أن نقابله، بعد قليل دخل علينا رجل يرتدى جبة على الطريقة العربية وعلى رأسه عمامة بيضاء وله لحية بيضاء.. هذا هو عباس أفندى، عرفت بعد ذلك أنه فى الخامسة والسبعين من عمره، طلب منى أن أجلس عن يمينه وجلست زوجتى عن يساره، سلمنا عليه ، وجهه يميل إلى الحمرة، وعلى وجهه علامات السرور والسعادة.

وطبقا لما قالته زوجتى كان يرتدى قميصا أبيض قماشه شبيه بالقماش الصينى وعلى القميص صديرى من الصوف، وفى قدمه "صندل" أحمر، جلس شاب بطربوش أحمر بالقرب من النافذة، عرفنا بعد ذلك أنه حفيد عباس أفندى، واسمه "ربّانى"، وهو أيضا من خريجى جامعة بيروت كما قال لنا.

لم يكن عباس أفندى يقدر على التحدث بالإنجليزية؛ لذلك كان حفيده يقوم بالترجمة. فى البداية أخبرته أن تولستوى أرانى خطاب عباس أفندى قبل ثلاث عشرة سنة، وكان تولستوى قبل أن يموت يرغب فى أن يكتب عن البهائية، لكنه مات فلم يكمل ما كتب.

بعد ذلك بدأنا نتكلم عن أمور عامة عبر ترجمة الحفيد، لم يتطلع أبدا إلى وجوهنا، كان يتكلم وهو يتطلع أمامه وليس فى وجوهنا أو ناحيتنا، وكان صوته هادئا ناعما، قال:

هناك نوعان من البشر، أحدهم يقوم بنسخ ما قام به الأجداد، وهذا نفسه مثلما يقوم الحمار بتقليد آبائه، وهذا ليس ممتعا أبدا، وليس مفيدا على الإطلاق، والآخر لديه على الدوام أفكاره الخاصة، يحاول الوصول إلى الحقيقة والوصول إلى الصدق والحق، وفى هذا العالم هناك كثير من أبناء الحمير لكن اليابانيين ليسوا كذلك.

حين زار عباس أمريكا التقى أحد اليابانيين، هذا اليابانى سوف يأتى هنا بعد التخرج ، كان عباس أفندى يتكلم والحفيد يترجم، لم يتطلع عباس أفندى إلى وجوهنا أبدا، واستمر فى الكلام هكذا، فسألته:

ماذا يفكر فينا يتعلق بالمسيح؟

قال:

المسيح عيسى هو أحد المرايا التى يمكن للمقدس (الله) أن يظهر فيها.

تحدثت معه عن أبى ، وحين شاهدت لحيته البيضاء تذكرت والدتى، وقال لنا أيضا: النهار دائما منير. ثم قال إنه لا يتعب أبدا... لكنى فكرت أن أوقف الحوار؛ إذ بدا لى أنه لا يمكن الحصول منه على فكرة جديدة مفيدة، وأصبت بخيبة أمل، فقد كنت أريد أن أسمع منه شيئا يثيرنى، طلبت منه أن يكتب شيئا فى الأوتغراف (مفكرتى) فأخذ ريشة وشرع يكتب وصرير الريشة يتردد فى الغرفة كلها... الحروف الفارسية مثل الحروف العربية تكتب من اليمين لليسار، ولا يمكن التمييز بين اللغتين فى الكتابة، لكن ربما وُجِد اختلاف ما.

حين انتهى قام الحفيد ربانى بالترجمة لنا:

يقول حضرة بهاء الله (عبد البهاء عباس) لكل الناس، أيها الناس فى العالم أجمع أنتم جميعا ثمار شجرة واحدة، وأنتم جمعيا أغصان شجرة واحدة، العالم يجب أن يتحد ويصبح وحدة واحدة.

سألت الحفيد كيف نقول بالفارسية: شكرا جزيلا، فقال لى: "خيلى متشكرم" كان نطق كلمة خيلى صعبا جدا، نطق لى عباس نفسه كلمة خيلى ومعناها جدا،

فوقفت وقلت له: "خيلى متشكرم" ووقفت زوجتى وقالت له نفس الشىء فسر كثيرا، وقال بأنه يود زيارة اليابان، فقلت له ربما سيكون الشباب اليابانى مسرورا جدا بلقائكم.

دخل علينا رجلان على رأسهما الطربوش الأحمر، أحدهما كان يدخن الشيشة كما أحضر الخادم بعض القهوة وفناجين صغيرة، بعد أن شربنا القهوة سلمنا عليهم وشكرناهم واحدا واحدا وغادرنا الغرفة.

(٣)

كتب السيد ربانى شيئا فى "أتوجرافى" ثم خرج، أخذنا السيد بهاء إلى الحديقة، قطف بعض الأزهار من الحديقة وقدمها لزوجتى، وطبقا لقول بهاء فإن الجد عنده أربع بنات جميعهن ذهبن إلى أمريكا للدراسة، ثم تزوجن، إحداهن كانت الطبيبة التى لقيتها فى عيد الفصح حين كنا نجلس فى مطعم الفندق فى القدس، وتحدثنا مع بعض النساء، كانت إحداهن ابنته الطبيبة، وهى تقطن بالقرب من هنا. أتعجب لماذا لا يعيش معها هذا الأب العجوز؟! سوف أسأل هذا المساء حين أذهب إلى الفندق.

جاء ربانى مرة أخرى وقدم لنا حلويات دمشقية، كانت مملوءة بالسمن، لكنها كانت لذيذة جدا، ثم قدم لنا منشورات وكتيبات عن البهائية، هناك كثير ممن يؤمنون بالبهائية يعيشون فى أمريكا، وقدم لى عناوين أتباع البهائية أو المؤمنين بها. حين نرجع إلى اليابان سوف نرجع عن طريق أمريكا، وذكر لى أن هناك يابانية مؤمنة بالبهائية اسمها توكيجيرو Tokijiro قلت له هذا اسم رجل، ففكر ربانى قليلا ثم قال: كانت امرأة كفيفة اسمها فئيو Fuyu. بعدها أرانا بطاقة قائلا: هذه من اليابان. كانت هناك صورة على البطاقة، مركز الصورة اليابان، ثم من اليابان يصدر شعاع ذهبى ينتشر حول القارات الست ثم هناك بعدة لغات عبارة: مؤتمر السلام العالمى يجب أن يعقد فى اليابان. ثم عبارة: نور السلام ينبعث من اليابان. وهناك عبارات شبيهة بتلك، وعلى الناحية الأخرى من البطاقة كتب: هناك عشرة شروط تتماشى مع "روح الإنسان الذى يحب السلام". وهى مكتوبة

باللغة اليابانية والإنجليزية، تبدأ بعبارة السنة الأولى للسلام هيوا جان نين" hewa gannen تعجبت كثيرا! يبدو أن هناك طائرا يحلق بسرعة أكبر هنا، فقبل أن أطلق الفكرة كان هناك من أطلقها من قبلى، شعرت بالخجل، لكنى أعدت التفكير بسرعة، الرغبة فى السلام هى كل شىء على كل حال. لقد تم الإعلان فعلا عن أن اليابان يجب أن تكون مركز السلام العالمى، روح اليابان النقية المتجددة صارت واضحة للعيان، ربما هذا ليس من عمل إنسان ما، ربما هناك من قام بهذا من غير بنى البشر، وهو نفسه الذى جعلنا نقابل عباس أفندى شيخ البهائية، فالضوء الذى يسطع على نقطة واحدة لا بد أن يعم وينتشر هنا وهناك، صعدنا من وراء ربانى وبهاء الله إلى حجرة خاصة، كانت حجرة صغيرة مبنية بالحجارة وسقفها منخفض بشكل ملحوظ، ومساحتها حوالى ستة تتاميات، وبها أريكة بسيطة جدا عليها بعض الوسائد، وتوجد طاولة عليها بعض الصحف، وسيجار وكبريت، ولها نافذة صغيرة أمكننى من خلالها أن أشاهد ميناء عكا، الشيخ عباس أفندى يحب هذا المكان لأنه بارد وهادئ، والمنظر من هنا جميل جدا، وهو كثيرا ما يأتى هنا ويجلس ويكتب رسائله، قلت لهما: إن حيفا أفضل مكان لإنسان يحمل أفكارا معينة يتحدث بها إلى الغرب ممثلا عن الشرق. لكن لم تظهر على وجهيهما علامات السرور بما قلته، التقط ربانى لنا صورة خارج الغرفة، ثم نزلنا أسفل، مشينا فى الحديقة، شاهدت صبيين فى عمر العاشرة تقريبا، هما أحفاد الشيخ ووالداهما يعيشان بالقرب من بحيرة طبرية، كانت الحديقة مملوءة بكثير من الأزهار الحمراء والبنفسجية، لم أكن أعرفها من قبل، قطف ربانى بعض أزهار النيلوفر وكذلك الورد البلدى، وجعل منها "باقة "جميلة قدمها لزوجتى، ثم قادنا إلى بستان الفاكهة، شاهدت أشجار البرتقال الصغيرة، ورغم أننا فى بداية مايو فقد شاهدت حبات برتقال صفراء، قيل لى إن الشيخ يحب مشاهدة الفاكهة لهذا يحتفظون بالفاكهة على الأغصان ولا يقطفونها، قلت نعم، فى معظم الأحيان تكون رؤية الطعام أفضل من تناوله، وحين ذكرت هذه العبارة قال ربانى: نعم، مولانا يقول ما قلته الآن. إلا أن طريقة كلام ربانى ووصف عباس أفندى بمولانا وتكراره دائما لكلمة "مولانا" أو "حضرته" أو "جنابه"

لم يكن يريحنى. قال ربانى: من فضلك، خذ بعض هذه الفاكهة. واقتطف بعضها، كانت فاكهة الماندرين ـ اليوسفى ـ مثل الميكان اليابانى، ذكر لى أن هذه الفاكهة أساسا من الصين، شاهدت أيضا أشجار فاكهة "البيوا" الأسكدنيا loquat ثم قال: هذه جاءت من اليابان. شاهدت "كابينة" صغيرة فى ركن الحديقة، كانت مخصصة لصناعة النبيذ، الشيخ عباس أفندى شيخ البهائية نباتى، يفتقر كثيرا إلى النوم لذا فصحته ليست جيدة.

حين خرجنا من الحديقة إلى البوابة كان عباس أفندى لا يزال يجلس على أريكة مع عشرة أشخاص يلبسون جميعا الطرابيش الحمراء، فسلمت عليه مرة أخرى ثم ودعته وودعت الجميع ورجعنا إلى الفندق.

(٤)

قدم لنا السيد نصار ونحن على مائدة الغداء جنديا بريطانيا ورجلا سوريا يعيش فى بيروت، أما الجندى البريطانى فهو يعسكر فى معسكر يقع بين اللد وحيفا ويعيش فى إحدى القرى، وهو مهتم بالأنثربولوجى والأركيولوجى، عرض علينا قطعتين نقديتين، عملة قديمة اكتشفها فى تلك القرية القريبة من المعسكر، كانت صورة الإمبراطور الرومانى واضحة على وجه العملة، قلت له إن الدعاة إلى المسيحية ليسوا هم أمثال يوحنا المعمدان؛ بل كانوا من الرومان [٨٠]، وفى نفس الوقت يجب أن يكون البريطانيون هم الدعاة لـ"عودة المسيح" حين عبرت عن هذه الفكرة انشرح الجندى وغطى السرور وجهه، وقدم لى بطاقة تحمل اسمه وسألنى: متى تأتى إلى بريطانيا، فأجبته ربما نتناول عشاء الكريسماس فى لندن، جعلته إجابتى هذه يتعجب؛ لأن هذا يعنى أن زيارتنا للندن ستكون بعد وقت طويل جدا، وذكر لنا الرجل السورى أنه يوجد من يترجم رباعيات عمر الخيام إلى العربية وهو يقيم فى هذا الفندق الآن.

---

(٨٠) ربما أراد المؤلف الإشارة إلى قصة هيرودوس أنتيباس الذى أمر بقتل يوحنا المعمدان (نبى الله يحيى عليه السلام) الذى بشر بقدوم المسيح قائلا: توبوا، لقد اقترب ملكوت السماء. وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم. فى قوله تعالى متحدثا عن زكريا عليه السلام: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله...﴾ (آل عمران/ ٣٩).

عند الساعة الثانية زارنا ربانى وبهاء الله فجلسنا فى قاعة الجلوس بالطابق الثانى، وشربنا الشاى مع الحلوى، وأعطيتهم بعض الحلوى اليابانية ليقدموها إلى الشيخ عباس أفندى وسألت لماذا لا تعيش معه ابنته فقال بهاء الله، فى هذه المنطقة جرت العادة ألا يرغب الرجل فى أن يشاهد الغرباء نساء عائلته. عندئذ لم أشأ أن أسأله أكثر من ذلك، قال ربانى: حين زاروا بريطانيا مع الجد عباس أفندى ألقى خطبة فى أعضاء حركة "سفرجيت Suffragette"(٨١) قال فيها إن حق المرأة فى التصويت فى الانتخابات لا يزال أمرا مبكرا جدا، ولم يسعد الحضور بذلك، لكنه قال: ورغم ذلك فإن أنثى الحيوان مع الأطفال أقوى من الذكر. عندها سر جميع الحاضرين بهذه الكلمات، وبعد الخطبة أهداه بعض الحاضرين الهدايا التذكارية من الذهب والفضة والنحاس.

وأضاف: فى فارس توجد حرية الدعوة، وهناك كثير من مريديه فى فارس أيضا، وقال لى ربانى : أريدك أن تشاهد ما يتعلق بمجموعة الأديان، المسلم والمسيحى واليهودى والبوذى. بعد ذلك عرضت عليه كتابى ومجلتى "شينشون" الربيع الجديد، ومذكرات رحلة الحج إلى القدس "جونرئى كيكو"، وقد تعجب بهاء لأن أبى صار مسيحيا حين كان فى الثامنة عشرة من عمره، وقال بهاء: العواجيز يصبحون عواجيز ولا يغيرون عاداتهم ومعتقداتهم بسهولة، لهذا من الصعب عليه أن يغير من نفسه، بدا لى بهاء شابا يتصف بالذكاء والفهم، لم يتزوج كل من بهاء وربانى بعد.

زرت تولستوى قبل ثلاث عشرة سنة، وحين أردت أن أتحدث عن هذا لاحظت أن ربانى لا يهتم بالأمر، ولا يريد أن يستمع لحكايتى، لأننى فى ذلك الوقت كنت أفضل رؤية تولستوى أكثر من رؤية جده.

تحدثنا عن الإسلام قليلا، قلت له: الإسلام الآن يواجه مشكلة. قال ربانى: المسيحية والمسيحيون أيضا.

---

(٨١) حركة نسائية فى بريطانيا لنساء من الطبقة المتوسطة تشكلت لرفع المعاناة وتحسين أوضاعهن. (انظر ويكيبيديا).

تذكرت ما قاله كارليل Carlyle[٨٢] "إذا جاء المسيح إلى لندن، ماذا ستفعل لندن من أجله؟ يمكننى أن أقول ربما سيدعوه بعضهم على الأقل إلى العشاء، معظم القدماء كانوا يركزون على شىء واحد، وأتساءل أى دولة من الدول المسيحية يمكن أن تكون دولة مسيحية حقيقية؟!"

وقلت له أيضا: إن الشكل فقط لا يعنى شيئا، بل يجب أن يرتبط بالمضمون، بالروح؛ إذ لا يمكن مثلا إنقاذ الهند بالبوذية، كما لا يمكن إنقاذ بلدان الشرق الأوسط بالإسلام، وهكذا أيضا لا يمكن إنقاذ الدول الغربية بالمسيحية، نحتاج للتعرف على الأهمية الحقيقية للأمور، كل أنماط الأديان يجب أن تمضى مع العصور القديمة، كما أن هناك أنماطا جديدة من الأديان تتماشى مع العصر الجديد، وتسطع كما تسطع الشمس.

رجع كلاهما فى حوالى الساعة الرابعة بعد أن عرفانى على المترجم السورى الذى ترجم رباعيات الخيام[٨٣]. تحدث معنا الرجل الفرنسى الذى يجلس بجوارنا باللغة الإنجليزية، وذكر أنه كان جنديا سابقا، وكان يعيش فى اليابان قبل حرب اليابان وروسيا.

(٥)

قمت بعد ذلك بقراءة كتيب "البهائية"، يعرض الكتيب بطريقة جيدة وجذابة ما نريد أن نقوله وما نرغب فى التعبير عنه فيما يتعلق بضرورة جعل البشرية وحدة واحدة؛ إذ لا يجوز أن نقسم البشرية إلى أجناس منفصلة، ويجب أن نتحد معا، وتتحد الأديان جميعها معا لخير البشرية، إلا أن هذا النداء لا يصدر عن البهائية فقط، بل هذه رغبة إنسانية طبيعية، وقد ذكر المفكر البريطانى الأديب كارورو Caruaru أن العرب يشبهون الإيطاليين، وأن الإيرانيين مثل الفرنسيين، أشعر أن البهائيين الذين قدموا من بلاد فارس قد هذبهم الدين، ويتمتعون بحس راق

(٨٢) هو توماس كارليل، ولد فى ديسمبر ١٧٩٥م ومات فى فبراير ١٩٨١م كاتب مقالات إسكتلندى، ومؤرخ ومدرس أيضا.

(٨٣) لم يرد ذكر اسم المترجم الشامى، ربما قصد وديع البستانى أو أحمد الصراف؟! طبع أحمد الصراف ترجمته سنة ١٩٣١م.

وتذوق للشعر والأدب، والثلاثة الذين قابلتهم الباب وبهاء الله وعباس كلهم جميعا مثل قصيدة شعرية، روحهم شرقية ومشاعرهم شرقية، يتمتعون بذوق شرقى خاص، ربما يحاول بعض علماء اللغة والأدب يوما ما أن يقارنوا بين اللغتين الشاعريتين: اللغة الفارسية واللغة اليابانية، فالإيرانيون واليابانيون ليسوا بعيدين بعضهم عن بعض، وربما بينهم أيضا نوع من التفاهم، بل التجانس، فمن اتبعوا تعاليم زرادشت وجدوا فى الفترة نفسها، التى عاش فيها اليابانيون الذين ورد ذكرهم فى الكوجيكى، والآن هناك حركة فى غرب آسيا وفى شرق آسيا مع بداية القرن العشرين وهذا ليس عجيبا. وعلى كل حال فالحقيقة أن الملونين يتعرضون للتمييز والاحتقار من جانب الجنس الأبيض ، ووسط هذه الظروف فإن شيخ البهائية عباس أفندى يفضل دينا واحدا لكل الناس، وهو لا يرفض العلوم ولا يرفض التقدم الحضارى، ورغبته تركز على الوحدة الروحية للبشر فى العالم، وهو يعيش فى عكا، التى نزل فيها الصليبيون أول مرة، ويزور أحيانا أمريكا وأوروبا، ويريد أن يوحد ما بين الشرق والغرب، إلا أن ما أدركته أن الرجل فى حد ذاته ضعيف لا يتمتع بالقوة، وهو الآن فى الخامسة والسبعين من عمره. حين شرح البهائية كان واضحا ومتمكنا، لكنه هو نفسه ليس واضحا، بل هو مثير للشك، وأنا نفسى عجزت عن فهم هذه النقطة، أظن أنه لم يمر بمرحلة المعاناة بعد، يقول الناس إن أباه كافح وكد وتعب كثيرا وعانى من المشاكل الكثيرة، لكن الابن لم يمر بعد بمرحلة المعاناة، ينقصه الشعور بالألم؛ لذا فهو ليس قويا مائة بالمائة، ينقصه امتلاك القوة، لا أعتقد أن المسألة مسألة العمر أو السن، بل المعاناة، يجب أن يتعرض للصلب، حتى تصبح شخصيته قوية، فهو لا يتمتع بقوة الشخصية بما فيه الكفاية الآن، هذا ما أظنه.

طبقا للكتيب فإن تعاليم البهائية الأساسية مثل تعاليم السيد المسيح، يُقال إن المسيح جاء حين كانت البشرية مثل الطفل، بينما البهائية جاءت حين شبَّت البشرية ونضجت وتطورت... لقد وضع باولو نفسه ذات مرة على الصليب الذى صلب عليه المسيح، لكن عباس أفندى سرق إنجازات ألف وتسعمائة سنة الخاصة بالمسيح، فقد جاء وجلس فقط بسهولة على هذه الإنجازات، ويتصرف فيها كما

يريد ويحب، ما قيمة ما يدعو إليه هذا الرجل بالنسبة لما دعا إليه المسيح؟ إن الوقت كفيل بالإجابة عن هذا التساؤل، شعرت فجأة بأننى أريد أن أعنفه وأن أنتقده، إذا لم تشرق الشمس يكون الناس بحاجة إلى كوكب الزهرة، أو أن الناس بحاجة إلى كوكب الزهرة قبل أن تشرق الشمس؟! نعم، إذا قال البريطانيون إنهم العمال الذين يمهدون طريق السلام فإن عباس أفندى يمكن أن يكون الشخص الذى يحمل الشعلة للعمال الذين يمهدون هذا الطريق.

أعتقد أن من أهداف البهائية توحيد البلدان الإسلامية، مثلما أُرسل محمدٌ - ﷺ - ذات يوم رسولا لتوحيد أهل الصحراء، وأيضا مثل كونفشيوس الذى رقق من مشاعر اليابانيين وهذبها، يجب على البهائية أن تجعل مشاعر المسلمين رقيقة، غير عدائية. عباس أفندى لا يحمل بداخله شيئا من المعاناة، لا يحمل بداخله معاناة الصلب، والبهائية ليس لديها قضية أو معركة أو نزال من نوع ما، البهائية نوع من العقيدة، وهى مثل حيوان تم خصيه، بهاء الله كان قد طرد من فارس ذات مرة، وعباس أفندى لم يرجع إلى فارس بعد، "شكا"[٨٤] ولد فى الهند، والمسيح يهودى، وسقراط يونانى وكوشى (أى كونفوشيوس) صينى، ومحمد جاء من الصحراء، أما البهائية فهى تشبه شبحا فى سماء جميلة، إذا أشرقت الشمس فلا حاجة لكوكب، فالبهائية فقط حتى شروق الشمس ثم تختفى، الآن الشمس تشرق فى اليابان، التى تملك تاريخا يمتد لألفى عام، والآن بعد عملية الإحياء والتجديد لدينا حالة من الشروق، تجعلنا لا نتردد فى أن نلقى كوكب الزهرة بعيدا، المسيح جاء بعد يوحنا المعمدان وهو أستاذ المسيح، والمسيح أول أتباعه وطبقا للتراث اليهودى الرسول إيليا سوف يأتى أولا قبل "المشيح" المسيح تعمد أمام يوحنا، بعد ذلك عرف يوحنا دور المسيح ثم مات.

ظهر جبل الكارمل هناك ناحية البحر حيث توجد حيفا، هنا ذات مرة جعل الرسول إيليا المطر ينزل على الجبل، وترك كثيرا من الكتابات عما فعل، هنا وسط جبل الكرمل يعيش شيخ البهائية عباس أفندى حزينا، يمكن أن نقول إنه

---

(٨٤) يقصد بوذا الذى يطلق عليه فى اليابان "شكا" Shaka.

مثل الرسول" إيليا"(٨٥) عباس هو إيليا الثالث بالنسبة للبهائية، إنه يريد أن يحرك اليابان، إلا أن قائد اليابان يجب أن يتحدث من اليابان إلى الرجل الذى يعيش فى جبل الكرمل: أيها الشيخ العجوز ... أحسنت وأجدت، الآن الشمس مشرقة فى اليابان، عليك أن تعود إلى فارس بأسرع ما يمكن، من فضلك علم هؤلاء أصحاب الطرابيش الحمراء، نريدك حقا أن تعلمهم.

## الناصرة

### (١)

اليوم هو الرابع من مايو، يوم سفرنا إلى الناصرة بالحنطور، بعد تناول طعام الإفطار بدأنا نستعد للخروج، حين ذهبنا لغرفة الجلوس وجدنا السيد نصار مع زوجته وابنتيهما وابنيهما، وأخت زوجة نصار الصغرى، لقد تجمع كثير من الناس حوله، فالسيد نصار صار عجوزا، وقد كبر أولاده، إلا أن الزوجة لا تبدو عجوزا، قلت لها: أنت ما زلت شابة؟ هل لديك سحر خاص يعينك على ذلك؟ إلا أنها لم تفهم دعابتى فلغتها الإنجليزية ليست جيدة.

اليوم هو يوم الأحد، كانت الابنة الكبرى ترتدى ثوبا حريريا، الابنتان تخرجتا فى مدرسة فى بيروت، وهما تتكلمان اللغة الإنجليزية قليلا، كانت زوجتى تستطيع التفاهم معهما مستخدمة كلمات إنجليزية قليلة، أفصحت البنتان عن رغبتهما فى مشاهدة الملابس اليابانية الحريرية الجميلة، قالتا لزوجتى كيف يمكن شراء مثل هذه الملابس، فقالت زوجتى خالتكما تعمل خياطة يمكن أن تصنع من قماش الكيمونو "بلوزة"، بعد ذلك قمت بتسجيل مشاعرى فى سجل الفندق كتبت:

---

(٨٥) إيليا من أنبياء اليهودية، ورد ذكره فى سفر الملوك الأول من ١٧ إلى ١٩، والثانى ٢، كما ورد ذكره فى العهد الجديد عند تجليه ليسوع، ويعتقد أنه سيأتى قبل المجىء الثانى للمسيح عليه السلام نفسه، وفى النص العبرى القديم يقال له أيلياهو، واسمه فى اليونانية إيلياس، ويعتقد أنه هو الاسم نفسه الذى ورد فى القرآن فى سورة الصافات ١٢٣ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ إشارة إلى أنه من المرسلين، وكان إيليا قد تجلى ليسوع حين صعد الجبل ليصلى مع بطرس ويعقوب بن زيدى ويوحنا كما ورد فى الإنجيل.

"إنه مما يثلج الصدر أن آتى بعد ثلاث عشرة سنة من أقصى الشرق من اليابان إلى هنا إلى حيفا لأقيم مرة أخرى فى فندق نصار، وأجد جميع المضيفين والمضيفات يعيشون مع أسرهم فى سعادة وهناء، رغم المصاعب والمآسى التى خلفتها الحرب الأخيرة، أدعو الله أن يوفقهم أكثر وأكثر".

كان السيد نصار سعيدا جدا، أهدانا مفرشا من القماش الرقيق الجميل، وظل السيد نصار يتحرك هنا وهناك يهتم بنا وقدم لنا خطاب توصية للمكان الذى سنقيم فيه فى دمشق، كما قدمنا أيضا إلى أقاربه الذين يعيشون فى دمشق، ثم جاء الحنطور، فودعنا كل من فى الفندق، وركبنا الحنطور فى الساعة التاسعة صباحا.

(٢)

كانت عربة الحنطور التى ركبناها "خصوصى" تجرها ثلاثة خيول، وضعوا عند رقابها عقودا من الخرز الأزرق، هذه العربة فى الأصل "حنطور عام" أى يمكن لأى شخص أن يركب فيه ويدفع الأجرة عن نفسه لكننا دفعنا أجرة جميع الركاب لنجعل هذه العربة خاصة بنا فقط أو كما يقولون "مخصوص" لنا فقط، كان مع "السايس" الذى يسوس الخيل مساعدا يقوم بتقديم العون له ويهتم بنا أيضا.

مرت العربة عبر السوق القذر، ثم مضينا عبر ضاحية المدينة، على طول خط السكة الحديد الممتد إلى دمشق، ربطت زوجتى باقة الورد التى قدمها لها عباس بخيط وعلقتها فى ركن الحنطور، إلا أن الحنطور كان كلما يهتز ويتأرجح يجعل الورد يسقط علينا، فكنا نحمل باقة الورد ثانية ونربطها مرة أخرى، كان الطريق مملوءا بالحجارة والحصى، وهو يقع بمحاذاة أسفل جبل كارميل، كنا نشاهد النسوة ينزلن من فوق الجبل حاملات الحطب وأغصان الأشجار الجافة على رءوسهن، كنت أشاهد أشجار التوت بأوراقها الخضراء، ووسط هذه الخضرة أيضا كنت أشاهد أزهار الرمان، كانت حقول عكا مملوءة بالأزهار والورود مثل أزهار الخشخاش وأزهار الأقحوان، وبين هذه الأزهار كانت سنابل القمح تتمايل مع نسمات الهواء، بينما كانت هناك حشرات تصدر صوتا مثل صليل الجرس وسط هبوب الهواء البارد.

وسط آلاف الأشجار البرية

تهتز سنابل القمح وتتمايل وسط حقول عكا

والحشرات الصغيرة تصدر صليلا كصليل الأجراس

فى صباح شهر مايو

أوقفنا شاب يرتدى زيا عسكريا وعلى رأسه طربوش تركى، وبدأ يتحدث مع سايس الحنطور، بعدها صعد إلى العربة وجلس، ضربت كتف السايس وقلت له:

هذا مخصوص.

فقال:

فقط إلى مكان قريب.

قلت:

حسنا!

بدا الجندى الشاب شبيها لصديق لى كان جنديا أيضا ومات بسبب فقر الدم، مررنا بجوار نهر كيشون kishion الصغير، ذات مرة قام الرسول إيليا بقتل الآلاف من عبدة الأصنام، وألقى بأجسادهم بعد قتلهم فى هذا النهر، نزل الجندى الشاب فى هذا المكان ولم ينطق بكلمة، ومضى فى طريقه، بدأ الحنطور يمضى على طريق صاعد على تلال، شاهدت الأزهار والورود التى تفتحت وزاد جمالها، حين تطلعت خلفى شاهدت البحر عند عكا أزرق صافيا.

صاعدين إلى الهضاب والمرتفعات

المملوءة بالأزهار البرية ذات الألوان الوردية

بحر عكا من ورائى، من خلفى

بدا بلونه الأزرق الجميل

لا أعرف أسماء هذه الأزهار، لكنى كنت أشاهد كثيرا من الأزهار البيضاء، بدأت أبحث عن كلمة أبيض فى قاموس اللغة العربية والإنجليزية، سألت الشاب

مساعد السائس وقلت له "أبيض زهرة" لم يجبنى ولم يقل شيئا بل أطرق برأسه، حاول أن يلتقط هذه الزهرة فقلت له: "حاجى" أردت أن أمنعه، ومع هذا يبدو أنه لم يفهم، ولم يتوقف عن قطف الوردة، قام بقطف الكثير من الأزهار، ووضعها فى الحنطور. كان صوت الحشرات يصلصل كالجرس، بينما الفراشات البيضاء كانت تتطاير هنا وهناك، والسحاب يمضى ببطء على صفحة السماء، وكانت هناك عصافير وبلابل وطيور أخرى صغيرة تحلق فى الفضاء. جو يبعث على الراحة، أتعجب وأتساءل أين أنا الآن؟! هل أنا فى "موساشينو" أو فى مسقط رأس زوجتى "ميزوماتا"؟![٨٦] آه يا له من جو يوحى بالذكريات! أفقت فنحن الآن ذاهبون إلى الناصرة! لكن شعورا يخامرنا بأننا ذاهبون إلى بلدتنا، إلى مسقط رأسنا، تماما كما لو كان العريس ذاهبا إلى داره مع عروسه لأول مرة بعد زواجه، أو كما لو كان الابن المدلل كبر ثم عاد إلى بلدته مع زوجته، شعرت كما لو كنا نقوم بمثل هذه الرحلة.

بعد أن استقمنا على التلال بدأ الحنطور ينزل إلى سهل مرج ابن عامر[٨٧] .

كنت أشاهد منظر حقول القمح والشعير بشغف شديد فى الوادى الواسع، وقطعان البقر وقطعان الخراف السوداء، كما كنت أشاهد خيام البدو المنتشرة هنا وهناك، كان وجه البقر أبيض بينما الجسم برتقالى أدكن يميل إلى اللون البنى، مرت بقرة بجوار الحنطور الذى كان يمضى فى طريقه عبر هذه الحقول الهادئة.

**الحنطور يجره ثلاثة جياد**

**حول عنق كل منها عقد من الخرز الأزرق**

**يمضى الحنطور عبر حقول سهل مرج ابن عامر فى الرابع من مايو**

---

(٨٦) يشير المؤلف إلى مسقط رأسه ومسقط رأس زوجته، موساشينو غرب مدينة طوكيو وميزوماتو منطقة بالقرب من طوكيو أيضا.

(٨٧) ذكره المؤلف باسم Esdraelon ويطلق عليه سهل مرج ابن عامر أو سهل زرعين، ويقع بين منطقة الجليل وجبال نابلس (التى يطلق عليها السامرة Samaria) فى شمال فلسطين المحتلة، وهو على شكل مثلث أطرافه حيفا وجنين وطبريا، ويطلق عليه بالإنجليزية Vally of Esdraelon, Pain of Esdraelon, ويقال له أيضا Jezreel ويشتهر بحقول القمح.

بينما سيقان القمح فى الحقول تتموج مع هبوب الرياح المنعشة

وظلال السحاب تمضى عبر السهل الممتد

والبقرة تسير تحرك وجهها الأبيض وتنظر إلينا

فى حقول سهل مرج ابن عامر

تفقد أعواد القمح تدريجيا لونها الأخضر

(٣)

بعد مدة توقف الحنطور عند قرية صغيرة يسمونها "جيده" Jeide كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ظهرا، بدأت الجياد الثلاثة ترتوى بالماء وتأكل وجبتها المقررة، وبعد أن أكلت وشربت بدأت تتمتع بتحريك وجهها يمينا ويسارا فى الماء، التقط "السايس" رغيفا من الخبز الكبير المدور، وتبعه مساعده وبدآ يأكلان الخبز مع الجبن، أحاط بنا أربعة أطفال من أطفال القرية، وبدأوا ينظرون إلينا كما لو كانوا يريدون شيئا من "السايس". فأعطاهم بعض الخبز، أما نحن فالتقطنا لفة من أوراق الصحف كان بها خبزنا، وكان معنا بيض مسلوق وشريحتا لحم محمر، وبرتقالتان، كان السيد نصار قد أعدها من أجلنا، جاء إلينا كلبان ذكر وأنثى، أعطيتهما لحم الخروف، كان معنا بعض الحلوى فأعطينا قليلا منها للأطفال، فأخذوها دون توقع وغمرهم السرور والفرح، وسارعوا بالتهامها، أشارت زوجتى إلى إحدى الفتيات فنظرت إليها، وجدتها قد رسمت وشما على ذقنها، قدم إلينا ولدان آخران لكن الحلوى كانت قد انتهت للأسف، وضعنا الزبالة كلها: قشر البيض وحواف الخبز، وقذفنا بها فى مكان بعيد، فتبعها الأطفال وفتحوها، وحين لم يجدوا فيها شيئا بدت على وجوههم علامات خيبة الأمل.

عرفنا بعد ذلك أن الناس هنا عانوا وقاسوا كثيرا أثناء الحرب، وبخاصة فى منطقة لبنان، كان هناك قرى مات أهلها بسبب الجوع، هؤلاء الأطفال لم يتناولوا مثل هذه الحلوى منذ سنوات، كانوا يركزون تماما على مضغها كما لو كانوا سيستمرون فى مضغها إلى ما لا نهاية.

شاهدت من على البعد شجرة ضخمة كان يجلس تحتها خمسة أو ستة جنود بريطانيين، يبدو أنهم كانوا يأخذون قسطا من الراحة، قدم إلينا أحدهم وهو جندى شاب وتحدث معنا قليلا، ذكر أن قاعدتهم موجودة فى القرية التالية؛ لذا جاء هنا ليأخذ قسطا من الراحة، فاليوم هو يوم الأحد.

**حين توقف الحنطور، حين بدأنا نتاول الغداء**

**قدم إلينا أطفال وكلاب**

**فى هذه القرية أحاطوا بنا**

**بينما الجنود كانوا يحملون غطاء الرأس العسكرى**

**يضعون فيه ما التقطوه من أزهار برية**

**إجازة الجنود فرصة لمشاهدة الأزهار**

كانت هناك عربتا حنطور قادمتان من الناصرة، توقفتا فى هذه المنطقة لتأخذا قسطا من الراحة فهذه المنطقة تقع وسط المسافة بين حيفا والناصرة.

(٤)

الآن الساعة الواحدة بعد الظهر، بعد أن غادرنا قرية "جيده" Jeide مضينا عبر الحقول، شاهدت كثيرا من المساجد بين تلال كرمل، وكان يمكننا أن نشاهد جبال السامرة (نابلس) فى الناحية الجنوبية، بعد مدة شاهدت قرية بيوتها من الطين، ذكر السائق أن اسمها قرية "جيباتا".

**جبال السامرة بدت وسط الضباب**

**وحقول القمح والشعير تترامى**

**بينما ظلال السحب تمر من فوقها**

بدأ الحنطور صعود التلال من جديد، كانت العربات العسكرية تمر بنا، كانت هذه العربات قادمة من القاهرة، قول عسكرى ضم أكثر من ثلاثين عربة، ولأن

اليوم هو يوم الأحد فقد كانت جميعها متجهة إلى الناصرة حيث سيقضى الجنود عطلة الأسبوع، مرت بنا بعض العربات، لم نعرها اهتماما فى البداية إلا أننى بدأت أحييهم قائلا: مساء الخير. كما بدأت ألوح للجنود بيدى، ظهر السرور على وجوه الجنود حين بدأت ألوح لهم بيدى، ومن ثم بدأوا يتصايحون ويرفعون أيديهم ويبتسمون ويرددون "طاب يومكم" وغيرها من التحايا المعتادة، بينما كانوا يمرون بنا.

كنا فى بداية مايو، إلا أن الجو اليوم بارد إلى حد ما، غطيت نفسى بمعطف صيفى، وزوجتى غطت نفسها بوشاح، مررنا بقرية موحشة، لا أحد يعيش فيها على ما يبدو، مر الحنطور بنا سريعا من هذه القرية ووصل إلى واد واسع، أمكننى أن أرى بوضوح تام سهل مرج ابن عامر Esdraelon صفقنا بأيدينا فرحا... كم كان المنظر جميلا! فالوادى مملوء بألوان متنوعة، اللون الوردى واللون الأصفر لون الرمال، ألوان مختلفة بدرجات مختلفة بين الأخضر والأصفر، فضلا عن لون سيقان القمح، بدت الألوان مرتبة ترتيبا بديعا، وكانت زاهية جدا، لم تتوقف زوجتى عن التعبير عن إعجابها بهذا المنظر، بل قالت لى: أنا لم أشاهد مثل هذا المنظر فى حياتى من قبل. ورددت هذه العبارة أكثر من مرة، وأضافت: لقد جئنا بالحنطور، وكان هذا أفضل خيار، يقول الناس إن حقول مرج ابن عامر هذه هى مخزن حبوب فى فلسطين، وتشكل مثلثا من جنين إلى حيفا ٢٤ ريا، وقد تكون المساحة عبارة عن هضاب وسهول ومرتفعات وتلال، لكن حين نشاهدها من الجبل تبدو مثل الصينية المدورة. فى الجانب الشرقى هناك جبل هيرمون والجليل وجبل الأردن، وكلها تبدو زرقاء إلى حد ما، وفى الجنوب هناك جبال السامرة، وعند أقدام الجبل توجد قرية جنين البيضاء. منذ ثلاث عشرة سنة قضيت ليلة فى جنين، ثم مضيت عبر الحقول التى تؤدى إلى الناصرة، حكيت هذه القصة لزوجتى، وفجأة بدأت زوجتى تضحك ثم أشارت إلى منطقة فى أسفل التلال، حين نظرت إلى أسفل بدأت أنا أيضا أضحك، فقد شاهدنا طابورا من النمل، لم يكن بالطبع نملا لكنه كان طابورا من الجمال، من هنا كنا نشاهد قافلة الجمال كأنها قافلة نمل تتجه ببطء ناحية حيفا، لم نتمكن من مشاهدة محطة آفور Afour بوضوح فهى محطة صغيرة.

حقول مرج ابن عامر مملوءة بالألوان

البنفسجى والأصفر والأخضر الفاتح والأصفر الغامق

يوجد لون أبيض بالقرب من حقل عند أقدام الجبل

هناك تقع قرية جنين التى اقمت فيها من قبل

قلت لزوجتى: بعد أن نقيم فى الناصرة يمكننا العودة إلى هنا ثانية. كنا نمضى عبر حقول السهل الممتد، وبعد مدة شاهدت جبلا، ذكرت لزوجتى أن أهل الناصرة ألقوا بالمسيح من فوق هذا الجبل، واقترينا رويدا رويدا من الناصرة، كنت أشاهد أشجار الزيتون والتين الشوكى، والبيوت الطينية، كما كنت ألمح النساء يمشين بملابسهن النظيفة الجميلة، فاليوم يوم الأحد، أمام أحد البيوت كان هناك شاب من أهل المنطقة بطربوش أحمر، أوقف الحنطور يريد أن يركب، لكن "السايس" أراه ورقة، وبدأ "السايس" يتحدث معه بصوت عال وصل إلى حد الصياح والزعيق، وبدأ الشاب ذو الطربوش يصيح أيضا ويزعق، وانضم إليهما مساعد "السايس"، وتجمع الناس، لم أكن أفهم ما يدور، ولا ماذا يقولون، ربما كان "السايس" يخبرهم بأن هذا الحنطور مخصوص ومن ثم لا يسمح لهذا الشاب ذى الطربوش بالركوب معنا، وتدخل ثلاثة رجال أو أربعة وفضوا النزاع، ثم تابعنا سيرنا، ثم توقف الحنطور فى الجزء الجنوبى عند نهاية المدينة أمام مبنى مثلث الشكل، كان هذا هو فندق جيرمانيا Hotel Germania.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر، حين فتحت الباب ظهر لى رجل بطربوش أحمر، حمل أمتعتنا، وصعد بها إلى الحجرة التى سنقيم فيها، كانت فى الركن الجنوبى الغربى ورقمها أربعة، أعطيت السائق ٣٦٠ قرشًا بإضافة إلى ٥٠ هبة من عندى، فسر سرورا عظيما وقال لنا: إنه يمكنه أن يعود بنا ثانية أو ينتظرنا أيضا. فقلت له: سوف نبقى هنا نحو أسبوع، لهذا سوف نتدبر الأمر بأنفسنا بعد ذلك.

## فندق جرمانيا Hotel Germania

(١)

احتلت القدس من قبل القوات البريطانية فى ديسمبر ١٩١٧م، بينما احتلت القاهرة فى عشرين سبتمبر١٩١٨م، هذا يعنى أنه قبل وصولنا بثمانية أشهر دارت معارك دامية، يقولون إن فى حجرتنا هذه أقام جنود ألمان، يتضح من اسم الفندق أنه فندق ألمانى، صاحب الفندق يدعى هيزل هيزلشويرت Heselschwerdt وقد مات مريضا، بينما مات أخوه فى فرنسا، زوجة هيزلشويرت Heselschwerdt تدعى ماريا وهى فى الثلاثينيات من عمرها، ولديها طفلتان إحداهما فى الخامسة والأخرى فى الثالثة، الأولى تدعى إينوفولكيه والأخرى تيودا، أما التى تدير الفندق الآن فهى شقيقة هيزل شويرتس Heselschwerdt وتدعى فريدا Frida، تبدو فى الأربعينيات من عمرها، ولديها خادمتان ألمانيتان، وثلاث خادمات من هنا من أهل البلاد، كما يوجد موظف محلى أيضا طويل القامة، لا يفارقه الطربوش الأحمر، وهو فى الثلاثينيات من عمره، لفت نظرى بطوله الفارع، كما كانت زوجته أيضا تعمل فى الفندق، هؤلاء هم جميع موظفى الفندق، أما رواد الفندق فمعظمهم من البريطانيين، وهم جنود برتب عالية.

فى يوم ما كنت أمزح مع أحدهم قلت له فى يوم من الأيام: محمد قتل اليهود، بعد ذلك قامت زوجة أحد اليهود وأعدت طعاما لذيذا لمحمد ووضعت فيه السم، لكنه لم يمت على الفور، مات بعد مدة، فإذا كانت المرأة الألمانية مثل المرأة اليهودية، فإنه لا يمكن أن نتناول طعام هذا الفندق ونحن آمنون على أنفسنا. فضحك الجندى، بعدها سمعت فريدا هذه الحكاية وتعجبت كثيرا، وقالت: إذا كنت أريد الانتقام فلن أقدم السم، بل سأمزق ملابس الجنود العسكرية.

(٢)

تقع الناصرة فوق الجبل على ارتفاع ١٥٠٠ قدم من سطح البحر، بنيت البيوت فى البلدة وكأنها كهوف داخل الجبل، وفندق جرمانيا يقع فى الجزء الجنوبى من

المدينة، بُنى بحيث يكون الجبل من خلفه، والحجرة التى نقيم فيها تقع فى الركن الجنوبى الغربى من الطابق الأول وتبلغ مساحتها ١٥ تتاميًا، الجدران والسقف كلها مطلية باللون الأبيض، بينما أرضية الغرفة من الأحجار البيضاء، وقد وضعوا سجادة وأمام السرير، وهناك نوافذ فى الغرب والشمال، حين أتطلع خارج الغرفة لا أجد متسعا كبيرا لكن توجد حديقة، من نافذة الغرفة كان يمكن أن أشاهد تكعيبة عنب مملوءة بالأوراق الخضراء، وهناك أسفل الجبل كان يمكننى أن أشاهد مستشفى، سرير الغرفة كان منخفضا جدا، وضعوا لنا سريرين ومنضدة وكرسيين وأريكة خشبية، بينما لا يوجد دولاب للملابس، حين طلبت منضدة أخرى أحضروا لى واحدة رائحتها غير طيبة، ربما كان طبيب مجند يستخدمها فى عمله أيام الحرب، كانت رائحة الكحول والمطهرات تنبعث منها، لم تكن المنضدة قذرة، لا يمكننى أن أقول هذا، لكنى كنت أشعر برائحة الدم تنبعث منها.

حين جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة جئت من القدس، وقضيت ليلتين لا أدرى أنزلت فى هذا الفندق أم لا؟! لا أتذكر، أشعر أن الفندق الذى نزلت فيه من قبل كان مظلما إلى حد ما، على الأقل لم تكن هذه غرفتى، أنا متأكد تماما من هذا الأمر.

(٣)

بعد أن جلسنا فى الغرفة طلبت الشاى، الذى حمله إلينا الرجل الطويل ذو الطربوش الأحمر، لم أجد على الصينية سكرا فطلبت السكر، فحمل الرجل إلىّ أيضا أربع شرائح من الخبز الرقيق، كان الشاى خفيفا جدا وطعمه غريبا، كان طعمه كمن وضع دقيقا فى ماء، بعد ذلك أدركت أن هذه الرائحة كانت رائحة الأزهار البرية التى شاهدتها فى حديقة الفندق[٨٨] ربما وضعوا هذه الأزهار فى الشاى.

لا توجد كهرباء فى الناصرة، كنا نستخدم شمعة فى غرفتنا، وعلى ضوء الشمعة غيرنا ملابسنا، ولبسنا الكيمونو! كانت هناك إكثر من امرأة محلية

---

(٨٨) يشير إلى شراب المرمرية على أنه الشاى.

تشاهدنا بحب استطلاع شديد، كانت جميلة[٨٩] فى السابعة والعشرين والأخرى فى الثامنة والعشرين، وإحداهما كانت تتكلم الإنجليزية قليلا، والأخرى كانت تتكلم الألمانية أو الفرنسية قليلا، أما الخادمة الثالثة فكان اسمها روزى Rose شابة فى السادسة عشرة من عمرها، وكانت ترتدى رداء أحمر وتغطى شعرها وتلبس صندلا، شاهدت مثيلا له فى سنغافورة، لا أدرى هل وصل هذا الصندل إلى هنا أيضا.

بعد مدة جاءنا الرجل الطويل ذو الطربوش الأحمر ليخبرنا بأن العشاء جاهز، كانت الساعة التاسعة مساء، بعد أن خرجت من غرفتنا وعلى اليسار شاهدت باب غرفة مكتوبا عليه: Speise Saal كانت هذه صالة الطعام، وهى صالة مثلثة الشكل، كانت جميلة جدا، يوجد لمبة تضىء الغرفة، جلس بجوارنا على الطاولة نفسها ستة جنود، وقد تحدثنا معا قليلا، كان العشاء يتكون من الشوربة ولحم الخروف مع الخضار والبرتقال والحلوى والماء، كان العشاء لذيذا، وحين رجعنا إلى الغرفة جاءنا الخادم الطويل ذو الطربوش وقدم لنا ورقة توضح أن الجنديين اللذين كانا يجلسان بجوارنا على مائدة العشاء وهما يهوديان، يريدان أن يتحدثا معنا، وهكذا ذهبنا إليهما حاملين الشمعة لتنير لنا الطريق.

تبادلنا الأحاديث معا، كلاهما يهودى أمريكى، أحدهما صحافى يدعى أجرونسكى Agronsky والآخر يدعى فيشر Fisher كان أجرونسكى يتكلم الإنجليزية بلهجة غير مفهومة بالنسبة إلىّ، وعلى كل حال حاولت أن أتحدث معها بشكل أو بآخر، فتح أجرونسكى مفكرته وقرأ: الحكومة اليابانية وافقت على المشروع الصهيونى، لأول مرة أعرف هذا وأعرف هذا التاريخ، نوفمبر من هذا العام، طلبت منهما أن يطالعا خطاباتى التى كتبتها فى القدس... هذا عصر العودة! الشعب اليهودى يعود إلى فلسطين، هذا شىء طبيعى، قال أجرونسكى إن الشعب اليهودى يريد، بل لديه رغبة شديدة فى أن يؤسس دولته، وهناك مشاكل كثيرة بين العرب والأتراك، كان هناك قتال ونزاع وصراع وثأر وغير ذلك، لكن

---

(٨٩) كتبها المؤلف هكذا نطقا Jamire.

الوضع فى فلسطين يجب أن يستتب ويهدأ، قال أجرونسكى: ماذا عن المهاجرين اليهود إلى اليابان؟ قلت بوضوح: لا يوجد مساحة لهم فى اليابان، لا مكان لهم فى اليابان، أنا من القائلين باختلاط جميع أجناس العالم معا، إلا أن هذا القول - أو اختلاط الأجناس - يقلل من نوعية بعض الأجناس، قال أجرونسكى: فيما يتعلق بهذا الأمر اليهود متشددون تماما لأننا نشعر بأن دمنا متميز عن غيرنا من الأجناس. وتصافحنا ورجعنا إلى غرفتنا.

(٤)

كما ذكرت كان السرير فى غرفتنا منخفضا جدا، ربما يعلو عن الأرض بثلاثين سنتيمترا فقط، حين رقدت عليه خامرنى شعور غريب، لم يكن هذا السرير بغريب علىَّ، وكأنه سرير يابانى، حين أرجع إلى اليابان وأنام على مثل هذا السرير ربما يخامرنى مثل هذا الشعور، لكن نحن الآن فى الناصرة لا، لا... لقد رجعنا إلى اليابان، كما لو كان هذان السريران ينتظراننا منذ مدة طويلة.

(٩١) نبات عشبى يؤكل نيئا، مثل الخس الإفرنجى أو السريس، ولكل مذاقه المختلف قليلا.

(٢)

## الخامس من مايو - ذكرى زواجنا

يوم الخامس من مايو هو يوم ذكرى زواجنا، اليوم يوم عيد زواجنا السادس والعشرين، يقولون إن السادس والعشرين يعنى اليوبيل الفضى[٩٠] لزواجنا، وهو خطوة إلى الأمام تجاه اليوبيل الذهبى! نحن نحتفل به فى الناصرة مسقط المسيح منذ ١٩٠٠سنة، والناصرة هى أيضا بلدتنا، وهى مثل دارنا ومسقط رأسنا.

نحن فى غاية السعادة والسرور! فى الصباح تناولنا فى الفطور الخبز والعسل، كان لذيذا جدا، وتحدثت مع السيد أغرونسكى ثانية، سألنى عن فكرة اليابان عن الثورة فأجبته قائلا إن اليابان منذ نشأتها توجد بين أهلها وبين الأسرة الإمبراطورية علاقات مودة وألفة، وإذا حدثت ثورة مثل تلك التى حدثت ضد قيصر روسيا نيقولا، فلا يمكن أن تحدث فى اليابان، ولا يمكن لليابان أن تتغير، بالنسبة لوضع الإمبراطور، اليابان ستظل كما هى تشعر بمكانته الخاصة، لكن الثورة البلشفية الآن تنتشر فى أجواء العالم ولا يمكن لأحد أن يوقفها، ويمكن قبولها كتجربة خاصة ببلد معين أو جنس معين.

* * *

قررنا أن نخرج ونتسلق الجبل احتفالا بذكرى زواجنا، بعد الطعام غيرنا ملابسنا، وخرجنا حاملين خريطة، كنا نصعد تل "نيبيسئين Nebisein" على قمة جبل الناصرة، بعد أن تسلقنا قليلا شاهدنا فندق الناصرة، كان هو نفسه الفندق الذى أقمت فيه قبل ثلاث عشرة سنة، لم أسكن فى فندق جرمانيا، مشينا عبر ممر صخرى ضيق، لا توجد هنا دكاكين ولا محلات من أى نوع حتى لو أردنا شراء بطاقات أو أوراق رسائل أو مظاريف فلا يوجد أى دكان يبيعها هنا، كنت أشاهد نسوة من أهل المنطقة، قدمن إلينا وطلبن منا شراء مفارش يدوية مشغولة، صنعنها بأنفسهن، كما طلبن منا أن نشترى أيضا أمشاط الشعر، سألناهن عن الطريق إلى "نيبيسئين Nebisein" لكنهن لم يفهمن ما نقول، كان كل تركيزهن على البيع فقط، أحطن بنا من جميع الجهات وطالبننا بالشراء بأى

---

(٩٠) المعروف أن اليوبيل الفضى هو الخامس والعشرون.

شكل، كنا فى مأزق، وجدت فتاة صغيرة فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها تغطى شعرها بإيشارب أحمر، وبيدها كيس مملوء بالحمص كانت تأكل الحمص، وجاءت إلينا وعرضت علينا أن تدلنا إلى "نيبيسئين Nebisein" شعرنا بالسعادة وتبعناها على الفور، أعطتنا بعض الحمص، وبعد مدة أشارت إلى بيتها ودقت على الباب وقالت bahaiab Nassar (ربما قالت حبايب نصار؟) ثم دخلنا إلى حجرة كانت الفتاة فى الثانية عشرة ولها أخت تعيش فى حيفا، وأخت أخرى كبرى متزوجة، تعلمت الفرنسية فى مدرسة الراهبات، وبدأت فى تعلم الإنجليزية قبل أربعة أشهر فقط، ربما ولدت هذه الفتاة حين جئت أنا إلى الناصرة من قبل، سألتها عن عيد ميلادها، فأجابتنى لكنى لم أفهم ما قالته، ثم بدأت تتحرك، مررنا بدار رعاية الأيتام، الدار مغلقة الآن، شاهدت أزهارا برية كثيرة مختلفة الألوان وشاهدت نبات الجعضيض[٩١]، إلا أنهم هنا لا يأكلونه، وبعد مدة وصلنا إلى قمة الجبل حيث شاهدت بقايا مسجد، ولا شىء غير هذا، أعطيت الفتاة ١٠قروش من الفضة ففرحت كثيرا وودعتنا، أخذت أشاهد مع زوجتى المنظر الجميل، لم نتمكن من مشاهدة جبل هيرمون بسبب السحاب لكن من الناحية الغربية كان يمكننا مشاهدة البحر عند حيفا وعكا، وفى الجنوب جبل طبرية وجبل هيرمون الصغير سهل مرج ابن عامر Esdraelon وفوق التلال تناثرت الأزهار البرية الجميلة. بينما كنا نشاهد فراشات بيضاء جميلة تطير فوق الأزهار. نحن الآن على ارتفاع ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر، كان الهواء منعشا ونقيا جدا، والجو اليوم كان صافيا، والسحاب القليل يتحرك على صفحة السماء، الخامس من مايو يوم جميل، حقول القمح الواسعة تترامى أمامنا، وسنابل القمح تتموج مع نسمات الهواء فتصدر صوتا مريحا، أتعجب، أحاول أن أتذكر أين سمعت هذا الصوت من قبل! ربما سمعناه حين ولدنا، سحاب الربيع يمضى على صفحة السماء ويشكل أحيانا ظلالا تصنع أشكالا مختلفة فوق الجبال والتلال، وبدا كما لو كانت الشمس تلاعب السحاب أو السحاب يلاعب الشمس، أين شاهدنا مثل هذا المنظر من قبل؟! الخامس من مايو يوم بديع... شعرت بالأسف لأننا لم نتمكن من مشاهدة جبل هيرمون، لكن ربما يمكننا أن نراه فى مرة قادمة.

---

(٩١) نبات عشبى يؤكل نيئا، مثل الخس الإفرنجى أو السريس، ولكل مذاقه المختلف قليلاً.

حين رجعنا إلى الفندق كان موعد الغداء قد حان، لذا تناولنا كأسين من النبيذ المصنوع فى فلسطين واحتفلنا بيومنا الجميل.

* * *

سمعت هذا الصباح جلبة أناس يمرون من أمام الفندق، فأسرعت أشاهدهم، كانوا يصفقون ويغنون، ثم عرفت أن هذا حفل زواج فى القرية، وفى المساء أيضا سمعت جلبة فى الخارج وحين هرولت إلى الشرفة وجدت موكب عزاء، كان هناك حارسان بطربوش تركى، كانا يقودان الجمهور، وكان هناك أطفال من أهل المنطقة[٩٢] يسيرون حاملين الأزهار البيضاء، بينما كان هناك شاب يحمل "النعش" المزخرف بالورود، ومن خلفه يمر القساوسة والراهبات وعدد من الناس على رءوسهم الطرابيش الحمراء، ومن خلفهم نساء يحملن الشماسى، كانت هذه الجنازة بقيادة قسيس فرنسى.

بينما كنا نشاهد موكب الجنازة، كما أيضا نتطلع إلى المنظر الطبيعى الرائع من الشرفة، على المرتفعات ومن بعيد هناك مستشفى، وهناك علامة بيضاء قريبة من الطابق الأخير، ويبدو أن هذا المستشفى الكبير ليس فيه كثير من الناس، كنا نشاهد أشجار الزيتون فى هذه المنطقة تتحرك أغصانها مع هبوب الهواء، كانت أمامنا " تكعيبة" لشجرة عنب كبيرة أوراقها خضراء تميل خضرتها إلى اللون الذهبى، وفى الناحية المقابلة ساحة فارغة، لكن هناك ظلال، وتحت الظلال وقف حمار ينتظر صاحبه. وكانت هناك أتان (حمارة) مع ابنتها... هذا المنظر الرائع والجميل كان بحاجة لمن يصوره، إلا أن الكاميرا التى اشتريتها قبل ست سنوات ولم أستخدمها مطلقًا لم أحضرها معى فى هذه الرحلة، لهذا فكرت أن أرسم هذا المنظر بنفسى، حاولت واكتشفت أنه ليس لدى موهبة فى الرسم فتوقفت.

بعد أن مر وقت قليل جاءتنا الفتاة الصغيرة "جميلة" كانت تتكلم معنا بخليط لغوى يتكون من العربية والألمانية والفرنسية والإنجليزية، وحين تتكلم تستخدم

---

(٩٢) فى الأصل "محليين".

يديها وكل جسمها، وأحيانا تضرب بيدها على جبهتها، وتصدر أصواتا بمصمصة شفتيها، ذكرت أنها ستتزوج هذه السنة، وقالت إن خطيبها فى الحادية والعشرين من عمره أما هى فتبلغ الثامنة عشرة، رغبت فى أن نشاهد "دبلة" الخطوبة، كان التاريخ المكتوب ١٩١٩، كانت جميلة تبدو فى غاية السرور والحبور، سألتنى ضاحكة عن عمر زوجتى فقلت ٢٨، تزوجنا منذ ست وعشرين سنة، لكن لا أطفال، فقالت زوجتى لجميلة وهى تشير ناحيتى: هذا طفلى. فانفجرت جميلة فى الضحك والقهقهة.

فى العشاء تمتعنا بتناول الدجاج المحمر، مثل هذا الطبق لم أره حتى فى القدس، وبالمناسبة سمعت هذا الصباح صوتا مرعبا خلف الفندق، ثم عبر الخادم الحديقة حاملا دجاجا مقطوع الرأس... لا أدرى هل كان ذلك هو الدجاج الذى أكلناه فى العشاء؟! لم أخبر زوجتى بالأمر.

## عبد الله[٩٣]

اليوم هو السادس من مايو، بينما كنا نتناول طعام الغداء شاهدت ممرضتين بريطانيتين كانتا مشغولتين بالحديث معا، وعلى المائدة شاهدت طبقا مكونا من الفاصوليا الخضراء والخبز المدور الرفيع، طلبت من عبد الله أن يقدم لنا المزيد من هذا الخبز، عبد الله ذو الطربوش الأحمر لم يحضر لنا الخبز، ليس هذا فقط، بل رأيته يأكل بنفسه الخبز بعد أن يضع عليه السكر، وقد شاهدته أيضا فى الشرفة يأكل الخبز، شعرت بالجوع لهذا طلبت الشاى، ومع الشاى جاءت كمية قليلة جدا من الخبز، لم أشبع... تعجبت، ربما قدموا لنا بالأمس وجبة دجاج دسمة لذا أرادوا اليوم أن نصوم نصف صيام، جاء عبد الله مندفعا إلى غرفتنا وأراد أن يحمل صينية الشاى، فطلبت منه أن يبقيها قليلا.

بالأمس جاءت امرأة تبيع لنا مفارش مشغولة يدويا، قلت لها سنشترى لكن بعد ذلك، عرفت أن هذه المرأة كانت زوجة عبد الله، وعند الغداء أحضر عبد الله المفارش إلى مائدتنا فقلت له سنبقى هنا أسبوعا آخر وسوف نقرر الشراء أثناء إقامتنا، لكنه لم يفهم ما قصدته، وعلى كل حال لاحظت أنه بعد ذلك الوقت لم يكن سعيدا بنا، ولم يكن يعاملنا جيدا. وشعوره السيئ تجاهنا وصل إلى بطوننا! أردت أن أتعامل معه، وحاولت أن أشرح له، حضرت جميلة لتقوم بدور المترجمة، قلت: اليابانيون لا يكذبون أبدا، إذا قلنا سنشترى فسوف نشترى لكن سنشترى قبل مغادرتنا الفندق. ومن خلال ترجمة جميلة تمكن عبد الله من أن يفهم، وقال: هذا طيب.

بعد ذلك أخبرت فريدا صاحبة الفندق أننا سندفع مزيدا من النقود من أجل المزيد من الخبز، وطلبت منها أن تأمر عبد الله بأن يحضر لنا المزيد من الخبز فى الغرفة، وهنا ابتسمت فريدا وفهمت ما أقصده.

كان هناك جنديان قابلتهما من قبل فى صالة الطعام، جاء أحدهما من جلاسجو Glasgo فى إنجلترا، والآخر جاء من مانشستر Manchester، كانا كلما

(٩٣) كتب المؤلف الاسم هكذا "عبدول" Abdul.

قُدِّم لهم شىء يقولان Thank you شكرا، وكان النبر على نهاية الجملة عجيبا، ربما كانت هذه لهجتهم الخاصة، ثم حضر رجلان يبدو أنهما من رجال الأعمال.

حين بدأت الحرب كان هناك نحو ٧٠٠ ألف جندى ، لكن بعد الحرب تقلص العدد إلى٥٧٠ ألف جندى، من بينهم نحو ٥٠٠ ألف ليسوا من الجنود العاملين، شاهدت فى العشاء جنديا جديدا، قصير القامة، إنجليزيته ليست جيدة، بعد ذلك اكتشفت أنه مصرى من بورسعيد، وهو مجند من قبل الحكومة البريطانية للعمل فى القرى الفلسطينية فى مجال البيطرة، عليه أن يقدم تقارير عن أعداد الحيوانات بشكل عام، كما أنه مسئول عن نظافة الحيوانات أيضا ورعايتها، ويدعى خفاجى، وهو أعزب، كما أنه مسلم.

لم تكن لدى تجربة فى التحدث مع أى مصرى فى مصر، لذا كنت سعيدا جدا فى التحدث مع أحد المصريين هنا فى مدينة الناصرة، ظل خفاجى يشكو من البريطانيين، وذكر أن المصريين البالغ عددهم نحو ١٥مليون نسمة مسموح لهم فقط ببناء خمس مدارس ثانوية، ذلك لأن البريطانيين لا يريدون للمصريين التقدم والرقى، وهم يفكرون طوال الوقت فى إضعاف المصريين، كما ظل يشكو أيضا من سوء معاملة البريطانيين للمصريين، وقال: "كان مرض الصفد قد تفشى بين الخيل، ووجب علىَّ الذهاب لعلاج الخيل الموبوءة، وكنت أستخدم السيارة، وحين صار كل شىء طيبا وانتهى المرض لم يهتموا بى، ولم يعطونى سيارة للعودة، فكان علىَّ أن أذهب إلى "جبرية" مشيا على الأقدام، ورغم هذا فحاكم جنين البريطانى يعطوه فى جميع تنقلاته السيارة، هذا ليس عدلا يجب أن يتعاملوا مع الجميع بمساواة".

ولما كان خفاجى مصريا مسلما فقد سألته عن شيئين:

الأول: هل يدعو الرسول محمد إلى استخدام القوة؟

الثانى: هل وافق الرسول محمد على تعدد الزوجات، أى زوج واحد له عدة زوجات؟

أجاب خفاجى قائلاً: فيما يتعلق بالقوة فهذا مسموح به فى حالة الدفاع عن النفس، وفيما يتعلق بزواج الرسول محمد بأكثر من واحدة فذلك كان لظروف وأسباب خاصة، ومثل هذه الحالات تحدث بين المسلمين. ثم شرح لى مكارم أخلاق المسلمين، وذكر كيف تحول اللورد هـ .Lord H من النصرانية إلى الإسلام[٩٤] وحكى لى خفاجى حكاية توضح كيف يتحلى المسلمون بالأخلاق الحميدة والفضائل:

"ذات ليلة سمع رجل عجوز صوت طرق على بابه، ففتح الباب فإذا بشاب على الباب يقول له: أنا قاتل والناس قادمون للقبض علىَّ، أرجوك أن تساعدنى وتحمينى. ولما كانت أخلاق المسلمين تتطلب حماية من يلجأ إليك، قام الرجل العجوز بحماية هذا الشاب، وبعد قليل وصل جمع من الناس يحملون جثة شاب ميت، كانت جثة ابن هذا العجوز، فقد كان الشاب الهارب ابن ذلك الرجل العجوز، ومع هذا كان العجوز رابط الجأش، هادئا، واستقبل الجسد الميت كما لو أن شيئا لم يحدث، ثم نادى على الشاب الذى اختبأ لاجئا إليه وقال له : لقد قتلت ابنى، ولما كنت قد وعدتك بالحماية لأنك لجأت إلىَّ، فلن أمسك بضرر، رجاءا اهرب من هنا. وتركه يذهب بعد أن قدم له بعض الطعام".

قلت له بعد أن استمعت إلى هذه الحكاية: إن العقلية العربية شبيهة بالعقلية اليابانية فى زمن الساموراى[٩٥] ، هذه العقلية طيبة جدا وخيرة جدا ومفيدة جدا فى الظروف العادية غير الطارئة، لكن أحيانا ظروفنا اليومية العادية تفتقر إلى القيم الأخلاقية الدائمة، أو أنها تتصف بأنها غير طبيعية كما قد يفكر كثير من الناس، هذا الأمر لن يستمر إلى ما لا نهاية فى كل دين، فهناك تطور فى الحياة والعصر يتطور، ومحمد ولد من أجل العصر الذى عاش فيه، من أجل

---

(٩٤) لم يكتب المؤلف الإسلام، لكن كتب المحمدية Mahomedan وهو التعبير الذى كان يروج له المستشرقون فى ذلك الوقت، وكان ينقله عنهم اليابانيون أيضا، وما زال بعض الغربيين يستخدمونه حتى اليوم فى كتاباتهم.

(٩٥) هم الفرسان المقاتلون، انظر البوشيدو وقيم الحضارة العربية الإسلامية؟

زمانه، ومن أجل ضروريات عصره، لكن حين استخدم السيف وحين تعامل بشكل غير طبيعى مع النساء فهذا لم يكن بالأمر الجيد، فإذا اعتبر الإسلام دينًا إلى الأبد لكل زمان على طريق إسلام محمد، فإن البلدان الإسلامية سوف تضمحل، وسوف تنتهى وتتلاشى ، ويمكن أن أقول بشكل خاص إن المسلمين يفتقرون إلى الحب تجاه المرأة ، فمصر التى تريد التحرر من بريطانيا يجب أن تعطى الحرية للمرأة، يجب أن تحرر المرأة، مشكلة المرأة يجب أن تحل عن طريق رأى المرأة بالمساواة، مشكلة مصر يجب أن تحل عن طريق المصريين، وهذا شىء طبيعى.

### آل واجنرز Wagners

فى صباح يوم السابع من مايو سقطت أمطار خفيفة، بعد أن تناولنا طعام الإفطار ورجعنا إلى غرفتنا فوجئنا بها مرتبة ونظيفة، وهناك على الطاولة أزهار وردية، ربما وضعتها الفتاة الشابة "جميلة". صار الفندق أكثر ازدحاما بالزبائن، ما أثلج صدرى هنا هو أن دورة المياه صارت نظيفة، وبخاصة اليوم، فقد نظفوها جيدا. غرفتنا فى الطابق الأول فى ركن على الناحية الغربية بينما دورة المياه عند ركن الناحية الشمالية، وفى الليل أو فى منتصف الليل حين أضطر إلى الذهاب إلى دورة المياه كان علىَّ أن أنتقل من ركن إلى ركن حاملا الشمعة لتنير لى الطريق لأصل إلى دورة مياه مواسيرها خربة، لذلك كانت "تتكتم" أحيانا، ولا تسمح بمرور مياه الصرف، التى تطفو وتحول دورة المياه أحيانا إلى بحر مياهه قذرة جدا. آه، كيف يمكننى أن أستخدم دورة المياه هذه؟! كانت مشكلة كبيرة جدا بالنسبة لنا.

ربما أرادت المرأة الألمانية صاحبة العزيمة القوية بعد أن تولت إدارة الفندق أن تفعل شيئا ما، وأن تبين لمن حولها مدى غضبها من تردى أحوال النظافة فى الفندق وبخاصة نظافة دورة المياه، الآن جرت تحسينات ملحوظة على دورة المياه، وهكذا تخلصت من هم كبير وحمل ثقيل ظل يؤرقنى كثيرا.

جاءت إلينا فريدا وقالت: فتاتان ألمانيتان تريدان زيارتكما، ما رأيكما؟ إنهما تتكلمان الإنجليزية بطريقة جيدة. فقلت حسنا، أرسليهما فى الساعة الثانية بعد الظهر.

صار الشارع أكثر ازدحاما، وسمعت جلبة، فاندفعت إلى الشرفة، هذا حفل زواج، تصفيق بالأيادى كالعادة، لكنى لم أشاهد العروس، بدلا من ذلك شاهدت قافلة من الجمال ـ نحو سبعة عشر جملا ـ تحمل "عفش العروس" كان بعضها يحمل أغصان أشجار جافة، فسألت عن السبب، فقالوا إنهم يشعلون النار ويرقصون ويغنون حولها طوال الليل، هذا شىء مفرح جدا، فبعد وصولنا هنا بثلاثة أيام أو أربعة شاهدت كثيرا من الأفراح وحفلات الزواج، نحن تزوجنا فى مايو، هنا فى الناصرة مايو هو شهر الزواج.

* * *

فى الثانية بعد الظهر جاءت الفتاتان الألمانيتان، التقيت بهما فى صالة الاستقبال، وطلبت من فريدا صاحبة الفندق أن تشاركنا اللقاء، الفتاتان شقيقتان فى العشرينيات، اسم العائلة هو واجنرز Wagners تدعى الأولى "إمًّا Emma والأخرى "هنًّا" Hannah كانت إمًّا وهى الشقيقة الكبرى ترتدى بلوزة بيضاء وجيبة زرقاء سماوية وكان وجهها أبيض ناصع البياض، بينما شقيتها الصغرى هنًّا التى لفحت أشعة الشمس وجهها فأحالته إلى اللون القمحى الممزوج بالبياض، كانت ترتدى ثوبا أصفر. ذكرا لى أن لهما أخوين فى القاهرة، وهما أسيرا حرب، بينما خالتهما تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة فى حلوان، وقد حددوا إقامتها فلا يمكنها الذهاب إلى أى مكان.

لقد سيطر البريطانيون على القاهرة منذ سبتمبر الماضى، وصار كل الرجال الألمان أسرى حرب، كما أخذوا النساء والأطفال أيضا أسرى حرب، وهاتان الفتاتان لا تفهمان ما يدور فى العالم، لهذا رغبتا فى التعرف على أحوال العالم، سألانى عن مؤتمر السلام ، وعن الوضع فى مصر والوضع فى الهند، وقد أجبتهما بقدر ما يتوفر لدىَّ من معلومات، ولم يعجبنى سؤالهم: ماذا عن الهند؟ لم أجب على هذا السؤال، لكنهما شكرا موقف اليابان من قضية الأسرى الألمان وامتدحاه كثيرا، وتكلما عن نقص المواد الغذائية فى ألمانيا، أخبرتهما بأننا ربما نزور ألمانيا، والآن جاء دورى فى الحديث فتحدثت كأننى أعطيهما درسا أو محاضرة، قلت: الآن حان الوقت لإنهاء النزاعات، يجب أن نتناقش حول ظروف

العالم. كانت الأخت الصغرى هنًّا تعمل ممرضة فى القسطنطينية أثناء الحرب، وكانت قد أُعطيت محاضرات عن التحالفات بين الدول أثناء الحرب، ومنذ ذلك الوقت لا تعرف شيئا عن الحقد والكراهية، لكن حين سمعت ما حدث وما فعلته الدول المتحالفة سيطر عليها الشعور بالكراهية، وقالت لى: ما تقوله الآن شىء يمكن تصوره، إن قلت: عالم جديد قادم الآن فماذا عن الفوضى التى تشيع فى العالم الآن؟ فقلت لها: هذا مثل داء الجدرى إذا أصبنا به نصبح بخير بعد ذلك.

كانت الشقيقتان وفريدا يتطلعن إلى وجوه بعضهن بعضًا، دلت ملامح وجوههن على أنهن تمكن من فهم ما يدور، عرضت عليهن مجلتى "الربيع الجديد شينشون" وتحدثت معهن عن رحلتى إلى روسيا قبل ثلاث عشرة سنة، كما عرضت عليهن أيضا مذكرات رحلتى إلى القدس، وأخيرا قدمنا لهن الشاى الأخضر والحلوى اليابانية ثم الفول السودانى الذى أحضرته معى من تشيبا فى اليابان، وأشرت إلى الشاى الأخضر وشرحت لهن مغزى "الحلاوة الكامنة فى المرارة" ثم القصة التى حكيتها للجندى البريطانى منذ عدة أيام عن المرأة اليهودية التى حاولت أن تقتل النبى محمدا بالسم، قلت الجنود البريطانيون يمكن أن يزوروا فندق المرأة التى تنتمى إلى بلد عدو لهم دون الشعور بالخطر، ويلعبوا البيانو، ويأكلواويناموا، هذا يعنى أنهم يشكُّون فى الرجل الألمانى، لكنهم يثقون فى المرأة الألمانية، الرجل يصدق المرأة، والأم فقط هى التى يمكنها أن توقف نزاع الأولاد، فإذا اتحدت نساء العالم وعملن على تحقيق السلام فسوف تنتهى الحروب بشكل تلقائى، وقلت لهن: ألا ترغبن فى مثل هذا العهد الذى يلى الحرب؟! فأجبن بأنهن يرغبن فى العهد الجديد، لكن مسألة ما إذا كانت المرأة تعمل على تحقيق السلام فهذا أمر مشكوك فيه، ليست لدينا ثقة، وليست لدينا عزيمة. وسألتنى الأخت الصغرى : ماذا يجب أن نفعل؟ أجبتها قائلا: هذه هى المشكلة التى يمكن للمرأة أن تبحث لها عن حل، الرجل لا يمكنه أن يتدخل. وسألتنى إمًّا عن مشاعرى وانطباعاتى عن الناصرة؟ أجبتها: جيدة جدا، السماء جميلة رائعة، والهواء عليل ونقى، فهذه ناصرة المسيح عيسى. ثم سألتهما: هل تؤمنان بعودة المسيح؟ فهزتا رأسيهما وقالتا: لا.

ربما فقدتا الأمل، وفقدتا إيمانهما القوى بسبب الحرب وما خلفته من مآسٍ، فقالت الأخت الصغرى: المسيح لا يمكن أن يعود إلى مثل هذا العالم.

أشعر أنه لا مفر ولا فائدة الآن، فالمرأة الألمانية ليس لديها أمل فى الناصرة بشكل خاص.

بعد أن استرحنا قليلا ذكرت فريدا أن عمل الفندق فى غاية الصعوبة وتواجهها مشاكل كثيرة، أخذت الأتوجراف، وطلبت من الأختين أن يسجلا اسميهما وأعطيتهما بطاقتى.أما زوجتى التى حملت بطاقة باسمها مكتوبة بالحروف اللاتينية فقد كانت سعيدة جدا لأن هذه أول مرة تقدم فيها بطاقتها التعريفية لنساء ألمانيات ، شرحت لهم معنى اسم زوجتى "أى" فأى كلمة يابانية تعنى "الحب"، ذكرتا لنا أنهما يعيشان مع والديهما لذا أهدتهما زوجتى بعض الحلوى اليابانية للوالدين.

قالت لنا هنًا: نرجو أن تتمتعا برحلتكما ولا تتعبا نفسيكما كثيرا، أتمنى أن تبقوا هنا أطول مدة ممكنة. وشكرتنا وسألتنا ما إذا كان من الممكن أن نزور بيتهما غدا، فوافقنا بكل سرور.

* * *

لبسنا الحذاء الرياضى ومضينا خلف الحديقة الخلفية، وجدنا فريدا فى الحديقة، تحدثت معنا عن حياتها الخاصة. ذكرت أنها ولدت فى حيفا، وقد قدمت إلى هنا قبل ٢٦عاما، وقد مات والداها هنا، وامتلك شقيقها الأصغر هذا الفندق، وقد مات فى أوروبا فى زمن الحرب، ذكرت فريدا أن كل إنسان كان له مشاكله وقضاياه الخاصة أثناء الحرب.

ملأت الخضرة المكان، وانتشرت الأزهار البرية فى الحديقة، وهى أزهار لم أكن أعرف أسماءها، وحين سألت عبد الله ذكر لى أنه لا يعرف هو أيضا أسماء هذه الأزهار ولا حتى أسماء الأشجار، لكنى بالطبع أعرف أشجار التوت، سألت عبد الله أن يجمع بعض ثمار التوت، قالت فريدا إن التوت لم ينضج بعد، وأضافت إن الماء هنا قليل لهذا لا يوجد توت كثير، بينما تكثر أشجار التوت فى منطقة دمشق نظرا لوفرة الماء هناك، وهم يربون دود القز وينتجون الحرير.

شاهدت أزهار الرمان، أرادت فريدا أن تكسر غصنا لكنى أوقفتها لأن الثمار ستأتى لاحقا، شاهدت دجاجات تسير فى الحديقة تلتقط ما تأكله، وشاهدت خضراوات متنوعة: الجزر والكرات والبصل، فهم يزرعونها هنا ثم يقدمونها لنزلاء الفندق، أخذتنا فريدا إلى مكان البئر الذى سيحتفظون فيه بمياه الأمطار، قالت: الماء الذى نشتريه كل يوم ماء طيب. وقد شاهدت ستة آبار حول الفندق، ذهبت زوجتى لتشاهد المطبخ بجوار صالة الطعام، كان نظيفا ومرتبا، كانت إحدى الخادمات الألمانيات تغسل الأرز، بينما كانت الأخرى تغسل الأطباق، أُعجبت زوجتى كثيرا بالنساء الألمانيات، كيف يعملن بجد ونشاط، يجمعن الماء الذى يستخدمنه فى الغسيل يحملنه إلى الحديقة .

كما ذكرت من قبل كانت دورة المياه بعيدة عن هنا، لذا حين ألاحظ أنه لا يوجد أحد من حولى فى الحديقة أقوم بتخصيب الحديقة[٩٦] .

سقط مطر خفيف هذا الصباح، وبعد الظهر صار الجو جميلا، وفى المساء صار أطيب مما كان عليه فى النهار، وظهر قمر اليوم الثامن يلقى بأشعته الفضية من النافذة، وبدت السماء تحنو على الجبل بعد الغروب بأشعة ذهبية خافتة قادمة من وراء الجبل.

* * *

فى صباح يوم الثامن من مايو، بعد أن رجعنا إلى غرفتنا وجدناهم قد وضعوا على الطاولة باقة من أزهار الأقحوان مع الورد البلدى، كانت "جميلة" قد قطفت هذا الورد من حديقة بيتها، كان الجو حارا جدا بسبب هبوب عاصفة رملية، يقولون إن الناصرة تشهد هبوب العواصف الرملية فى مايو ويكون الجو حارا جدا، بدأنا زيارة آل واجنرز Wagners فى الساعة الثالثة برفقة فريدا، ارتديت أنا وزوجتى الكيمونو اليابانى، وكانت زوجتى تحمل شمسية سوداء تقيها أشعة الشمس، ومضينا من خلف الفندق وتسلقنا تلالا كانت مملوءة بنبات التين الشوكى، ذكرت فريدا أن ثمار التين الشوكى تظهر فى شهر يوليو، وهى عادة

(٩٦) أى أنه يبول فى الحديقة.

تقشره وتمصه فهو حلو جدا، وهى تحب طعمه كثيرا، كما أن النحل يحط عليه يجمع الرحيق ليصنع العسل.

آل واجنر Wagners يقومون بطحن القمح، هذا هو عملهم ومصدر رزقهم هنا، وهم يستخدمون الآلات التى تعمل بالكهرباء فى طحن الحبوب، إذ لديهم ثلاث آلات طحن، شاهدنا نساء فلسطينيات[٩٧] تجمعن خارج البوابة، يحملن أجولة، ربما جئن لحمل الدقيق.

دخلنا من البوابة، ومعنا دخل بعض النسوة أيضا، جاءت هنًا لاستقبالنا، وقادتنا إلى الجانب الأيمن حيث يوجد بيتهم، وفى الطابق الأرضى توجد آلات الطحن، كما يوجد مخزن للدقيق، وهناك فرس يستخدم فى حمل الطحين. دخلت البيت فرأيت امرأة سمينة إلى حد ما ترتدى فستانا، سلمت علينا وقامت بتحيتنا، ثم جاء رجل طويل، بدت عليه آثار السنين، عرفت أنه الوالد، اصطحبونا إلى غرفة الجلوس حيث شاهدت صور قيصر ألمانيا وصورة صغيرة لولى عهد ألمانيا، وكان هناك بيانو وضعوا عليه باقة ورد جميلة، عمر الوالد ٧٣ سنة وعمر الأم ٧٠ سنة، هاجرا من ألمانيا إلى فلسطين منذ ٥٠ سنة ضمن منظمة "جماعة الهيكل" Temple Colony، تزوجا فى القدس، وأنجبا جميع أبنائهم هنا فى الناصرة، أحد الأبناء الآن أسير فى السجن والآخر موقوف ومحددة إقامته، وأحدهم فى القاهرة مع ابنتيه ووالدى زوجته، والخالة أخت الأم فى حلوان عجوز على مشارف الموت.

الأب والأم لا يتكلمان الإنجليزية، وأنا بدورى لا أجيد اللغة الألمانية، ومن هنا كانت الشقيقتان تقومان بمهمة الترجمة بيننا، طلبتا منى أن أكتب خطابا إلى الجنرال أللنبى فى مصر، لأن الخالة تكاد أن تموت الآن، وهما يريدان أن يفعلا شيئا يريحها قبل الموت، كنا قد زرنا حلوان حين كنا فى القاهرة، حيث توجد ينابيع المياه الحارة (الكبريتية)، حين كنا فى مارس كان الجو حارا، لذا لا بد أن تكون الحرارة هناك الآن مرعبة، أشعر حقا بأن الخالة تعانى كثيرا.

(٩٧) ذكر المؤلف كلمة "محليات" يقصد من أهل المنطقة.

سألتهم أن يكتبوا بأنفسهم خطابا إلى أللنبى، بعدها أقوم أنا بنفسى بكتابة خطاب من ناحيتى، جاءت امرأة فى نحو الثلاثين من عمرها تدعى سيلمى إيهمان Selma ehman، ترتدى ملابس بيضاء وتضع شارة سوداء على ذراعها، وهى قريبة لهم، مات زوجها فى الحرب، وجاءت امرأة أخرى، عرفت أنها زوجة ابنهم الأسير فى سجن القاهرة، تدعى ماريا، بعد ذلك جاء ابنها، بعد ذلك قدمت بنت وثلاثة أولاد وطفلان، أحدهما طفل المرأة التى تضع الشارة السوداء على ذراعها، تصافحنا، خلال الحرب توقفت المدارس، لهذا تقوم إمّا بتنظيم وترتيب دورس خصوصية، والأطفال الذين سلمت عليهم الآن هم تلامذتها.

اصطحبتنا هنًا إلى الشرفة، والتقطنا بعض الصور، كان هناك منظر جميل جدا، فى الناحية الجنوبية الشرقية كان هناك حبل هيرمون بدا صغيرا، وبدا جزءًا من سهل مرج ابن عامر(٩٨)، وأسفل الشرفة شاهدت مقابر. قالت هنًا كانت الناصرة فى الشهر الماضى أجمل بكثير من الآن ، لكنى أظنها لا تزال جميلة حتى الآن، يصل عدد سكانها نحو عشرة آلاف نسمة، ثلاثة أرباعهم من النصارى والباقى من المسلمين؛ وهم يحيون احتفالاتهم ومهرجاناتهم معا، ويعيشون معا متآلفين متحابين، والأوربيون هنا عددهم أقل من مائة.

رجعنا إلى غرفة الجلوس، قدموا لنا الشاى والحلوى، بينما كنا نتناول الحلوى حدثونا عن نقص الطعام والمجاعة فى ألمانيا، كان الأب قد ولد فى مستعمرة ألمانية فى روسيا، لهذا قرأ تولستوى، طلبت الابنة أن أعرض على أبيها مذكرات رحلتى للحج التى شاهدتها معى بالأمس لكنى للأسف لم أحملها معى اليوم، وقد حملت فقط كتابى "الربيع الجديد Shinshun" ينتمى الأب إلى جماعة الهيكل Tem-ple Society وكانوا ضمن أول المهاجرين الذين قدموا إلى فلسطين، وهذه جمعية تمثل جماعة دينية ظهرت أواسط القرن التاسع عشر فى رتمبرج Wurtemberge فى ألمانيا، وهم يؤمنون بعودة المسيح، كان الأب والأم ضمن الآباء الحجاج Pili-grim Fathers الذين قدموا من ألمانيا.

* * *

---

(٩٨) يطلق عليه أيضا سهل زرعين Esdraelon.

بعد تردد قررت أن أسأل السؤال: هل تؤمنون بالمسيح؟ ماذا تفكرون عن المسيح؟ وقد أجابت هنًا المتحدثة باسمهم، فتحت كتابى "الربيع الجديد"، ثم طلبت من هنًا أن تقرأ كلمة تولستوى بالإنجليزية: "أومن بتعاليم المسيح، وأعتقد أن السعادة الكاملة على الأرض يمكن أن تتحقق حين يؤمن كل البشر بتعاليمه" وقلت لهم: إن الشخص الذى يحمل السيف سوف يموت بالسيف، إلا أن سيلمى إيهمان قالت: لكن المسيح صنع السوط من الحبال، وتخلص من النجار من القصر، وقالت إيمًا: يجب أن نعود إلى قيصر؛ أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله. ثم ذكرت لهم النقاش الذى دار بينى وبين الجندى المصرى؛ كما أن محمداً أقر بأن القتال يكون فقط دفاعا عن النفس، وبالتالى فيمكن قتل الناس، وأيضا محمد يسمح بوجود أكثر من زوجة طبقا لظروف خاصة، المسيح لم يفعل شيئا من ذلك، أنتم وافقتم على الحرب، ومن هذا المنطلق فأنتم تحبون محمدا أكثر من المسيح، أنتن لستن بنساء مسيحيات، أنتن نساء مسلمات ينتمين إلى دين محمد، أنتن تؤمنّ بالمسيح فى جزء من تعاليمه وتكفرن بالجزء الآخر من تعاليمه، أنتن لا تؤمن بعودة المسيح، رغم أنكن ولدتن فى الناصرة التى قضى فيها المسيح حياته البشرية قبل ١٩٠٠سنة، معظمكن لا يؤمنّ بالمسيح، يا لها من مأساة!

سكت الجميع، لم ينطقن بكلمة، فبدأت عرض طلبى المعتاد: آمنّ بالمسيح، ثقن بأنفسكن، وكنّ أمهات بحق مثل أم الحياة وأم السلام، يجب ألا تسود الفرقة بينكن، ولا تشعرن بالوحدة والتفرق، اتحدن معا، أريد أن أدعو جميع النساء فى العالم أن يتحدن معا.

بدأت الفتاة الصغيرة تتحدث عن سوء خلق البريطانيين، فبسبب العساكر البريطانيين توجد فى ألمانيا الآن مجاعة شديدة، ويموت الكثيرون من الجوع، كما أن الصحف البريطانية تنشر الأكاذيب، وغير ذلك من مساوئ، وذكرن لى أيضا أن إمبراطورة ألمانيا هى رمز للمرأة، فسألتهن عن معاملة الألمان للمرأة فى شرق فرنسا، هنا تشكو المرأة الألمانية المجاعة فى ألمانيا بسبب الجنود البريطانيين، بينما لا تذكر المعاملة السيئة جدا التى عامل بها الرجل الألمانى المرأة الفرنسية، عندها ماذا فعلت المرأة الألمانية، رددت سؤالى هذا فأجابت هنًا: أنا طبعا آسفة جدا وحزينة ومتعاطفة مع المرأة الفرنسية التى عانت آنذاك.

بعدها سكتت لم تتكلم، فقلت: هناك مثل يابانى معناه: حتى سليمان الحكيم لا يمكنه أن يصدر حكما عادلا يتعلق بالنزاعات. الكتب السماوية تتحدث عن العلاقات بين البشر والأخذ والعطاء، وغيرها من القضايا المتشابكة والمعقدة، والبشر لا يمكنهم أن يصدروا الأحكام بشكل صحيح: Alles oder nichts كل شىء أو لا شىء، فالجميع يعيشون معا أو يموتون معا، فالجميع فى قارب واحد إذا غرق القارب غرق الجميع وإذا نجا القارب نجا الجميع.

وأضفت: لماذا خرجنا نحن من اليابان؟ لماذا نسافر بعد الحرب مباشرة؟ لماذا نحرص على رؤية الأجواء التى خلفتها الحروب ورؤية معاناة الناس؟ لماذا جئنا؟ لا نحتاج أى شىء، فقط جئنا مثل شعاع شمس، نريد أن ننير العقول، ونحمس الناس لنبذ الحروب والمضى على طريق السلام، نريد أن نجعل الجميع سعداء... على كل حال كفانا حروبا ونزاعات، السلام يجب أن يكون الهدف، وبخاصة السلام الذى تسهم قوة المرأة فى تحقيقه، لهذا يجب على جميع نساء العالم أن يتحدن معا... ثم سألتهن الرأى فلم ينطقن بكلمة لدقائق، بعد ذلك بدأنا النقاش حول موضوعات عادية.

سألتنى إحداهن: أى نمط من النساء ينال إعجاب الرجال، هل من تملك شعرا جميلا؟ قلت: بالطبع الشعر الأسود. سألن ماذا عن العيون؟ قلت: كنا قبل ذلك نفضل العيون الضيقة لكن الآن نفضل العيون الواسعة البراقة، ونحن لا نفضل أن تكون المرأة مثل الدمية، لا نريد هذا النوع من النساء، المرأة اليابانية ذكية، وهى جيدة، لكنها لا تتمتع بصحة جيدة، ولدينا نساء تخرجن فى الجامعات، ولدينا أيضا طبيبات لكن عددهن قليل.

أشارت هنا إلى كتاب معها وقالت: هذا كتاب عن رحلة داخل ألمانيا بقلم يابانى، لكن هذه ترجمة للكتاب. عرضت عليهن دمية يابانية، قلن لى إن الكبريت اليابانى ليس جيدا فهو ينكسر بسرعة، أصابنى قولهم هذا بالحزن، ذكرت لهن أن كثيرا من الأجانب يزورون اليابان هذه الأيام، إلا أن هدفهم الوحيد هو مشاهدة الساكورا والأزهار الأخرى، وهم يزورون منطقة "نيكو" ومنطقة "هاكونيه"، كما يفدون على أماكن وجود "الغيشا"، ويشاهدون الفنون اليابانية، ولا

شىء غير هذا، وهذا لا يجعلنا سعداء، فنحن نستفيد وننقل أشياء كثيرة عن ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وأمريكا، وعلى المجتمع الغربى بدوره أن ينقل أو يستعير من الشرق أشياء مهمة، ربما لا تدركون الآن قيمة ما لدى الشرق، لكن فى يوم ما سوف تشعرون بالامتنان لما قد تأخذونه من الشرق.

سجلت اسمى وعنوانى فى سجل زوار الأسرة، بينما كتبت زوجتى بعض الأشعار:

**الشقيقات يولين الاهتمام ببعضهن**

**ويجانبهن لا يوجد أطفال يتشاجرون فيما بينهم**

**أى**

شرحت لهم هذا الشعر باللغة الإنجليزية "إذا توطدت العلاقة بين الأخوات أى بين النساء فى العالم، فلن يكون هناك أطفال يتقاتلون، ولن يتقاتلوا أبدا".

إن كلمة "السلام" لا يمكن أن يصنعها الرجل وحده، يجب أن تتحقق عمليا بقوة المرأة أيضا، وإذا لعب الرجل دوره كرجل ولعبت المرأة دورها كامرأة فسوف يتحقق السلام فى العالم، لقد كنت سعيدا ومسرورا لأن كل من حضر هنا كان يفهم الإنجليزية، قلت إن الإنجليزية هى بالنسبة لكم وبالنسبة لنا لغة الأعداء، واليوم تكلمنا جميعا لغة الأعداء فقط، يا له من شىء مضحك.

أعطيتهن الأوتوغراف وطلبت منهن أن يسجلن أسماءهن، فجأة سمعنا صوت الرعد وأبرقت السماء وهطل مطر شديد فجأة، ولم ننتظر حتى يتوقف المطر، استعرنا "شمسية"، وتحت زخات المطر وقف الرجل العجوز الذى وضع" برنيطة" على رأسه يودعنا.

* * *

رجعنا إلى الفندق، تحدثنا مع فريدا فى طريق عودتنا، قالت إن مثل هذا البرق والرعد والمطر الشديد فى شهر مايو أمر غير عادى، هذا لا يمكن إلا أن يكون هدية لكم! بالنسبة لفريدا يعد الرجل العجوز رب أسرة واجنر مثل والدها

تماما، فهو الرجل الألمانى الوحيد هنا، فإذا ما حدث خطب ما هرعت إليه. لم يتوقف المطر أثناء عودتنا بينما الطريق كان يصعد بنا ويهبط وسط منحدرات وعرة أحيانا، بدأت أمشى مهرولا فصاحت زوجتى من ورائى: يا أيها الرجل الشرقى! لماذا تسرع؟ ضحكت ثم توقفت، ورجعنا ثلاثتنا إلى الفندق وقد شعرنا بالإعياء نتيجة المشى وسط المطر الشديد، فتحت فريدا البوابة، تصافحنا ودخلنا غرفتنا عند الساعة السادسة مساء.

## معجزة النبيذ

بعد عودتنا من زيارة أسرة واجنر، وبينما كنا نجلس على مائدة العشاء مع الجندى المصرى، لاحظت أن عبد الله الخادم، ومنذ أمس، كان كلما شاهدنا نجلس على المائدة "يضحك فى سره"، لا أدرى لماذا، لم أكن أشعر بالراحة من هذا السلوك، اليوم حين جلسنا على المائدة أحضر لنا بقايا النبيذ، لقد فتحنا هذه الزجاجة يوم الخامس من مايو، وهى محفوظة كما هى بما تبقى فيها من نبيذ، أفرغت بعض النبيذ فى كأس زوجتى وفى كأسى أيضا، لكنى حين تذوقته اكتشفت أنه ليس بنبيذ بل مجرد ماء بلون وردى... الآن فهمت لقد شرب النبيذ ثم وضع الماء بدلا منه، وحين سألنا هل يحضر زجاجة النبيذ أم لا، لم يكن يتوقع أن نقول له نعم.

لم أشرب هذا الماء الملون، ولم أغضب أيضا ولم أعنفه على ذلك، فكان سلوكى هذا أمرا غير متوقع بالنسبة له، لدى اليوم شعور بالراحة، شعور طيب جدا لم يجعلنى أغضب، قلت لزوجتى مازحا، إنها معجزة، المسيح استطاع أن يحول الماء إلى نبيذ بينما عبد الله تمكن من أن يحول النبيذ إلى ماء، إنه بلا شك رجل عظيم!

***

اليوم التاسع من مايو، كنت متعبا جدا، وكنت أشعر بأن رأسى ثقيلة لا أقوى على حملها، أما زوجتى التى استخدمت عقلها كثيرا أثناء التحدث باللغة الإنجليزية فقد شعرت بأسنانها تؤلمها، فى المساء دق بابنا جارنا الشاب المصرى، وقال إنه يريد التحدث معنا، فقلت له: يمكن أن نتحدث فيما بعد وليس الآن. لا

يعنى هذا أن الشاب سيئ لكن إذا وافقت على الفور فربما يكرر هذا الأمر كلما شعر برغبة فى التحدث معنا أو كلما كان لديه وقت يريد أن يشغله دون مراعاة لظروفنا نحن.

على مائدة العشاء جلسنا جميعا بوجوه متجهمة، نطق عبد الله ببعض الكلمات لكننى لم أفهم شيئا مما قال، أحضر زجاجة النبيذ، وكان على وشك أن يصب بعض النبيذ فى الكأس قائلا: نبيذ لذيذ وحلو، فنحن عادة نضيف إلى النبيذ بعض الماء والسكر، قلت له: لا. ثم كررت مؤكدا: لا تفتح الغطاء.

بدت على عبد الله علامات الحزن، لم يكن مسرورا بذلك، بينما كان الجندى المصرى يراقبنا مسرورا، لم تعجبنى طريقته هذه، ناديت على عبد الله وتحدثت معه عن طريق الترجمة، ترجم له الجندى المصرى كلامى، سألته: هل أنت أمين؟ فقال: نعم، أنا أمين. فقلت له: إذا أنت أمين وكريم فسوف أشترى منك ما أحتاج، وسوف أشكرك على الخدمة التى تقدمها لى، لكن إذا كنت غير أمين، فلن أقدم لك حتى كلمة الشكر، فى هذا الفندق لا يوجد رجل سواك، لذا يجب عليك أن تهتم بكل شىء، ويجب أن تكون مطيعا.

بعدها قال الشاب المصرى: إن عبد الله حين أراد فتح الزجاجة أراد بهذا أن يعبر عن نوع من الاحترام والتأدب، فقلت له: لا، لا، هذا نوع من الخداع. ثم قصصت عليه حكاية النبيذ الذى تحول إلى ماء، وقلت للشاب المصرى: يجب أن تصدق الآخرين أكثر من عبد الله. فشعر الجندى المصرى بغضبى وقال: آسف ثم ترجم لى ما قاله عبد الله ، فقد عبر عبد الله عن أسفه لى.

قلت للشاب المصرى: الخداع وعدم الأمانة عار على أهل الشرق، لقد شاهدت فى القدس جنديا بريطانيا يتعارك مع مواطن محلى من أهل فلسطين، وهذا سلوك سيئ أن يُضرب الناس هنا، لكنى الآن أتعاطف مع الجندى البريطانى. وتكلمت عن الاحتلال البريطانى للهند، الهنود يثقون كثيرا فى البريطانيين أكثر من ثقتهم بحكامهم من مواطنيهم، وهذا يعنى أن من الطبيعى أن تحكم بريطانيا الهند، وأضفت أيضا: ما لم يصبح المصريون أفضل من البريطانيين فلا يمكن

لمصر أن تحصل على استقلالها، الأب الذى فى السماء يحب الابن المخلص المجتهد.

بدا على الشاب المصرى الشعور بالمرارة فقال: فى الهند نظام طبقات يسيطر على المجتمع، فى مصر لا يوجد مثل هذا، طلبت من عبد الله أن يحضر زجاجة النبيذ، وطلبت منه أن يفتحها، ثم صب النبيذ فى كأسى وفى كأس زوجتى، أما الشاب المصرى فلا يشرب النبيذ، كما أنه لا يدخن أيضا، كان النبيذ لذيذا وحلوا، وهو مصنوع هنا فى فلسطين. بعد أن احتسيت كأس النبيذ هدأت مشاعرى، وبدأت أتمتع بسماع حكاوى الشاب المصرى الذى قال لى إنه يحصل على ٣٢ قرشا ولا يمكنه أن يدخر شيئا، وعليه مقابل ذلك أن يعمل كثيرا، ويؤدى العديد من الواجبات دون راحة ودون مقابل، وعقده سينتهى بعد شهرين، إلا أنه يود أن يغادر هذا المكان بسرعة. يشعر بالوحدة القاتلة، وأوضح قائلا لى: أنت معك زوجتك لكننى هنا وحيدا!

قلت له: إذا فكرت هكذا اترك هذا العمل فورا، ومن الأفضل أن تتزوج. من بين البريطانيين أنماط مختلفة من الناس، فمثلا حاكم طبرية أنانى وحاكم جنين رجل ذكى جدا ويمتاز بعمق التفكير، الجنود المصريون الشباب بمن فيهم هذا الشاب المصرى يعانون كثيرا.

### العجوز الألمانية والعجوز البريطانى

فى صباح اليوم العاشر من مايو تسلمت رسالة من آل واجنر جاء فيها أن السيدة ميولر Mrs. Muller تنتظرك مساء اليوم، تعيش السيدة ميولر فى الناصرة منذ مدة طويلة، وهى تعمل ضمن أعضاء الإرسالية النصرانية الألمانية، وقد سمعت عنا فأرادت أن تقابلنا وتتعرف علينا، كتبت الرد وأعطيته للخادمة، بعد مدة جاءت جميلة وقالت الآحد raise؟ نطقت بخليط من الألمانية والإنجليزية، أجبتها بالإنجليزية: نحن نغادر هنا يوم ١٦ ذلك لأننى أخبرتها من قبل أننا سنقيم مدة أسبوع، وغدا يكتمل هذا الأسبوع، على كل حال كانت سعيدة جدا ومسرورة حين عرفت أننا سنبقى هنا حتى اليوم السادس عشر من مايو.

فى المساء جاءتنا فتاتان: إينوفولكيه و تيودورا، أحضرتا باقة من الورود الجميلة إلى غرفتنا، ثم جاءت بعدهما أمهما ماريا، كانت الفتاتان جميلتين وكانت الوردود التى حملتاها مختلفة الألوان، بيضاء وردية وصفراء جميلة جدا، قالت زوجتى: الأم تعلم الأطفال الحب بهذه الطريقة.

* * *

فى الساعة الثالثة خرجنا من الفندق بملابسنا اليابانية، كنا نرتدى الكيمونو، كان الجو بديعا، بالقرب من بوابة بيت آل واجنر كان فى انتظارنا كل من هنًّا وإيمًا ومدام ميولر التى تعيش فى الناصرة منذ خمسين سنة، وهى امرأة ذكية، لديها معارف كثيرون فى ألمانيا.

وصلنا إلى بيت السيدة ميولر الذى يقع فى مكان أعلى من بيت آل واجنر، دققنا الباب فانفتحت بوابة، دلفنا منها إلى حديقة مملوءة بالزهور والورود الجميلة، وصلنا إلى داخل البيت وصعدنا سلالم قليلة فوجدنا فى استقبالنا حارسا بطربوش أحمر، كما استقبلتنا خادمات فلسطينيات[٩٩]، ووجدنا باب غرفة الجلوس مفتوحا، فدخلنا إليها حيث استقبلتنا عجوز فى نحو الستين من عمرها ترتدى رداء بنفسجيا.

ذكرت لنا أنها تعانى من المرض منذ ستة أسابيع، وما زالت عيناها متورمتين، من غرفة الجلوس وعبر الشرفة يمكن مشاهدة حقول مرج ابن عامر[١٠٠]، كان المنظر جميلا يبعث على الراحة، قدموا لنا الشاى المستورد من الهند، لم نتناول الشاى منذ أن كنا فى القاهرة حتى هذه اللحظة، كانت فناجين الشاى مثل فناجين الشاى اليابانية، إلا أنها لم تكن بمستوى الفناجين اليابانية، وسيكون مرعبا لو قالوا إنها مصنوعة فى اليابان، ربما كانت صناعة ألمانية.

أخبرت السيدة العجوز أننى جئت بمفردى إلى الناصرة قبل ثلاث عشرة سنة، قالت مدام ميولر: جئت دون زوجتك أنت أنانى. وابتسمت ابتسامة عريضة، كانت تهتم بزوجتى وتحاول إشراكها فى الحديث معنا.

---

(٩٩) فى الأصل من أهل "المنطقة محليات".

(١٠٠) يطلق عليه أيضا Vally or Plain of Esdraelon.

ذكرت أن هناك أحد المبشرين اليابانيين جاء هنا قبل الحرب، وألقى موعظة فى الكنيسة، إلا أنها نسيت اسمه.

بينما كنا نتكلم إذا بامرأة بريطانية عجوز تدعى الآنسة نيوى Miss Newy تدخل علينا، كانت تعمل مشرفة على دار الأيتام، وبعد الحرب رجعت إلى هنا مرة أخرى، إنها تعمل وتتحرك مثل طائر صغير، كانت تجلس على الأريكة بقامة معتدلة، ولا يتحرك من جسمها إلا شفتاها الرقيقتان، وجسمها منصوب مثل "الألف" وصوتها واضح رغم هدوئه الشديد، وحين تتكلم تتكلم بشكل مباشر وبعبارات لا لبس فيها، وحين تمد يدها الصغيرة الرقيقة بالمصافحة أشعر بأن طريقتها تتسم بالبرود.

قلت للسيدة ميولر: المرأة العجوز فى البلاد الغربية أكثر صحة وأكثر شجاعة من المرأة العجوز فى البلاد الشرقية. فسألتنى السبب فقلت لها: فى الغرب لديكم كثير من الإيمان ولديكم كثير من الحب. فقالت: المجىء إلى هنا ليس ضربا من الشجاعة.

سألتها عن عمرها، وأنا أعبر لها عن أسفى لهذا السؤال، كانت هنًّا فى السادسة والثلاثين لكنها غير متزوجة، ما زالت آنسة، أما الآنسة نيوى فسألتنى ما إذا كان فى استطاعتى أن أخمن عمرها، قالت العبارة فقط دون ذكر عمرها، فتحدثت معهما عن أمى التى ماتت وقلت لهما: حين أشاهدكما أتذكر أمى. مدام ميولر أرملة منذ مدة طويلة، ولم تنجب، سألت الآنسة نيوى عن دار الأيتام قائلا: هل لديك أطفال كثيرون؟ فهزت كتفيها: لا أحب أطفال هذه البلاد[١٠١]. حدثتهما عن قصة أبى، سألتنى مدام ميولر: لماذا صرت مسيحيا؟ فقلت لها لأن الكونفوشية Jukyo لا يوجد فيها أى تعبير عن طهارة الحياة الزوجية، كما أن أبى كان يريدنى ابنا مسيحيا. بعدها طلبت من مدام ميولر أن تكتب شيئا فى الأتوجراف، فذهبت إلى غرفة أخرى ثم عادت وكتبت بعض الكلمات. طلبت أيضا من الآنسة نيوى أن تكتب شيئا لكنها اعتذرت قائلة إنها لم تحمل نظارتها معها،

---

(١٠١) فى الأصل: الأطفال المحليين .

وبدأت أتحدث عن عودة المسيح، فقالت مدام مولر: إن عودة المسيح لا يمكن أن تحدث ما لم يتخلص العالم من الجرائم التى تحدث الآن. ووافقت هنًا على هذا الرأى، إلا أن الآنسة نيوى عارضت وقالت المسيح سوف يعود حين يتعرض العالم للفوضى. وافقتها الرأى ثم تحدثت عن السلام الذى يمكن أن يتحقق من خلال قوة المرأة، فقالت الآنسة نيوى: أنت وضعت عبئا ثقيلا على المرأة. ثم قالت: حواء لم تكن سيئة، آدم كان سيئا. تطلعت هنًا الشابة إلى الآنسة نيوى بنظرة لا تدل على الارتياح، يبدو أنها تكرهها.

يوم أن زرت بيت آل واجنر قلت لهن جميعًا: أنتن لستن بنساء مسيحيات أنتن، نساء مسلمات. فبدت هنًا غير سعيدة بذلك، وقالت: هذا ليس بالأمر السيئ، أن يكون الإنسان مسلما ليس بالأمر السيئ، غير أن المرأة عادة ضعيفة. وذكرت عبارة فيكتور هوجو المرأة ضعيفة لكن الأم قوية، الأم توقف عراك الأطفال. وقلت: الإيمان بالمسيح لا يعنى أن تؤمنوا بهذا الأمر وتكفروا بذلك الأمر، الإيمان بالمسيح يعنى أن تؤمنوا إيمانيا كليا. فى ذلك الوقت دخلت امرأة فى الخمسين من عمرها، حين شاهدناها تدخل قلت لهن وداعا.

قبل أن تمضى قالت لنا الآنسة نيوى: إن زيارة دار الأيتام بالمجان، والدار دائما مفتوحة للزوار. وفى طريق العودة كنا نتحدث مع هنًا، قلت لها: أنت تحبين القيصر أكثر من الله، بالنسبة لك قيصر هو الله، صمتت هنًا ثم قالت: القيصر رجل طيب، وزوجته طيبة، الإمبراطورة طيبة وهى مسيحية طيبة جدا. وسألتها: هل تغضبك طريقة سؤالى، فقالت: أنا أحب التعبيرات المباشرة وأحب الصدق ولا أحب التملق. ثم قالت: من فضلك زرنا مرة أخرى. وهكذا افترقنا أمام بوابة بيتها ورجعنا إلى الفندق، حيث وجدنا غرفتنا نظيفة مرتبة على غير العادة، فقد غيروا كل الملاءات والمفارش والمخدات، فصار كل شىء جديدا، مما جلب علىَّ الشعور بالراحة والسعادة.

* * *

أثناء تناولنا طعام العشاء قال لنا الجندى البريطانى: البحرية اليابانية حصلت على غواصة ألمانية هدية، وقد سحبوها إلى اليابان، وعندما يتخيل هذا المنظر لا

تستطيع أن تمنع نفسه من الضحك... أظن أن مثل هذه الغواصة يجب أن تغوص وتغرق!

## فكرة عن مصر (حدث فى مصر)

الحادى عشر من مايو، اليوم الأحد يوم صلاة للمسيحيين، شاهدت النساء الألمانيات وقد تجمعن بينما قدمت لنا طفلتان بعض الأزهار، فقامت زوجتى بطى الورق الملون على شكل طائر الكركى عليه صليب من نفس الورقة التى شكلت منها الطائر(١٠٢) فرحت الطفلتان كثيرا، كما غطى السرور وجه والدتيهما، حين كنا نكتب شيئا فى حجرة الاستقبال جاء إلينا كثير من الأطفال، بنات وصبيان لذلك صنعت زوجتى لكل منهم طائرا من الورق، ربما صنعت سبعة طيور ورقية، وحين رجعنا إلى الغرفة أحضرت لنا جميلة فاكهة التوت، كانت ثمار التوت لذيذة جدا، لقد أحضرت التوت من بيتها، وقالت لى إن اسم الفاكهة بالعربية هو "توت" وذكرت لنا أنها ستذهب إلى الكنيسة؛ لذلك ارتدت ثوبا أزرق وكانت فى غاية الهندام.

حين ذهبنا للغداء كان هناك شاب سورى وامرأة شابة تلعب البيانو، حسبتهما زوجين، لكنه كان شقيقها من أسرة "الخورى"، والشقيق سكرتير حاكم جنين، وهذه أخته الصغرى، وهى ضاربة آلة كاتبة هناك، واليوم الأحد؛ لذلك جاء بالسيارة لقضاء العطلة هنا.

هذا الشاب "الخورى" لا يعرف شيئا عن اليابان، يخلط ما بين اليابان والصين، قالت أخته الصغرى إنها حين رأتنا لأول مرة ظنت أننا امرأتان، لم تحسبنى رجلا لأن شعرى صار طويلا جدا، لقد جاءا من "سيكيم" فى السامرة (الضفة الغربية) وهذا يعنى أنهما من أهل نابلس، وهكذا سمعت وتعرفت على نابلس من حديثى مع هذا الشاب، وقد قررت أن نصل القدس عبر السامرة (الضفة الغربية) وليس عن طريق حيفا.

---

(١٠٢) فن يابانى، وطائر الكركى يتناسب مع هذا الفن نظرًا لشكله ووضوح ملامحه.

بعد الغداء خرجنا لنشاهد حفل عرس، اليوم يشهد الكثير من حفلات الزواج والأفراح، تجمع عدد كبير من الناس، كان بعضهم يرقصون فى حلقات، ولما كنا نرتدى الكيمونو كان الناس ينظرون إلينا ويحدقون فينا، لذلك كنا نشعر بالخجل قليلا، حين تحركت زفة العروس كان هناك من يقود مجموعة من الناس ويردد "الله، الله، الله" ثم يغنى الناس من ورائه وهم يصفقون، لم أكن أعرف ماذا يدور بالضبط أو ما يقولونه، كانوا يغنون ثم كان هناك رجل يركب جوادا ويضع على رأسه عقالا مزخرفا ويرتدى ملابس جميلة، بينما الأطفال من الفلسطينيون المواطنين الفلسطينيين حوله يغنون باللغة الإنجليزية، وقد أشاروا إلى العريس، وهو رجل بشرته قمحية اللون، لم يكن شابا، بل كان رجلا تخطى مرحلة الشباب، كان يمسك أمامه بطفل، أتعجب من يكون عساه هذا الطفل، ومن ورائهما امرأة ترتدى ثوبا أخضر اللون تمشى على الأرض، هذه هى العروس، وهى أيضا لا تبدو صغيرة بل تخطت عمر الشباب، ربما كان الطفل ابنها وربما تتزوج للمرة الثانية حسب قول زوجتى. على كل حال العريس على الجواد والعروس على الأرض، هذه هى الطريقة الشرقية، لكن هذا زواج إسلامى.

حين رجعنا إلى الغرفة جاءت إلينا شقيقة "الخورى" تدعونا لتناول الشاى، ذهبنا إلى غرفة الاستقبال، هناك رأينا فتاتين سوريتين وشابا بطربوش، تخرجت شقيقة الخورى فى مدرسة بيت لحم، والفتاتان السوريتان صديقتاها، وهما من أهل الناصرة، أما الشاب ذو الطربوش فهو أخوهما الأصغر، صافحتنا الشابتان السوريتان، حاولت زوجتى أن تثبت "وردة بلدى" فى شعرهما، كانتا تشعران بالخجل، كانتا تعزفان على البيانو، تبادلنا بطاقات التعريف، وبعد قليل رجع السيد خورى مع شقيقته والرفاق الآخرين بالسيارة.

اليوم هو يوم الأحد لذا كان صوت الأورجن يتردد فى جنبات الفندق بينما الناس ينشدون الترانيم الدينية، شاهدت فريدا تضع حامل كاميرا فى الحديقة، وقد صفَّت الأطفال لالتقاط صورة جماعية، ثم طلبت من الخادم أن تمسك بطفل لتصوره، لاحظت أن فريدا مثل الرجل تقوم بكل شىء بنفسها، بوجهها الأبيض وقد تجاوزت الأربعين من عمرها، وقد نبتت شعيرات خفيفة أعلى شفتيها كأنها

شارب، وحين تقف واضعة يديها فى خصرها تبدو مثل ربة بيت ممتازة، وكنت أشاهدها وهى تقلم أغصان الأشجار لتستخدمها فى إشعال النار لزوم طهى الطعام، وكان عبد الله إذا ما وجد وقتا يقوم بهذه المهمة أيضا، تبدو أغصان الأشجار صلبة للغاية، فعبد الله رغم قوته كان يضطر أن يضرب بالبلطة أكثر من مرة على الغصن نفسه حتى ينكسر.

جاءتنا جميلة قبل مساء اليوم، كانت تشعر بالصداع، وضعت لها زوجتى كريم براندر" Brandre على جبهتها كما أعطتها مضادا حيويا، ففرحت كثيرا، وقدمت لها زوجتى بعض الحلوى اليابانية(١٠٢)، فربما كانت تعانى من شىء فى حلقها أساسا، وذكرت لها زوجتى أنها تشعر بألم فى الأسنان، فقالت جميلة إنها تعانى أحيانا من الشىء نفسه، وذهبت إلى طبيب ألمانى لخلع سنتها، وكانت تصرخ وتصيح بصوت عال؛ مما جعل الطبيب يلطمها على وجهها مرتين، ثم أمر الجنود بإمساك يديها حتى يتمكن من خلع سنتها، وقد مات هذا الطبيب حين قَدِمَ الجنود البريطانيون إلى هنا، وذكرت جميلة أن الجنود البريطانيين حين رأَوا الجنود الألمان يفرون ويهربون قاموا بإطلاق الرصاص عليهم، فمات كثيرون، ومَن قُبض عليهم صاروا أسرى حرب، أما الجنود الأتراك فقد عانوا كثيرا، فلا خبز ولا ملابس ولا أحذية، لا شىء على الإطلاق، وكانت جميلة قد أحضرت بعض الصور والبطاقات فرأينا مناظر الناصرة قبل الحرب، كانت مختلفة تماما.

كانت زوجتى تشعر بالضيق من حشرة صغيرة غير معروفة، زوجتى شخصية تميل كثيرا إلى النظافة إلى حد زائد، وكانت تواجه هذه الحشرة بكل جد، ربما هذه حشرة البق، لكنها حشرة لم نتعرف عليها بعد، ولا ندرى ما اسمها.

* * *

حين كنا نتناول طعام العشاء جلس بجوارنا جندى بريطانى ذكر أنه قدم من "سفيد"، وذكر أنه حين وقع الهجوم هنا فى سبتمبر الماضى أقام فى هذا الفندق، كما ذكر أنه تخرج فى جامعة كمبردج، وخلال أيام قليلة سوف تتم ترقيته إلى رتبة

(١٠٢) الملبس الحلو من أجل ألم الحلق.

أعلى وينقل إلى الهند، إلا أنه أضاف قائلا: لقد فقدت سبع سنوات من حياتى بسبب الحرب. وقد ملَّ الحرب ويشعر بالقرف، فلا تقدير ولا شكر ولا عرفان بجميل ولا حرية شخصية ولا، ولا، تعجبت وسألته: حقا؟! فقال: نعم. قلت له: أنت بريطانى، لهذا حاربت الألمان.

لم يكن بجوارنا أحد، لهذا تابعنا حوارنا لمدة ، فذكر لى سبب رغبته فى الذهاب إلى الهند، واستغرق فى الحديث عن الهند وعن مصر، وأشار إلى أن المصريين ليسوا جيدين، ويرجع السبب إلى أنه رغم أن لهم لغة واحدة، وهذا شىء مهم جدا بالنسبة لدولتهم ويعطيهم قوة، فإنهم يميلون إلى التحدث بالفرنسية والألمانية والإنجليزية جنبا إلى جنب لغتهم القومية.

تمنيت أن يكون بجوارنا الآن الجندى المصرى الذى أتحدث معه عادة، حدثته عن الخطاب الذى أرسلته إلى الجنرال ألنبى، أعرف أن إنجليزيتى ليست جيدة إلا أن كلماتى محددة وواضحة، وقد عبرت عما أقصده من معان بشكل واضح وتام، قلت له: لماذا يحتل البريطانيون مصر؟ ما الأسباب؟ لماذا تؤذون المصريين؟ بالطبع لا يجب ألا يتوقع البريطانيون كلمات الشكر من المصريين، هل يثق الشعب المصرى فى بريطانيا؟

أجاب إذا قلت إن ٨٠٪ منهم مخلصون وشجعان فربما هذا غير صحيح، إن المصريين لا يستمعون ولا ينصتون ولا يريدون أن يتم ترويضهم؛ لذلك لا مفر من ضربهم واستخدام العنف معهم، لكنى قلت له: حتى الكلب يمكنه أن يشعر بمشاعر الحب ومشاعر الحنان والمشاعر الجادة، فليس الضرب جيدا باستمرار، الكلب الذى يحب لا حاجة لضربه، فقط الشعور بالاحترام يمكن أن يقابله شعور بالاحترام.

قال الجندى: أوافقك ، وبريطانيا تحترم مصر. إلا أنه قال: لا يمكننى أن أجد شيئا يستحق الاحترام بالنسبة للمصريين. فقلت له: حين شاهدت الضابط الإنجليزى يضرب الرجل الفلسطينى فى القدس شعرت بأن هناك فرقا بين التفكير الغربى والتفكير الشرقى، لا يمكن أن يكون العقاب طبقا لقواعدكم

الخاصة. وطريقتكم الخاصة، وقلت له أيضا: إن اليابان ترتكب أعمالا سيئة أيضا فى حق الكوريين والصينيين، وأنا من جانبى بوصفى يابانيا أشعر بالأسف الجديد لهذا، والسبب فى رأيى هو أن اليابان لم تفهم الشعور الحقيقى للصينيين والكوريين. وذكرت له أن الأطفال المصريين الضعاف سوف يشبون رجالا أقوياء، ترى هل ستكون سعيدا؟ إن سياسة الاحتلال وسياسة الاستعمار هى طبيعة البريطانيين والثقافة البريطانية، أو أن الفكر البريطانى يرى أن بريطانيا هناك فوق قمة الجبل. لكن الجندى صمت ولم يتكلم بالإيجاب ولا بالسلب، ثم قال لى وهو ينصرف: يجب أن أكتب خطابا.

فقلت له: لماذا لا نتصافح... ؟

وهكذا تصافحنا، نظرت إلى الساعة فوجدتها تقترب من العاشرة مساء، لقد تكلمنا مدة ساعتين، خارج النافذة كان ضوء القمر يشع وبدا أبيض مثل الثلج.

* * *

الثانى عشر من شهر مايو درجة الحرارة ٦٤ فهرنهيت فى الصباح، وبلغت فى الظهر ٦٦ درجة، حين ذهبنا إلى غرفة الطعام شاهدت الجندى البريطانى الشاب يعزف البيانو، لقد تخرج فى جامعة كامبردج واسمه ثورنيكروفت Thornycroft، أظن أن هذا اسم فنان مشهور، شكا الشاب لى مذاق طعم الشاى، قال إنه خفيف جدا كما أنه أحضر كريم الشاى بنفسه.

حين كنت أكتب فى حجرة الجلوس كان هناك رجل مع زوجته، ظننتهما من فرنسا لكنى عرفت أنهما ألمانيان ضمن الإرسالية الألمانية فى حيفا، قدم الزوج بالأمس من أجل قداس الأحد ، شاهدت الرجل العجوز ذا الطربوش الذى قابلته أمس، كان اليوم برفقة زوجته، وعرفت أنه من نابلس وجاء هنا ليجرى عملية جراحية لابنته فى المستشفى، وهو أصلا من الجزيرة العربية، وكان وزيرا سابقا لليونان معينا من قبل الحكومة التركية، كانت لحيته البيضاء قصيرة، وكان يضع دائما الطربوش على رأسه، كان وجهه يبدو هادئا مألوفا بالنسبة لى، لا يتكلم الإنجليزية وأنا لا أتكلم التركية ولا العربية ولا الفرنسية، بهذا لم يمكننا التخاطب

معا، لكنه حاول أن يشرح لى ويخبرنى أن العرب واليابان من قارة واحدة هى آسيا، تمكنت من فهم ما يقصد، كانت هناك خريطة لفلسطين على جدار الغرفة، لذا أشرت إليها وقلت بلغة الإشارة وبالإنجليزية طبعا: اليابان هى نهاية شرق آسيا، وتركيا والعرب نهاية غرب آسيا، اليابان يمكن أن تكون اليد اليمنى وتركيا مع العرب يمكن أن تكون اليد اليسرى. وبينما نحن نتكلم جاءت فريدا فطلبت منها أن تترجم ما أردت أن أشرحه له، هذا بينما تكلمت المرأة الألمانية القادمة من حيفا مع زوجتى قليلا فقالت إن لها أختا فى الهند تشبه زوجتى، لهذا تشعر بالحنين لها.

فى طعام الغداء انضم إلينا جندى بريطانى جديد يدعى كليرجيمان، كما كان على المائدة نفسها ثلاثة ألمان من الإرسالية النصرانية فى حيفا، وهؤلاء الثلاثة الذين قدموا من حيفا هم أعداء، لهذا صار الجو مشحونا، حاولت أن أكسر حاجز الصمت، وأشيع جوا من الوئام بين الحضور، فقلت: بعد انتهاء القتال وتوقف المعارك يشعر كل شخص بالخجل. ثم تحدثت عن نفسى فذكرت أننى سافرت إلى روسيا بعد حرب اليابان وروسيا، وفى ذلك الوقت قبل ثلاث عشرة سنة جئت إلى هنا، إلى الناصرة أيضا، ومن حيفا انطلقت إلى القسطنطينية والبلقان ورومانيا، ووصلت إلى لييننجراد [سان بطرسبرج] فى روسيا، والسفينة التى ركبتها فى ذلك الوقت كانت سفينة روسية، الكابتن وزوجته وطاقم السفينة ثم الركاب جميعهم من الروس، كنت أنا اليابانى الوحيد، فى البداية تملكنى شعور عجيب، لكن بسرعة ساد الوئام وصار بينا نوع من الشعور بالصداقة.

حين ذكرت هذه القصة بدا الشعور بالراحة على وجوه الحاضرين، بعدها تحدث إلىَّ كل من الزوج وزوجته من الإرسالية التنصيرية، قالا: نحن آسفون لأننا لا نستطيع أن نتفاهم بطريقة جيدة مع زوجتك. ثم قالا: أمام الله كلنا نحن البشر سنتحدث لغة واحدة. فأجبتهما بذكر المثل اليابانى: "العين تعبر أكثر من اللسان"

بعدها أحضرت زوجتى الأتوجراف وطلبت منهما أن يكتبا شيئا، ذكرا أن بيتهما فى حيفا استولى عليه البريطانيون؛ لذلك تعيش الأسرة الآن فى منزل صغير جدا بالقرب من جبل الكرمل، ثم قدما لنا دعوة لزيارتهما إذا ذهبنا إلى منطقة حيفا، إلا أننى ذكرت لهما أننا ربما نعود عن طريق السامرة (الضفة الغربية) لذا شعرا قليلا بخيبة الأمل.

بعد ظهر اليوم الثانى عشر من مايو وفى الساعة الثالثة خرجنا قاصدين دار الأيتام، ارتدينا ملابس على الطراز الغربى اليوم، حين كنا نمضى فى الشارع التقيت بالشاب ذى الطربوش التركى الذى جاء إلى الفندق بالأمس مع شقيقتيه، ألقى علينا بالتحية وصافحنا، دخلنا إلى شارع ضيق، كان الأطفال الفلسطينيون من أهل الحى يلقون علينا أحيانا بالورود والأزهار أو حتى الأغصان الخضراء، حين دخلنا من بوابة دار الأيتام، وجدنا مدرسة الأيتام البريطانية، ورأينا مدرستين فلسطينيتين تعلمان الأطفال اليتامى فى الفناء، كان هناك نحو ٢٥ فتاة، وجدت من بينهن الطفلة التى قادتنا إلى نبيسئين[١٠٤] ، حين رأتنا إحدى المدرسات تركت التلميذات وصحبتنا إلى الداخل.

رحبت بنا الآنسة نيوى Miss Newy وقادتنا إلى غرفة الاستقبال، وهى غرفة صغيرة بالقرب من البوابة، قدمت لنا الشاى والحلوى، قدم نحونا كلب صغير، هذا الكلب الذى يسمى "بنتش" جاءوا به من دمشق، كنت أظن أنه كلبها لكن عرفت أنه ملك سيدة أخرى، بعد قليل جاءت صاحبته وأخذته وخرجت، إلا أن المرأة العجوز علقت بسخرية قائلة إن هذه السيدة من صنف هذا الكلب. هذه المرأة العجوز تتصف بشخصية متشائمة، شعرت بهذا حين رأيتها فى بيت مدام ميورا، قبل قدومها إلى فلسطين كانت تعمل فى أعمال تطوعية فى إنجلترا، هى نفسها ليست يتيمة، وقد سألتها: لماذا لم تتزوجى، ألم تجدى رجلا يعجبك؟ وقد سألتها هذه المرة بسخرية فقالت: لا فقط كل ما فى الأمر أننى أردت أن أكون حرة!

جاءتنى فكرة فقلت لها: بالطبع لقد حصلت على الحرية لكن هذه الحرية جعلتك شخصية باردة، والشاهد على ذلك شخصيتك المتشائمة... لكنى لم أنطق بما كان يدور فى خلدى.

(١٠٤) هكذا فى الأصل؟

اصطحبتنا إلى داخل المبنى، مبنى كبير، كان مزودا بتسهيلات عديدة قبل الحرب، خلال الحرب احتل الأتراك والألمان هذا المبنى، وشاعوا فيه فسادا، وحملوا جميع الأثاث، إلا أنهم تركوا شيئا واحدا، صورة مرسومة بالزيت للمسيح عيسى بن مريم مع فتاة، كانت الصورة لا توحى بأى جمال بل كانت صورة قبيحة، الآن جمعوا قطع الأثاث هذه من أماكن متفرقة، لذا فهى لا تتناسب مع شكل الغرف، كان عمال النظافة والصيانة مشغولين بإعادة تأهيل المبنى، لكن هذا سيستغرق وقتا طويلا حتى يعود المبنى إلى سابق عهده.

صحبتنا إلى حديقة خلف المبنى، حيث شاهدنا العربات العسكرية التى خلفها الألمان، لا تزال على حالها، وكانت هنا أشجار كبيرة إلا أنهم قطعوها كما ذكرت لنا.

حين جئت من جبل نبيسئين إلى الناصرة قبل ثلاث عشرة سنة شاهدت هذا المبنى من فوق الجبل، ما زلت أتذكر كل أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة، لقد تم قطعها وما زالت ملقاة على الأرض، اصطحبتنا إلى مبنى دون سقف وهى تقول: لقد حطموه، كان هذا المبنى قاعة للأطفال. وظلت تشكو لى كثيرا...

من هنا يمكن أن نشاهد الناصرة بوضوح، لكنهم حطموا كل شىء حقدا وحسدا، وحتى رغم سلوك الإنسان السيئ ذلك فإن كثيرا من الأزهار البرية نمت وتفتحت، كما لو كان ما حدث من دمار وخراب لا يعنيها فى شىء.

حين رجعت إلى غرفة الجلوس قدمت لها الأتوجراف، وطلبت منها أن تكتب لى شيئا، ثم قدمت مبلغا من المال تبرعا للدار، فظهر السرور على وجهها وهى تقول: هذا أول تبرع نحصل عليه بعد الحرب. ثم أعطتنا بطاقة تعريف بالإرسالية المحلية، وأشارت إلى أحد المبانى المجاور للمدرسة، وكان منخفضا عن مبنى المدرسة، قائلة: هذا مبنى كنيسة الإرسالية. وأضافت: فى وقت من الأوقات كانت

الناصرة مكانا مرتفعا إلا أنه بمرور السنوات بدأت الأرض تهبط وتنخفض، هذه الآنسة مس نيوى تذكرنى بالمرأة اليابانية القديمة مثل الأديبة سئيشو ناجون Sei-sho Nagon(١٠٥).

* * *

خرجنا من دار الأيتام واتجهنا إلى كنيسة الإرسالية، التقينا بالقس منصور الذى يشرف على الإرسالية، شعره أبيض ناصع البياض وهو فى السادسة والخمسين، اليوم يطلق عليه "يوم البيت" At Home Day لذا وجدِ أناس كثيرون فى حجرة الاستقبال، حين دخلنا وجلسنا على الأريكة كان جميع الناس يتطلعون إلينا، على الحائط برواز فيه لوحة مكتوبة باللغة العربية، وتعنى: أنا أريد السلام، هذه عبارة السيد المسيح. شاهدت عمدة البلدة يجلس يدخن الشيشة، أخذ يراقب ساعتى الفضية وقال لى: اليابان أمكنها أن تكسب النقود من الحرب، قلت: بعض الناس كسبوا وبعض الناس خسروا، وحتى الشهر الماضى ارتفعت أسعار الأرز ارتفاعا كبيرا، فكان الناس يهرعون هنا وهناك يحاول كل منهم شراء الأرز نظرا لنقص المخزون، وحدث شغب وإخلال بالأمن، أطلق عليه شغب الأرز.

كانت هناك فتاة بين صفوف الناس، عروس، سيعقد قرانها حالا، شاهدت تلاميذ المدرسة الذين سبق أن شاهدتهم حين زرنا الآنسة نيوى فى دار الأيتام، شعر الجميع بالسعادة لاستقبالنا هنا، فنحن ضيوف غير عاديين. وقد زار خمسة عشر رجلا يابانيا المكان من قبل، لكن هذه هى أول مرة تزور فيها امرأة يابانية هذا المكان، تأسفنا لأننا لم نأت مرتدين الكيمونو اليابانى، قدموا لنا القهوة والتين الجاف واللوز والقرع العسلى، تمتعت كثيرا بهذه الصحبة.

القس منصور تزوج منذ ٢٦ سنة، وعيد زواجه يحين يوم ١٨ مايو، وزواجنا كان منذ 26 سنة أيضا وعيد زواجنا كان فى الخامس من مايو، نحن تقريبا متشابهون فى هذا الأمر، كما أن القس منصور ليس عنده أطفال مثلنا تماما، طلبت منه أن

---

(١٠٥) أديبة يابانية عاشت فى عصر هييان.

يكتب شيئا فى أتوجرافى، اسمه أسد واسم زوجته لولو، أى لؤلؤ بالعربية، اصطحبنا القس منصور والعمدة إلى الصالة الرئيسية فى الكنيسة التى تأسست سنة ١٨١٧م، ومنصور هو القس الرابع هنا، ومضى عليه فى هذه الكنيسة أربع عشرة سنة، قام بفتح الباب، وتجولنا داخل صالة الكنيسة، نظيفة ومرتبة وبسيطة جدا بلا زخارف ولا زينات، وهناك فقط لوحات مكتوبة بالعربية، يقول إن المسيح ألقى أول خطبة هنا، ردد كلمات، يمكن أن تضم هذه الصالة نحو ٣٠٠ شخص.

شاهدت فى الحديقة الورود والأزهار وأشجار الصنوبر، وهم يزرعون فيها البطاطس أيضا، التقط القس منصور وردة وقدمها لزوجتى.

بعد الانتهاء من زيارة الكنيسة ذهبنا إلى منطقة السوق، وهناك التقينا بقس يونانى أخذنا إلى كنيسة يونانية، بداخلها كنيس يهودى صغير جدا وضيق ولا يوجد على جدرانه شىء، فى هذه الكنيسة سمع المسيح كلمات إيزايا، وبعدها ألقى خطبة، فخالفه الناس وعارضوه وقاموا بإلقائه من الجبل، حدث كل هذا هنا، فى كل وقت نلاحظ أن المكان الذى حدثت فيه مثل هذه الحكايات والأساطير يكون عادة صغيرا بسيطا، التقط القس اليونانى بعض الأزهار البرية البيضاء والحمراء وقدمها لزوجتى، بعد ذلك قال لنا العمدة إنه سيرافقنا إلى كنيسة ماريا، كما اصطحبنا القس منصور أيضا إلى كنيسة الجماعة اللاتينية، فى الطريق اشتريت شمعة، ذكر لى القس منصور أحد المحلات التى تبيع الإيشاريات، اشتريت واحدا بمبلغ ١٢ قرشًا وحين توجهنا إلى الكنيسة وجدناها مغلقة فرجعنا إلى الفندق.

* * *

جاءت جميلة لزيارتنا برفقة روزى، كانت جميلة تستعد للزواج، لهذا لونت أظافرها، فى اليابان البنات يلونّ أظافرهن باستخدام الأزهار، لا أدرى كيف لونت جميلة أظافرها ، كانت روزيه فى السادسة عشرة من عمرها، وهى فتاة كالحصان، تلبس الشبشب وتأكل طول الوقت حبات الحمص، وحتى آخر يوم شاهدتها من النافذة كانت تقف تحت تكعيبة العنب تمضغ ورق العنب!

شرحت جميلة لزوجتى بعض الكلمات العربية، كانت زوجتى تعانى من ألم فى أسنانها، لذا كانت تريد الماء الفاتر بدلا من الماء البارد، لم تفهم جميلة ما تقصده زوجتى، ولم تحضر بسرعة.

الشقيقتان من آل واجنر جاءتا إلينا، قدمتا لزوجتى أزهار الفل الجميلة وقالتا: هذه الأزهار من مستعمرة الألمان. قالت هنًّا إنها كتبت رسالة إلى الجنرال اللنبى، قرأتها، ربما أخذت وقتا طويلا فى كتابتها، وعدتها أن أرسلها مع خطابى الذى سأرسله فيما بعد، قالت إيمًّا إن الناس فى المستعمرة الألمانية يريدون أن يلتقوا بنا، وسألت عن إمكانية زيارتنا لهم، فالمستعمرة فى طريقنا ونحن متجهون إلى حيفا.

كنت حقا أريد أن أرى مزرعة المستعمرة الألمانية، وأريد أن أرى المنظر بالقرب من سهل مرج ابن عامر Vally of Esdraelon لهذا قررت أن أزور المستعمرة الألمانية، كان على إيمّا أن تذهب للمدرسة للعمل لهذا ستتولى هنًّا مرافقتنا على أن ننطلق ظهر الغد من بيت لحم بالحنطور. ورد ذكر بيت لحم فى الكتاب المقدس على أنها مسقط رأس السيد المسيح، إلا أن بيت لحم هذه ليست بيت لحم ، هذه بيت لحم فى الجليل، قالت إيمًّا إن الغروب فى بيت لحم جميل جدا، وأيضا القمر جميل جدا.

بعد العشاء كان الجندى المصرى على المائدة، ذكر أنه زار نحو ثلاثين قرية، وغدا بعد الظهر سيعود إلى حيفا، وحسب كلامه فإن الجنرال أللنبى غادر طبرية بالأمس متجها إلى دمشق، لم أكن أدرى أنه فى فلسطين. شاهدت رجلا سوريا يضع على عينيه نظارة ووجهه فيه حمرة شديدة، عرفت أنه ضابط حكومى من القدس، ذكر لى أنه شاهد يابانيا من قبل، ويمكنه أن يخمن أننا يابانيون، لكنه تساءل لماذا نحن هنا بعد الحرب مباشرة؟ إنه يتعجب كثيرا من هذا الأمر، قلت له: نحن شخصان اثنان يجب أن يكونا واحدا، المكان الذى نجلس فيه يكون بيتنا، نحن ذاهبون هنا وهناك حول العالم نمضى مثل بقرة، لذا بيتنا الآن هنا فى الناصرة. سوف نتحرك إلى طبرية فى السادس عشر.

## بيت لحم

### (١)

اليوم الثالث عشر من مايو الجو صحو، سنسافر إلى بيت لحم، لهذا نتناول الغداء فى الحادية عشرة والنصف، أخبرتنا فريدا أن هناك شخصا يريد أن يذهب معنا فى الحنطور، فقلت لها لا مانع لدينا. بعد الساعة الثانية عشرة منتصف النهار جاءت هنًا فجلست مع زوجتى فى المقعد الخلفى، بينما الشخص الذى تحدثت عنه فريدا كان امرأة شابة، جلست هذا الشابة خلف زوجتى، أما أنا فجلست بجوار "السايس" اليوم ارتدينا الكيمونو، ونلبس الأحذية، كان هناك جواد أبيض وآخر أسود يجران العربة، اقترحت هنًا أن نسلك طريقا آخر غير الطريق الذى سلكناه حين جئنا هنا، حين وصلنا إلى قمة التل شاهدنا جبل هيرمون. قلت لزوجتى: انظرى! هذا هو هيرمون. وصفقت بيدى، كان لونه أخضر يميل إلى الزرقة، وكان الجليد لا يزال يغطى قمته، إنه يرتفع عن سطح البحر نحو تسعة آلاف قدم، فجبل هيرمون هو أعلى جبل فى سوريا، العرب الذين يمتازون بموهبة قرض الشعر يسمونه جبل الشيخ أو يقولون إنه جبل الثلج، أعتقد أن الاسم الأول أفضل.

عربة الحنطور تمضى بنا

تصعد التلال

وفى الشمال يقف جبل هيرمون بقمته البيضاء

يقف شامخا مثل شيخ معمم

لذا اشتهر فى سوريا بجبل الشيخ

عاصفة خضراء، خضرة قاتمة تتحول للون الأزرق

تهب بالقرب من الجبال

بينما الثلوج ما زالت رابضة هناك

في أعلى الجبل، رغم أن شهر مايو قد انتصف

فوق التلال تفرع الطريق إلى طريقين: واحد إلى الشرق وآخر إلى الغرب، الطريق الشرقى يذهب إلى طبرية، مضينا فى الطريق الغربى، وشاهدنا على مرمى البصر البحر عند حيفا، وعلى الجانب الأيمن كان يمكننا أن نرى جبل هيرمون، الهواء يأتى مشبعا بماء البحر، ويهب الريح شديدا أحيانا، كادت قبعتى أن تطير أكثر من مرة، كنت أشاهد الفلاحين والأطفال يعملون فى الحقول، كانوا يحصدون محصول القمح، شاهدت أزهارا برية حمراء قانية، كانت جميلة جدا.

ألمح الثلج على قمة جبل هيرمون

وفى الشمال أشاهد البحر عند عكا

نحن ماضون يحدونا الأمل

بدأت الأزهار البرية تتفتح كأنها تضحك

فرحة بموسم حصاد القمح

أقف ها هنا بينما تغمرنى الرياح المشبعة بماء البحر

شاهدت قافلة من الجمال، بدت الجمال خائفة حين رأت الحنطور، قالت هنًا: الجمل حيوان جبان، ثم أضافت: أثناء الحرب أصيب كثير من الجنود البريطانيين بسبب سقوط الجمال عليهم، كما أصيب كثير من الجمال أيضا.

وصلنا إلى واد صغير أريد أن أسميه وادى الرمان، شاهدت كثيرا من أشجار الرمان وبجوارها أشجار الزيتون والتين والتوت، لكن الغلبة كانت لأشجار الرمان التى امتلأت بالأزاهير، فهذا موسم التزهير، هذا الوادى هو فى الحقيقة بستان فاكهة، لكنه واد يخلو من البشر، لا يوجد هنا إنسان، كانت الأغصان تلمع باللون الأخضر بينما كانت الأزهار بلونها الأحمر كأنها نيران مشتعلة، وكانت المياه تنساب فى جدول صغير بهدوء مصدرة خريرا هادئا... تعجبت كيف يزرعون الرمان بهذه الكثرة وبهذه الكثافة، تمنيت لو كنا فى موسم قطف الرمان!

بعد أن عبرنا هذا الوادى مضينا على طريق مملوء بالحصى، واقتربنا من حقول القمح، وصرنا على مقربة من بيت لحم، قالت هنًا: يمكن أن نتعرف بسهولة على حقول قمح المستعمرة الألمانية.

* * *

بعد مدة وصلنا إلى المستعمرة الألمانية، توقف الحنطور عند بيت، فنزلت المرأة الشابة التى ركبت معنا، وهى الخادمة مارجريت التى تعمل فى الفندق الذى نقيم فيه، بعد ذلك مضى الحنطور، وتوقف عند بناية فى الناحية الشرقية، كانت الساعة قد أشارت إلى الواحدة والنصف بعد الظهر، صاحب هذا البيت هو السيد شميدت Schmidt وهو يتكلم الإنجليزية بطلاقة، لسوء الحظ لم يكن موجودا، فقد ذهب إلى حيفا، رحبت بنا ابنته الشابة ماريا، زوجها جندى فى ألمانيا، حين جلسنا فى غرفة الجلوس جاء إلينا رجل فى الأربعين من عمره، قدمته لى هنًا قائلة: هو هر كوهنل Herr Kuhnle، قائد هذه المستعمرة. سألته عن طريق ترجمة هنًا عن أمور عديدة، فشرح لى موضحا أن هذه المستعمرة أساسا كانت فى حيفا، وانتقلت إلى بيت لحم منذ اثنتى عشرة سنة، ويوجد بها الآن ثلاث عشرة أسرة، ومن خلال الخريطة التى أحضرها معه لاحظت أن الأراضى مقسمة بالتساوى بين هذه الأسر.

قدموا لنا الشاى والخبز والزيدة والعسل، وكلها إنتاج محلى، كانت جميعها لذيذة وشهية.

أنت القائد هنا! تملك عقلا قويا

صافحتنى فشعرت بالقوة

حملت الزيدة المهداة لى

يا لها من زيدة لذيذة!

شعرت بمشاعر حميمة

. أى

أخذنا كوهنل إلى المستعمرة، وبدأ يعرفنا أولا على الحضانة، والمدرسة الابتدائية، المبنى عظيم وكبير رغم وجود ثلاث عشرة أسرة فقط، وفى الداخل شاهدت تاريخ المبنى المسجل: ١٩١٧م[١٠٦] ، قبل ٢٠ سنة كانت توجد امرأة ألمانية تعلم سبعة أطفال من البنين والبنات.

طلبت هنًا من المرأة التى تعمل بالتدريس أن تجمع الأولاد والبنات لنأخذ صورة جماعية، والتقطنا صورة، يا لها من متعة أن تلتقط لنا صورة بجوار الأطفال الألمان، بعد ذلك ذهبنا إلى بيت مارجريت، كان هناك كلب أسود بالقرب من مدخل البيت، لم ينبح الكلب حين شاهدنا، داخل البوابة توجد أزهار كثيرة، شاهدت شجرة تحمل أزهارا بيضاء صغيرة رائحتها طيبة للغاية، اعتادوا أن يصنعوا منها عقدا للعروس بمناسبة الزواج[١٠٧] ظهرت مارجريت فقالت لها هنًا مازحة: ما زلت تفتقدين أمك، مازلت بحاجة إلى رعاية أمك!! تبسمت مارجريت وأخذتنا إلى غرفة الجلوس، جاء إخوة والدى مرجريت من الحقل وتصافحنا، لقد قرأ كل منهم تولستوى جيدا، تكلمنا عن طريق ترجمة هنًا عن الحقل والزراعة والبطاطا الحلوة، وكيف أن زراعتها هنا غير مناسبة نظرا لندرة ماء المطر، إلا أن محصول القمح والشعير جيد جدا، قدموا لنا النبيذ الأبيض الذى صنعوه بأنفسهم، كنت أخشى أن أسقط من الحنطور أثناء العودة من تأثير هذا النبيذ، لذلك شربت كأسا واحدة فقط ثم انتقلنا إلى الحديقة، حيث توجد جميع أنواع الخضراوات والفاكهة، مثل البرتقال وغيرها، وهم يسحبون الماء من ينبوع فى الحقل الشرقى، يجمعون الماء ثم يسحبونه بالموتور عبر المواسير، ويوزعونه على البيوت. وفى كل بيت بئر لحفظ ماء المطر، وهم يربون الخيول. ذكروا لى أنه كان لديهم عدد أكبر من الخيول قبل الحرب إلا أنها سحبت منهم أثناء الحرب، والآن لا يوجد عندهم إلا ستة فقط، ذهبنا إلى الناحية الشرقية من المستعمرة، ومن هناك شاهدنا حقول سهل مرج ابن عامر قال هر كوهنل Herr Kuhnle إن أساس

---

(١٠٦) تاريخ تسجيل المبنى فى هذا المكان.

(١٠٧) يبدو أنه يشير إلى الفل أو الياسمين.

ماء الحياة ينبع من هذا المكان، وذكر أن الفلسطينيين[١٠٨] عادة ما يتركون الأرض تستريح بعد زراعة محصول معين، لكن فى هذه المستعمرة نستخدم الأسمدة الكيماوية؛ لهذا لا داعى للتوقف عن الزراعة لمدة معينة حتى تستريح الأرض، سألته عن علاقاتهم بالناس الأصليين هنا[١٠٩]، فأجاب بأن لديه مشكلة، إذ تتعرض المستعمرة للسرقة من قبل الناس الأصليين .

كان هر كوهنل Herr Kuhnle قبل ذلك يعمل فى المجال العسكرى فى ألمانيا، لكن حين حدثت مشاكل فى هذه المستعمرة استُقدم للقيام بحمايتها من أى اعتداء، ففى أثناء الحرب تم تجنيد معظم الرجال، ولم يتبق هنا سوى العجزة والأطفال، ومن ثم اضطروا لاستخدام الناس المحليين أى الفلسطينيين فى العمل بالمزرعة.

أشارت هنًا إلى بيت فى الناحية الغربية وذكرت أن ماريا التى تعمل فى فندق جرمانيا ولدت فيه، كان المكان محاطا بأزهار بنفسجية، وبينما كنا منطلقين إلى بيت هير كوهنل Herr Kuhnle شاهدنا مركبة عسكرية، كان هناك جندى مع شخص آخر بطربوش، رحب بهم هر كوهنل Herr Kuhnle، كانوا من الحرس المخصص لفحص الأراضى، وقد أرسلا من قبل مؤتمر السلام، ذكر هر كوهنل Herr Kuhnle أنه لقى قبل ذلك فى حيفا رجلا يابانيا كان يقوم بالمهمة نفسها، لا أدرى أهذه المعلومة صحيحة أم لا؟

وصلنا بيت هر كوهنل Herr Kuhnle، لاحظت وجود كراسٍ صغيرة كثيرة جدا، الفتاة التى استقبلتنا من قبل لم تكن ـ كما ظننت ـ ابنته، بل كانت ابنة أخته، طلبت منها أن تلتقط لنا صورة، كانت حجرة الطعام مملوءة بالذباب، قدموا لنا الخبز والزيد والعسل والشاى، سألت عن الضرائب، وعرفت أن هذه المستعمرة كانت تدفع الضرائب للحكومة التركية، وقد تقررت الضريبة بمقدار واحد من عشرة فى المائة من الإنتاج، تحدثنا عن ضريبة الماء، ذكروا بأن المستعمرة تتولى

---

(١٠٨) فى الأصل اليابانى: الناس المحليين أو البدائيين.

(١٠٩) أى الفلسطينيين.

الأمر بنفسها، ولا تعتمد على أحد، ولا يقدم لهم أى دعم خارجى. شاهدت براويز معلقة فى غرفة الجلوس ومكتوبًا عليها بالألمانية Dein ist welt حين نظرت إلى هذه اللوحة قالت لى هنًا: هذه العبارة تعنى بيتك هو عالمك، هذه عبارة قيصر. ثم قالت لى: يمكنك أن تفهم. قلت لها لا، لا أفهم، لا أعرف الألمانية حتى لو تحدثتما أمامى عن أسرار فهذا طيب لأننى لا أستطيع أن أفهم عن أى موضوع تتحدثان. فضحكت!

قلت لهم حين أثيرت مسألة السرقة من قبل الناس المحليين أهل البلاد: أنا أرى أنه من أجل مصلحة المستعمرة ومن أجل سعادة المستعمرة يجب أن يكون هؤلاء سعداء أيضا، بل يجب أن يكونوا أكثر سعادة منكم. احمر وجه هنًا كثيرا، وتأسفت لما يتعرض له السكان الأصليون من أهل البلاد.

ذهبنا بعد ذلك إلى بيت ماريا، الوقت يمضى بسرعة، رجع السيد شميدت تصافحنا وطلبت منه أن يكتب شيئا فى الأتوجراف، وركبت الحنطور، وكما جئنا وبترتيب الجلوس نفسه، جلست بجوار "السايس" بينما جلست زوجتى فى الخلف وجلست مارجريت خلف زوجتى، كانت مارجريت قد أحضرت باقة من الفل من صديقتها، وصار الحنطور مملوءا بالورود والأزهار: الفل والأقحوان والبنفسج والورد البلدى، نحن كنا نزرع بعض الأزهار، فى حديقتنا فى اليابان، لكنى لم أر فى حياتى مثل هذا الفل والياسمين فقد كان عبيره قويا، ورائحته الطيبة تفوح بشدة، أعتقد أن هذا يرجع إلى جفاف الجو هنا.

* * *

غادرنا المستعمرة الألمانية فى الساعة السادسة بعد الظهر، ومضى الحنطور يعلو ويهبط التلال، وفى طريقنا شاهدنا مستعمرة كتلك التى زرناها، ذكروا أنها مستعمرة ألمانية أيضا لكنها أقدم وأكبر من تلك التى زرناها، إلا أن الناس تركوها بعد الحرب، وصار هذا المكان موحشا... ما زلنا نمضى نعلو ونهبط التلال عبر الوادى بينما كانت الشمس تميل إلى الغروب، فكان المنظر قبل الغروب ساحرا، كان كل ما حولنا يسطع ويهتز بفعل أشعة الغروب والضوء الذى

قارب الاختفاء، شاهدت القمر بدرا، بدر ليلة الرابع عشر، ظهر فى الناحية الشرقية:

**شمس الغروب تميل أكثر وأكثر**

**أشعتها تغطى كارميل**

**وفى حقول مرج ابن عامر تتراقص سيقان القمح**

**تتموج فى مساء مايو**

**بينما الحنطور يمضى فوق التلال**

**حيث يواجه أشعة شمس الغروب**

**يمضى صاعدا هابطا**

**تحت الضوء الفضى لقمر ليلة الرابع عشر**

وصل الحنطور إلى مستعمرة ظننت أننى شاهدتها من قبل، كانت هذه مستعمرة جئيدا، من عندها سنأخذ الطريق الرئيسى، حل علينا الظلام بينما ارتفع القمر لينشر ضوءه من فوقنا ، ارتفع أكثر وأكثر، هذه ليلة مقمرة، حين وصلنا إلى حقول مرج ابن عامر كان ضوء القمر قد أضاء كل شىء من حولنا، بدا ضوء القمر باردا، صار الجو أبرد مما كان من قبل، غطت زوجتى نفسها بالوشاح (الشال) بينما غطيت نفسى بالمعطف، طلبت من هنًّا ومارجريت أن تغنيا أغنية ما، فبدأتا فى إنشاد بعض الترانيم، زوجتى انضمت إليهما...

**راكبين ظهر جواد أبيض وآخر أسود**

**سقط ضوء القمر على ظهر الجواد**

**بينما نحن فى مايو صار الجو باردا**

**هذا طريق الناصرة يمر عبر التلال**

**ظلال جوادين يمضيان عبر الطريق إلى الناصرة**

القمر يسطع على عربة الحنطور

عبر وادى مرج ابن عامر نمضى

ويمضى الطريق عبر التلال

فى الليلة المقمرة يمضى الحنطور

بينما الغناء يتردد

امرأتان ألمانيتان تغنيان

صوت أغنيتهما يتردد بين التلال

على الطريق المؤدى الى الناصرة

فى ضوء القمر

حين وصلنا إلى بوابة الناصرة قدمت إلينا امرأة تحمل كشافا كبيرا يعمل بالبطارية، شاهدت بجوارها شخصا آخر يحمل أيضا كشافا، ذكرا لنا أنهما ذاهبان إلى حفل زواج، فمايو هو شهر الزواج، وصلنا الفندق فى تمام الساعة الثامنة مساء.

اللنبى Allenby

حين رجعت من بيت لحم إلى الفندق التقيت برجل سورى تعودت أن أراه فى فندق جراند نيو هوتل Grand New Hotel فى القدس، شعرت بالسعادة بلقائه، صافحته وقمت بتحيته، وفى المساء تناولنا الطعام مع هذا السورى ومع الجندى البريطانى الذى يبدو فى الخمسين من عمره، تحدث مع زوجتى بالفرنسية، سألته هل أنت فرنسى؟ سألته هذا السؤال رغم أننى أعرف أنه بريطانى، فتبسم قائلا إنه بريطانى ويعمل ضابط جمارك، كنت قد رأيت الرجل السورى فى القدس، وتحدثت معه قليلا لكنى لم أعرف طبيعة عمله، كنت أظن أنه مؤلف أو كاتب، لأنه كان دائما يجلس ويكتب فى هدوء، بدا الضابط البريطانى غير مستريح حين كنت أتحدث مع السورى، وحين شاهدت ملامح عدم الانبساط على

وجهه، اعتراني الشعور بالغضب، سألني الضابط: هل طوكيو مدينة طيبة؟ فحاولت أن أتمسك بهدوئي، وأجبته بكلام عام، أراد أن يقدم لي بعض النبيذ، لكني رفضت شاكرا، ثم حاول أن يقدم لزوجتي بعض النبيذ فرفضت هي الأخرى قائلة له: شكرا.

جاءت فريدا حاملة رسالة وصلت أحد النزلاء، وتحدثت مع الضابط البريطاني، ربما كانت تسأله عمن يكون صاحب الرسالة، ثم خرجت.

حدثني السوري عن السيد فوا Foa الذي قابلناه في القدس، والذي يعمل مدير بنك بريطاني مصري كما أنه عمل مدير بنك في أمريكا الجنوبية، وكان السيد فوا قد اشترى "تحفة" من دمشق وقدمها إلى "زوجة ملك بريطانيا".

حاول السوري الاستمرار في الحديث معي لأنه شعر بأنني غير سعيد في وجود البريطاني، ثم قدم لي صحيفتين ورد فيهما خبر مفاده أن الجنرال اللنبي ذهب إلى طبرية قادما من القاهرة، وخبر آخر عن منطقة "شين تاؤ" في الصين، وتحولها إلى منطقة تحت النفوذ الياباني طبقا لما جاء في مؤتمر السلام، فقلت له: هذا ليس بالأمر الجديد، لأن منطقة "شين تاؤ" أساسا منطقة صينية، وبالنسبة لليابان لا تمثل هذه المنطقة أي أهمية، ووافقني السوري الرأي، وأنا أظن أن هذا القرار صدر بسبب عقد المؤتمر، أما التفاصيل فهي مختلفة عما يفكر فيه الرجل السوري، بالنسبة لي أعتقد أن شين تاؤ التي استولت عليها اليابان وأخذتها من ألمانيا بالقتال يجب أن تعود إلى الصين من خلال اليابان، القدر عادل، والإنسان أمين على ما لديه، اليابان حصلت على شيء بعد معركة ألمانيا، ولا تحتاج أي شيء أكثر من هذا.

هذا الحديث مع الرجل السوري أراحني وأراح مشاعري، وأنا أعود إلى غرفتي مع زوجتي.

منذ أن وصلنا إلى هذا الفندق لم تكن كمية الطعام كافية، ويوما بعد يوم بدأت الكمية تقل تدريجيا، في البداية قدموا لنا بعد وجبات الطعام الثلاث البرتقال

بكمية كبيرة لكن الكمية بدأت تقل حتى اختفى البرتقال تماما، فكنت أشعر بأن شيئا ما ينقصنا، لم أكن راضيا عن هذا الأمر.

* * *

فى الرابع عشر من مايو كتبت رسالة إلى الجنرال أللنبى بالإنجليزية:

الناصرة ١٤ مايو السنة الأولى من العهد الجديد

إلى الجنرال إدموند هـ. هـ. أللنبى

عزيزى المحترم

أنت لا تعرفنى طبعا لكنى أعرفك، كان ذلك فى القاهرة بعد ظهر يوم الخامس والعشرين من شهر مارس الماضى، حين رأيتك لأول مرة.

كنا - أنا وزوجتى - عائدين من زيارة المتحف، متجهين إلى فندق شبرد حين توقفت عربتك أمام حديقة الأزبكية، كانوا يخلون الطريق لسبب ما، آنذاك رأينا عدة مركبات قادمة فى صف واحد من ناحية المحطة، لا بد أن شخصية مهمة قد وصلت، ومرت العربات.

فى إحدى هذه العربات كان الجنرال بزيه العسكرى يجلس بكل جد، فكرنا فيمن جاء ليتولى أصعب وأكبر مهمة، ليدفع الأتراك بعيدا ويبعثر الألمان ويخرجهم من فلسطين.

والآن دعنى أقدم لك نفسى: أنا "توكوتومى كينجيرو" يابانى فى الخمسين من عمره، أديب محترف، مسيحى العقيدة، غادرت اليابان مع زوجتى فى السابع والعشرين من يناير فى رحلة حول العالم. ماذا دفعنا للسفر ومن أرسلنا؟ هذا ما لا أعرفه ولا أدركه، ربما كنا شعاعين أرسلا ليصنعا طوقا ذهبيا حول العالم، نزلنا فى بورسعيد فى الثالث عشر من مارس، وذهبنا مباشرة إلى القاهرة حيث مكثنا أكثر من نصف شهر فى انتظار تصريح السفر إلى القدس.

كان ذلك فى اليوم الذى أتيحت لنا فيه الفرصة لمشاهدتك، وأخيرا ومع نهاية مارس سُمح لنا بالقدوم إلى القدس. مكثت هناك أبريل بأكمله، وفى أول مايو الحالى غادرنا القدس، وفى الرابع منه جئنا إلى الناصرة حيث مكثنا الآن أكثر من أسبوع، لا تعد الأراضى المقدسة بالنسبة لى أراضىَ غريبة على الإطلاق، ففى صيف عام ١٩٠٦م جئت حاجا إلى فلسطين، وقضيت عدة أسابيع فى هذه الأرض، ثم ذهبت إلى روسيا عبر إستانبول، كان فى نيتى القيام آنذاك برحلة حول العالم، لكنى اضطررت إلى العودة إلى موطنى اليابان من روسيا مباشرة عن طريق سكة حديد سيبيريا... لماذا؟ لأن الوقت لم يحن بعد، كان علىَّ أن أنتظر ثلاث عشرة سنة أخرى، ومرت السنوات الثلاث عشرة، وانتهت الحرب المذهلة للتو، والآن انظر لقد جئنا!

أعرف أنك مسيحى طيب، ونحن أيضا نحب المسيح ونؤمن به إيمانا عميقا، وهنا فى الناصرة حيث عاش ثلاثين عاما من حياته الأرضية (البشرية) قبل١٩٠٠سنة، لا إنها لا تبدو ١٩٠٠سنة إنها تبدو لى كأن الأمر كان بالأمس فقط، حين أفكر فى أحوال البشرية أصل إلى نتيجة مفادها أنه يجب أن يظهر الآن ليؤسس مملكة الرب فى هذا العالم. فلا الحرب ولا مؤتمر السلام ولا أى شىء ولا أى شخص يمكنه إعادة تشكيل هذا العالم، لا أحد سواه يستطيع أن يصلح العالم.

سيأتى ليس فى صورة روح، بل سيأتى بشحمه ولحمه، والوعد الذى ورد فى الكتاب المقدس سيتحقق من غير شك أو ريب، ليس فى المستقبل المعتم لكن فى الحاضر الملموس الحى. كفانا ما عانيناه من الصليب، من المسيح الميت ومن المسيح الذى يموت، كفانا ما عانيناه، ففى كل ما عانيناه أكثر مما يكفى، لتسعة عشر قرنا مضت زعمنا أننا مسيحيون، ومع هذا فلم نفعل شيئا سوى أن نصلبه مرة من بعد أخرى.

هل سنصلبه إلى الأبد؟! لا يا سيدى الجنرال، عهد الصليب يجب أن يتوقف، لأن عهد الصليب يعنى عهد الشيطان. لقد استمر عهد الشيطان فى الواقع لفترة طويلة، فلينته عهد الصليب! لا نريد مزيدا من دم المسيح يسكب، دع الموت

بآلامه يختفى ويتوارى، والحياة بمباهجها تشرق فى مجدها! يجب علينا ألا نتشبث بالصليب مرة أخرى، بل يجب أن نبحث عن المسيح الحى، عن المسيح الذى قام. انتهت الحرب الدامية التى لم تشهد البشرية مثيلا لها، يا له من صليب، من صليب ضخم ، فليسقط الصليب!

مر ألفا عام تقريبا منذ كان ظهوره هنا، ألم يأن للعالم أن يتعلم فعل الخير بعد مرور كل هذه السنين؟! قطعا سوف يأتى، أمير السلام، وعهد جديد يجب أن يبدأ! ونظرا لأن مهمتك فى مصر فأنا لا أريد أن أقول شيئا فى الوقت الحاضر لكنى أدعو وآمل أن مصر لن تجد فيك نعم الصديق فقط بل ستجد فيك نعم الأب لأبنائه، الأب الذى سيفعل كل ما فى وسعه من أجل تربية أبنائه ورعايتهم، ويشعر بالسرور والفخر حين يجعل من طفله رجلا.

المخلص

توكوتومى كينجيرو

فندق جرمانيا ـ الناصرة

فلسطين

استدراك:

هنا فى الناصرة تعرفنا على أسرة ألمانية تدعى "واجنر الأب" Melchior Wagner يدير مطاحن للحبوب، رجل عجوز تجاوز الثالثة والسبعين من عمره، وقد هاجر من ألمانيا إلى فلسطين منذ خمسين سنة، وتزوج فى القدس، وجميع أبنائه ولدوا فى الناصرة، ويبدو أنهم مسيحيون طيبون، ومجتهدون وصادقون، تعيش ابنتاهما مع ولديهما هنا، لكن والديهما فى الوقت الحاضر فى هوليوبوليس بالقرب من القاهرة، حيث سجنا سجنا مدنيا وعسكريا ، ولا شك أن الرجل العجوز يفتقد ولديه كثيرا ويشعر بالحزن الشديد، وهم يثقون بأنهما سيرجعان إليهما فى النهاية، إلا أن طول مدة الحجز جعلت الأسرة تشعر بالأسى .

بالإضافة إلى ذلك فإن أخت زوجة واجنر سيدة عجوز، عمرها الآن أكثر من سبعين عاما، وقد تم حجزها مع زوجها وابنتها فى فندق فى حلوان، ويقال إنهم محجوزون فى الفندق نفسه مع نحو ٨٠٠ ألمانى، والحرارة الشديدة وحجزهم يؤثر كثيرا عليهم، وقيل إن السيدة العجوز وتدعى جيرترود فرانك مريضة جدا، وهى على مشارف الموت، لذا فإن آل واجنر فى قلق شديد لكنهم لا يدرون ما عساهم يفعلون، فهم أنفسهم مثل المساجين هنا، لهذا طلبوا منى أن أكتب إليك لعل هذا يخفف من وطأة الألم والقلق على أقاربهم ومواطنيهم من الرجال والنساء، ووعدتهم أن أرفع طلبهم إليك وأرفق رسالتهم هنا دون حاجة لإضافة أى عبارة من طرفى، فأنت أدرى كيف ستتعامل مع هذا الأمر، أود فقط أن أؤكد لك أن كوبا من الماء يقدم إليهم سوف يجعلنى سعيدا وشاكرا كأنك أعطيتنا هذا الكوب.

استدراك أخير:

لقد سمعت للتو عن مرورك فى الناصرة إلى طبرية ومنها إلى دمشق قبل عدة أيام، حسنا لقد رأيتك فى القاهرة لكنك لم تدر، وهنا فى الناصرة مررت لكنى لم أرك، ومع خطابى هذا الذى أرسله إلى القاهرة أتمنى أن نلتقى معا وجها لوجه.

* * *

بعد أن انتهيت من كتابة هذا الخطاب أرفقت رسالة هنًا وأرسلت الخطاب بالبريد المسجل، وقدم لى موظف مكتب البريد الإيصال ومكتوب عليه الجنرال إدموند General Edmond.

حمقى!

بعد أن كتبت الرسالة إلى الجنرال اللنبى، أخذت أتمشى هنا وهناك ، فقد كنا نستعد لمغادرة المكان خلال يومين أو أقل، لاحظت أنهم طلبوا تزويد الغرفة التى كان يسكنها الضابط المصرى بحمام خاص، وهذا يعنى أن هناك رتبة عالية ستنزل فى هذه الغرفة، أعتقد أن ضابط الجمارك البريطانى سينزل فيها.

بينما كنت أتمشى شاهدت بالقرب من صالة الطعام غرفة مظلمة قليلا، كانت المكتب الخاص لفريدا، تختلى فيها بنفسها وتنجز فيها أعمالها، وكانت

أحيانا تخيط فيها بعض الملابس، وتنهى الحسابات وفواتير الزبائن، وبعد هذه الغرفة وعلى اليمين هناك خزينة بأرفف، صفت عليها أطقم الشاى والقهوة، وشاهدت كلمة بقشيش كتبت بالإنجليزية، ربما قام بكتابتها أحد الجنود البريطانيين على سبيل المزاح أو الشقاوة، مما جعلنى أبتسم، فأنا رجل شرقى، يمكن أن أوافق أهل الغرب أحيانا، إلا أننى لا أوافقهم أبدا فى بعض الأمور، إن التاريخ الطويل لا يغير الإنسان بسهولة.

قابلت هذا الصباح السيدة ماريا ربة البيت، وذكرت لها أننى رأيت بيتها فى بيت لحم بالأمس، فقالت لى ماريا إن بيتها هنا، نعم هى على حق فالعروس اليابانية بعد الزواج تترك بيت أسرتها مسقط رأسها، فبعد الزواج تخرج من الأسرة، ويكون بيتها هو بيت زوجها، كان يجب ألا أقول لها بيتك، بل أقول لها بيتك الأول!

فى اليوم الخامس من مايو حين ذهبت زوجتى لتتسلق التلال، وبينما كانت تقطف بعض الورود، أصابت الأشواك إصبعها، ويوما بعد يوم تورم إصبعها، مما جعلها تعانى من الألم الشديد، لذا طلبت من فريدا استدعاء طبيب، فجاء طبيب سورى يدعى "فارابى" زوجته ألمانية، وأمه ألمانية أيضا، أحضر مرهما وضعه على إصبع زوجتى، ثم قطع مكان الورم وعصر الجرح، فخرج منه القيح مختلطا بالدم، ثم خاط الجرح، ووضع عليه رباطا، وطلب من زوجتى أن تقوم أحيانا بوضع إصبعها فى الماء الساخن والضغط عليه للتخلص من القيح، كنا نجلس فى غرفة الجلوس كان معنا قاسم وبصحبته الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء ومعه ابنه، وهؤلاء هم أصدقاء الطبيب، ذكر الطبيب لنا عن مهمة قاسم وابنه ذكى، وعرفنا أن الطبيب كان قد درس فى بيروت، كنت قد نزلت فى بيروت التى تقع على بعد أربع ساعات من حيفا شمالا قبل ثلاث عشرة سنة، وهى تسير فى ركاب الحضارة الغربية، وتوجد بها جامعة أسستها أمريكا على طراز الجامعات الأمريكية، وهى تشبه مدينة ناجازاكى فى اليابان، والسوريون يذهبون إلى بيروت، ويسأل الواحد منهم الآخر عادة: هل زرت بيروت؟ والشباب المثقف يذكرون عادة أنهم درسوا فى بيروت.

أعدت زوجتى للضيوف الشاى الأخضر، أعجب الطبيب وقاسم بالشاى كثيرا، وقالا إن الشاى لذيذ جدا لكن يجب أن يضعا عليه السكر. كانت زوجتى قد قابلت زوجة قاسم، وقاسم مسلم، لذا كان عليها أن تكون فى غرفة أخرى، كما أنها لا يمكن أن تخرج دون أن تكون محجبة.

* * *

فى المساء تحدثت مع الرجل السورى، لا أرى اليوم ضابط الجمارك، الرجل السورى يدعى رزقًا، بيته يقع أسفل جبل لبنان، لديه ولدان، عاش فى تركيا تسع عشرة سنة، وهو معجب بالطبيعة فى لبنان يصفها دائما، وقد طلب منا أن نزوره ، كما أنه معجب باليابان إلا فى شىء واحد، فقد ذكر أنه يجب ألا تؤذى اليابان الصين، فإذا كانت العلاقات بين الصين واليابان علاقات قوية فسيكون لهذا الأمر تأثيره الكبير على أهل الشرق، رزق رجل قلبه مملوء بالحرارة!

* * *

فى العشاء جلس بجوارنا ثلاثة أشخاص: السيد رزق وضابط الجمارك الذى يضع نظارة على عينيه، وضابط آخر بريطانى، ربما يعمل فى مصلحة الجمارك أيضا، أما مدير الجمارك نفسه فلم يكن موجودا اليوم، دار الحديث بيننا، رزق ممتاز فى اللغة الإنجليزية، اتخذنا من "عباس أفندى" موضوعا للنقاش، الضابط البريطانى لا يعرف شيئا عنه، بينما رزق لديه بعض المعلومات عنه، لكنه لا يؤمن بتعاليم البهائية، الرجل ذو النظارة قال إن عباس صديق أبيه، وتحدث عن تعاليم البهائية، وقال: لقد بدأوا مؤخرا فى عبادة الأصنام، فتساءل رزق عن هذا قائلا بأنه ممنون للتعرف على هذه المعلومات.

كنت أسمع نقاشهما وأفكر فى أن مثل هذا الدين لا يمكن أن ينجح فى أمريكا لأن أمريكا لا تضم جنسا واحدا بل هى خليط من الأجناس والعرقيات.

بعد العشاء شربنا القهوة، بدأ ثلاثة أشخاص يدخنون السيجار، كان الرجل البريطانى يجلس أمام زوجتى مباشرة، سألته: هل أنت بريطانى فرد قائلا: طبعا. فسألته ثانية: هل من عادتك أن تبدأ التدخين دون أن تستأذن من السيدة التى

أمامك؟ قال: يمكن أن أدخن بالطبع دون استئذان، لأننا فى وقت الحرب. فقلت له: يجب عليك قبل أن تبدأ التدخين أن تستأذن من السيدة التى أمامك، هذا أبسط قواعد اللياقة، ألا تظن ذلك؟ فصدرت عنه ضحكة عالية، وظل يقهقه بصوت عال، هاها هاها. وحاول أن يقول شيئا لزوجتى، فصحت فيه بصوت عال:

أنتم حمقى You are fools. وصحت فيه ثانية بينما كانت يدى اليمنى تضرب الطاولة: أنتم حمقى You are fools.

فتجهم وجه الرجل البريطانى وأخذ الأمر محمل الجد، وانتصب واقفا وتمتم بكلمات اعتذار غير واضحة I beg your pardon.

لم أهدأ ولم ينته شعورى بالغضب... هذه الأيام صار عقلى متعبا، وصار مثقلا بأشياء كثيرة حدثت، كانت كما لو كانت سحبا تغطى الشمس، أريد أن أتخلص من هذه السحب لكنى لا أستطيع، كانت مثل حمم بركانية تخرج متدافعة من راسى، كيف يمكن أن أهدئ من شعورى بالغضب؟ كيف يمكن أن أُوقف تدافع هذه الحمم؟! فى العادة أصيح باللغة اليابانية، لكن هذه أول مرة أصيح فيها باللغة الإنجليزية وبهذه الطريقة! لقد أردت أن أستمر وأكمل كلامى لكنى لم أجد الكلمات، لهذا قلت You are fools استخدمت الجمع وكنت أحاول أن أتذكر هل هذه صيغة الجمع أو المفرد، بالقرب منى كان هناك ثلاثة رجال يتصفون بالوقاحة، لذا كان يجب أن أستخدم الجمع، هذا صحيح، لقد تحدث إليهم بالإنجليزية الركيكة... وقلت لهم انتبهوا حتى لو لم تكن أمامكم امرأة يابانية بل امرأة من أهل هذه البلاد أو من أى بلد آخر، فلا يجوز أن تكونوا وقحين غير مهذبين أمام المرأة، أى امرأة كانت. نفست عن غضبى وصحت مخاطبا نفسى You are fools، قذفت بالمنشفة على الطاولة، ونهضت واقفا وأخذت زوجتى وغادرت صالة الطعام.

لم أنتبه للموقف لكن زوجتى أخبرتنى بعد ذلك أن الجندى البريطانى كان لا يزال واقفا حتى اختفينا عن أنظاره.

حين رجعت إلى غرفتنا شعرت كأن بلطة حادة تضرب ظهرى من الخلف، كانت هذه أول تجربة لى من نوعها، اكتشفت أن لدى مثل هذا الطاقة الكامنة بداخلى، والتى تفجرت فجأة؛ لم أكن أدرى، لم يسبق لى أن صحت أو عنفت أو شتمت رجلا إنجليزيا من قبل، لكن هذا الرجل كان بداخله ومن ورائه أحفاد الأنجلوساكسون عشرات الملايين من النصارى البيض ومئات الملايين من البشر الآخرين، لقد عنفته وشتمته بسبب وقاحته وسوء أدبه تجاه البشر، عنفته بكل قوتى؛ لذا كان رد فعل جسمى مساويا لانفعالى الشديد، كانت زوجتى قلقة بسبب مشاعر الغضب الشديدة التى انتابتنى، وربما يحدث هذا أيضا فى صورة رد فعل فى مناسبات أخرى مماثلة.

جاءت إلينا جميلة لتسأل عن ألم إصبع زوجتى، لكن زوجتى نسيت تماما - فى خضم ما حدث - أمر إصبعها.

## اليوم الأخير

اليوم هو الخامس عشر من مايو، قابلت رزق على مائدة الإفطار، لاحظت أنه يشعر بالخوف قليلا، لدرجة أنه لم ينطق حتى بتحية الصباح، لم يكن الرجل الإنجليزى وزميله الآخر فى غرفة الطعام، كانت فريدا تهتم بنا، إنها امرأة ألمانية قوية، لكنها حين تطلعت إلى وجهى بدت خائفة منى.

بعد تناول الطعام ذهبنا إلى الحديقة، كان عبد الله واقفا كالتمثال لا يتحرك، إن ما حدث بالأمس أثر على كثير من الناس من حولنا، أعتقد أن كل شخص يريد أن يفوز فى الحرب، شعورى صار سيئا إلى حد ما.

* * *

قبل الظهر جاءت إلينا فريدا وقالت إن بعض رجال الشرطة جاءوا إلى الفندق، فذهبت إلى غرفة الاستقبال، شاهدت شرطيا فلسطينيا(١١٠) تحدثت معه عن طريق فريدا التى كانت تترجم ما دار بيننا، كنت أظن أنه جاء ليسأل عما دار

---

(١١٠) فى الأصل محليا.

بالأمس، إلا أنه سأل عن وضعى هنا وبرنامج رحلتى، ثم صافحنى ومضى إلى حال سبيله.

فى الغداء قابلت فريدا، كان مخططنا أن نغادر هذا الصباح إلا أن السيارة تعطلت، ولهذا سنبقى هنا حتى اليوم التالى، لم أشاهد الرجلين إياهما، فكرت أن أصافح الضابط الإنجليزى أمام الناس إذا قابلته وأن أقوله له: "حسنًا، حسنًا، لقد اعتذرت اعتذارا كبيرا"، لكنى لم أجده هنا، لا بأس! على الإنسان أن يفكر كيف يمكن أن يفوز، من الصعب أن يخسر بطريقة عادلة، وإذا خسر الإنسان بشرف فهو يشعر عندها بالفخر، لكن هذا البريطانى ربما ليس رتبة عالية، حتى رغم هذا فموقف الخاسر كان موقفا مفضلا لديه، لقد فضل الخسارة.

انتهينا من حزم أمتعتنا، ثم استرحنا على السرير، علينا أن نودع هذا الفراش غدا. سمعت فريدا تطرق الباب قائلة: القس منصور قادم لزيارتكم. كنت أنتظر زيارته هذه، بالأمس ذكر رزق اسم شخص يدعى أسدًا، وكرر ذلك، لم أفهم ما قال، إلا أننى عرفت بعد ذلك وفهمت أن أسدًا هذا يعنى أن منصورًا اسمه أسد.

التقينا بالقس منصور الذى أراد أن يدعونا لتناول العشاء فى اليوم التالى، لكنى أخبرته أننا سنغادر اليوم، فأصيب بخيبة أمل، كتبت بعض الأشعار وقدمتها إليه، كتبت:

**إلى القس منصور فى الناصرة**

**لقد تزوجت منذ ست وعشرين سنة.**

**لم تنجب طفلا**

**لم ننجب نحن أيضا طفلا**

**حرمت مثلنا من الذرية**

**زواجك وزواجنا تم فى السنة نفسها**

**وفى الشهر نفسه يا لها من صدفة**

نحن نرحب بالقادم إلينا فهو منا

لا بد أننا نحب هذا القادم الذى يزورنا توكوتومى [كينجيرو]

ثم كتبت ملحوظة: "السنة الأولى من العهد الجديد ١٥مايو: فى فندق جيرمانيا فى الناصرة اليوم يمر على ذكرى زواجنا عشرة أيام فزواجنا كان يوم ٢٦ بينما ذكرى زواج القس منصور بعد ثلاثة أيام. اليابان، توكوتومى كينجيرو".

ترجمت ما كتبت باللغة الإنجليزية، وكتب القس منصور بعض العبارات بالعربية بالمعنى نفسه، طلبت فاتورة الحساب.

ذكر لى منصور أن"الإرسالية التبشيرية للكنيسة البريطانية" British Church Mission Society كانت تقدم للكنيسة مبلغ٢٠٠٠ جنيه(١١١) ثم قاموا كل سنة بخصم مبلغ ٢٠جنيها(١١١) وبعد الحرب وصل المبلغ إلى ١٠٠٠ جنيه(١١١) فقط، ويقوم المواطنون هنا بالتبرع بمبلغ ٢٠٠ جنيه(١١١) ولهذا فهم يحاولون تدبير أمورهم طبقا لهذه الميزانية المحدودة.

جاءت زوجة القس منصور لزيارتنا أيضا، عرفت أنها فى غرفة قاسم، أردت أن أذهب إلى غرفة قاسم إلا أنه أوقفنى لأن المرأة المسلمة لا ترغب فى أن يراها رجل غريب عنها، فهذا ممنوع فى الإسلام، فقلت بينما زوجتى تصافح السيد قاسم أنا لا يمكن أن أرى وجه زوجته... هذا ليس عدلا! ثم ذهبت إلى الغرفة فشاهدت زوجة قاسم ترتدى ملابس سوداء، تبدو شابة، قالت زوجة القس منصور: آه، هل هذا هو الكيمونو؟ أعجبت السيدتان كثيرا بالكيمونو الذى كانت ترتديه زوجتى، وعبرت زوجة منصور عن دهشتها لأن زوجتى لا تضع فى إصبعها خاتم الزواج. ضمت الحجرة ثلاث نساء وثلاثة رجال، انتقلنا إلى غرفة الجلوس، قال القس منصور لقاسم: حان الوقت لنفكر فى الثقافة الإسلامية فيما يتعلق بالمرأة، الأسماء العربية لها معان معينة، وقاسم مثلا يعنى الرجل الذى يقسم، وعبد الهادى يعنى عبد الله، فالله هو الذى يهدى، ومنصور مأخوذ من النصر، ولولو تعنى اللؤلؤ، وبدورى تحدثت معهم عن معانى الأسماء اليابانية، كنا نريد أن

---

(١١١) هكذا فى الأصل.

نبقى معا مدة أطول إلا أن وقت الوداع قد حان، قال لى منصور باللغة الإنجليزية "نلتقى يوم الجمع! " فأجبته "لا، لا، سوف نلتقى فى هذه الحياة الدنيا ثم نأتى هنا مرة أخرى" ثم ودعناهم.

* * *

فى الساعة الثالثة بعد الظهر أكملت ارتداء ملابسى الصيفية، بينما ارتدت زوجتى الملابس التى اشترتها من القاهرة، وحملت "شمسية" تقيها أشعة الشمس، ذهبت إلى مدام ميورا، قدمت زوجتى إليها ورقة صغيرة كتبت فيها:

**حين تتفتح الورود والأزهار.**

**يزورك الأطفال**

**يفكرون فيك**

**حين يشمون العبير يفوح من الحديقة**

**أى**

كان والد مدام ميورا يعمل بالتنصير داخل فلسطين لنحو ٤٥ سنة، وقد مات فى غزة، وزوجها يعمل بالتنصير أيضا، أنجبا طفلا لكنه مات بعد مولده بقليل، يشرف زوجها أيضا على مدرسة للأيتام، كانت هذه المنطقة ملك أبيها لكن السلطات التركية ماطلت فى تسليمها لها، وحين زار قيصر ألمانيا فلسطين والتقى بالألمان وتساءل عن أحوالهم وما يواجهونه من قضايا أو مشاكل، كتب والدها للقيصر عن الأمر، فتحدث القيصر مع السلطات التركية التى أمرت برد الأرض فورا، ذكرت مدام ميورا أنها تدير بيتها وتزرع أنواعا كثيرة من الأزهار والورود، وقد حاولت أن تروض العمال المحليين الفلسطينيين، لكن كثيرا ما يسرقون الإنتاج، وظلت تشكو منهم، تعاطفت معها وقلت لها: يرعاك الله دائما، إن الله يراقب عملك، والله خير الماكرين(١١٢) قدمت لنا الشاى والحلوى. كان المنظر من الشرفة أجمل منظر يمكن أن يشاهد من أى بيت آخر فى الناصرة.

---

(١١٢) فى الأصل الله ذكى.

كانت الشمس تسطع فى منتصف شهر مايو، كان منظر الخضرة والأزهار يوحى بأننا فى عالم آخر غير هذا العالم!

خاطبتها قائلا: سوف نزورك ثانية، اهتمى بنفسك. وتصافحنا، بعد أن تركنا بوابة البيت، قلت لزوجتى: وسط هذه الظروف لا يمكنها أن تنال عطف أو مشاعر الشكر من المواطنين المحليين!(١١٣).

* * *

زرنا بيت آل واجنر، حيث وجدنا جميع أفراد الأسرة، قدموا لنا كأس نبيذ، أخبرت هنًا أننى كتبت رسالة إلى الجنرال أللنبى، حين دار الحديث عن نقص الطعام فى ألمانيا شعر الجميع بالقلق على مستقبل ألمانيا، ذكرت أن أمريكا وبريطانيا يعانيان أيضا من نقص الطعام بشكل أو بآخر، بالنسبة للمستقبل أعتقد أن ألمانيا وروسيا أمامهما فرصة فى المستقبل، إلا أننى أشعر بالسعادة لأن ألمانيا انهزمت، لأن انتصارها يعنى تحطم البلد، فى اليابان مثل يقول: "الأشجار والأعشاب تتحطم لكن من هناك تنبت الأزهار" Fumarita kusa ki ni hana ga saku"(١١٤) فإذا كان الشخص بعد طول معاناة سيقوى ويشتد عوده بعد ذلك فلا تقلقوا على مستقبل ألمانيا.

عندئذ سألونى: هل هذا رأى يابانى أو فكرة يابانية؟ فأجبت: نعم هذا رأى يابانى، اليابان تتعلم من ألمانيا، ونحن فى اليابان متعاطفون مع ألمانيا، ونثق بمستقبل ألمانيا. فسألونى: ماذا عن مستقبل بريطانيا؟ فأجبت: المنتصر يعانى صعوبات أكثر من المنهزم، ففخرهم بالنصر سيحولهم إلى شيطان، وعلى كل حال فالبريطانيون انتصروا وهم يشعرون بأنهم يحمون العالم، لكن مستقبلهم مظلم جدا، لأن الأمريكان القادمين الجدد يتربصون ليأخذوا مكان بريطانيا، فمسيرة القدر غير منتظمة، مرة هنا ومرة هناك، منذ خمسين سنة خسرت فرنسا من ألمانيا، والآن ألمانيا انهزمت، ماذا سيحدث بعد ذلك؟ القدر وحده سوف يحدد مسيرة كل شىء.

---

(١١٣) يقصد الفلسطينيين.

(١١٤) ربما يكون المثل قريبا من المثل العربى "إن بعد العسر يسراً". وفى القرآن الكريم: ﴿فإن مع العسر يسرا﴾ (الشرح/ ٥).

كانت أسرة آل واجنر سعيدة بحديثى وبآرائى تلك، بينما أرادت زوجتى أن تلفت انتباهى إلى أننى لست يابانيا عاديا، وأننى أحيانا أعبر عن أفكار مختلفة، وهذا صحيح، زوجتى على حق. قلت لآل واجنر: نحن يابانيون نحب اليابان، نحن نريد أن نكون - رجلا أو امرأة - بشرا نتصف بالمشاعر الإنسانية أكثر من أن نكون وطنيين تسيطر علينا النزعة الوطنية، نحن لسنا أكثر يهودية من عيسى المسيح الذى كان يهوديا؟!! انتبهوا جميعا، وظهر الجد على وجوههم، غمرهم شعور غريب، ثم صافحت كل واحد من أفراد العائلة، وقلت لهم: سنفتقدكم كثيرا!

* * *

حين رجعنا إلى الفندق كانت الشمس قد غربت، أخبرتنا فريدا أن شرطيين ينتظراننا، سمعت أحدهما يتكلم بصوت عال فى حجرة الجلوس، كان أحدهما ضابط الجمارك، لم يتحدث معى، أخبرنى الشرطى أنه سيصطحبنى إلى مركز الشرطة، لذا يجب أن أحمل معى وثائق إثبات الشخصية وغيرها، فأخذت حقيبة صغيرة، وضعت فيها جواز سفرى، وقلت لزوجتى: لا تقلقى. فى قسم الشرطة القريب من بئر ماريا، قال لى شرطى محلى[١١٥] باللغة الإنجليزية: من فضلك! أرنا تصريح السفر.

كان التصريح الذى حصلت عليه فى القدس تصريحا للسفر حتى حيفا فقط، وقد أعطيت التصريح إلى مسئول محطة حيفا فقالوا لا حاجة للحصول على تصريح لزيارة الناصرة، لذلك جئنا هنا دون تصريح، وكتبت اسمى فى سجل الفندق، لا أظن أننى ارتكبت خطأ، إلا أن الشرطى الشاب صاح: أين خطاب التصريح؟ أين تصريح السفر؟

اعترفت له بأننى لم أحصل على تصريح فى حيفا وقدمت له جواز سفرى، فاصطحبنى إلى مبنى آخر، أمام المبنى كان هناك حراس محليون فلسطينيون يحملون بنادقهم، دخلنا المبنى فاصطحبنى إلى حجرة فى آخر المبنى، حيث يجلس شاب بريطانى صغير، استمع إلى ما قاله الشرطى، وطالع جواز سفرى وابتسم

(١١٥) فلسطينى.

قائلا: حين تذهب إلى طبرية - رجاء - سجل اسمك فى سجل الشرطة. ثم أعاد لى الجواز، عندئذ قدم الشرطى الفلسطينى لى كرسيا فجلست وتحدثنا قليلا، وتصافحنا وخرجت من قسم الشرطة.

كانت فريدا تنتظرنى فى قلق، سألتنى عما حدث لى، فأخبرتها بأن شيئا لم يحدث لى، فقط كان الشرطى يريد أن يقضى بعض الوقت فى التحدث معى، فتنهدت قائلة: إذن خيرا! أما زوجتى فشعرت بالراحة حين شاهدت وجهى، وعرفتُ أن القس منصور كان قلقا علىَّ فى غيابى.

* * *

فى العشاء وعلى غير العادة تجمع على المائدة أربعة عشر شخصا، تحدثت مع الرجل الجالس بجوارى، كان برفقة زوجته، وهما أمريكيان فى الخدمة العسكرية، سألونى هل أنا مبشر نصرانى؟ ثم سألونى أيضا عن اليابانى كئيه؟ فقلت بأننى لا أعرفه، وشعرت بالخجل قليلا لأننى لا أعرف عن مواطنى شيئا، بعد تناول الطعام بدأ التدخين، تطلع إلينا رزق، أنا على كل حال لست بالرجل الذى يحقق فيمن يدخنون، لست من هذا النوع من البشر، أخذت زوجتى وطلعنا إلى غرفتنا.

ها هى الناصرة، وهذه هى الليلة الأخيرة، كنا نتوقع زيارة شخص لكنه لم يأت، حتى جميلة لم تأت أيضا، وحتى فاتورة الفندق لم تصل إلينا.

حين تطلعت من النافذة وجدت قمرا أبيض... اليوم هو السابع عشر فى الشهر القمرى... سمعت صوت كلب ينبح، بينما كان هناك من يغنى بكلمات لا أعرف معناها.

وداعا يا بلدتى وداعا يا بلدة الذكريات[١١٦]

فى الساعة السادسة صباح يوم السادس عشر من مايو تناولنا طعام الإفطار، اشتريت مفارش يدوية من عبد الله، ودفعت له ٥٠ قرشًا، أخبرتنى زوجتى أن

---

(١١٦) استخدم المؤلف كلمة "سارابا"! التعبير الذى كان يستخدمه الساموراى قديما بدلا من التعبير الحديث "سايونارا".

المفارش الجيدة قد بيعت، أعطيت عبد الله ورقة بجنيه فتهللت أساريره ، وقدم لنا مفرشا قيمته ٢٠ قرشًا قائلا: إن هذا هدية (بقشيش). وهكذا تهللت أساريرنا جميعا وغمرتنا السعادة، نادت زوجتى على جميلة وأعطتها ورقة بجنيه، ففرحت كثيرا وأخذت تعرض الجنيه على كل من كان فى الفندق، أحضرت لنا فريدا الفاتورة، فدفعتُ أجر الإقامة لمدة ١٢يوما، سلمتها مبلغ ١٠٠٠قرش فأعادت لى مبلغ ٢٥ قرشًا فكة، ثم أعطيتها فى مظروف يابانى خاص ثلاث ورقات بنكنوت كل واحدة بمبلغ جنيه، وقلت لها: هذه من أجل إينورجيه وتيودورا. فرحت كثيرا وخاصة بعد أن شرحت لها معنى هذا المظروف اليابانى المصنوع من ورق خاص، من أجل تقديم الهدايا النقدية أو ما شابه ذلك، فقالت: هذا رمز السعادة ورمز الذكرى الطيبة. ثم طلبت منها أن تعطى بعض الهبات للخادمتين الألمانيتين، فقالت: هذا كثير. لكنها قبلت الهبات على كل حال، وكانت فى غاية السعادة، ثم ذهبت إلى حجرتها وعادت حاملة كتابا قدمته لى، وهو ترجمة ألمانية لكتاب المؤلف لافوكاديوهان عن اليابان(١١٧) . لم أقرأه، لكنى قلت لها أن تحاول قراءة هذا الكتاب، لقد أحب المؤلف "هان" اليابان أكثر من اليابانيين، أخبرتها زوجتى أن زوجة هان يابانية، فى هذه الأثناء حضرت ماريا وذكرت أن طفلها أصيب بوعكة، لذا لم يأت معها وهى آسفة لذلك. تصافحنا ثم غادرت، وبعدها جاء عبد الله، ثم جاء سائق الحنطور الشاب لحمل أمتعتنا.

نغادر الناصرة الآن بعد أن مكثنا فيها أسبوعين، ركبنا الحنطور، عربة الحنطور اليوم ليست "مخصوص" بل يشاركنا فيها مسافرون آخرون، كانت تجرها ثلاثة جياد، نحن والزبائن مع أمتعتنا، صافحنى عبد الله، وقدم قاسم بطربوشه الأحمر ليسلم علىَّ أيضا، طلبت زوجتى منه أن يبلغ سلامها إلى زوجته، وبينما كان الحنطور يتحرك كانت زوجتى تتطلع إلى شرفة الفندق وكانت مازجريت

(١١٧) كان لافوكاديوهان قد اتخذ اسما يابانيا عرف به فى اليابان "كيوزومى ياكومو"، وكتب كتابه بالإنجليزية عن انطباعاته عن اليابان وأهل اليابان وبخاصة فى المنطقة التى عاش فيها، منطقة ماتسونيه غرب اليابان، وقد ترجم الكتاب إلى اليابانية بعنوان Nippon no omokage.

وروزيه وجميلة يلوحن لنا بأيديهن من الشرفة فأخذنا بدورنا نلوح لهن بأيدينا... وداعا!

* * *

حين اقتربنا من بئر مريم كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحا، وبدت السماء كما لو كانت ستمطر، شاهدت نساء يحملن فى أيديهن آنية أشبه بالأكواب الكبيرة، استعرنا منهن واحدا وشربنا الماء من البئر، لم يكن الماء باردا بل كان فاترا، ربما كان حليب مريم الذى أرضعته للمسيح فاترا وبطعم هذا الماء. أشعر بهذا، ومعروف أن هذا البئر فى الناصرة هو البئر الذى كان المسيح قد شرب منه منذ ١٩٠٠ سنة، لذا شربت ثلاثة أكواب، وتذكرت القول بأن من شرب من هذا الماء لن يشعر بالعطش أبدا.

**زحام فى الصباح ابن الشمس المشرقة يغادر الناصرة**

**يرتشف ماء بئر مريم هذا البئر هبة من السماء**

**إنه ماء الحياة ينبوع جار لا يجف**

**ماء بئر مريم ماء زلال**

**أشعر بلذته على شفتى وبحلاوته فى فمى**

**بئر مريم ينبوع متجدد ينبوع خالد**

**أى**

كانت جميلة قد ذكرت لنا أن خطيبها يعيش بالقرب من بئر مريم، تعجبنا أين يا تُرى يكون بيته؟! بحثنا لكنا لم نجد بيته!

مضى بنا الحنطور وبدأت الناصرة تبتعد عنا... نراها من فوق وهى تتراجع إلى تحت، ومن بعيد ومن فوق يمكننا أن نشاهد فندق جرمانيا حيث نزلنا، ونشاهد مدرسة الأيتام وبيت آل واجنر وبيت مدام ميورا ومدرسة الإرسالية التبشيرية، كل ذلك وسط شعورنا بالهواء البارد المشبع بالضباب، ووسط خضرة الأشجار الزاهية، والمبانى الرمادية، كان كل ذلك يشكل منظر الناصرة، وهو منظر

يبدو للنائم كأنه غبش غير واضح، وحين وصلنا إلى قمة التل تطلعنا إلى الناصرة، وانتشينا محتفلين بمسقط رأس المسيح القديم ببلدة بالذكريات.

**رجعنا إلى هنا إلى مسقط رأس المسيح**

**إلى الناصرة البلدة المريحة**

**أراحتنا فاسترحنا، فهى مسقط راس مسيحنا**

## بحيرة طبرية

### (١) إلى طبرية

غطت السحب الكثيفة السماء، لذا لم نتمكن من رؤية جبل هيرمون، كان "سايس" الحنطور يتكلم الإنجليزية قليلا لذا تحدثنا معا عن الخيول، قال إن سعر الجواد يصل إلى خمسين جنيها[١١٨]، ويصل سعر الجمل إلى ثلاثين جنيها[١١٨] حين اندلعت الحرب اضطرت القوات التركية إلى الفرار والاختفاء، ولم يكن هناك ما يكفى من ماء، لذلك نفقت الجياد نتيجة نقص الماء من جهة وتفشى الأمراض من جهة أخرى.

شاهدت بالقرب منا رجلا فلسطينيا مر بنا على جواده بينما كان يسير خلفه جواد صغير، قال "السايس": إن عمره قد لا يزيد على عشرة أيام. كانت الجياد التى تجر الحنطور مزينة بعقود من الخرز الأزرق، قيل إنها تمنع الحسد، ذكر لى "السايس" بعض العبارات التى لم أفهما، لكن كانت هناك امرأة تحمل طفلا، طبقا لترجمة "السايس"، كانت قادمة من مستشفى الناصرة، وقد استفسرت عن إمكانية مرافقتها لنا إلى أقرب مكان من بيتها، وقد وافقت فى الحال دون تردد، فظهرت السعادة على وجه المرأة وقالت لى: كتر خيرك Kathir Khairak

فقلت لها: وخيرك ukhairak

قالت: شكرا

قلت لها: عفوا

---

(١١٨) هكذا فى الأصل؟

بعد مدة قدم ناحيتنا صبى بطربوش، كان فى الخامسة عشرة تقريبا، سأل "السايس" شيئا ما، وحين تطلعت خلفى وجدته قد نط فى الحنطور! لذا تركته يركب معنا.

فى الساعة التاسعة والنصف وصلنا إلى قانا ويقال إنها مكان ميلاد ماريا، وهناك قصة تحكى عن المسيح حين دعى إلى عرس فى قانا وعندها حول الماء إلى خمر، الآن أشاهد بيت ماريا.

كنت قد زرت هذا المكان منذ ثلاث عشرة سنة، وشاهدت الآثار القديمة هنا، الآن ليس لدينا رغبة لمشاهدة المكان، كانت هناك امرأة تبيع المفارش التى صنعتها من القماش، وكانت مركبات الجنود البريطانيين تمر بنا، كان بعض الجنود يشترون المفارش منها، ومن الجانب المعاكس من الطريق شاهدت عربة قادمة، حين اقتربت منا شاهدت فيها كمية كبيرة من المفارش من الأنواع التى شاهدتها فى الفندق فى الناصرة، شكرتنا المرأة التى تحمل طفلها، ونزلت من الحنطور، صار الطريق ضيقا، يبدو أن الأمطار تهطل هنا كثيرا فى فصل المطر، شاهدت بعض الفلسطينيين يقومون بتسوية الطريق وإصلاحه، كانوا يعملون بجد، شاهدت امرأة تحمل الحجارة، لا أظن أن مثل هذا العمل مناسب للمرأة، صارت السماء صافية بعد أن انكشحت الغيوم، وبدأت أشعر برياح عليلة تهب علينا، بينما كانت زرقة السماء تجذبنى، فى الوقت الذى بدت فيه زوجتى تغالب النوم، فقد كنا نمضى على الطريق دون توقف.

* * *

بعد أن عبرنا الوادى وصلت الجياد إلى تل يمتد حتى حقول مرج ابن عامر، وهذا التل يطلقون عليه اسم جبل الموعظة، وهو عبارة عن تلة مدورة غير

مدببة[119]، بعد قليل سنشاهد بحيرة طبرية التى ترتفع عن سطح البحر بنحو سبعمائة قدم. كانت الخضرة تكسو التلال المحيطة بالبحيرة، ومن وراء جبل الموعظة توجد مدرجات مملوءة بالأزهار المتنوعة بألوانها الصفراء والبيضاء.

مضى بنا الحنطور عبر الحقول، بينما كنا نتمتع بمشاهدة الأزهار البيضاء الصغيرة والأزهار الصفراء التى نمت وترعرعت وسط شهر مايو.

اقتربنا من وقت الظهر، كانت حرارة الشمس قوية إلا أن الهواء كان باردا وعليلا، كنت أشاهد قطعان الخراف السوداء، وبجوارها قطعان أخرى بيضاء، كانت تتحرك فى هدوء ترعى العشب تحت سماء زرقاء صافية، حين تطلعت فوقى تراءى لى "شاهين" يتراقص على صفحة السماء الزرقاء، آه، لقد شاهدت مثل هذا المنظر قبل ثلاث عشرة سنة، الأزهار البرية بألوانها لم تتغير منذ ذلك الوقت! رأينا بحيرة طبرية وسألت "السايس" أين "صفد" Safed فقال: نعم، يمكن أن نراها الآن. وأشار إلى الجانب الأيسر للجبل، صفد مستعمرة يهودية قديمة كما قال لى السيد هانسمان فى القدس، قال المسيح: القلعة على الجبل محفوظة لا تتحطم. لقد شعر المسيح بهذا، وهو بين هذه الطبيعة فى هذه المنطقة، حيث كانت الطيور والأزهار تملأ المكان.

**الأزهار البرية تلمع مثل الثلج**

**نمضى بينها كما لو كنا نتزحلق فوق زحافة**

**سحاب الربيع يطفو على قمة الجبل**

**والشاهين يتراقص على صفحة سماء مايو**

**معك أشاهد بحيرة طبرية**

**معك أشاهد قرية صفد**

---

(١١٩) يقال: إن عيسى المسيح ألقى عظة الجبل على إحدى المرتفعات غرب بحيرة طبرية عام ٣٠م - انظر إنجيل متى الإصحاحات ٥ و ٦ و ٧، وهى تعرف باسم التطويبات جمع طوبى، وتضمنت وصايا من أهمها إعلانه أنه لم يأت ناقضا ما جاء قبله، بل ليكمله.

بينما يمضى بنا الطريق منحدرا إلى أسفل

إلى هناك حيث الحقل الذى أسير فيه معك

لقد امتلأ بالأزهار التى مضى عليها ١٩٠٠ عام

دون أن تذبل تلك الأزهار. أى "

عربة الحنطور تمضى فى حقل من الأزهار الصفراء والبيضاء

جبل الموعظة غطته خضرة شهر مايو

الجواد العربى يمضى بسرعة

مثل لفحة هواء سريعة مثل ومضة

عبر الطريق المؤدى إلى طبرية

عبر طريق مملوء بالأزهار

الطريق يمضى بنا إلى أسفل وينحدر ويميل، ويمكننا أن نشاهد بحيرة طبرية بأكملها، شاهدت من بعيد ثلاثة بيوت أو أربعة عند أقدام الجبل، هذه مستعمرة يهودية، لاحظت وجود مستعمرات يهودية كثيرة هنا وهناك لم أرها من قبل، بل لم تكن موجودة حين زرت فلسطين قبل ثلاث عشرة سنة[١٢٠] مر بنا عساكر هنود كانوا يحملون جرادل مملوءة بالماء، توقفت الجياد بنا أمام فندق طبرية Tiberias حيث كنت قد نزلت فيه لليلة قبل ثلاث عشرة سنة ، لكن شكله قد تغير، ساورنى الشك، لم أكن متأكدا منه، فسألت السائق الذى قال إنه هو الفندق نفسه، نطقت اسم الفندق هوتل جروسمان Hotel Grossman آه، نعم، هذا اسم صاحب الفندق جروسمان، لم يكن هناك من يستقبلنا، وجدنا أحد النزلاء، جنديا بريطانيا في الأربعين، نبّه موظف الفندق إلى قدومنا، جاءتنا امرأة تبلغ من العمر ما بين الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين، فاصطحبتنا إلى إحدى الغرف، كان الفندق مكتظا بالنزلاء، ولم تكن هناك من غرفة خالية إلا تلك التى أخذتنا إليها،

(١٢٠) إشارة وتأريخ لعدم وجود مستعمرات يهودية فى الأصل اليابانى ص ٥١٨.

وقالت لنا: إذا وجدتم صعوبة فى الإقامة فى هذه الغرفة فهناك غرفة فى مواجهة البحيرة ستكون خالية غدا!

كانت الغرفة مواجهة للناحية الغربية، وكان أمامها شجيرات كبيرة مملوءة بالأزهار الحمراء القانية، بدت كأنها تحترق ، منظر أقوى من أن تتحمله عيوننا أو مشاعرنا، لكن لا مفر فلا توجد غرف خالية سوى تلك الغرفة، لاحظت وجود ندوب علامات الجدرى على وجه المرأة، إنها زوجة صاحب الفندق فريدا جروسمان Frida Grossman.

## يوميات بحيرة "البيوا"(١٢١)

وصلت طبرية من الناصرة فى الثامن من مايو السنة الثامنة بتقويم تايشو(١٢٢) بعد مرور ثلاث عشرة سنة، ذهبنا لتناول طعام الغداء، لا أتذكر أننى شاهدت الذباب فى غرفة الطعام فى الناصرة إلا نادرا، لكن هنا الألوان كلها صارت سوداء، فقد غطاها الذباب، والطعام غير لذيذ على الإطلاق، والماء لم يكن باردا، شعرت بالملل والضجر، بعد أن رجعنا للغرفة حاولت أن آخذ قسطا من النوم، استيقظت فى نحو الثالثة لأن غرفتنا فى مواجهة أشعة الشمس من ناحية الغرب، شعرت كما لو كان عقلى يغلى ويذوب من الحرارة الشديدة.

تناولنا الشاى فى الشرفة الصغيرة المواجهة للجنوب، من الطابق الثانى يمكن أن نشاهد المدينة ويوجد نسيم عليل إلى حد ما أفضل من جو غرفتنا، الناصرة تعلو سطح البحر بألف وخمسمائة قدم بينما طبرية منخفضة عن سطح البحر بنحو ستمائة وواحد وثلاثين قدما، لذا كان من الطبيعى أن يكون الجو حارا هكذا، ومن بيت لحم حملنا أزهارا وورودا لكنها ذبلت تماما بفعل الحرارة الشديدة.

ذهبت إلى قسم الشرطة لأسجل اسمى، فقد سبق أن تعرضت لمشكلة فى الناصرة، كان هناك شرطى فلسطينى يجلس على الكرسى يدخن، وكانت هناك

---

(١٢١) ربما يقصد شكل الآلة الموسيقية التى تشبه العود بأربعة أوتار، أو فاكهة الإسكدنيا، ويطلق عليها باليابانية البيوا، وهى بلون برتقالى على شكل آلة العود الموسيقية، بالإنجليزية Ioquat.

(١٢٢) فى التقويم اليابانى ٨ شُوا يطابق عام ١٩١٩م.

فتيات فلسطينيات[١٢٣] صغيرات يلعبن داخل قسم الشرطة، قاموا بالترحيب بنا بوصفنا ضيوفًا غير عاديين.

حاولنا أن نتمشى على شاطئ البحيرة، كان المنظر ناحية الشمال خلابا، لكن بالقرب من الماء يوجد كثير من روث البقر والخيل، وكلما توجهت إلى صخرة لأجلس عليها أجد الروث يغطيها، فأصابنى الملل ورجعت من حيث أتيت.

كان الفندق يضاء بالكهرباء، منذ كنت فى القاهرة لم أر نور الكهرباء إلا هنا، لكن داخل الغرفة يجب أن نستخدم الشمع، كان سريرنا على الطريقة الألمانية منخفضا وليس عاليا، تمنيت أن تكون رأس قيصر ألمانيا منخفضة مثل هذا السرير.

* * *

فى صباح يوم السابع عشر من مايو أخذت حماما، لم آخذ حماما مدة أسبوعين أثناء إقامتى فى الناصرة، كان يجب أن نأخذ "دشا" لكن العاملات كلهن من النساء، وذلك كان من الصعب أن نسألهن أن يجهزن الحمام، لذلك كنا نمسح أجسامنا فقط بالماء البارد. فى هذا الفندق يوجد ماء وافر لذا كان يمكن أن نستحم، وهنا مثل القدس يسخنون الماء باستخدام الخشب. آه ! بعد أسبوعين أخذت "دشا" شعرت بالراحة الشديدة.

غرفة الحمام - وهى غرفة دورة المياه - هنا أفضل كثيرا من دورة مياه الفندق الذى نزلنا فيه من قبل. بعد الاستحمام لبست اليوجاتا وجلست بالقرب من الشرفة أحاول أن أكتب شيئا. شاهدت طبيب عيون أمريكى شاب يعمل فى مستشفى بالقرب من هذه المنطقة، كان يحمل رواية الكاتب زانجويل Zangwill بعنوان "أطفال الجيتو" Children of the Ghetto، أرانى الرواية وتحدثنا قليلا، ذكر أن مرض التراكوما منتشر كثيرا فى فلسطين، أبوه أمريكى وأمه يهودية، قدم علينا صبى فى الخامسة عشرة من عمره يعمل فى المستشفى وقد جاء من حيفا، يبدو أنه كانت يريد أن يتسلى معنا، بينما كنت أحاول أن أكتب جالسا على

(١٢٣) فى الأصل فتيات محليات.

الأرض، كانت زوجتى تحاول أن تصيد الذباب وتقضى عليه، وكانت تحصى عدد ما قتلت، كانت تعد بصوت مرتفع:... مئتان. ثم توقفت قائلة: لقد آلمنى ذراعى. بعدها سمعت أحد رجال الإرساليات التبشيرية مع ابنته يقول: إنه يعيش فى فلسطين منذ ٣٥سنة. وذكر بوضوح شديد أنه ليس بريطانيا بل هو إسكتلندى، بعدها جاء إلىَّ شاب سورى وقال إنه رآنى من قبل، وحين سألته أين؟ قال: فى بنما، ربما رأى يابانيا يشبهنى فى بنما، فلم يسبق لى الذهاب إلى هناك، على أية حال أنا نفسى لا يمكننى أن أميز بين الجنس الأبيض وبين العرب أيضا.

اطَّلعت على سجل الفندق الذى يبدأ منذ عام ١٩٠٠م، وهذا يعنى أن الفندق افتتح فى السنة التى زار فيها قيصر ألمانيا فلسطين وسوريا، وأنا نفسى جئت هنا سنة ١٩٠٦م وأقمت فى الفندق نفسه، لهذا يجب أن يكون اسمى مسجلا هنا، وبالفعل وجدت اسمى "٨ - ٩ يونية ١٩٠٦م كيجيرو، توكوتومى، طوكيو اليابان.. جئت هنا فى الثامن من يونية وأقمت ليلة واحدة وداعا "بحيرة الجليل" إن شاء الله أريد أن أعود إلى هنا وأزور هذا المكان ثانية. توكوتومى كينجيرو"

كان من المفرح جدا أن أشاهد خط يدى وما كتبت قبل ثلاثة عشر عاما فى الفندق نفسه الذى أقمت فيه، وفى السجل نفسه الذى أسجل اسمى فيه اليوم، حاولت الآن أن أكتب شيئا، فكتبت:

"بعد مرور ثلاثة عشر عاما جئت مرة أخرى مع زوجتى. توكوتومى كينجيرو، اليابان"

ثم أضفت :

"إن شاء الله سوف نأتى ثانية، وبعد أن أشاهد ما خطته يدى سوف تغمرنى السعادة مثلما غمرتنى اليوم. توكوتومى كينجيرو وآيكو".

على مدار السنوات الثلاث عشرة الماضية كتب كثير من الناس من أنماط مختلفة عبارات متنوعة بكلمات مختلفة، وجدت خمسة أسماء يابانية أو ستة فى السجل على مدار هذه السنوات.

بعد الغروب حاولنا أن نتمشى قليلا فذهبنا بالقرب من شاطئ البحيرة، اليوم السبت وهو إجازة اليهود، كانوا يمشون وقد ارتدوا ملابس مهندمة، هنا توجد أعداد كبيرة من اليهود أكثر من أى مكان آخر، كما يكثر وجود العساكر البريطانيين والهنود والأمريكان، وهم هنا يختلطون معا. فى الشمال يقف جبل هيرمون شامخا، وفوق سطح البحيرة توجد قوارب صغيرة، كما توجد على الشاطئ حيوانات متنوعة مثل الخيول والبقر والخراف والحمير، كلها قدمت لترتوى.

الماء يسطع على سطح البحيرة

بفعل أشعة شمس الغروب

بينما جوادان نزلا الماء حتى الركب

يرويان ظمأهما من ماء البحيرة

أى

انتشر الذباب هنا بكثرة، حملنا المروحة اليدوية إلى غرفة الطعام التى اكتظت بكثير من الناس ممن سبق لنا لقاؤهم، السيد رزق المصرى والطبيب الأمريكى المتقاعد مع زوجته والفرنسى الذى جاء ليعمل فى البنك الفرنسى، كان الفرنسى يشكو من ترتيبات طعام العشاء، قدموا لنا سمكا غريبا يشبه سمك "التاى" فى اليابان لا أعرف اسمه(١٢٤) لم يكن لذيذا على الإطلاق، فقد صادوه من البحيرة، وربما سيقدمون السمك نفسه فى عشاء اليوم التالى أيضا، وافقت الفرنسى الرأى وشكوت مثله مما يقدم لنا من طعام، كما أن الماء سيئ المذاق، لذا طلبت منهم أن يجهزوا لى عصير الليمون.

فى الليل سمعت صوت صرير الحشرات، هذه الحشرات اقتحمت غرفتنا وظلت تصدر أصواتها دون توقف.

* * *

(١٢٤) التاى فى اليابان سمك شبيه بالبلطى.

فى اليوم الثامن عشر من مايو قدم ضابط الجمارك الوقح رئيس المصرى رزق، تطلعنا بعضنا إلى بعضنا دون أن نتكلم، بعد تناول الطعام جلسنا على الكراسى فى الشرفة المواجهة للمدخل الرئيسى حيث زرعوا أشجار الفلفل الأخضر، قدمت إلينا إحدى السيدات وتحدثت معنا، عرفت أنها سورية، وهى عجوز غير متزوجة، تعمل مدرسة فى إحدى المدارس، قالت إن أفضل أوقات الزيارة هنا فى شهر فبراير ومارس، أما يونية ويولية وأغسطس وأكتوبر فهى أكثر الشهور حرارة. أثناء الحرب كانت هذه المنطقة تعانى من المجاعة، وفى جانب التلال توجد قرية مات من بين سكانها المائة نحو أربعة وأربعين شخصا بسبب المجاعة، وفى ذلك الوقت كان الجنرالات الأتراك يحصلون على الرشى وكونوا ثروات هائلة، وسألتنى السيدة: هل يمكن للجيش اليابانى أن يساعدنا؟ ثم قالت إن مالك هذا الفندق السيد غروسمان كان رجلا طيبا وابن أخيه هانسمان صاحب فندق جرمانيا يعمل فى المجال نفسه، كما أشادت بأخلاق أرملة جروسمان.

فى الساعة الثالثة دعونا هذه المرأة الطيبة إلى غرفتنا، قدمنا لها الشاى الأخضر، كانت ترتدى ملابس رائعة، كانت بكامل زينتها "على سنجة عشرة"، قالت إن الشاى الأخضر لذيذ، تزوجت منذ أربع عشرة سنة، وعندها بنت تعيش فى الناصرة، فى الثالثة عشرة من عمرها، وهى البنت التى قابلتها فى بيت آل واجنر، حين أقمت هنا قبل ثلاث عشرة سنة كانت هذه البنت طفلة رضيعة، لا أتذكر مالك الفندق ولا زوجته ولا هذه الطفلة، كل ما أتذكره هو شاب ألمانى فى العشرينيات كان يقيم هنا، رأى ثعبانا فى الحديقة، فقتله ووضعه فى "الكحول"، أتذكر هذه الواقعة جيدا، وأتذكر أن هذه المنطقة كانت أكثر هدوءا بينما الفندق كان أقل حجما.

إلى جانب هذه البنت لديها ولدان، الولد الأكبر فى الناصرة والأصغر الذى يبلغ من العمر خمس سنوات يقيم هنا، وهو عادة ما يتساءل أين أبوه وأين ذهب؟ فتقول الأم لابنها: ستذهب إلى أبيك وسيكون سعيدا بك. ويتساءل الابن: وهل ستذهبين معى؟ وقد أخبرتنى أن إدارة الفندق صعبة للغاية، والفندق يمثل بالنسبة لها كل شىء، ولا يمكنها أن تتخلى عن هذا العمل الآن، وهى بالإضافة

إلى إدارة الفندق تتولى مسئوليات العمل فى البيت، وهى الأب والأم وكل شىء، وأحيانا ما تأتى أخت الزوج الصغرى لتساعدها، كما يفد عليها بعض الناس من حيفا لمساعدتها أيضا، وقد شاهدت ألمانيا فى الثلاثين من عمره كان يقوم على خدمتنا.

تحدثت عن زيارتنا لآل واجنر وأريتها الصور التى التقطتها فى بيت آل واغنر، ذكرت لى أن زوجها اعتاد أن يقول: إن الدين ليس شيئا ذا بال، فمشاعر الناس هى كل شىء، ولا تمييز بين إنسان وآخر، وكل من يأتى هنا هو ضيف علينا، أعطتها زوجتى حلوى الكومبيتو Competo اليابانية(١٢٥) والفول السودانى اليابانى كذلك، ففرحت كثيرا.



مع آل واجنر

تحدث معنا الشاب السورى على مائدة العشاء، قال لنا: هل نسيتمونى؟ كان ابن عم نصار الذى قابلته فى حيفا، اعتذرت له لأننى أنسى أحيانا وجوه الناس

(١٢٥) نوع من الحلوى المصنوعة من السكر على شكل نجوم صغيرة.

الذين يسبق لى مقابلتهم، وشرحت له الأمر فقبل عذرى. حين رجعت إلى الغرفة أخبرتنى زوجتى بأن صوتى كان عاليا، ونبرة صوتى كانت حادة، كان علىَّ أن أنتبه. فى القاهرة قابلت رجلا صينيا كان يتصرف بطريقة مهذبة على المائدة، وذكرت لى زوجتى وقتها أن طريقة كلامى كانت وقحة غير مهذبة، وأننى رجل "جلف" صوته عال، ونبهتنى قائلة بأن صوتى العالى هذا لم يكن الليلة فقط، فقد كنت كلما بدأت حديثا ما يسكت الناس من حولى، لم أدرك هذا الأمر مطلقًا، فأنا بطبعى رجل جبان، لذلك حاولت أن أرفع صوتى لأخفى شعورى بالجبن، وأحيانا لا أحب نفسى، لكن هذه أول مرة يُقال لى فيها إن صوتى عال، ربما هناك أسباب منها أن أذنى اليسرى لا تسمع جيدا، ومنها أيضا أننى أعيش فى الريف منذ أكثر من خمس عشرة سنة، لذلك فصوت أهل الريف يكون عادة عاليا ونبرته مرتفعة وحادة.

***

اليوم التاسع عشر من مايو كنت أنوى الذهاب إلى البحيرة إلا أن الهواء يعصف بشدة منذ الصباح، والجو صار غير مناسب؛ لذلك ألغيت الفكرة، سيزورنا اليوم رجل من الإرسالية الإسكتلندية، إلا أن الجو تحسن فجأة فقررت الخروج وذهبنا إلى البحيرة، وهناك استأجرنا مركبا شراعيا يقوده ثلاثة بحارة، تحرك المركب الساعة العاشرة، كان أول ما أردت مشاهدته هو مدخل نهر الأردن، إلا أن الهواء كان شديدا، وحين رجعنا إلى بيت صيدا[١٢٦] كان الأمر صعبا أن نعاود من هناك، لذلك قررنا الذهاب إلى مستعمرة كابيناعوم Kabenaum. كان شراع المركب يواجه الهواء الشديد، مما جعل المركب يسير بسرعة على سطح الماء، وظهرت أمامنا أشجار مستعمرة كابيناعوم Kabenaum لا يمكن أن نشاهد اليوم جبل هيرمون.

أمضى على سطح بحيرة طبرية

البحيرة التى تحمل قطرات جليد جبل هيرمون

(١٢٦) قرية مشهورة من أيام الرومان بصيد السمك، تقع شمال شرقى شاطئ بحيرة طبرية.

أى

يوم بديع فى شهر مايو

القارب يمضى بشراعه الأبيض

يرفرف على سطح البحيرة بلونها الأخضر

ينافس لون أحجار اليشم الكريمى

أى

عرفت أن أحد البحارة هنا اعتاد أن يعمل فى شركة كوك فى هامبورج، تحدثت معه بكلمات عربية قليلة تارة ثم بلغة الإشارة تارة أخرى، قلت له: إننى جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة، حاولت أن أشرب من ماء البحيرة، وجدته عذبا.

فى العادة يستغرق هذا المشوار ساعتين، إلا أن الهواء الشديد جعلنا نصل فى ساعة واحدة، وهكذا وصلنا إلى مستعمرة "كابيناعوم Kabenaum" فى الساعة الحادية عشرة، استقبلنا قس ألمانى عجوز على رأسه برنيطة قلت له إن الجو بديع والهواء منعش، كان القس الألمانى يتكلم الإنجليزية قليلا، بعد أن نزلنا من القارب رافقنا القس العجوز إلى كنيس يهودى قديم، على طراز الكنس نفسه فى أريحا، يجرى الألمان هنا حفريات للبحث عن الآثار، لاحظت أنهم يحرزون تقدما ما بعد زيارتى السابقة قبل ثلاث عشرة سنة.

مشاهدة هذه الآثار توحى بمشاعر تمكننى من التعرف على تاريخ الكنائس فى عهد المسيح، كانت هناك زخارف على أعمدة البناء، وهناك مكان لجلوس النساء، كانت منطقة بحيرة طبرية على عهد المسيح آهلة بالسكان، لذا يلاحظ أن الكنائس هنا أفضل من الكنائس فى الناصرة.

تحسن الجو وصفا كثيرا، وبدت الأزهار بالقرب من آثار الكنيسة القديمة تعكس أشعة الشمس، وتبدو بلون ذهبى جميل جدا، صعدت إلى أعلى الكنيسة حيث ظهرت قطوف العنب ودلت كإصبع اليد الصغيرة، جلسنا فى حجرة باردة، أحضرت لنا امرأة فلسطينية الشاى والحلوى، عرفت أن هذا القسيس يعيش فى

فلسطين منذ ثلاث عشرة سنة، لم يرجع خلالها إلى ألمانيا. تبادلنا بطاقات الأسماء، وكتبت بعض الكلمات فى سجل الزوار، ذكر القس أن جنديين يابانيين جاءا هنا قبل ثمان سنوات، وضعت ورقة مالية بفئة جنيه واحد هبة وتبرعا، كان القسيس سعيدا جدا بذلك. تصل درجة الحرارة فى منطقة بحيرة طبرية أحيانا إلى ١٥٠درجة فهرنهايت، كان الجو اليوم أيضا يميل إلى الحرارة، قدمت زوجتى إلى المرأة الفلسطينية ١٠قروش ففرحت المرأة كثيرا وقبلت زوجتى، بينما قدم القس لنا باقة ورد فى غاية الجمال.

نزلنا إلى المركب بينما كان القسيس يلوح لنا بيده مودعا، فى وقت الغداء ذهبنا إلى شاطئ البحيرة عند منطقة "كينيساريه Kenesare"[١٢٧] كان الهواء لا يزال يهب بشدة، وانكسر أحد المجاديف، كنت أشاهد فوق التلال الرجال والنساء من أهل البلاد يحصدون القمح، كما شاهدت خيمة سوداء أقامها البدو، وشاهدت أنواعا مختلفة متنوعة من الأزهار البرية، حتى داخل مياه البحيرة توجد أزهار مائية. وشاهدت كنيسة ألمانية محاطة بأشجار ضخمة، وفيلا يملكها أحد الناس، كانت تقف فى هدوء شديد وسط هذا المكان الموحش.

توجهنا إلى آثار بيت سعيدة Betesaieda[١٢٨] حيث توجد طاحونة تعمل بالماء، فماء النهر الصغير يمضى داخل الطاحونة، ومن ثم يصب فى البحيرة، وهناك طواحين هوائية كثيرة تعمل بقوة الرياح، وهى كبيرة وضخمة لم أشاهدها حين جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة، شاطئ " كينيساريه Kenesare" [١٢٩] مملوء بروث البقر، تجنبنا هذا الروث ثم فرشنا مفرشا وجلسنا، كانت مياه الجداول الصغيرة تجرى، وكان يمكننى مشاهدة أسماك صغيرة دقيقة، لكنى لم أشعر بالرغبة فى أن أتسلى أو ألهو بهذا السمك! فتحنا صُرّة الغداء التى قدمها لنا الفندق، كانت تحتوى على جبن وخبز بالزيد ولحم محمر وبيض مسلوق وخيار وبرتقال وبعض الحلوى. شاهدت شيئا أخضر يسبح فى النهر، حين دققت النظر وجدته سحلية

---

(١٢٧) ربما يعنى بلدة إكسال.

(١٢٨) تقع شرق نهر الأردن فى مكان فحل، ويقال إنه حدثت فيها إحدى معجزات السيد المسيح. انظر إنجيل لوقا، الإصحاح ٩ الآية ١٠ وما بعدها.

(١٢٩) هكذا فى الأصل.

بطول ثلاثين سنتيمترا، كان لونها الأخضر جميلا جدا لدرجة تثير الاشمئزاز أو القرف، حين سألت المراكبى عنها قال: ربما تكون سحلية سامة اتجهت نحونا. قذفتها بالحجارة ففرت هاربة، يا له من لون جميل! اللون الأخضر هذا يشبه لون غلاف كتابى "الربيع الجديد"، كما لو كان هذا اللون الأخضر شبيها بلون شبابنا، يا له من لون جميل، ويا لها من فترة شبابية سعيدة!

قبل ثلاث عشرة سنة جئنا إلى هذه المنطقة، لم أنس الماء فى "كينيساريه" Kenesare، لا ينسى الإنسان فى سفر حياته الأماكن التي مر بها من قبل.

**منذ ثلاث عشرة سنة أتذكر كينيساريه Kenesare**

**لم تتسخ النافورة آنذاك**

**لم يتسخ الشاطئ فى تلك الأيام**

أتعجب، متى سآتى مرة أخرى؟ متى ستكون المرة القادمة؟ وكيف سيكون حال هذا المكان؟!

ركبنا المركب الشراعى، كان الهواء لا يزال شديدا يكاد يعصف بالشراع، مضى المركب بسرعة كبيرة، شاهدت قرية مريم المجدلية فى مجدلا، ويطلقون عليها "ماريا المجدلية". الماء فى هذه المنطقة عذب زلال، ملأت وعائى بهذا الماء وفى الساعة الثالثة رجعنا إلى الفندق بعد قضاء رحلة سريعة جدا.

* * *

اليوم العشرون من مايو جلسنا، على مائدة العشاء بالأمس بجوار امرأة فى الأربعين من عمرها ترتدى زيا عسكريا، لاحظت الشارة على كتفها فخمنت أن تكون كندية، إلا أننى عرفت فيما بعد أنها جاءت من لندن واسم عائلتها كلاريدج، وهى غير متزوجة وتعمل رئيسة للممرضات، قدمت من مصر لتقضى إجازتها هنا، تحدثنا معًا عن خبراتها العملية حين كانت تقيم فى خيمة لفترة طويلة فى جو شديد الحرارة صيفا ومظلم شديد البرودة شتاء، قالت إنها قابلت كثيرا من اليابانيين فى لندن، لكنى لا أعرف أحدا ممن ذكرتهم لى، سألتنى عن سبب مجيئى لفلسطين، فاستعرت عبارة إيزايا: لأعلم الأسد والأشبال كيفية التصرف،

To teach lions and young lions how to behave حين قلت لها هذا سألتنى أن أعيد وأكرر هذه العبارة ثم زمّت شفتيها.

حين كنا نتناول طعام الإفطار صباح اليوم قدمت هذه الآنسة إلينا، وجلست بجوارنا، كانت تحمل معها "منفضة" لضرب الذباب، وقتلت من أمامى عددا كبيرا من الذباب، قلت لها: "إنك ضابط عسكرى بحق". فاحمر وجهها قليلا!

* * *

يوجد ينبوع ماء حار، فى الناحية الجنوبية من بحيرة طبرية لذا فكرت فى الذهاب إلى هناك، وخرجنا فى الساعة الثالثة عصرا، لم يكن المكان بعيدا، لذا قررنا أن نمشى حتى هناك، فقد أردنا مشاهدة البيوت والقرى، وصلنا بسرعة، كان المكان مملوءا بالمركبات العسكرية وعربات الحنطور والخيل والحمير وأعداد كبيرة من العسكريين والمدنيين والنساء بملابس بيضاء، وأعداد كبيرة جدا من الرجال والنساء من أهل البلاد المحليين، كانت هناك بعض الأسر وقد نصبت خياما بالقرب من منطقة عين الماء، لكن لا يوجد مقهى بالقرب من المكان، لا ندرى ماذا سنفعل، ذهبنا بالقرب من الخيمة، وجدت رجلا سوريا بطربوش، يبدو أنه المسئول عن إدارة هذا المكان، عرفت منه أن دخول الحمام هنا يتم بالحجز، وعلينا أن ننتظر مدة، فوافقنا، فأحضر لنا الكراسى وجلسنا فى انتظار دورنا.

الجو اليوم صحو وجميل، تمكنت من رؤية كابيناعوم Kabenaum، المكان الذى زرناه بالأمس، كان واضحا جدا، كما تمكنت اليوم أيضا من رؤية جبل هيرمون[١٣٠]، حيث يفيض منه نحو ثلاثين جدولا تمضى هنا وهناك، ولهذا فالأراضى السورية ترتوى تماما من مياه جبل هيرمون، كما لو كان هذا الجبل نهد امرأة ترضع أبناءها، وبينما كنت أشاهد المنظر الطبيعى من أمامى بدأت زوجتى ترسم بالقلم الرصاص منظرا أعجبها، وكنت أسمع بعض الناس يعزفون الماندرين، كان الصوت يأتينا من إحدى الخيام.

(١٣٠) وهو الذى يطلق عليه جبل الشيخ.

انقشع السحاب من فوق البحيرة

بينما وقف جبل هيرمون شامخا

وقف برأسه الأشيب

تنعكس صورته على البحيرة التى بدت مثل مرآة صافية

جبل هيرمون سيظل إلى الأبد

يرضع من نهده ثلاثون طفلا فى وقت واحد

طال انتظارنا، لذا بدأ الرجل السورى ينادى على من بداخل الحمام يستحثه على الخروج، شاهدت ثلاث نساء من أهل البلاد يخرجن من الحمام، وجاء دورنا فدخلنا، فأغلق الرجل علينا من الخارج، كان المكان الذى يخلع فيه الملابس مجرد قطعة خشبية ملقاة على الأرض يمكن أن نضع عليها ملابسنا، أما الحمام ذاته فهو حمام صخرى مساحته نحو عشرة أمتار مربعة، أما عن عمق الحمام فحين نزلت فيه ووقفت وصل الماء إلى عنقى، وكان على زوجتى أن تمسك دائما بحافة الحوض حتى لا تغرق، كان الماء حارا، لكنه لم يكن نظيفا مثل ماء عين حلوان، ربما كان هذا الأمر راجعا إلى طبيعة المنطقة الجغرافية.

بعد مرور نصف ساعة دق الرجل السورى الباب، لذا كان علينا أن نخرج، أعطيته ٢٥ قرشًا للدخول و ٢٥ قرشًا هبة، شعرنا براحة واسترخاء. رجعنا إلى الفندق مشيا نتمتع بالهواء العليل القادم من تجاه البحيرة، أثناء عودتنا شاهدت عربة حنطور انقلبت، كان كل من الحصان والسائق بخير، إلا أن عددا كبيرا من الناس أحاطوا بمنطقة الحادث، فى حين قدمت سيارة تحمل طبيبا وممرضات، بعد أن أبلغوا فى طبرية بوقوع هذا الحادث.

فى يوم ٢٢ من مايو يقام سوق صباحى خلف الفندق، حاولت أن أذهب إلى هناك مرتديا اليوجاتا اليابانية، كانوا يبيعون الخضراوات فاشتريت الطماطم والخيار بثلاثة قروش أردت أن أشترى خضراوات ورقية لكنى لم أجد، أحضر لى الخادم خطابا، حين فضضته وجدته مرسلا من الآنسة ميورا فى القاهرة وبه ثلاث صور، وهى تشكرنا على الأشعار التى كتبتها زوجتى وعلى الهدية التى

قدمتها لها، لذا قررت أن أكتب لها خطابا ردا على رسالتها هذه فكتبت ما يلى بالإنجليزية:

"فليباركك الرب[١٣١] وليعنْكِ فى سنى عمرك المتقدمة، ولتكن وجدتك ذاتها مصدر إلهام لك، ومثل جبل هيرمون أو جبل الشيخ كما يسميه العرب، بجداوله الثلاثين التى ترضع أرض سوريا إلى الأبد، يكون حبك الذى يتزايد عمقا واتساعا، ليغذى كل شىء من حولك".

جاءت الآنسة كلاريدج على مائدة العشاء دون أن ترتدى الزى الرسمى، فوجئنا بها بالملابس العادية، قلت لها: إن هذه الملابس تناسبك أكثر من الزى الرسمى. كانت قد ذهبت إلى صفد Safid اليوم بالسيارة، وقد وضعت اليوم على رأسها شبكة لتتفادى الذباب المتساقط على شعرها، ذكرت أنها ذهبت إلى صفد عن طريق كابيناعوم Kabenoum، وكان الطريق يمضى عبر تلال مرتفعة، لم يكن من السهل أن تمضى عليه السيارة، تقع صفد Safid فوق سطح البحر بنحو ٢٧٤٩ قدمًا، ويبلغ عدد سكانها نحو ثلاثين ألف نسمة معظمهم من اليهود، هناك أسطورة تقول إن المسيح جاء من صفد Safid (مشيا)، وبين اليهود من يؤمن بهذا، ولهذا فهى مدينة مهمة، لكن الآنسة كلاريدج قالت إنها مدينة قذرة، وكنت قد عقدت العزم على زيارتها لكنى حين سمعت ما قالته قررت أن أتخلى عن هذه الفكرة.

* * *

اليوم الثانى والعشرون من مايو، أذكر أننى حين غادرت اليابان فكرت وخططت لرحلتى لتكون من فلسطين إلى إستانبول ومنها إلى أوديسا ثم إلى ياسونايا بوليانا؟ إلا أننى حين كنت فى القاهرة نصحنى الملازم "رودكليف" أن نذهب إلى أوديسا ثم نرجع من أوديسا، فإذا كان المرء فى فلسطين فمن الصعب عليه أن يدخل إلى روسيا عبر تركيا، لذا أقلعت عن الفكرة على أمل أن تتاح لنا الفرصة للدخول إلى روسيا حين نزور أوروبا.

---

(١٣١) فى الأصل الأب.

قررت أن أكتب إلى زوجة تولوستوى، وحين ذهبت لمكتب البريد لأرسل الرسالة بالبريد المسجل لاحظت أن موظف البريد ـ وهو مواطن محلى لديه حب استطلاع شديد بالنسبة لى ـ قال لى: لا نتعامل مع أى نوع من البريد المرسل إلى روسيا، لا مجال ولا نقاش، لذلك رجعت ثم ذهبت إلى مركز الشرطة العسكرية، وأخذت تصريحا بزيارة دمشق. اهتم بمعاملتى مسئول سورى شاب، سألنى عن درجة القطار قائلا: بالطبع ستسافر فى الدرجة الثانية. فقلت له: لا، بل فى الدرجة الأولى.

كانت درجة الحرارة اليوم مرتفعة جدا، وكان الهواء ساكنا تماما، الفرق بينها وبين الناصرة عشر درجات. فى المساء دعوت الآنسة كلاريدج على الشاى، قدمت لها الشاى الأخضر فشربته بعد أن وضعت فيه السكر، قالت لى إنها مرتبطة مع عباس أفندى بصداقة قوية، طلبت منها أن تكتب شيئا فى الأتوجراف، فأخذته قائلة: سوف أكتب فى حجرتى. ثم رجعت قائلة: إنها متأثرة كثيرا لأننى كتبت السنة الأولى لعهد جديد، فهى أيضا تفكر بالشكل نفسه، ذهبت زوجتى لإحضار الماء الساخن من المطبخ، وقالت للسيدة العربية من أهالى المنطقة: "كتر خيرك". فسرت السيدة كثيرا بسماعها هذه العبارة من زوجتى باللغة العربية.

الناس فى فلسطين وسوريا بحاجة إلى حب المسيح، إنهم يفتقدون حب المسيح، البريطانيون يحكمون سياسيا والأمريكان يرسلون المواد التموينية وغيرها وأطباء الإرساليات التبشيرية، والناس أهل البلاد يعتبرون مجيئنا إلى هنا إنقاذا لهم، لكنهم أحيانا يجعلوننى غاضبا لكنى بسرعة أشعر بأن هذه أنانية منى.

ذات يوم كنا نمضى على شاطئ البحيرة، فقدم إلينا صبى على رأسه طربوش تركى، قام بتحيتنا قائلا "فرصة سعيدة". ابتسمنا لبعضنا البعض.

قدمت لنا امرأة محلية فى هذا الفندق حلوى صنعتها بنفسها، كما أعطتنا مجلة الحياة اليومية فى فلسطين، حين غادرنا قدمت لابنها ورقتين من فئة جنيه واحد، حين استلم الابن النقود احمر وجهه وبدا خجلا جدا، وهرب بسرعة من

أمامنا، فى البداية كنا ننوى الإقامة هنا مدة أطول لكننا مللنا وسئمنا شدة الحرارة والزحام؛ لذا قررنا السفر إلى دمشق فى الغد.

## دمشق

### (١) إلى دمشق

اليوم الثالث والعشرون من مايو، سنركب القطار، ودعت الآنسة كلاريدج التى ستسافر من هنا إلى حيفا بالسيارة عن طريق الناصرة، بينما نتجه نحن إلى دمشق. فى الساعة الحادية عشرة نزلنا لتناول الغداء مبكرا، وحين رجعنا إلى الغرفة وجدنا الخادم قد بدأت فى تنظيفها، كما أنهم أنزلوا أمتعتنا إلى الطابق الأرضى كما لو كانوا يريدون التخلص منا بسرعة.

من مرسى قريب أخذنا القارب البخارى إلى "سيماخ" Semakh، جاء ابن أخ نصار ليودعنا، وهو شاب أعزب، فقلت له: حين نلتقى ثانية يجب أن تكون رب بيت، كان سعيدا بعبارتى هذه، أهدانا كمية من المشمش اللذيذ، وجاءت المرأة السورية العجوز لوداعنا، والمبشر الإسكتلندى أيضا.

كان الجو صافيا جدا، وكنا نشاهد جبل هيرمون بوضوح، امتلأ القارب البخارى بالمسافرين، قام جندى بريطانى شاب بوضع قدمه أمام غرفة القيادة فحذره البحار السورى من ذلك، لكنه لم ينصت إليه، ولم يتوقف عن مد قدمه إلى داخل غرفة القيادة، فقام الكمسارى - وهو شاب يهودى - بمناقشته بغضب شديد أمام الناس، وفى النهاية انصاع الجندى للأوامر وسحب قدمه من غرفة القيادة، جاء إلينا الكمسارى الغاضب، لكن تعبيرات وجهه تغيرت تماما؛ فكان مهذبا جدا معنا، ووصلنا بعد مدة إلى "سيماخ" Semakh.

كنت قد أخذت القطار من هذه المحطة إلى حيفا قبل ثلاث عشرة سنة، يعيش هنا هذه الأيام كثير من الجنود البريطانيين، قرأت إعلانا يقول "من فضلك اهتم بالنظافة، النظافة مهمة جدا حتى لا يتكاثر الناموس".

* * *

وصل القطار بعد مدة من حيفا، كان مملوءا بالمسافرين، لم نجد عربة الدرجة الأولى، فكان علينا أن نركب القطار من أى عربة، كان القطار مزدحما جدا ومكتظا بالعساكر، حين شاهدنا "الكمسارى" قال بأن أمتعتنا كثيرة جدا، وعلينا أن ننتقل إلى عربة أخرى، فطلبنا من الحمالين أن يحملوها، وتحركنا إلى عربة أخرى بينما تحرك القطار بسرعة، ولأننى كنت فى عجلة من أمرى فقد أعطيت الحمالين بعض الهبات، وظننت أننى أعطيتهم عشرة آلاف مليم بالعملة المصرية؟! لكنى اكتشفت أننى أعطيتهم أكثر من هذا المبلغ، على كل حال لم يكن هناك وقت للتفكير فى هذا الأمر، لكنى تأسفت على ما ارتكبت من خطأ، جلست زوجتى فى مقعد يتسع لعدد محدد من الأشخاص، كان من بينهم ستة أشخاص من العساكر البريطانيين، وكان الذباب يشاركنا كل شىء، فبدأ الجميع فى ضرب الذباب بالمنشة.

تحرك القطار فى الساعة الثانية بعد الظهر، كنا صاعدين عبر الوادى بمحاذاة نهر صغير، على طوله توجد أزهار برية حمراء اللون، وكنت أشاهد أحيانا قطعان الماشية تشرب الماء ، بينما كان أحد العساكر يلتقط صورة هذا المنظر، كما كنت أشاهد خيام البدو المنتشرة هنا وهناك، ومر القطار بقرية تبدو خالية من السكان، وبعد أربع ساعات مضى القطار إلى مكان مرتفع ثم توقف عند محطة "ديرات" Derat حيث اقترينا من دمشق، نحن الآن على ارتفاع١٧٥٣ قدمًا عن سطح البحر، كان يمكن أن نشاهد جبل هيرمون فى الجانب الشمالى، كانت الرياح تهب باردة من الغرب، ارتديت معطفى، قدم الكمسارى ليحصل التذاكر الخاصة بالوصول إلى دمشق، كانت قيمة التذكرة جنيها والأمتعة بالمجان، تحرك القطار ثانية وبدأ العساكر فى تناول وجبة العشاء.

***

شاهدت جنديا متقدما فى السن إلى حد ما يحمل حقيبة، فتحها وأخرج شيئا ملفوفا بأوراق الصحف، شاهدته يخرج "رغيفا"، وكان معه علبة صغيرة، أخرج سكينا ثم بدأ يقطع الرغيف الطويل إلى قطع يوزعها على الجنود، ربما كانت العلبة تحتوى على لحم الخنزير أو لحم الدجاج، استخدم السكين فى وضع اللحم

على الخبز، يبدو أن الخبز جاف جدا، وليس لذيذا على الإطلاق، هكذا شعرت وأنا أشاهد المنظر أمامى، أسقط أحد العساكر قطعة خبز صغيرة، إلا أن العسكرى العجوز التقطها من على الأرض ونفخ فيها ثم التقمها، كان هؤلاء الجنود تابعين لسلاح الفرسان، حين هاجموا تركيا نهاية الخريف تعرضوا لمجاعة شديدة ، أخبرونا بهذا بعد مدة، وقد تعاطفنا معهم وشعرنا بالحزن من أجلهم بعد سماع هذه القصة.

* * *

شعرنا بالعطش الشديد، لذلك شربنا من وعائنا كثيرا، واشترينا بعض البرتقال من محطة "سماك"، لكننا أنهينا على كل ما اشتريناه، حل علينا المساء، القطار فيه كهرباء لكن ليس فى كل العربات، الظلام خيم علينا، لذا أخذ أحد العساكر شمعة وأراد أن يضيئها، حاولت أن أخرج الفانوس اليابانى من أمتعتى، استعاره الجندى ونجح فى وضع الشمعة فيه، وعلى ضوء الشموع كان بعض العساكر يتسلون بقراءة القصص، كانت المقاعد الخشبية جافة وصلبة، كما لم تكن هناك دورة مياه، أصابنا التعب والإرهاق، فكنا نطالع فى ساعاتنا باستمرار، وأخيرا، وعند الساعة العاشرة وصلنا إلى محطة دمشق.

يقال إن القطار يتعرض لمشاكل كثيرة ويتعطل أكثر من مرة ويتوقف قبل الوصول إلى دمشق، لكن هذه المرة لم تحدث أى مشكلة لحسن حظنا، وهكذا وصلنا إلى دمشق فى أمان.

* * *

امتلأت السماء بالنجوم التى كانت تتلألأ وسط ظلمة الليل، ركبنا الحنطور متجهين إلى فندق فيكتوريا، لكنه كان مملوءا بالنزلاء، فكان علينا أن نبحث عن فندق آخر، وكان هذا الفندق الآخر مثل سابقه مملوءا بالنزلاء أيضا، فذهبنا إلى فندق السنترال Centeral Hotel وكان السيد إينو فى حيفا قد نصحنا بالنزول فيه، وهو مملوك لمواطن محلى. أخبرونا أنه يمكن أن يعدوا لنا غرفة فى اليوم التالى على أن نمكث هذه الليلة فى صالة الاستقبال، وقدموا لنا الشاى ثم تناولنا طعام

العشاء الذى حملناه من طبرية، وجدناهم قد وضعوا بطانية قذرة فوق إحدى الأرائك، فأزحناها جانبا ووضعنا معطفى ووشاح زوجتى بدلا منها، وأطفأنا الأنوار وحاولنا الخلود إلى النوم عند الساعة الثانية عشرة فى منتصف الليل. كنت مرهقا جدا ورغم ذلك استيقظت لأننى شعرت "بقرص وأكلان" فى جسمى، وفى الصباح تنهدت زوجتى، وصدرت عنها آه مفاجئة حين شاهدت الحائط وقد غطته حشرات تتحرك فى اتجاهات مختلفة، تعجبت زوجتى من المنظر وأصيبت بالرعب والهلع!

(٢) دمشق

استولى البريطانيون فى أول أكتوبر الماضى على دمشق، وأعلنت تركيا الاستسلام فى الحادى عشر من أكتوبر، لقد دارت معركة طاحنة حين حاول البريطانيون الاستيلاء على دمشق، وقد عانوا من المجاعة، وقد سمعت كثيرا من الحكايات عن هذا الأمر من العساكر البريطانيين فى القطار.

فى اليوم التالى شاهدت الجندى البريطانى الذى كان فى عربتنا أثناء قدومنا بالقطار يخرج من الغرفة المجاورة لنا، كانت جميع الفنادق تعج بالنزلاء البريطانيين، وكان الجنود الهنود يفترشون الأرض وينامون، وكانت غرفة الطعام مملوءة بالنزلاء.

يبلغ عدد سكان دمشق نحو ٢٦٠ ألف نسمة، وهى أكبر مدن سوريا، ومعظم السكان مسلمون، ويوجد ترام وكهرباء، ومعروف أن الطابع الشرقى فى دمشق واضح، ويفوق الطابع الشرقى فى القاهرة، وفى زمن قديم مر منها "سارورو" الذى كان يحاول القضاء على المؤمنين بالمسيح، ومن خلال قصص ألف ليلة وليلة نتعرف على كثير من ملامح دمشق، مثل الحرير الدمشقى والسيف الدمشقى، وصار هذا شيئا مألوفا بالنسبة لنا فى اليابان.

تقع دمشق على مسافة ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، وهى محاطة بالتلال والجبال، وهناك ناحية تؤدى إلى صحراء سوريا، وفى شمال المدينة هناك جبل يطلقون عليه جبل قصير Jebal Kasyur ارتفاعة نحو ٤٠٠٠ شاكو[١٣٢]، فوق هذا

(١٣٢) الشاكو نحو ٣٠ سم.

الجبل توجد تلال مرتفعة وأخرى منخفضة، كانت الأضواء فى الليل تنبعث من تلك البيوت وتذكرنى بليالى هونج كونج.

بدا جبل هيرمون واضحا من غرفتنا، وظهر قريبا جدا بالنسبة لنا، وكانت الثلوج على قمته تبدو فى غاية الجمال، تعجبت وتساءلت عن شعور الناس الذين وصلوا إلى هنا من الجزيرة العربية حيث الحرارة الشديدة جدا، هل شعروا بالسرور والسعادة؟! فى مقاهى دمشق يبيعون ثلج جبل هيرمون، وضعوا الثلج فى الليمون وقالوا لى: "ثلج هيرمون Talj of Hirmon"، وبسبب هذا الثلج أمكن لدمشق أن تحافظ على خضرتها ورونقها، وأن يستمر انسياب الماء إلى الحقول والبساتين، وأن يتمكنوا من زراعة أشجار التوت، وأن تحقق شهرتها فى صناعة خيوط الحرير الطبيعى أكثر من أى مكان آخر فى العالم، هذا فضلا عن بساتين الفاكهة، فبالنسبة للعرب الذين يعيشون فى مناطق تندر فيها المياه تعد دمشق جنة.

كان هناك نهير صغير بجوار الفندق، ينساب فيه الماء بشكل يبعث على الراحة والسرور، لقد جئنا لنقضى ثلاثة أيام فى دمشق من أجل "جبل هيرمون" فقط.

**يقف جبل هيرمون شامخا**

**يطاول السماء**

**حيث يقع فى الجانب الغربى من صحراء وسط آسيا**

**قمته مفروشة بالثلوج، ومن هناك يجرى نحو ثلاثين نهرا**

سوريا غنية بشرانق خيوط الحرير الطبيعى، شرانق ترعى خضرة دمشق. منذ القدم تسطع أشعة الصباح على جبل هيرمون، وتغطيه الظلمة فى الليل، وقديما أشرق المسيح فوق شرانق خيوط الحرير، والآن نحن أبناؤه جئنا هنا، نشاهد شرانق خيوط الحرير ونبتسم، لقد مرت ألفا سنة، مرت بسرعة كأنها سهم مرق.

**هيرمون ما زال واقفا شامخا على مر العصور**

**وما زال الثلج على قمته يسطع على مر العصور**

ثلج هيرمون يهب الراحة للعرب القادمين من عطش الصحراء

ثلج هيرمون الآن ناصع البياض

وسط خضرة أماكن الذكريات

حيث ينساب الماء عذبا سلسبيلا

أى

كان الفندق الذى نزلنا فيه يقع وسط المدينة بالقرب من الشارع الرئيسى، وكان بإمكاننا مشاهدة جبل هيرمون من الشرفة، كما كان يمكننا أن نشاهد المساجد الكثيرة المنتشرة فى المدينة بمآذنها العالية، وبين الحين والآخر كان صوت النداء للصلاة يصل إلينا من فوق المآذن[١٣٣]، كان الصوت جميلا جدا، الآن يحل الظلام على جبل هيرمون، وظهر الهلال فى السماء فوق المآذن، وانطلقت أصوات المؤذنين مثل النغمات.

"من قمة مئذنة المسجد

يؤذنون فى الناس بالصلاة

والاصطفاف تجاه مكة

صوت المؤذن يصدح بين الجنبات

صوت المؤذن مملوء بالفرح والسعادة

أى

* * *

دمشق مدينة المسلمين[١٣٤]، فالمسلمون فى دمشق أكثر من المسيحيين، يقولون إن الدمشقيين يعتدون كثيرا بأنفسهم، كما أن لديهم أحيانا نزعة إيذاء الآخرين، هكذا يقولون، وهم الآن قابعون تحت الاحتلال البريطانى، إلا أن مشاعرهم ليست هادئة، فهم فى ثورة من الداخل، فأحيانا ما نسمع أصوات

---

(١٣٣) يطلق عليها المؤلف "مسلم تاور" البرج الإسلامى.

(١٣٤) كتب المؤلف مدينة محمت، وربما يقصد "محمد" أو "المحمديين".

هتافات وصياح أو تحركات لعربات عسكرية، وقد مرت علينا ليلة حدث فيها كل هذا الأمر متسارعا.

هنا فى دمشق يستخدم الناس العملة التركية، إلا أن العملة المصرية مستخدمة أيضا، فى الفندق الذى نزلنا فيه كانت الطباخة هى المرأة الوحيدة وبقية العاملين والخدم من الرجال، كانت الطباخة تتميز بشخصيتها القوية، صاحب الفندق سورى، لم يبدُ عليه أدنى اهتمام حين أخبرته أننى تعرفت على الفندق من خلال السيد نصار، وقدمت له خطاب ناصر، كان ابنه يرتدى زيا شبيها بالمعطف الذى كان يرتديه الرومان، كانت حجرة الجلوس مظلمة وموحشة، وكان الجنود البريطانيون يشكون أنهم لا يتسلمون الفواتير بسرعة، مما يؤخرهم عن موعد تحرك القطار، وكانوا يعبرون عن غضبهم بضرب الطاولات بأيديهم، دورة المياه كانت قذرة جدا، وصالة الطعام لم تكن معدة بشكل جيد، يبدو أنهم لا يهتمون بها، فى دمشق نوع من الخبز يطلقون عليه "عجيبو" (١٣٥) رغيف مدور، كان العمال أو بعض من يرتدون ملابس مهندمة يشترونه ويأكلونه وهم يمشون، وكان هناك شخص يبيع عصير التوت بلونه البنفسجى أو الأبيض، وكل الناس يأكلون أو يشربون وهم وقوف، حاولنا أن نطلب من الخادم أن يشترى لنا شيئا، أكلنا المشمش، وهو لذيذ جدا، ويقدم لنا الفندق مربى المشمش، وعلى غير المتوقع كان طعم المربى لذيذا، وهم يحفظون الماء فى "زير" من الفخار؛ مما يجعل الماء لذيذ الطعم.

توجد بعض الدكاكين الصغيرة حول الفندق، فيها أشياء كثيرة لا حصر لها، وهى جذابة جدا، لكن القذارة منعتنا من شراء أى شىء، حاولنا أن نركب الترام لنشاهد المدينة، كان الطريق يمضى صعودا وهبوطا، فالمطبات كثيرة، وكانت هناك دواب مختلفة مثل الحمير والجياد جنبا إلى جنب الحناطير والمركبات العسكرية، وأيضا الناس الذين يتحركون ويمشون وسط كل هذا الزحام.

شاهدت محلات على الطراز الأوروبى، لذا حاولنا أن ندخل أحد المحلات الشهيرة رغبة منا فى شراء حرير طبيعى نحمله هدية لليابان، دخلنا المحل

---

(١٣٥) ربما يقصد "عجيب".

وشاهدنا كثيرا من أنواع الأقمشة الحريرية، كان بعضها مزخرفا بخيوط ذهبية أو فضية، وكانت بمختلف الألوان: الأصفر والأحمر والبنفسجي والبرتقالى والأزرق، ألوان متنوعة وجملية، لقد جئنا من بلد الحرير أيضا، لذا كنا مسرورين بمشاهدة ما يعرضه هذا المحل، فهو شيء لا يمكن مشاهدته فى اليابان، لكننا لم نشتر شيئا واكتفينا بمشاهدة المعروضات.

زرنا مصنع "نصار" المشهور بمشغولاته الخشبية والنحاسية، شاهدنا النساء العاملات، حين شاهدننا شعرن بالسرور والنشوة، فى قسم المشغولات الخشبية صفوا لنا بعض المصنوعات الصغيرة مثل اللعب، ولاحظنا استخدامهم للصاج والمعادن المختلفة، فيصنعون المزهريات والشمعدان وغيرها من المعدن، قالوا لنا إن المادة الخام تأتيهم من اليابان، بعد الحرب الأخيرة حاولت اليابان الوصول للشرق الأوسط وإثبات وجودها، هذا ما قاله مدير المصنع، أتذكر الآن أننى شاهدت على طاولة الفندق قطعة من النحاس توضع فيها "خلال تنظيف الأسنان"، كانت مصنوعة فى اليابان.

خلال الأيام الثلاثة التى قضيتها فى سوريا تأكد لى ما حدثت به نفسى فى القدس: "تخلصوا من الطربوش التركى! أقاربنا فى الجانب الغربى من آسيا يجب أن يقطعوا علاقتهم بمحمد! وأن يعيدوا ميلادهم من جديد، وإلا فإن بلادهم ستتدهور وتزول".

أثناء إقامتى فى دمشق قصرت شعر رأسى، كان ذلك يوم السادس والعشرين من شهر مايو، وهو العام السادس على وفاة أبى، بعد ذلك ذهبت لطلب التصاريح، قدم ناحيتى أحد الجنود يريد مصافحتى، أدركت أنه الجندى الذى قابلته فى فندق حيفا، بعد أن تصافحنا وتحدثنا قليلا رجعت إلى الفندق، ومرة أخرى قابلته فابتسم قائلا: المرة القادمة فى لندن!

* * *

هناك أشياء كثيرة تستحق المشاهدة هنا، لكن الجو فى النهار كان شديد الحرارة، وكان باردا فى الليل أحيانا وشديد البرودة أحيانا أخرى، لذا لم أكن

أشعر بالأمان، كما أن كل شىء بدا قذرا غير نظيف. كنت أظن أن دمشق بالنسبة لى مكان مناسب، والمصرى رزق نصحنى بزيارة دمشق بالقطار الذى يمر بلبنان، وفى طبرية نصحنا ابن أخى نصار بزيارة بعلبك، فآثارها شبيهة بالآثار التى توجد فى هليوبوليس فى مصر، وفكرت أننى يمكن أن أزور هذه الأماكن، وفى الوقت نفسه فكرت أنه لا يمكن أن أزور روسيا من آسيا الصغرى وتركيا، لذا حان الوقت للعودة إلى القدس، ومن هناك أنطلق إلى حيث أريد!

## الناصرة (مرة أخرى)

### (١) ليلة فى أفوريه

فى الساعة السابعة من صباح يوم السابع والعشرين من مايو غادرنا فندق دمشق متجهين إلى المحطة، وصلنا إلى مكتب التذاكر وانتظرنا هناك حيث قابلنا ثلاث ممرضات تعرفنا عليهن فى الفندق، تحدثت زوجتى معهن، بعد مدة حضر موظف التذاكر الشاب، وطلبت من الحمال أن يحمل أمتعتنا، بينما كان موظف التذاكر يراجع اسم وبيانات كل من يحصل على تذكرة ركوب، وقد بدأ بالعسكريين أولا، ثم قال: هل هناك عساكر آخرون؟

إنهم هنا يهتمون كثيرا بالعسكريين، وينهون معاملاتهم قبل المدنيين، ضج الناس بالشكوى من طول الانتظار، وحدثت نفسى: كل إنسان يجب أن يغضب، يجب أن تثوروا، يجب أن تنالوا استقلالكم، يجب أن تبتعدوا عنهم .

جاء أحد المسئولين فقال للشاب: خذ اليابانيين بعد العسكريين. وهكذا طلبونا لأننا يابانيون، وهكذا نذهب قبل المواطنيين من أهل البلاد، أريتهم بطاقة التصريح، بالأمس ذهبت إلى مكتب التصاريح وحصلت على البطاقة، سألتهم هل يمكن أن أسرع بركوب القطار، وشعرت بالراحة لكنى شاهدت مواطنين يحملون أوراقا تختلف عن أوراقى قليلا، تعجبت قليلا لكنى مضيت فى طريقى، وحين أريتهم أوراقى قال أحد المسئولين: هل معك أوراق أخرى؟ قلت: لا. قالوا: يجب أن تكون معك استمارة أخرى. رفضونى! يجب أن أحصل على تصريح آخر باستمارة أخرى، فذهبت إلى الطابق الثانى، لكن المسئول قال: لا. اذهب إلى المبنى الآخر المجاور. فذهبت إلى هناك، وحين وصلت إلى الغرفة المقصودة لم أجد أحدا بداخلها، جاء أحد الضباط وسمع قصتى ثم قال: كان يجب عليك أن تأتى بالأمس! لكن لا مفر، اذهب إلى مسئول القطار وناقش الأمر. اندفعت إلى المحطة ثانية، حين أردت أن أتكلم مع مسئول كبير بالمحطة صاح: أسرع! أسرع! زوجتك فى انتظارك.

كان القطار على وشك أن يتحرك، بينما كانت زوجتى تتطلع هنا وهناك تبحث عنى فى قلق شديد... فى النهاية ركبنا القطار، كنت أتصبب عرقا، كانت العربة مملوءة بالجنود البريطانيين والهنود، وكانت الكراسى الخشبية شديدة الصلابة، لكن هناك درجة أولى فى القطار، كان الحمال قد حمل أمتعتنا إلا أن الجنود رفضوا السماح له بوضعها فى العربة، الممرضات البريطانيات كن يجلسن فى الدرجة الأولى، مقاعد جلدية مريحة، هكذا عبرت زوجتى عن مشاعرها بينما كنت أتناول البرتقال الذى اشتريته من المحطة.

"على كل حال تمكنا من ركوب القطار وهذا أفضل". هكذا حدثت نفسى!

اليوم آخر مايو، الجو جميل يمكننى أن أشاهد جبل هيرمون تغطيه الثلوج، وبرارى القمح بالقرب من الجبل اكتست باللون الذهبى، بينما كانت الرياح تحرك سيقان القمح فيتموج فى حركات بديعة.

فى محطة "ديرات" Derat أطفال صغار يبيعون "النقل" و "المكسرات" والبيض المسلوق، نزلت من القطار وملأت آنية الماء، هذه منطقة مرتفعة والماء هنا عذب، أكلنا الخبز الذى أحضرناه من الفندق وأكلنا البيض المسلوق، كان هذا هو الغداء، كان الكمسارى قد جاء إلينا قبل "ديرات" ليفحص التذاكر، قدمت له التذاكر والورقة التى كتبها رئيس المحطة، فقال لى: يمكن أن تشترى تذكرة عند "ديرات"، أو يمكن شراء تذكرة بعد "ديرات" من داخل القطار. ولهذا حين جاء الكمسارى ثانية بعد "ديرات" دفعت ثمن التذكرة من دمشق إلى أفوريه لشخصين، مبلغ ٣٤٧ قرشًا، ثم عودة من سيماك إلى دمشق لشخص ١٠٠ قرش، شعرت أن التذكرة غالية لكن "ما باليد حيلة"! وتأكدت من الكمسارى وسألته: هل أنت راض؟ فقال: شكرا". فقد أخذ لنفسه مبلغ ٢٠ قرشًا، بدت زوجتى مرهقة ومتعبة، رقدت على الكرسى، كنت أتطلع خارج الشباك، كان المنظر بديعا، وصلنا إلى سيماك، قدمت إلى القطار أعداد غفيرة من الركاب، لاحظت وجود شخصين من أصحاب القبعات الحمراء فى عربتنا، وأيضا لاحظت وجود رجال من أعضاء الإرسالية الإسكتلندية.

كان القطار يمضى عبر هيرمون وبحيرة طبرية ويعبر نهر الأردن، منذ شهر شاهدت نهر الأردن من المنبع من أعلاه، لكنى الآن قريب منه، يمضى القطار على جانب جبلى موحش، شاهدت أحيانا الغزال العربى يركض، بينما كان القطار ينطلق شمالا يطوى الطريق.

بعد الغروب وصلنا إلى محطة أفوريه، ساعدنى الجنود البريطانيون فى نقل أمتعتنا، نزلنا من القطار، كان السيد هانسمان من القدس قد أعطانا بطاقة توصية إلى شخص يدعى أليكسندر، كانا معا فى السجن، وأليسكندر هذا يعيش الآن بالقرب من أفوريه، أريت البطاقة مستر ديكون Deacon وهو جندى بريطانى، فقال أنا لا أعرفه، لكن لا يوجد أى فندق هنا، ولا يوجد حنطور أيضا، إلا أن هناك عربة حنطور قدمت من مستعمرة يهودية، ركبتها امرأة يهودية.

كان علينا من أجل الوصول إلى نابلس أن نصل إلى الناصرة أولا، وفى الناصرة علينا أن نجد عربة حنطور تقلنا، وغدا صباحا يأتى الحنطور العسكرى من الناصرة، ويمكننا أن نركبه، لكن المشكلة كيف سنقضى ليلتنا هذه؟ كان مستر ديكون قلقا علينا، قال: إذا لم تجدوا أى غرفة، فيمكنكم أن تمكثوا الليلة فى غرفة مدير المحطة. سررنا كثيرا بهذا العرض، ودخلنا غرفة مدير المحطة، كانت مساحتها ٦ تتاميات تقريبا، غرفة ضيقة فيها طاولة وكرسى وسرير معدنى من أسرة المعسكرات مع ناموسية، وعلى الحائط عُلِّق سيفٌ طويل وبندقية ومعطف.

مدير المحطة رجل عربى لم يكن موجودا، كان السرير صغيرا جدا، أحضر لنا موظف المحطة أريكة، شباك الغرفة يواجه الناحية الشمالية، كنا نشاهد الناصرة فوق الجبل.

**بلدة الناصرة على قمة الجبل**

**اتطلع إليها لا يوجد أى ضوء**

**الظلمة تحتوى المكان**

**ولا شىء غير الظلمة.**

كان معنا فى المحطة رجل إسكتلندى يدعى بيلنجال Bullingall كان بيلنجال يساعد أحيانا موظف المحطة، أحضر لنا بيلنجال شمعة وفنجانى شاى، أضأت الشمعة، وأخرجنا بقايا الخبز وتناولنا العشاء على ضوء الشمعة، وصارت الحجرة المجاورة لنا مطبخا صغيرا، فقد سمعت صوت أربعة أشخاص أو خمسة يتناولون العشاء ثم ساد الصمت سريعًا.

قالت زوجتى: لماذا لا نقدم لهم الشاى الأخضر؟! فقلت: فكرة طيبة. تحدثت مع بيلنجال فقام بغلى الماء، وجهزت الشاى الأخضر الذى أحضرت من اليابان مع بعض الحلوى التى صنعتها المرأة فى فندق طبرية، وناديت الجميع: أيها السادة الشاى جاهز Gentelmen! Tea is ready! كما لو كنت "نادلا" فى مقهى. تجمع سبعة أشخاص، خمسة بريطانيين وإسكتلندى وهولندى، ثم أضيف يهوديان من فلسطين، كانوا سعداء جدا بالشاى الأخضر وبالحلوى، وقالوا إنها حلوى لذيذة جدا.

أريتهم "براد" الشاى الأخضر اليابانى، وفناجين الشاى الأخضر المصنوعة فى اليابان، كانوا مغرمين تماما بمشاهدتها، ولمسها والتدقيق فيها، قدمت بطاقتى، كان اسمى مكتوبا بالحروف اللاتينية، وأضفت اسمى مكتوبا بالحروف اليابانية، ثم طلبت منهم أن يكتبوا شيئا فى أتوجرافى، أحد اليهوديين رفضوا ذلك، لكن الآخرين كتبوا :

"تحية وتقديرًا من بعض البريطانيين فى أفوليه رفضوا فلسطين ٢٧ مايو ١٩١٩م فى، ذكرى ليلة سعيدة.

سابر و. غرب، أيرلندة. Sapper.W. West - Ireland

بيتر بيلنجال، إسكتلندة. Pte.Bullingall - Scotland

سابر أ. و. وايت، لندن. Sapper.A. W. Whit - London

بيتر هـ. س. ويكون، نتنجهام. Pte.H. C. Deacon - Npttingbam

سابر أ. ج. مجنس، جلاسجو. Sapper.A J. Mojunes - Glasgow

س. شويرساد، فلسطين S. Schweersadbn - Palastine

كانوا سعداء جدا بقضاء وقت قصير معنا ثم عادوا أدراجهم، ذهبنا إلى دورة المياه فى الخارج، حملنا الفانوس اليابانى، كانت صفحة السماء مملوءة بالنجوم، وكنا نسمع صوت صرير الحشرات، رقدت على السرير المعدنى فى غرفة مدير المحطة العربى بينما رقدت زوجتى على الأريكة، وتحولت هذه الليلة إلى ليلة يمكن أن أسميها ليلة "القرص والأكلان!"

"أفوليه Afule التى تقع وسط مرج ابن عامر [١٣٦]

هنا قضينا ليلة

كانت قدرا مقدرا لنا".

(٢)

الناصرة (مرة أخرى)

فى صباح اليوم الثامن والعشرين من مايو، بعد أن غسلنا وجوهنا، حاولنا أن نتجول حول المنطقة، كانت هناك كابينة صغيرة قريبة فيها موظفون محليون، وكان هناك مبنى آخر صغير، أفوليه مكان موحش، سكون وصمت، كنت أفكر من نافذة الغرفة فى الحنطور ومتى يصل، ظننت أنه وصل، لكن يبدو أنه لم يصل، جاء إلينا بلينجال وقال شيئا لم أفهمه، فقد كان من الصعب علىَّ أن أفهم الإنجليزية الإسكتلندية، وقد فهمت أن الحنطور فى الطريق، لكنى اكتشفت بعد ذلك أنه قال لى: الحنطور وصل وهو فى انتظارنا.

كان الحنطور العسكرى كبيرا تجره أربعة جياد، تركت معظم أمتعتنا فى المحطة، وأعطيت مستر بلينجال ٥٠ قرشًا اعترافا بجميله وشكرا على خدماته، كان فى الحنطور "زكيبتان" كبيرتان مملوءتان بالخيار، وجندى بريطانى، ربما شاهدته بالأمس، تحرك الحنطور فى الساعة الحادية عشرة متجها إلى الناصرة، كانت الأزهار البرية بألوانها المختلفة منتشرة على جانبى الطريق الذى كان يمر بين حقول مرج ابن عامر (سهل زرعين) كان هناك جنديان بريطانيان يقودان

(١٣٦) سهل إيسدريلون Esdraelon.

عربة الحنطور، كانا يلهبان ظهور الجياد بالسياط يستحثانها على الإسراع، فكانت العربة إذا ما مضت فوق المطبات تهزنا هزا عنيفا لدرجة أن معطفى سقط، فأمسك به الجندى المرافق.

**عربة الحنطور تحمل زوجين**

**هما رسولا سلام**

**تتراقص بهما**

**تقفز تجرى تمضى تجاه الناصرة**

وأخيرا وعند الساعة الواحدة ظهرا وصل الحنطور أمام فندق جرمانيا، دفعنا للسائق جنيها واحدًا عن كل شخص ، عدنا هنا بعد غياب أسبوعين، رحبت بنا النسوة فى الفندق ورحب بنا عبد الله، كانوا سعداء فرحين بعودتنا، نزلنا فى الغرفة رقم٢٤، كانت هناك أعمال صيانة فى الفندق، فى سوريا وفلسطين توجد فنادق كثيرة لا يريدون إجراء أى تعديل أو عمل صيانة لها، يريدون الإبقاء عليها كما هى، لكنهم هنا بدأوا أعمال ترميم وصيانة، أنا سعيد بهذا، وعبرت عن سعادتى وسرورى لفريدا .

**هذا قدرى أن أعود ثانية إلى هنا**

**أعود للمرة الثانية هنا**

**أعود إلى مسقط رأسى**

**إلى مدينة الذكريات الناصرة**

***

فى صباح يوم التاسع والعشرين من مايو كادت زوجتى أن تصاب بالجنون، حين اكتشفت وجود كثير من حشرات البق تكمن فى طيات "اليوجاتا"[١٣٧]، كانت حشرات البق كبيرة الحجم بشكل مخيف، لا أدرى هل هذه الحشرات من الفندق

(١٣٧) البيجاما اليابانية.

# نابلس

## (١) إلى نابلس

فى الساعة السادسة والثلث من صباح يوم ٢٠ مايو غادرنا فندق جرمانيا فى الناصرة، ركبنا عربة حنطور تجرها ثلاثة خيول، كان السائق يتكلم الفرنسية، مضت عربة الحنطور داخل سهل مرج ابن عامر Esdraelon، كانت الحقول مغطاة بالندى وكان الهواء المشبع بالضباب يهب باردا.

**فى هواء الصباح العليل**

**نهبط التلال .. داخل الحنطور**

**وسط حقول سهل زرعين (مرج ابن عامر)**

عند الساعة السابعة والثلث وصلنا محطة أفوريه، أردنا أن نعطى شيئا للسيد دى الذى كان يعتنى بنا، قدمنا له باقة ورد اشتريتاها من الناصرة، وكان هناك السيد/ بى فودعناه أيضا، كانت الحقول تمتد عبر الوادى فى مساحات واسعة تتخللها أحيانا بحيرات وتجمعات سكنية، كان الحنطور يمضى ويمضى بنا تجاه الجنوب، تراءت لنا قرية من بعيد، ربما هذه قرية جنين Jenin التى نقصدها، كنا نشاهد أحيانا عربات عسكرية محطمة على طول الطريق ملقاة فى الحقول كما هى، لم يعرها أحد انتباها، ربما هجم البريطانيون على المكان فجأة فى سبتمبر الماضى، لذا هرب الجنود الأتراك والألمان مخلفين وراءهم تلك العربات المحطمة.

وصلنا إلى جنين[١٣٨] عند الساعة التاسعة، عند مدخل القرية وقف رجل فلسطينى[١٣٩] بطربوش، تحدث مع السائق، فتح السائق حافظته وقدم له مبلغا من المال، هنا يقومون بتحصيل رسوم دخول، دخلنا جنين، شاهدت مواسير تحمل

(١٣٨) كتبها Zenin وقبل ذلك كتبها Jenin.

(١٣٩) كتب المؤلف "محلى".

الماء وصنابير التفت حولها النساء، جئن ليحملن الماء من هنا، كما أن الخيول أيضا تشرب من هذا المكان، نزلنا من الحنطور وملأت ثلاثة أكواب، أو أربعة كما شربت زوجتى كوبا من الماء، كان الماء عذبا.

قبل ثلاث عشرة سنة جئت من القدس عبر نابلس ووصلت هنا، حيث مكثت ليلة فى فندق يملكه ألمانى، اليوم هو الرابع عشر من الشهر القمرى، فى ضوء القمر شاهدت هذا المنظر نفسه، تأكدت تماما من أننى جئت هنا إلى هذا المكان نفسه قبل ثلاث عشرة سنة، فقد كان الفندق الذى نزلت فيه آنذاك يقع بجوار هذا المكان الذى نشرب منه، وبجانب الفندق لم تكن هناك مبان تذكر، لكن الآن بنيت مبان كثيرة بالقرب من الفندق، لدرجة أننى لم أتعرف على الفندق فى البداية، سألت شخصا ، فقال أحد الفلسطينين المحليين إن هذا المبنى العالى هو الفندق الذى كنت قد نزلت فيه، إلا أنهم يستخدمونه هذه الأيام مقرا للحاكم الرسمى، والحاكم يكره الإنجليز، وسكرتيره سورى يدعى "خورى"، وهو الشخص الذى قابلته مع أخته فى الناصرة.

أخرجت بطاقة "خورى" فاصطحبنى بعض الناس إلى بيته، قدمت إلينا أخته الصغرى التى لم يسبق لى التعرف عليها، قالت إن أمهم غير موجودة، ثم عرضت علينا أن نتفضل بتناول القهوة، لكننى شعرت بأن هذا أمر مربك لهم ولنا على حد سواء، لذا اعتذرت، بعدها أحضرت لنا الأخت خطابا وطلبت منا أن نرسله بالبريد إذا ما وصلنا إلى نابلس، أهدتها زوجتى مروحة يد يابانية صغيرة.

بينما كنا نركب الحنطور طلب منا رجل بطربوش فى نحو الخمسين من عمره يضع نظارة على عينيه أن يرافقنا، لم تكن معه أمتعة؛ لذا قلت له تفضل لا بأس، ولا حاجة لأن تدفع أجرة، فرح بذلك فرحا شديدا.

* * *

غادرنا جنين فى الساعة العاشرة والنصف، يقول الناس إن منبع الماء الأساسى هنا بالقرب من حدود القرية، مضى بنا الحنطور على طول شريط السكة الحديد الذى أنشأه الأتراك من قبل، إلا أنه لا يستخدم الآن، آه، تذكرت، هذا المنظر هو نفسه لم يتغير منذ جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة.

فى وقت الغذاء فتحت لفة "الجرنال"، كان بداخلها بيض مسلوق وتين مجفف ولحم ضأن مجفف، أعطيت اللحم للسائق والضيف الذى ركب معنا، وبسرعة بدأ السائق يلتهم اللحم، ثم طلب منا الماء الذى حملناه لأنفسنا، لكنى أعربت له عن مشاعرى تجاه هذا الأمر قائلا بأنه يجب أن يجهز الماء بنفسه، واكتفيت بإعطائه كوبا واحدا من الماء.

كان الطريق يمضى مرتفعا، وكانت عجلات عربة الحنطور تقاوم الحصى والأحجار الصغيرة التى فرشت الطريق، وكان علينا كلما واجهنا منطقة مرتفعة أن ننزل من الحنطور، وقد حدث هذا أكثر من مرة، وفى الساعة الواحدة بعد الظهر وصلنا إلى قرية صغيرة تدعى "تشئيريه"؟ توقفت الخيول بالقرب من أشجار التين، حين جئت إلى هنا من قبل نمت قليلا بالقرب من نبع ماء، بالقرب منه مقهى، وهنا يأتى الأولاد وتأتى النساء لحمل الماء، ولغسل الملابس، أو قضاء الوقت فى الدردشة معا، أو حتى اللهو بالماء، ذهب السائق ليحضر الماء لنفسه ، كما ذهبنا نحن أيضا بدورنا لنحضر الماء، بدأ الرجل الذى يرافقنا فى فتح صرة من القماش كان يحملها معه وفرشها على الأرض، ثم وقف عليها، وجلس ووقف، كان يصلى على الطريقة الإسلامية.

فى المقهى يبيعون التفاح الأخضر، ذهب السائق واشترى خمس تفاحات أو ستا كان طعمه فى غاية الحموضة، بعد ذلك ذهب الرجل الذى يرافقنا واشترى "جوالا" من التفاح، ثم أعطانا ثلاثين تفاحة! لم يكن هذا بالأمر المفرح لنا[١٤٠] حين جئت هنا من قبل كان السائق قد اشترى لى مشمشا إلا أننى لم أتناوله، لأننى كنت أعانى من المغص، هذه المرة لا يوجد مشمش لكن يوجد تفاح حامض، والتين لم ينضج بعد، لاحظت أن النساء اللواتى جئن لحمل الماء كن يتحدثن معا لفترات طويلة، استراحت الخيول مدة ساعتين، غادرنا المكان فى الساعة الثالثة، بعد مدة شاهدت أشجار التين التى شاهدتها قبل ثلاث عشرة سنة وقد صارت ضخمة، إلا أن سيقانها لم تكن مرتفعة، قبل ثلاث عشرة سنة غفوت لمدة قصيرة تحت إحدى هذه الأشجار، أخبرت زوجتى بهذا الأمر.

---

(١٤٠) لأن التفاح لم يكن حلوا، بل كان حامضا.

قبل ثلاث عشرة سنة

وفى مثل هذا الوقت

فى هذا المكان نفسه

تمتع بالقيلولة فى تشئيريه

قال للزوجة مشيرا إلى ظل شجرة التين

حيث رقد ذات مرة قبل ثلاث عشرة سنة

أى

* * *

فى السامرة ظلال شجرة التين

ذى الخضرة القاتمة

خضرة تشرح الصدر، تريح المسافرين

أى

* * *

توقف الحنطور فى تشئيريه

بالقرب من نبع الماء

امرأة سامرية تجلب الماء

أى

بعد قرية تشئيريه وصلنا وسط التلال، منظر بديع، كان البحر الأبيض المتوسط فى الغرب بمائه الذى يسطع، وعبر التلال ترامت حقول مرج ابن عامر، كان الاتجاه الذى نسلكه عبارة عن تلال وهضاب، وبين التلال المترامية كنا نشاهد قرى متفرقة، كانت الرياح التى تهب علينا من البحر تلطف الجو من حولنا، بعد ذلك مررنا بقرية سبسطية عند أطلال مدينة السامرة [١٤١]، كان الحنطور يمضى

(١٤١) تقع على بعد ١٢ كم شمال غرب نابلس، والسامرة هى جبال نابلس، وهى القسم الشمالى من الضفة الغربية.

بنا تجاه نابلس، على طريق طويل بين الوادى، والغروب على وشك أن يحل علينا، وبدت الخيول مرهقة متعبة، ونحن أيضا كنا مرهقين ومتعبين.

* * *

وصلنا بالقرب من قرية يجرى عندها ماء جدول صغير، وهناك أشجار مختلفة وحقول قمح ومزارع خضراوات، كانوا يطلقون على نابلس قديما اسم "سيكيم" (١٤٢). فى الجنوب يوجد جبل "جيريجيم" (١٤٣) الذى يرتفع عن سطح البحر نحو ٢٣٨٦ قدمًا، وفى الشمال يوجد جبل إوارو(١٤٤) الذى يقع على ارتفاع ٣٠٣٢ قدمًا عن سطح البحر، بين هذين الجبلين يوجد واد يجب علينا أن نجتازه، فى الطريق نزل الرجل الذى رافقنا، وصافحنا وشكرنا كثيرا وقدم بعض النقود للسائق، واستمر الحنطور يمضى بنا عبر الوادى، مررنا بحدود قرية شاهدنا عندها مبنى عاليا، كان هذا المبنى هو فندق سامريا الذى سننزل فيه.

اصطحبنا رجل عجوز بطربوش إلى الغرفة التى سنقيم فيها، كانت مثل غرفة فى دير، ينزل فيها قسيس، توجد أربعة أسرة وسقفها عال جدا، من النافذة وفى ناحية القرية يمكن أن نرى منظر الشمس وهى توشك على المغيب، وفى الشمال توجد أشجار كثيفة منها أشجار الرمان والتين، ويبدو أن هناك نهرا صغيرا. أعطيت سائق الحنطور ٦٠٠ قرش ثم هبة ٣٠ قرشًا، تهللت أساريره، وسألنا هل يعود بنا إلى القدس؟ فقلت له: غدا سأمكث فى نابلس.

هذا الفندق مملوك لرجل محلى من أهل المنطقة، لم يكن هناك أى نزيل بجوارنا، كان الصبى الذى يهتم بشأننا فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، يضع الطربوش الأحمر على رأسه، ويضع فى إصبعه خاتما بفص أحمر!

---

(١٤٢) يشير المؤلف إلى الاسم التوراتى Shechem، وكانت تعرف فى العهد الرومانى باسم فلافيانيوبوليس Flavia Neapolice، وقد عرب الاسم بعد الفتح الإسلامى إلى نابلس، وتعرف أيضا بأسماء جبل النار ودمشق الصغرى وعش العلماء.

(١٤٣) يقصد المؤلف جبل جيرزيم Gerizim

(١٤٤) يقصد المؤلف جبيل عيبال Ebal فى الشمال.

يتكلم الإنجليزية قليلا، يمكنه أن يتعامل معنا بشكل أو بآخر، عرفت أنه نجل صاحب الفندق.

تناولنا العشاء المكون من سلطة الخيار والطماطم والخبز فقط، سألت الصبى إذا ما كان لديهم فاكهة، فقال: فى الغد.

كانت دورة المياه على الطريقة المحلية، حفرة على شكل ورقة الشجر، شىء مثير للاهتمام! استغرق الوصول إلى هنا نحو اثنتى عشرة ساعة بالحنطور، ورغم أننا كنا متعبين ورقدنا فى الفراش على الفور، فإننا لم نستطع النوم... ليلة باردة مريحة.

وديان نابلس مملوءة بالينابيع والجداول المائية، فيها نحو اثنين وعشرين ينبوعا، وتسمع دائما نقيق الضفادع وصرصرة الطيور جنبا إلى جنب خرير الماء، حين نظرت إلى السماء وجدتها ملئت بالنجوم التى بدت كأنها تتساقط.

**"ليلة مقمرة، غطت فيها النجوم صفحة السماء**

**ساورنى شك فى أن تكون النجوم حبات مطر**

**حين سمعت خرير الماء**

**لكنى أدركت أنه نقيق الضفادع وصرصرة الطيور**

**ليل وادى نابلس الأخضر سيكون حالكا وأكثر ظلمة**

**خلف أشجار التين حيث تسمع "بلبطة" البط.**

**(٢) يوم فى نابلس**

فى يوم الحادى والثلاثين من شهر مايو حاولنا الذهاب إلى بئر يعقوب، كان الصبى المرافق لنا يدعى خليل Khaleel، والمرشد المحلى من أهل المنطقة يدعى كريم Kirrem، كان كريم يتكلم الإنجليزية، عبرنا الجسر ومررنا بالمقابر، حيث

شاهدت نباتات[١٤٥] مثل أزهار يابانية، يقولون إن هذا النبات يعيش نحو ثمانين عاما. وصلنا إلى بئر يعقوب، قبل ثلاث عشرة سنة حين جئت إلى هنا كان للبئر غطاء أو سقف بدائى، إلا أنهم اليوم سقفوها على الطريقة الحديثة، بالقرب من البئر سوف يبنون كنيسة جديدة، قدم لنا أحد الرهبان قارورة ماء، كان الماء عذبا ولذيذا. ملأت وعائى بهذا الماء، أرانى الراهب قاع البئر، كان العمق يبلغ ثلاثة أمتار، حين أرانا العمق على ضوء الشمعة كنت أرى الماء بلون أسود.

**منذ مدة طويلة جفت بئر يعقوب ذات مرة**

**إلا أن نقطة واحدة تبقت**

**جعلت البئر تمتلئ بالماء من جديد**

**حين شاهدت عمق أعماق البئر**

**من أعلى سطح الماء**

**رأيت ضوء خاتم ذهبى يسطع**

**هذه بئر يعقوب**

اشتريت عدة بطاقات مصورة، قدم لنا الراهب الروسى القهوة فى إحدى غرف الكنيسة، وعرفت منه أنهم أوقفوا بناء الكنيسة الآن بسبب الحرب، كان هناك الكثير من الأزهار البرية، كما توجد منطقة خصصوها لزراعة أشجار الزيتون، وبجانب هذه الأشجار شاهدت صليبين كتب على كل منهما اسم جندى بريطانى وتاريخ موته، ماتا فى يونية.

كريم صبى مسيحى لكنه أجبر على الذهاب للحرب من قبل الحكومة التركية، لم يكن لديه أى دافع للقتال، وقد استولى البريطانيون على نابلس فى سبتمبر الماضى، قال الصبى الآخر خليل إنه شاهد الحرب، إلا أن كريم جاء إلى هنا مع

---

(١٤٥) ربما يقصد نبات الصبار.

بقية المسيحيين الذين وفدوا على المنطقة، شاهدت بجوار أشجار الزيتون كلبا مربوطا بحبل، حين رآنا الكلب حرك ذيله لنا!

* * *

ذهبنا إلى آثار يوسف عبر حقول القمح، إلا أن البوابة كانت مغلقة، لذا اكتفينا بمشاهدة الآثار من خارج البوابة فقط. يبلغ سكان نابلس نحو ثلاثين ألف نسمة، قبل الحرب كانت هنا مصانع صابون كثيرة، يستخدم زيت الزيتون فى تصنيع الصابون، وكانت نابلس بلدة مزدهرة كثيرا، حين جئت فى رحلتى الأولى قضيت ليلة فى كنيسة الراهبات، حين ذكرت هذا لكريم أشار قائلا: هذه هى الكنيسة، لكنى لم أذهب ولم أدخل الكنيسة، فقد نصحنى كريم بأن نشاهد كنيس السوماريين "اليهود"![146] ينتشر اليهود فى جميع أنحاء العالم، إلا أن أعضاء الكنيسة السومارية يوجدون فى نابلس فقط، قادنا كريم إلى داخل الكنيس، وبعدها ذهبنا إلى المنطقة السكنية حيث وقفنا أمام بيت صغير، هو بيت زعيم الطائفة واسمه إسحاق[147]، يبلغ من العمر نحو خمسين عاما، له لحية بيضاء طويلة، وكان يدخن السجائر، قال إنه زار بريطانيا مرتين، وقد دعى إلى هناك باعتباره شخصية متميزة غير عادية، تحدثت معه قليلا عن طريق كريم، هم ليسوا مثل اليهود السوماريين، يؤمنون بالإصحاحات الخمسة الأولى فى التوراة، والمسيح أهم من مشيا، إذا قال الناس إن اليهود أدمغتهم صلبة فإن السوماريين أدمغتهم أكثر صلابة من اليهود.

سألنى القسيس هل أريد أن أشترى نسخة قديمة من الكتاب المقدس؟ أو هل أحتاج إلى صور؟ أرسلت خليلا إلى الفندق وطلبت منه أن يحضر حقيبتى وأخرجت الأتوجراف وطلبت منه أن يكتب شيئا، فقال لى: اليوم هو يوم السبت، وهو يوم الراحة، لذلك سأكتب بعد الغروب. شاهدت زجاجة براندى على طاولة، قال لى: اليوم يوم الراحة لذلك لن أقدم لك شيئا. وهكذا غادرنا بيته ثم ذهبنا

(١٤٦) هكذا فى الأصل.

(١٤٧) فى الأصل "إيزيك" Isik.

إلى كنيسة السوماريين كنيسة ضيقة، خلعنا الحذاء، وجدنا نحو ١٥ طفلا فى ملابس جميلة مع خمسة أو ستة من الشباب، وشاهدت الإصحاحات الخمسة من الكتاب المقدس مكتوبة بماء الذهب على جلد غنم، وضعوها فى صندوق فضى، وقالوا إن هذا بخط هارون حفيد موسى منذ ٢٠٠٠سنة، يبلغ عدد هؤلاء السوماريين نحو مائتين، وهم يمارسون أعمالا وحرفا متنوعة، اصطحبنا كريم بعد ذلك إلى بيته، مضينا فى حوارى ضيقة وصعدنا الطابق الثانى، حجرة واحدة نحو١٥ تتاميًا مع مطبخ، هذا كل شىء، قابلت زوجة كريم مع طفلها الرضيع، والأم وأخاه الأصغر، دخلنا بالأحذية وجلسنا على الكراسى، تناولنا القهوة، بدت الأم غير سعيدة، والأخ الأصغر صامت لا يتكلم، قدمت لهم ٥٠ قرشًا هدية للطفل ثم رجعنا إلى الفندق، ومن هناك أخذنا خليل إلى بيته حيث قابلت جدته وأمه وأخته الصغرى، جمع خليل بعض الورود وقدمها لنا.

مبنى هذا الفندق مؤجر بمبلغ ٦٠٠٠ قرش سنويا، وخليل يحضر الطعام من بيته، قدم لنا الغداء فى الفندق، لكن لم تكن لدينا شهية لتناول أى طعام، لذا اكتفينا بقطعة خبز وكوب من الشاى، تحدثنا مع شاب ذكر أنه سكرتير حاكم هذه المنطقة، أحد والديه بريطانى، بدا كأنه يريد ألا يذكر أنه ينتمى إلى أهل البلاد المحليين هنا.

***

أخذنا قسطا من الراحة بعد الظهر، جاءنا كريم قبل المساء مع ابن رئيس الطائفة التى زرناها اليوم، فقد غربت شمس اليوم، وبالتالى كتب الرجل لنا شيئا فى الأتوجراف، أردت أن أعطيه هبة فاشتريت منه بعض الكتيبات وأعطيته ١٠٠ قرش.

بعد ذلك قدم إلينا بعض أهل نابلس الفلسطينيين يتحدثون الإنجليزية قليلا، تحدثنا معا واتفقنا على أننا نحن الشرقيين يجب أن نتعلم من الأوروبيين، يجب أن نحب حياتنا الحاضرة وأن نعمل بجد ونشاط، فنحن فى الشرق لا نفكر بجدية فى الجسد، ونركز كثيرا على الروح ونهمل الجسد، يجب ألا نفصل ما بين الجسد

والروح، فهذا شيء غير طيب، يجب أن نحب الجسد وأن نحب الروح، نحبهما معا وبالدرجة نفسها، فالروح الصحيحة تأتى من الجسد الصحيح، نحن أهل الشرق لسنا بجادين، نحن لا نفكر بطريقة صحيحة، فأسلوبنا وطريقة حياتنا هى نقطة ضعفنا، ومن أجل الحرية ومن أجل الاستقلال يجب أن نبذل جهدا أكثر مما نفعل هذه الأيام، فى تلك الليلة أصابتنى حمى فلم أستطع أن أنام بشكل جيد.

## إلى القدس

فى الساعة السادسة من صباح أول يونية غادرنا نابلس متجهين إلى القدس على ظهر عربة حنطور، أرادت سيدة عجوز فى السبعين من عمرها أن تركب معنا، كانت ذاهبة إلى ابنها فى القدس، سألتنا إن كان يمكنها الركوب معنا أم لا فوافقنا على الفور، وكنا قد ركبنا مع السائق نفسه الذى جاء بنا بالأمس، دفعنا له ٥٠٠ قرش حتى القدس لكن رئيسه أخذ هذه النقود؛ لذلك لم يكن السائق سعيدا، تحدثت مع المرأة العجوز بلغتى العربية الضعيفة جدا، وكان علىَّ أن أعتمد على القاموس، لم أكن أشعر بالراحة نتيجة للحمى التى أصابتنى، ولم أتناول الطعام بشكل جيد، فضلا عما أصابنى من إرهاق، لذا كنت أغمض عينى طول الوقت، بينما كانت حرارة الجو تشتد وتشتد.

لاحظت أن الطريق صار أفضل مما كان عليه قبل ثلاث عشرة سنة؛ فقد عبَّدوه بشكل جيد، فى الساعة التاسعة وصلنا إلى خان اللبان Khanelluban، وعند أحد المقاهى نزلنا من الحنطور، ساعدت السيدة العجوز لتنزل، قبلت يدى شكرا وامتنانا، وفى هذا المقهى حاولنا تناول الطعام، كان المقهى قذرا مملوءا بروث البقر والخيول والحمير والغنم، كان هناك نبع ماء بالقرب من المقهى، ابتعدنا عن المقهى وجلسنا فوق الصخور تحت ظلال أشجار التين، فتحت صندوق الفاكهة الذى قدمه لنا فندق سانت ماريا، وجدنا فاكهة مثل المشمش Apricot بحجم صغير، لونها أبيض على أخضر يميل إلى الحمرة(١٤٨) قشرت حبة بعد حبة

(١٤٨) ربما يقصد النبق، إلا أنه أشار إلى الاسم بالعربية مشمش، وظنه يختلف عن المشمش فى اليابان.

وتناولتها، كان مذاقها لذيذا جدا، يطلق عليه الناس هنا اسم "مشمش"، أتذكر أننى أكلت هذه الفاكهة فى حيفا، لم أعرف آنذاك أنها تسمى "مشمش".

لم يعجبنى طعم اللحم الذى يقدم فى فلسطين وسوريا، لم أكن أرغب فى تناوله، هذا الفندق لم يقدم لنا طعاما جيدا، كانت حبة المشمش هذه تعطينى القوة والطاقة.

بعد أخذ قسط من الراحة بدأ الحنطور يتحرك من جديد، ومن الخلف سمعت صوت العجوز وهى تتقيأ، وكانت تبكى من المعاناة والألم، تعجبنا كثيرا، حاولت زوجتى أن تساعدها فأخذت تربت على ظهرها، ثم قدمت لها بعض الماء فتحسنت حالها، بعد ذلك قدمت لها زوجتى دواء يابانيا للمغص، لماذا أصيبت العجوز بالمغص وتقيأت؟ الجواب هو أنها أكلت أشياء محمرة مر عليها وقت طويل، وأكلت كمية كبيرة من اللحم ، فكانت تلك هى النتيجة.

حين وصلنا إلى قمة التل، تذكرت أننى مشيت هنا قبل ثلاث عشرة سنة، بالقرب من هذه المنطقة مخيم وعساكر يطهون الطعام، يصعب إعداد الخبز هنا، وطهى الأرز أسهل كثيرا، لذلك استهلكت كميات كبيرة من الأرز أثناء الحرب فى فلسطين، ربما الأرز المصرى والأرز الأوروبى أيضا، شاهدت عمودا مكتوبا عليه "٣٧ كم من القدس حتى هنا"، كان الطريق يمضى، يمتد على مرمى البصر، واشتدت حرارة الشمس وصارت الجياد متعبة، يا لها من رحلة طويلة شاقة! فى بعض الأحيان كانت المركبات العسكرية تمر بنا. وصلنا إلى نبع يطلق عليه ميدان الزهر(١٤٩)، أتذكر أننى التقطت زهرة من هنا فى رحلتى الأولى، طلبت السيدة العجوز من السائق أن يحضر لها الماء من هذا النبع، وقالت: سخّنه(١٥٠) كثيرا ما كنا نسخن الماء لإعداد الشاى، لذا فهمنا ما قالت، قلنا:

"اعملى معروف ميه سخنة".

فهمت المرأة العجوز ما قلناه، لذلك استخدمت الماء الساخن.

---

(١٤٩) جاء فى الأصل: maiden'es hair.

(١٥٠) كتبها المؤلف منطوقة بالحروف الإنجليزية هكذا sofune.

كان الطريق عبر الوادى يمتد طويلا، وشعرت الجياد بالتعب الشديد، لذا صارت تسير ببطء شديد كأنها البقر، فى الوقت الذى بدا فيه السائق يغالب النوم، أما زوجتى فبدت كمن استغرق فى تفكير عميق، أما السيدة العجوز فقد تقيأت كل ما فى معدتها، لذا استغرقت فى النوم، أما أنا فقد تمنيت من أعماق قلبى أن نصل إلى القدس الآن، وتمنيت أن أرقد الآن فى الفراش وأمدد جسدى المنهك، فأغمضت عينىَّ.

وصلت الجياد إلى تلة عالية وبدأت الرياح تهب بشدة، وعند قرية إروبيريه(١٥١) نزلنا من الحنطور، وجلسنا تحت ظلال أشجار التين، وأمكننا أن نشاهد القدس من حيث جلسنا، وإذا اتجهنا من هنا شمالا يكون هذا آخر مكان يمكننا أن نشاهد منه القدس، أتذكر حين جئت هنا من قبل، غمرتنى مشاعر حميمة بينما كنت أقول وداعا للقدس!

**منذ مدة طويلة شعرت بآثار المدينة المقدسة**

**الآن أشاهد القدس ثانية من هنا**

الآن أشكر الله فقد جئت بزوجتى معى، ويمكنها أن تشاهد القدس من هنا، بدأت زوجتى ترسم صورة القدس من هنا، أما أنا فكل ما كنت أريده هو أن ألقى بجسمى وأرقد على الأرض، لكن هناك كثيرًا من روث البهائم منعنى من ذلك، كنت مرهقا جدا، ركبنا الحنطور ثانية، تجمع عدد من الفتيات الصغيرات ما بين عشر سنوات واثنتى عشرة سنة، تجمعن حول الحنطور، كن يضعن على رءوسهن إيشاربات تتدلى منها عملات معدنية، كما كانت هناك عقود من الخرز تتدلى من رقابهن، أكبرهن كانت تتكلم الإنجليزية، كان لديها شغف شديد لمعرفة سنَّة زوجتى الاصطناعية الذهبية، قالت البنت الكبرى لزوجتى :

- مدام! افتحى فمك!

غادر الحنطور قرية إروبيريه" ومضينا نهبط إلى الوادى، وبينما كانت عربة الحنطور تمضى بطيئة على الطريق بدت القدس بعيدة عنا... تمنيت أن أصل

(١٥١) ربما قصد المؤلف قرية دبوريه فى قضاء الناصرة.

إلى القدس الآن، أريد أن أتمدد على الفراش، وصلنا إلى جبل "سكوباس" Scupus، يعنى أننا أوشكنا على الوصول إلى القدس، دخلنا مدينة النور، دخلنا من بوابة الخليل، ثم وصلنا إلى "جراند نيو هوتل" فى الساعة السادسة مساء.

تركنا السيدة العجوز ونزلنا، أعطيت السائق ٥٠ قرشًا هبة، رحب بنا موظفو الفندق، مضى على رحلتنا شهر بالتمام والكمال! فقد غادرنا أول مايو ورجعنا أول يونية، رحب بنا الخادم العجوز عبد الله والخادمة ماريا والجميع، وأعطونا الغرفة نفسها التى نزلنا فيها من قبل، الغرفة رقم٨٢، وكما كنت أتمنى قبل وصولى هنا ارتميت على السرير وغرقت فى نوم عميق!

## القدس (مرة أخرى)

القدس! ها أنا أعود إليها بعد شهر، ما زالت القدس هى القدس، وهى الآن مملوءة بأزهار أشجار الرمان، لا أعرف أولئك النزلاء الذين وصلوا الفندق مؤخرا، إلا رزق الذى سبق لى لقاؤه من قبل. لم يكن البريد الذى وصلنى من اليابان مشوقا على الإطلاق، كما أننى لم أتسلم الصحف هذه الأيام، والخطابات التى أرسلتها إلى أماكن مختلفة من العالم بعد عيد الفصح لم تصلنى ردودها، إلا رد خطاب واحد وصلنى من سكرتير الرئيس ويلسون، لم أكن أتوقع ردا شافيا. حين وصلت إلى القدس أصابتنى الحمى، ومر يومان وحل بى تعب شديد، فى الصباح ارتفعت درجة حرارتى إلى ٣٩ درجة، بعدها تحسنت تدريجيا، إلا أن زوجتى أخذت دورها وأصيبت بالحمى، وارتفعت درجة حرارتها بشكل مخيف، لكنها تعافت بسرعة وشفيت، تحسنت صحتنا لكننا كنا مرهقين تماما، ورقدنا فى الفراش مدة عشرة أيام، لدرجة أننى تعبت مما نحن فيه، وفكرت لو أننى نمت إلى الأبد بهذه الطريق فلن أستيقظ أبدا!!

حاولنا أن نذهب إلى صالة الطعام، لكن لا توجد لدينا شهية على الإطلاق، كنا نتناول كسرة خبز مع الماء، ورغم أن هذه السنة هى سنة الخروف طبقا للتقويم الصينى فإننى لا أريد أن أتناول لحم الخروف، كانوا يقدمون لنا لحم الخراف لكنى "زهقت" من هذا اللحم ومللته، وصرت أشعر بالقىء إذا ما رأيته أمامى،

حاولت فقط أن أبدأ بأكل الطماطم والخيار والبصل الأخضر وما أشبه ذلك، لم تكن لدينا رغبة فى تناول الطعام، لذا كنا نشعر بالجوع وإذا شعرنا بالجوع، لم نكن نشعر بالرغبة فى تناول الطعام. استمر حالنا على هذا المنوال، لذا كان موظفو الفندق والخدم قلقين علينا، وأنا أخاف أن يصبح عقلى خاويا بسبب الحمى والجوع، فحاولت أن أطبخ الأرز على موقد "السبرتو"، فحين كنت فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كنت أطبخ الأرز بنفسى، وحين كنت فى الخامسة أو السادسة والعشرين كنت أعد البيض المقلى بنفسى، وأيضا حين ذهبت زوجتى إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية كنت أقوم بطهى الأرز وبعض الخضراوات، وأحمل لها هذا الطعام، ومنذ ذلك الوقت لم أجرب الطبخ مطلقًا! لهذا فاليوم هو أول يوم أجرب فيه الطبخ بعد مرور هذه السنوات الطويلة.

أمكننى أن أطبخ الأرز أفضل من أى شىء آخر، ثم تناولت الأرز مع الإيموبوشى[١٥٢] وتمتعنا كثيرا بهذا الطعام، وصار ذهنى صافيا بينما تعافت زوجتى قليلا.

خلال الحرب مات كثير من الناس ونفقت حيوانات كثيرة بسبب المجاعة، وعانى العساكر الألمان والنمساويون كثيرا بسبب الجوع، ومات الكثيرون منهم جوعا؛ حيث لم يجدوا ما يسد رمقهم خلال المعارك الضارية.

حاولنا أن ننزل إلى قاعة الطعام بعد مدة إلا أنهم كانوا يقدمون لحم الخراف كالعادة مع العظام، وهى تشوى على النار، وحين أشاهد منظر اللحم أفقد شهيتى تماما، كنت أتناول الخضراوات فقط مع كوب من القهوة وبعض حبات المشمش، ومع هذا يظل الجوع يقرصنى. سمعت أن أكثر ما يرغب فيه من يوضعون فى السجون هو الطعام، نحن الآن أشخاص لا يمكنهم تناول الطعام رغم وجوده أمامهم بكميات كبيرة.

أتذكر الآن طعام الإفطار فى فندق شبرد فى القاهرة، الذى كان لذيذا جدا، وفى هونج كونج حيث كانوا يقدمون أيضا أطباقا لذيذة، وفى اليابان الآن تفصل

(١٥٢) نوع من المخللات اليابانية أو الطرشى.

جذور البامبو "تاكى نو كو" [153] فهى تنمو الآن بكثرة، وهناك أيضا أسماك "البسارية" فى النهر. كنت أفكر فقط فى الطعام إلا أن التفكير فقط لا يمكن أن يشبع معدتى!

ارتديت الكيمونو كالعادة ووضعت فوقه المعطف ولبست الحذاء، وخرجت إلى السوق لشراء بعض الطعام، شاهدت التين بمبلغ قرشين، لكنه لا يزال أخضر، فظننت أنه لم ينضج بعض ولن يكون لذيذا، لكنى حين قضمت قضمة وجدته لذيذا جدا، بشكل سال له لعابى[154].

أما الخوخ الأحمر فكان حامض الطعم فطبخناه بالسكر، أما المشمش[155] فقد كان لذيذا، وكان العنب حامضا قليلا، أما الشمام ـ وكان يباع القطعة بخمسين قرشًا ـ فلم يكن له أى طعم على الإطلاق، وكما طبخنا الباذنجان.

فى اليوم التالى ذهبت إلى السوق واشتريت البيض وسلقته وبحثت عن الأطعمة المعلبة، فوجدت علبة أناناس، واستخدمت النشا اليابانى[156] لعمل المهلبية، وحاولنا أن نأكل التونة المجففة بعد أن نقوم بتقشيرها، حاولت أن أتناول مثل هذه الأنواع من الأطعمة حتى أقنع معدتى.

قالوا إن رجلا سيأتى من أمريكا لفحص الأراضى طبقا للاتفاقيات الدولية، ولا بد أن يجهزوا الغرف من أجله ومن أجل مرافقيه، كانت الغرف المتميزة تقع فى الطابق الثانى، لذا بدأوا يجهزونها، وقد جعلوا من صالة الجلوس صالة للطعام.

---

(١٥٣) جذور البامبو التى تنمو فى باطن الأرض فى التلال وغابات البامبو وتطهى بطريقة خاصة بعد تقشيرها ويحبها اليابانيون كثيرا ويتفننون فى طهوها.

(١٥٤) استخدم التعبير اليابانى "كما لو كانت خدودى ستسقط" Ho je ocheru, hi ga itai بمعنى لذيذ جدا.

(١٥٥) كتبه mishmish بالحروف الإنجليزية.

(١٥٦) يطلق عليه Kuzu.

ما زلنا نعانى من تعب المعدة، شاهدت قاعة الجلوس فى الطابق الثانى وضعوا مفارش بيضاء على الطاولات ووضعوا فوقها الزهور، وامتلأت سلال الفاكهة بالتين، كنت أشعر بالغبطة لهؤلاء القادمين!

بعد مرور ثلاثة عشر يوما دعانا السيد هانسمان لتناول الغداء، فكان ذلك مدعاة للسرور والفرح، كانت زوجته قد وصلت من بريطانيا حين كنا فى الناصرة، وبعد أن رجعنا إلى القدس جاءوا للقائنا مرتين، كانت زوجته سعيدة جدا بلقائنا، حين جاءا لزيارتنا فى الفندق قدمنا لهما الشاى الأخضر الذى أعجب زوجته كثيرا لكن بعد إضافة السكر، دعونا إلى بيتهم فى الأيام الماضية لكن مرضنا وضعفنا حال بيننا وبين تلبية الدعوة، واليوم وافقنا على الدعوة.

يقع بيت السيد هانسمان فى مكان هادئ فى الضاحية الشمالية للقدس، وهو فى مبنى تملكه امرأة إيطالية، الطابق الثانى يؤجره طبيب يهودى، بينما يؤجر السيد هانسمان الطابق الأول، تزوجا قبل سبعين سنة، كانت الزوجة قد وصلت مؤخرا، لذا لم تصل أمتعتها حتى الآن، قالت: لا مجال لتبديل الملابس، فليس لدى ملابس الآن، كان الأثاث بسيطا جدا، فهما يجهزان بيتهما من الآن. ابن أخى هانسمان الكبير يدعى روبرت، كان قد أرسل إلى العراق، ثم نقل فجأة منذ أيام قليلة إلى الهند، تعجبت كثيرا ففى العراق كان روبرت مفيدا جدا لأنه يعرف اللغة العربية، لكن ماذا عساه يفعل فى الهند؟ حين قلت ذلك لهانسمان وافقنى الرأى، روبرت مازال فى السادسة والثلاثين ولم يتزوج بعد.

قدمت زوجتى لهما بعض المشغولات اليابانية، منها حافظة مصنوعة من ورق يابانى خاص تستخدم لحفظ بطاقات التعارف وما إلى ذلك، فرحت بها زوجة هانسمان كثيرا، وأهدتنا "مزهرية" صغيرة مصنوعة من المعدن قائلة: ربما مادة هذه المزهرية من اليابان. فى حجرة الطعام الصغيرة تناولنا الغداء المكون من الخبز والزبدة ومعلبات السالمون والخيار والطماطم والدجاج ولحم الحنزير والبطاطس والفاصوليا الخضراء مع قليل من النبيذ وعصير الليمون، وكان الحلو جيلى المشمش، فكان هذا الغداء بمثابة عيد بالنسبة لنا، فبعد مرور نصف شهر امتلأت معدتنا لأول مرة.

كان لديهم خادمة من أرمينيا، تخدمهم منذ نحو ٢٥ سنة ، وهى تتذكرنى حين جئت هنا قبل ثلاث عشرة سنة، أخبرتنا زوجة السيد هانسمان أنه من الصعب وجود خادمة جيدة فى بريطانيا، امتدح السيد هانسمان الخادمة الأرمينية كثيرا مضيفا أن الأرمن أذكياء ومجتهدون، والأتراك يشعرون بالغيرة منهم، لذا قاموا بقتل الكثيرين منهم، بعد الانتهاء من تناول الطعام شربنا الشاى وتبادلنا الأحاديث المختلفة، واتفقنا على أن نلتقى ثانية بعد يومين.

* * *

حين كنا نرقد فى الفراش مدة أسبوعين حلَّ علينا الصيف فى القدس، كنت أتطلع من النافذة بعد غروب الشمس وأشاهد الرجال والنساء يمشون مرتدين ملابس خفيفة شفافة، يبدو أنهم كانوا يتمتعون ببرودة الجو فى مساء الصيف، سيظهر القمر ويكبر أكثر فأكثر، كنا فى شهر رمضان، شهر الصيام بالنسبة للمسلمين، كان النبى محمد - ﷺ - قد اعتاد على الذهاب إلى غار حراء، حيث كان يتعبد هناك، وهناك كتب القرآن(١٥٧).

على المسلمين أن يصوموا خلال النهار فى رمضان، ورمضان شهر مهم له مكانة خاصة، من غرفتنا أشاهد القمر بدرا مستديرا، ظهر من خلف الجبل عند البحر الميت، وسمعت صوت المؤذن يؤذن لصلاة المغرب ، جاءنى الصوت من مئذنة مسجد عمر، كان صوتا مؤثرا وجميلا يدعو للحزن.

**اليوم القمر بدر مستدير**

**من مئذنة مسجد عمر**

**يتردد صوت الأذان الجميل**

**يدعو الناس للصلاة**

---

(١٥٧) Koran o kaita هكذا ذكر المؤلف "كتب القرآن"، وكما يشعر القارئ فإن معلوماته عن الإسلام قليلة جدا استقاها من كتيبات الجيب السياحية التى كانت بعض الإرساليات تقوم بتوزيعها، أو من خلال ما توفر لديه فى اليابان من ترجمات عن مصادر لبعض المستشرقين الغربيين المغرضين.

نقيم هنا في القدس للمرة الثانية، ونرجع مرة ثانية لنشهد شهر رمضان أيضا، كما لو كنا نعيش على الطريقة الإسلامية.

* * *

نقيم الآن في فلسطين منذ شهرين ونصف، منها أسبوعان راحة، عانينا فيهما من الجوع، لكن صحتنا تحسنت، أرسلت رسالة إلى السيد مينامى في بورسعيد أسأله عن جدول رحلات السفن المتجهة إلى أوروبا، وقد أجابني وكتب أن الزحام شديد هذه الأيام؛ ولا يمكن الحصول على تذاكر للسفر إلى إيطاليا أو الفاتيكان، لكن حين نصل إلى بورسعيد سيدبر لنا الأمر، فقررت المغادرة في السادس عشر من يونية، فعلى كل حال يجب أن نذهب إلى بورسعيد، وهكذا حزمنا أمتعتنا دون أن أدرى كيف يمكن أن نحدد برنامج سفرنا عبر أوروبا وأمريكا ثم نعود ثانية إلى اليابان.

في فلسطين أخذنا وقتا طويلا، وحتى لو عدنا منها إلى اليابان فلا بأس، ففلسطين كانت أساس رحلتنا وهدفها، وقد أمكننا أن نحقق الهدف، وقد أطلعت زوجتي على القدس وبيتانيا والناصرة، وقد انتهى دورنا هنا، ومن الآن فصاعدا نحن أحرار يمكننا العودة إلى اليابان بسهولة.

بعد ظهر اليوم الخامس عشر من يونية دعانا السيد هانسمان إلى الغداء مرة أخرى، هذه آخر مرة نلتقي فيها معا، أطلعنا السيد هانسمان على خطاب روبرت الذي وصله من الهند، كما أراني السيد هانسمان الخطاب الذي كنت قد أرسلته إليه من القاهرة، وذكر لي أنه كتب الرد على هذا الخطاب، فرد إليه الخطاب بعد مرور ثلاثة أشهر، لذا أعطانيه الآن. شاهدت كثيرا من الصور بما فيها صوره حين كان معتقلا لدى الأتراك، وكذلك الصور التي رسمها رفيقه في السجن. ظل السيد هانسمان ينتقد تركيا ويعبر عن كراهيته للأتراك، وشاهدت أيضا صورة أخيه الأكبر، يبدو في الصورة أكبر من عمره الحقيقي، ورأينا الكلب الذي يربيه في البيت، بينما عرضت علينا زوجته المقالات التي نشرت في الصحف عن بريطانيا وفلسطين.

حين كنا نتحدث فى غرفة الجلوس قدم إلينا جنديان فى الثلاثينيات من عمرهما، أحدهما صديق روبرت، جاء لزيارتهما مع أحد أصدقائه، وهما الآن فى معسكر بالقرب من الخليل ، كانت زيارة غير متوقعة. تهللت أسارير هانسمان وزوجته، تحدثنا عن روبرت وعن والده، أى الأخ الأكبر لهانسمان، وظل صديق روبرت يتكلم ويتكلم ويتكلم، بينما السيد هانسمان يطأطئ رأسه يستمع إليه فى هدوء.

حين مات الأخ الأكبر لم يعرفوا كيف مات، إلا أن صديق روبرت يخبرهم الآن عن كيفية موته، لقد مات ببساطة شديدة، سقط من العربة على رأسه ومات على الفور، بالنسبة لهما روبرت بمثابة ابنهم الحقيقى، فهما لم ينجبا حتى الآن، وهم يشعرون بالسعادة كلما زارهم صديق روبرت وتحدث معهم عن أخبار روبرت، غادرنا بيت هانسمان على وعد بلقاء فى يوم ما.

* * *

فى صباح اليوم السادس عشر من يونية ذهبنا إلى بيت الحاكم للحصول على تصريح للسفر إلى بورسعيد عن طريق القدس وأيضا لوداع الحاكم.

انتظرنا مدة ساعة فى قسم التأشيرات، كانت هناك امرأة سورية تضرب على الآلة الكاتبة تواجه مشكلة لتعطل الآلة، بعد مدة قدم موظف شاب وأعطانا الجوازات والتأشيرة، السيدة كليردج التى التقيناها فى طبرية ذكرت لنا أنها تود زيارة بغداد، جاءت إلى القدس منذ ثلاثة أيام، وهى تنزل فى فندق فاست هوتل Fast's Hotel، قال لنا نائب الحاكم إن الحاكم مشغول للغاية، رجاء أن تكتفوا بالسلام عليه فقط. دلفنا من باب المكتب، وقمنا بتقديم التحية والشكر، قلنا له إننا مكثنا هنا وقتا طويلا وقدمنا له مروحة يابانية هدية، حين فتح المروحة ابتسم وقال هذا مثل رسوم هوكوساى Hokusai وهيروشيجيه Hiroshige وأوتامارو Utamaro[158]. كان على وشك أن يقدم لنا السيجار، لكننا أخبرناه بأننا لا ندخن، فسألنا كيف قضينا أيامنا هنا؟ فقلت له: نحن لا نرى ولا نسمع، نحن

(١٥٨) فنانون يابانيون أبدعوا فى فن الرسم.

نأكل وننام فقط. فعلق قائلا: هذا أطيب، هذه أحسن طريقة للحياة. لم نتمكن من أن نفعل هذا فى زمن الحرب، طلبت منه أن يكتب شيئا فى الأتوجراف فكان سعيدا بطلبى هذا، وأوصانا بزيارة "نادى المسافرين" حين نصل إلى لندن، وبينما كنا نودعه خارجين تذكر شيئا فجأة فقال: لقد أنقذ اليابانيون حياتى منذ سنين حين تعرضت لهجوم الغواصات الألمانية، أنقذتنى البحرية اليابانية. وقال: يجب أن أكتب فى الأتوجراف أن هذه ذكرى طيبة لرجل من بلد هوكوساى وأوتامورا. فقلت له: أنا سعيد جدا بسماع هذا.

كان هناك جدار يصعب اجتيازه بيننا وبين الحاكم، لكن فن الرسم المعروف أوكى يوئيه[١٥٩] والبحرية اليابانية أذابا هذا الجدار... تصافحنا بكل سرور ثم صافحت السيدة كليردج وقالت لها: وداعا .

ودعت أسرة السيد هانسمان بالأمس واليوم، ودعت الحاكم، وفى غداء اليوم ودعت رزق، وشكرنا الخادم أنطون والخادمة ماريا وأعطيناهما بعض الهدايا، لم يكن لدينا ما نأسف عليه فى القدس سوى شىء واحد فقط هو أن القدس لا تدرى أننا راحلون!

* * *

قبيل المساء وقبل تناول العشاء صعدنا إلى سطح الفندق، لم نصعد إلى السطح منذ عودتنا الأخيرة ولا مرة واحدة، لأننا كنا مرهقين ومتعبين، أخذنا نتطلع إلى السماء وقت الغروب، وندقق النظر هناك عند الجبال بالقرب من البحر الميت، ونتطلع إلى جبل الزيتون وجبل سكوباس ومسجد عمر وكنيسة القيامة، فهذه كلها تشكل القدس الجميلة...

شكرنا مدينة القدس، وصلينا من أجل مدينة القدس... القدس لنا، هى منارة ينتشر منها النور، وهى مئذنة ينطلق منها أذان الحب لكل العالم، وهذه المئذنة هى قمة رحلتنا، القدس جبلنا، جئنا إلى هنا من اليابان، وصعدنا هذا الجبل ، ثم نزلنا من فوق الجبل، وها نحن نعود أدراجنا إلى اليابان، لم نقل شيئا قبل أن

---

(١٥٩) فن الرسم فى عصر أيدو.

نأتى، ولم نخبر أحدا بشىء قبل أن نأتى، إلا أننا ظهرنا فجأة فى القدس، لا أحد يدرى عنا، ولا أحد يدركنا، ربما لا يعرف أحد عنا شيئا، وربما لم يرنا أحد، لكن ذات يوم سوف يفهمون، وربما حين يفهمون سنظهر هنا ثانية... شكرنا القدس، وصلينا من أجل القدس.

## الرحيل عن فلسطين

فى الساعة السابعة مساء اليوم السادس عشر من يونية غادرنا فندق "جراند نيو هوتل" حيث مكثنا شهرين، قلنا وداعا! وركبنا الحنطور متجهين إلى محطة القطار.

كنت أفكر هل يجب أن أمكث فى اللّد، لكنهم قالوا إن من الممكن تغيير القطار لمصر بسرعة دون حاجة للبقاء فى اللّد، أسرع نحونا عدد كبير من الأطفال، حوالى ستة أطفال، حملوا الأمتعة، وأعطينا كلا منهم ١٠ قروش، صافحنا بعضهم ولوّح لنا البعض الآخر بأيديهم، فقد كانوا سعداء، جاءت إلى كابينتنا السيدة كليردج لتودعنا، وجاء معها رجل ذكر أنه كان فى يوكوهاما من قبل، قال: حقا هذا عالم صغير، ربما سنلتقى فى يوم ما فى مكان ما. امسكت السيدة كليردج بأيدينا ثم قبلت زوجتى، وغادرت مع رفيقها.

تحرك القطار عند الساعة التاسعة، قابلنا فتاة يهودية، قالت لنا إنها مسافرة إلى بيت أخيها فى القاهرة، اكتشفنا أن العربة التى نجلس فيها عربة الدرجة الثانية وليست عربة الدرجة الأولى، جاء إلينا موظفو المحطة وقالوا إن هذه عربة الدرجة الأولى، سألت الكمسارى فقال: لا يوجد فرق بين الأولى والثانية.

كان الليل مزدانًا بالنجوم فى السماء، والليل حتى منتصف يونية كان باردا، ربما لأننا كنا نرتدى الملابس الصيفية، استغرقنا فى النوم بينما كانت صفارة القطار تنطلق يتردد صداها وسط سكون الليل. حين استيقظنا وجدنا القطار قد وصل إلى اللّد، كانت الساعة الثانية عشرة تقريبا.

أيقظت زوجتى وطلبت من بعض الحمالين نقل أمتعتنا إلى القطار الآخر، وأرسلت زوجتى إلى العربة التى حجزنا فيها، بينما رافقت الأمتعة والحمالين إلى

عربة البضائع حيث يتم شحن الأمتعة، وقبل أن يبدأ القطار فى التحرك شاهد الكمسارى تذاكرنا وأخذنا إلى عربة الدرجة الأولى، ورغم أنها عربة الدرجة الأولى لم تكن بها إنارة، فأخرجت الفانوس اليابانى وأضأته بينما كان القطار قد تحرك، يا لها من سعادة!

كان فى الكابينة سريران، واحد علوى وآخر تحته، لم يكن هناك أى راكب بجوارنا، نامت زوجتى فى السرير العلوى ونمت أنا تحت، ها نحن ننام أخيرا، وفى النهاية نقول لفسطين وداعا! من الآن نحن أحرار، لا شد أعصاب ولا قلق! القطار يمضى تحت ضوء القمر.

***

حين استيقظت فى السابع عشر من يونية وجدت القطار يمضى بالقرب من البحر الأبيض المتوسط، غسلت وجهى بماء الإناء الذى أحمله معى، وأكلنا بعض الخبز الذى حملناه معنا من الفندق أمس، وفى حوالى الساعة الثامنة وصلنا إلى القنطرة، ساعدنا الناس فى العربة نفسها على تنزيل أمتعتنا، مررنا باستراحة واى إم سى إيهYMCA، حين جئنا هنا من قبل مكثنا يوما فيها، وصلنا إلى خيمة صغيرة، فحصوا التأشيرات، اهتم بنا الموظفون الذين سبق لهم رؤيتنا هنا من قبل، وتعاطفت معهم، فهم يقيمون فى هذا المكان مدة طويلة، قدموا لنا سيارة أوسع من تلك التى ركبناها أول مرة، شعرنا بالراحة، عبرنا قناة السويس، شاهدنا كثيرا من العساكر يسبحون فى القناة، فلسطين صارت من خلفنا، وعند القنطرة فى المحطة القريبة فحصوا التأشيرات مرة أخرى، أعطونا بطاقة صفراء وشهادة مرورالحجر الصحى "الكرنتينة"، التى يجب أن نقدمها إلى مسئولى وزارة الصحة حين نصل إلى بورسعيد، سبق لنا أن جئنا إلى هذا المكان، لذا وجدنا الموظفين المصريين أنفسهم يعملون هنا، أولونا كثيرا من الاهتمام.

ركبنا القطار فى حوالى الساعة الحادية عشرة، ووصلنا بورسعيد فى الساعة الثانية عشرة، طلبنا من الحمالين نقل أمتعتنا إلى مارينا بالاس هوتل Marina Pal- ace Hotel وذهبنا إلى الفندق بالسيارة.

## فى انتظار السفينة

حين جئنا إلى بورسعيد قادمين من فلسطين كنا كأناس قدموا من الجبل أو الأحراش، وظهروا وسط شارع رئيسى كبير فى إحدى مدن العالم، فلمدة ثلاثة أشهر لم أقرأ الصحف، ولم أدر ما يدور فى العالم، وحين وصلنا إلى بورسعيد شعرنا بأن رياح العالم تهب، عرفت أن السيد مينامى سافر إلى إيطاليا فى رحلة عمل، ومن هناك سيسافر إلى لندن، سيستغرق سفره شهرين تقريبا، كما عرفت أن ضابط البحرية السيد كوما لم يكن موجودا أيضا، وصلنا خطاب من السيد مينامى ومن السيد كانوهيكو من شركة الملاحة ـ أوساكا (OSK) لم يكن مينامى موجودا إلا أن أخاه الأصغر كئيى Kei وزوجته ليئيه Leah اهتما بنا، وقدما لنا العشاء ثم الشمام والبطيخ والآيس كريم أيضا، عزفت الزوجة البيانو، عرفت أن ابن عمة ليئيه كان يعيش فى يوكوهاما، وهو يعمل نائب القنصل فى الأرجنتين، أعطتنى العمة كتابا إيطاليا عن الحرب اليابانية الروسية، فأعطيتها الترجمة الإنجليزية لروايتى "هوتوجيز" طائر الوقواق، كانت ليئيه تتكلم الإنجليزية قليلا، طلبت منها زوجتى المساعدة فى تفصيل ملابس صيفية ومعطف صيفى لدى ترزى فى بورسعيد. فى فندق بورسعيد أمكننى التخلص تماما من اللحم الذى كان يقدم لنا فى فلطسين، ففى بورسعيد سمك لذيذ، وهو مختلف الأنواع، وكلها لذيذة جدا، وكذلك لحم الضأن والعجل طعمه لذيذ جدا، والشمام والبطيخ حلو وشهى، وهنا تعلمت من الناس شرب النبيذ الإيطالى تشاينتى Chianti، وهم يضعون بعض السكر والماء كما لو كنا نتناول فى اليابان"الشريت" Korimizu المكون من الثلج المجروش مع سائل السكر المعقود (الشربات).

كثيرا ما كنا نشرب الماء المثلج، فهم يقدمونه لنا فور جلوسنا إلى المائدة، رمضان لم ينته بعد، كان خدم الفندق يدورون مرهقين متعبين، لكنهم فى الليل ينشطون، حتى رغم معرفتنا أنهم صائمون فقد كنا نتناول الطعام، وكنا نشعر بالذنب، الصيام فى حد ذاته ليس سيئا، بل هو ضرورى للإنسان أحيانا، لكن هؤلاء لا يمكنهم العمل بشكل جيد أثناء نهار رمضان، فالصيام حينئذ يصبح

عائقا بالنسبة لهم، كما يكون متعبا لهم، وربما لهذا السبب يمكن للمسلمين أن يتخلصوا من "رمضان" Ramadan هذا(١٦٠).

* * *

حين نزلنا من السفينة بورنيو مارو فى بورسعيد كان ذلك فى الثالث عشر من مارس، واليوم هو آخر أيام شهر يونية، قضينا هنا نحو ثلاثة أشهر، مدة طويلة، وطبقا لما ذكره السيد كيئيه سافرت السفينة بورنيو مارو إلى أوروبا ومنها إلى أمريكا والآن تمر السفينة فى قناة بنما، وهى تدور حول العالم، كان الجو حارا فى بورسعيد، كنا نفتح جميع النوافذ حين ننام فى الليل، وحين نخرج نرتدى الملابس الغربية، وفى الفندق نرتدى الكيمونو اليابانى. كما كنا أحيانًا نرتدى الكيمونو اليابانى حين نذهب إلى قاعة الطعام.

كانت السفن اليابانية تبحر إلى هذه المنطقة كل يوم تقريبا، كنت فى معظم الأوقات أشاهد كثيرا من اليابانيين فى قاعة الطعام، كما كنت أشاهد أحيانا مجموعة الطلاب الصينيين والعائلات الصينية، وأحيانا أشاهد أصحاب البشرة البيضاء(١٦١) المتزوجين بالصينيات، إلا أن أغلبية النزلاء من العساكر البريطانيين، لم أر هنا الضابط الذى أعطانا التأشيرة فى مكتب طبرية، كانت أسرة المرأة اليهودية التى التقيناها فى القدس تنزل فى هذا الفندق، وهى تنتظر السفينة المتجهة إلى أستراليا.

شاهدت امرأة غامضة إلى حدٍّ ما، كانت تلف نفسها بوشاح حريرى أسود شفاف، وتكشف عن عنقها الأبيض البض بشكل ملحوظ، وتقرأ أحيانا رواية أو تكتب خطابات أحيانا أو تتناول الطعام لوقت طويل جدا، بدت لى امرأة غامضة تماما.

كان هناك كثير من الناس يبيعون الصحف أو الورود، الورد البلدى والفل والياسمين، كانت عقود الياسمين جميلة جدا، وعبيرها طيب نفاذ، لا يمكننا أن

---

(١٦٠) هكذا كتبها بالحروف الإنجليزية.

(١٦١) يقصد بهم الأوروبيين.

نبقيه فى غرفتنا بالليل. على كل حال كنا متجهين إلى إيطاليا، فقد أخبرنا السيد هانسمان أن هناك كثيرا من السفن اليابانية تبحر متجهة إلى إيطاليا، وطبقا لما قاله السيد كيئيه لا توجد رحلات بحرية منتظمة إلى إيطاليا، إلا أن هناك سفنا يابانية لا ندرى وقت إقلاعها، ولذا وجب أن نكون دائما على أهبة الاستعداد، وأن تكون أمتعتنا جاهزة دائما. وهكذا أحضرنا الأمتعة من مكتب السيد مينامى، ورتبناها، وطلبنا أن ترسل الأشياء التى لا تستخدم فى السفر مثل الكتب وغيرها إلى اليابان فى العام التالى، ووضعت ملابس الشتاء فى حقيبتين كبيرتين، وطلبت إرسالهما إلى لندن على أول سفينة، أخذت حقيبة كبيرة فقط مع حقيبتين جلديتين متوسطتين وسلتين من الخوص ومفرش (سجادة)، هذا ما سنحمله إلى أوروبا، وبينما كنا نستعد ونرتب أنفسنا جاء كيئيه وأحضر لنا مروحة وآيس كريم.

جهزنا أنفسنا إلا أن السفينة لم تأت، ولم يكن أمامنا غير الانتظار، فى بورسعيد لا توجد أماكن للسياحة، ولا توجد أماكن للفسحة، لهذا كنا نكتفى بالمشى هنا أو هناك على بعد مسافة مائتى متر أو ثلاثمائة متر، ففى الساعة الثامنة مساء تغلق جميع المحلات.

كم كانت السماء جميلة فى المساء! كان لونها يميل إلى الزرقة القاتمة، لكنه كان لونا شفافا يصعب وصفه، كم بدت النجوم كبيرة فى السماء! يجب أن أتمتع بهذا المنظر الخلاب، أتعجب ماذا يفعل المصريون تحت هذه السماء الجميلة؟ لم أجد فى الصحف المحلية أى مقال خاص، ولم تنشر الصحف أى حدث يجذب الانتباه، كل ما فعلناه هنا كان الذهاب إلى مكتب التأشيرات، حيث يجلس رجل بريطانى وثلاثة من الشباب المصريين ، قدم رجل أرمينى فقد تأشيرته ليقدم طلبا للحصول على التأشيرة مرة أخرى، كان البريطانى موظفا جديدا، وبدا غير متمرس فى العمل هنا، بينما كان الشبان المصريون مدربين جيدا على العمل هنا، وظهر أنهم ينتقدون أسلوب الموظف البريطانى البطىء وهم يقدمون له المشورة ، وقد أخبرونى بأنه رجل مزعج.

كانت غرفتنا تقع فى الطابق الثالث فى فندق ماريـنا بالاس هوتل، وكانت الشرفة تواجه الناحية الشرقية، وكان يمكننى أن أشاهد ميناء بورسعيد وجزءا من البحر الأبيض المتوسط، كانت الشمس تسطع فى الصباح، وكانت أشعتها قوية، لكنها تختفى بالتدريج ناحية الجنوب، فيغمر الظل الشرفة، ويصبح الجو بعد الظهر باردا لطيفا، لهذا وضعنا فى البلكونة طاولة صغيرة وبعض الكراسى، وكنا نجلس نقرأ أو نكتب أو نأكل البطيخ أحيانا أو نشرب الشاى، ومن أسفل الشرفة فى الشارع نشاهد أنماطا مختلفة من البشر من جميع الجنسيات، ومن جميع أنحاء العالم يتحركون هنا وهناك بملابسهم القومية، وكان هناك أنواع مختلفة من السفن فى الميناء، سفن كبيرة ترسو، وسفن أخرى تقلع، بعضها يحمل الفحم، يقولون إن هناك صراعا بين العمال وشركات السفن فيما يتعلق بالأجور، وقد شكل العمال نقابة، وهم فى نزاع وعراك مستمر مع الشركات من أجل زيادة الأجور بنسبة٦٠٪ إلا أن الشركات فى النهاية رفضت هذا الأمر، وكسبت الشركات الجولة، إلا أن الوضع الحالى يدل على إمكانية بدء جولة أخرى من النزاع بين العمال وشركات السفن، وهناك خلاف على تحديد ساعات العمل أو زيادة ساعات العمل أيضا. بالطبع ليس من المقبول زيادة عمل المرأة أصلا لكن لا يجب السماح بزيادة ساعات عمل الرجل أكثر من اللازم.

كنا إذا ما شاهدنا السفن التى تحمل العلم اليابانى نشعر بالإثارة والنشوة، كانت هذه السفن تابعة لشركة الملاحة اليابانية "نيهون يوسين"، شاهدت سفينة ذاهبة إلى أوروبا وفيها درجة أولى للركاب المسافرين، كما شاهدت امرأة ترتدى الكيمونو اليابانى. أتعجب، من تكون هذه المرأة؟! وهناك قوارب صغيرة تتجمع حول السفينة اليابانية، يبيعون البطيخ، وأحيانا يقفز بعض الأشخاص من السفينة اليابانية إلى الماء. شاهدت أحيانا ثلاث سفن يابانية فى وقت واحد، خلال الحرب كانت السفن اليابانية تعبر القناة جيئة وذهابا، وقيل إن نحو ستين سفينة يابانية كانت تعبر قناة السويس فى الشهر، والآن تتنافس السفن على المرور فى القناة، واليابان تحتل المركز الثانى بين الدول المتنافسة طبقا لكلام السيد كيئيه، وتمر أحيانا فى القناة بعض السفن الضخمة جدا، كما تمر أحيانا

سفن قذرة جدا، وسفن البضائع وسفن المسافرين، أنماط وأنواع مختلفة من السفن تمر عبر قناة السويس يوميا.

كانت السفن التى تحمل الأعلام البريطانية محملة بالعساكر البريطانيين العائدين إلى بلدهم، حين كانوا يغادرون كنت أنا وزوجتى نلوح لهم بالمناديل، لكنا إذا ما شاهدنا السفن البريطانية المتجهة إلى الهند محملة بالعساكر كنا نشعر بالتعاطف مع هؤلاء الراحلين عن أوطانهم إلى أماكن بعيدة، كنا نشعر كأننا مسافرون معهم فى رحلتهم الشاقة هذه، وحين كنا نشاهد أيضا السفينة المتجهة إلى فلسطين كنا نشعر كذلك كأننا ذاهبون معهم إلى فلسطين... مشاعر إنسانية طبيعية وتعاطف بين بنى البشر.

## المرأة اليهودية (بقلم أى)

حين رجعنا من القدس عبرنا قناة السويس، ووصلنا إلى القنطرة، انتظرنا حتى يتم فحص أوراقنا عند نقطة العبور، دخلنا إلى كابينة صغيرة مملوءة بالنساء والأطفال والأمتعة وسلال الطعام، كان هؤلاء الناس قد وصلوا قبلنا، ورغم الزحام الشديد فإن الشىء الطيب هو أنه أمكننا هنا أن نتجنب أشعة الشمس المحرقة، وجد زوجى لى مكانا للجلوس، لكن لم أكد أهم بالجلوس بين مجموعة من الأطفال حتى بادرتنى امرأة بقولها: هذا مكاننا. أتذكرها جيدا تلك المرأة، إنها المرأة التى قابلناها فى مكتب الحاكم فى القدس للحصول على الفيزا، كانت فى حوالى الستين من عمرها.

نهضت بسرعة ولم أجلس، وتحركت إلى ركن عند المدخل، ووقفت فى هذا المكان بجوار أمتعتنا، بينما ذهب زوجى للمكتب، كانت هناك امرأة عربية محلية سمينة جدا تجلس بجوارى أخرجت من السلة خبزا شاميا، رغيفا وجبنا، وبدأت تأكل، قدم أحد الجنود ناحية المرأة العجوز حاملا عشر زجاجات من عصير الليمون، حين سحب الغطاء تناثر الرذاذ ناحيتى فرفعت المرأة العجوز يدها مشيرة إليه بأن يتوقف، فاتجه إلىّ الجندى وقال: آسف Sorry. قلت: لا بأس. دون أن أبدى أى مشاعر تجاه ما حدث.

كان الجو حارا جدا، الآن تذكرتنى المرأة العجوز، تذكرت أننا التقينا فى القدس، أخرجت خبزا من السلة قطعته إلى شرائح رقيقة، وضعت عليها الزبد.

كان لديها ابنتان شابتان وابن فى السادسة عشرة من عمره، وثلاث فتيات تصل أعمارهن على التوالى إلى: سبع سنوات وثلاث عشرة سنة وأربع عشرة، أسرة تتكون من ستة أفراد، نهضت المرأة العجوز "وأرادت أن تقدم لى شريحة من الخبز وهى تقول: ماذا عن العصير؟ يبدو أنها لا "تعزم" علىَّ بشكل جدى، كانت "تعزم عزومة مراكبية!" ربما شعرت بالذنب حين طلبت منى أن أخلى المقعد، رفضت عزومتها بشدة.

ربما شعرت إحدى بناتها بالحرج، فصبت الليمون فى كوب من المعدن وقدمته لى قائلة: تفضلى اشربى من فضلك!

لم أستطع أن أرفض طلبها، لم يأت زوجى بعد، أخذ وقتا طويلا لإنهاء المعاملة، كنت أخاف أن يسيح الزبد ويسقط لهذا أكلت الخبز بالزبد، جاءت إلى جوارى إحدى البنات، ربما كانت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها أو أكبر من ذلك، تحدثت معى، فذكرت أن أسرتها مسافرة إلى أستراليا، أما هى فستسافر إلى اليابان بعد أستراليا، ثم سألتنى إلى أين أسافر، كانت تتكلم الإنجليزية بسرعة، لذا لم أستطع أن أفهمها جيدا، طلبت العجوز من البنت الصغرى أن ترسل برقية إلى فندق بورسعيد.

* * *

وصلنا إلى مارينا بالاس هوتل فى بورسعيد، حين ذهبنا إلى غرفة الطعام أدركت أن العجوز تسكن الفندق نفسه، تبادلنا التحايا، كان عليهم الانتظار مدة أسبوعين ليستقلوا السفينة المتجهة إلى أستراليا، بينما كنا نحن أيضا فى انتظار السفينة التى ستقلنا إلى إيطاليا، حين ذهبنا إلى الطابق الثالث حيث توجد غرفتنا، عرفنا أن الأسرة نفسها تسكن الطابق نفسه، واجهنا بعضنا بعضًا أكثر من مرة.

ذات يوم سألتنى الفتاة البالغة من العمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة إذا ما كان لدى طوابع بريد يابانية، كانت فتاة اجتماعية تحب الكلام وتحب "الرغى"

كثيرا، وتأخذ أختها الأصغر إلى البحر للسباحة. حين تكلمت مع العجوز مرة على المائدة أخبرتنى أنها تظن أن زوجى فى الخمسين وأننى فى الأربعين، لم أعلق مطلقًا على كلامها، قالت المرأة العجوز إنها تنتمى إلى أسرة يهودية، وقالت: كنا نعيش فى لندن، كنا أسرة ثرية جدا، لكن بعد اندلاع الحرب أنفق زوجى كل شىء، زوجى الآنَ يؤسس مصنع نسيج فى القدس، وهو يعمل على مساعدة الفقراء، الابن الأكبر سافر إلى أستراليا ويقوم بأعمال تجارية هناك، ونحن الآن مسافرون إليه، وبعد أستراليا سنسافر إلى اليابان، وسنترك الابنة الثانية فى يوكوهاما، وسنعود إلى لندن عبر أمريكا.

ثم أضافت: اليوم انتهيت من خياطة الملابس للبنتين الصغيرتين.

كانت الفتاتان ترتديان الملابس الجديدة التى حاكتها العجوز، أثنيت على الملابس التى حاكتها وقلت: رائعة، جميلة جدا.

قالت العجوز: نحن نسافر كثيرا، وحين أسافر إلى أى مكان أحمل معى ماكينة الخياطة، لأن عندى أطفالاً كثيرين، ولا بد أن أحيك ملابسهم .

نطقت العبارة الأخيرة بفخر واعتزار!

قال لها زوجى على الفور: زوجتى أيضا تحيك ملابسها بنفسها وتغسل ملابسها بنفسها.

فردت العجوز: أنا أيضا أغسل الملابس بنفسى.

قالت الابنة الثانية إنها ستتزوج فى اليابان، وحين شاهدت ملابسى اليابانية قالت إنها جميلة جدا وجذابة، وسألتنى هل يمكن أن أغسل الكيمونو بنفسى، لم أستطع أن أشرح لها، لكنى أردت أن أخبرها أن هذا أمر معقد ويستغرق وقتا طويلا، لكن يمكن أن نغسل الكيمونو.

قالت العجوز: أنا أغبطكم كثيرا على رحلتكم هذه، كنت أتمنى أن أسافر هكذا مثلكم، وحين سمعت أن زوجى يكتب الرواية، ذكرت أنها عانت كثيرا أثناء إقامتها فى روسيا وألمانيا والنمسا، وربما إذا تحدثت عن حياتها يمكن لزوجى أن يكتب عنها رواية كاملة.

تبادلنا الحديث ذات يوم، قالت لى: السمك فى هذه المنطقة لذيذ جدا .

قلت: نعم، سمك بورسعيد لذيذ.

قالت: فى القدس كان الطعام الذى يقدمه جراند هوتيل سيئا للغاية، فظيعًا! رغم أنه أحسن فندق فى القدس!

الآن تذكرت، من نافذة غرفتنا فى الفندق كثيرا ما كنت أشاهد أحيانا بنات يرقصن "الفالس" إنهن هؤلاء البنات، بنات الأسرة اليهودية، فأفراد هذه الأسرة اليهودية يأكلون السمك ولا يأكلون اللحم، وهم فى فندق مارينا يتناولون طعاما مختلفا!

قالت العجوز إنها تصنع الزبد بنفسها، كنت أتعجب كيف تأخذ معها ستة أطفال وتسافر بهم فى مثل هذه الظروف بعد الحرب مباشرة، لا يمكننى أن أفعل هذا، هذه العجوز فى الستين من عمرها، ورغم ذلك فهى مملوءة بالحيوية والنشاط، طبقا للتحليل البيولوجى حياة يهودى واحد تساوى حياة أوروبيين، هذا مثال حى أمامى الآن، أظن ذلك صحيحا، يا لها من امرأة! إنها حقا يهودية! هذه العجوز تضع يدها على ابنتها الصغرى وتقول: هذه ملكتى! لأن هذه الابنة الصغرى ذكية جدا وشقية جدا، وأيضا تجلب لأمها الراحة والسعادة.

سفينتنا ستغادر بعد أسبوعين قبل سفينتهم، قالت العجوز إن عليها أن تبقى أسبوعا آخر بعد مغادرتنا لبورسعيد، حين ركبنا السفينة كانت الأسرة اليهودية كلها تلوح لنا من الشرفة، وكنا نراهم من الميناء، فكنا نلوح لهم: وداعا! (بقلم "آى").

* * *

كنت أشاهد كل يوم صحيفة الإيجبشان ميل، كما كنت أقرأ أيضا البرقيات التى ترد من وكالة رويتر (رويتر تليجرام) للأنباء، التى كانت تعرض فى مدخل الفندق، وكان يمكن عن طريقها معرفة ما يدور فى مؤتمر فرساى للسلام، عرفت أن قوة ألمانيا تقل يوما بعد يوم، فعصبة الأمم تفرض ضغوطا متزايدة على ألمانيا، كانت مشاعرنا تتجاوب أحيانا تارة مع عصبة الأمم وتارة مع ألمانيا.

نحن اليوم فى الثامن والعشرين من يونية، كان يقيم بجوار غرفتنا جنديان بريطانيان، وكنت أشاهد يوميا تقريبا رجلا يضع نظارة على عينيه، ربما يكون يونانيا وربما أحد موظفى وكالة رويتر، كان يتحدث عادة مع الجنود البريطانيين عما يدور فى مؤتمر السلام، كان يتكلم بسرعة. فى مساء يوم الثامن والعشرين سمعت أن ألمانيا وقعت على الاتفاقية التى توصل إليها المجتمعون فى مؤتمر السلام، أمكننى أن أفهم فقط أن ألمانيا أذعنت ووافقت على شروط الاتفاقية.

حين نزلنا إلى غرفة الطعام بعد الغروب لاحظت وجود جمهرة أمام لوحة الإعلانات، حيث ورد فى برقية رويتر تأكيد خبر توقيع ألمانيا على اتفاقية مؤتمر السلام، عندئذ تذكرت باريس منذ خمسين سنة، فرنسا أقرت بالأمر الواقع، واليوم جاء دور ألمانيا التى أقرت بالأمر الواقع، وهذا فى حد ذاته طيب بالنسبة لألمانيا، فالشخص الذى يكسب كل وقت لا يكون فى الحقيقة قويا ، والأب الذى فى السماء يكره الإنسان المتكبر المتغطرس!

## اتفاقية السلام فى يوم مغادرة بورسعيد

فى اليوم التاسع والعشرين من يونية كان الناس يحتفلون بتوقيع اتفاقية السلام ، ازدانت شوارع بورسعيد بشكل أو بآخر، كان الجميع فرحين، العساكر والمدنيون، البيض والسود والصفر، لا تمييز بين جنس وآخر! كل إنسان لبس ملابس مهندمة وأعد نفسه جيدا للاحتفالات، وكان كل شخص يريد أن يحتفل بشكل ما، كان البحارة الفرنسيون يتحركون فى نشاط، وكانت النساء المصريات يرتدين ملابس زاهية ألوانها، خضراء وزرقاء وبنفسجية، يمضين فى قوارب صغيرة ، كان المنظر جميلا يدعو للسرور والفرح.

شاهدت بارجة حربية بريطانية وأخرى فرنسية متوسطة الحجم عليها مدافع، كانت فى الميناء منذ وقت طويل، واليوم وضعوا عليها الزينات وزخرفوها بالأعلام، وقد وضع البريطانيون علم يونيون جاك union Jack على صارٍ عالٍ جدا، لكنهم لم يضعوا أعلام ألمانيا او تركيا أو النمسا أو روسيا. صليت ودعوت أن يأتى اليوم الذى يمكن أن نضع عليه أعلام بلدان العالم أجمع معا.

فى الساعة الثانية عشرة ظهرا بدأت البارجة البريطانية تطلق أصوات المدافع على الجانب الأيمن وعلى الجانب الأيسر، فيتردد صداها فى البحر، وفى الوقت نفسه بدأت جميع السفن تطلق صفارتها...

بعدها وصلت السفينة التى ستحملنا إلى إيطاليا، كانت سفينة نمساوية مملوكة لشركة تدعى لويد Loyd، إلا أنها بعد الحرب صارت من ممتلكات إيطاليا وصاحبها يدعى كاريسباد Karisbad، ركبنا هذه السفينة متجهين إلى إيطاليا حيث ننزل فى برنديزى Brindisi.

حان الآن وقت الرحيل من بورسعيد!

## المؤلف فى سطور:

### كينجيرو توكوتومى

أديب ذاعت شهرته فى اليابان، وترجمت بعض أعماله إلى أكثر من لغة، ولد عام ١٨٦٨م فى إحدى قرى جنوب غربى جزيرة كيوشو لأسرة تنتمى إلى طبقة الساموراى، وانتقل إلى كيوتو للدراسة فى جامعة دوشيشا، وكان سعيدا جدا بالدراسة فيها، متمتعا بعالم جديد من الكتب، وبجو خليط من الحياة اليابانية والغربية بعد أن ذاعت شهرته أديبًا وروائيا، اتخذ من اسم لوقا اسما أدبيا، ولوقا أو روقا ـ كما تكتب باليابانية ـ تعنى الزهرة التى تنبت بين الصخور، لكن لا وجود لها فى الواقع، وهى من بنات أفكار كينجيرو توكوتومى، وصف بها نفسه!! تعد رواية "طائر الوقواق" (هوتوتوجيسو) ورواية "الطبيعة والحياة" من أشهر رواياته، وقد نشرت أعماله الكاملة فى عشرين مجلدا.

وفى أواخر سنة ١٩٢٦م تدهورت صحته كثيرا، ثم غرق فى نوم عميق لم يصح منه.

## المترجمان فى سطور:

### سمير عبد الحميد إبراهيم :

ولد بمحافظة الشرقية بمصر، وعمل بجامعة القاهرة وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قبل أن يعمل حاليا أستاذا للغات الشرقية وآدابها بجامعة دوشيشا فى اليابان. من مؤلفاته "الإسلام والأديان فى اليابان"، و "الجزيرة العربية فى أدب الرحلات الأردية"، و "جسور التواصل الحضارى بين العالم الإسلامى واليابان"، و"فهم الإسلام فى اليابان بين الماضى والحاضر". ترجم العديد من الكتب عن الأردية والفارسية واليابانية، نُشِر عدد منها (تسعة كتب) ضمن المشروع القومى للترجمة فى المرحلة الأولى، ومن ترجماته عن اليابانية بالاشتراك: "خيط العنكبوت وقصص أخرى من الأدب اليابانى"، و"يابانى فى مكة"، و "تناكا إيبيه رائد الدراسات الإسلامية ورحلاته إلى الجزيرة العربية".

### سارة تاكاهاشى:

ولدت فى محافظة طوهوك فى شمال اليابان، بعد أن أنهت دراستها فى اليابان درست فى جامعة كمبردج، وفى المعهد العربى الإسلامى فى طوكيو، وفى جامعة الأزهر. ترجمت عددا من الكتب منها: "الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية لإيجيرو ناكانو" كما ترجمت بالاشتراك "يابانى فى مكة"، و "تناكا إيبيه ورحلاته إلى الجزيرة العربية"، و "خيط العنكبوت وقصص أخرى من الأدب اليابانى"، ونشرت عددا من المقالات والقصص المترجمة فى عدد من المجلات الأدبية، كما نشرت عددا من البحوث باللغة اليابانية منها: "الرحلات اليابانية للبلاد العربية"، و"الرحلة إلى الحج فى الأدب اليابانى"، و "عشر سنوات فى الرياض". ولها تحقيق ودراسة ( بالاشتراك) "الرحلة إلى الحج" لسوزوكى تاكيشى باللغة اليابانية.

التصحيح اللغوى: حامد الشيمى

الإشراف الفنى: محسن مصطفى



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب